R I A N E   E I S L E R

روايات

ريان إيسلر

الكأس المقدّسة وحدّ السكّين



ترجمة: فؤاد سروجي

مراجعة وتدقيق: محمود الزواوي




منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

المزيد من الثناء على كتاب «الكأس المقدسة وحد السكين»:

- لم أثن على كتاب بهذه الشدة من قبل. على كل إنسان أن يُعطى الفرصة لقراءة هذا الكتاب..

آشلي مونتاغو

- تقدم لنا إيسلر دراسة ملهمة عن التاريخ وعرضاً مفعماً بالأمل. فهي تظهر أنه إذا كنت تريد أن تكون إنساناً فإن عليك أن تؤكد على الحياة وليس على الموت، وذلك في كتاب هو من أكثر الكتب الأخّاذة لهذا العام.

صحيفة مينيابوليس ستار تريبيون

- تطبيق فذ لتفهم علم نمو الإنسان وبقائه..

ماريجا غيمبوتاس، مؤلفة كتاب «إلهات وآلهة أوروبا القديمة»

- كتاب رائع كيفما نظرت إليه.. وصورة هامة جداً للتطور الإنساني.

نيكولاس بلاتون، مؤلف كتاب «كريت» والمدير السابق لمتحف الأكروبوليس

- رحلة جريئة في الوجود الإنساني من قطب إلى قطب...

تشارلز تيللي، أستاذ التاريخ، كلية البحوث الاجتماعية الجديدة

- يلقي ضوءاً جديداً على جميع المشاكل الرئيسية التي تواجهنا اليوم، ويقدم وضوحاً جديداً لمسألة العلاقة بين الرجل والمرأة بأكملها، إنه إسهام رئيسي.

جين بيكر ميللر، مؤلفة كتاب «نحو علم نفس جديد للمرأة»

- يظهر لنا الكتاب كيف يمكن لنظامنا السياسي والاقتصادي الوصول إلى توازن جديد.

هيزل هندرسون، مؤلفة كتاب «إيجاد مستقبلات بديلة»

- اختراق رئيسي.

باربرا والكر، مؤلفة كتاب «موسوعة المرأة من الأساطير والأسرار»

- يفتح الكتاب نافذة على مشهد جديد، ومنظور جديد نستطيع من خلاله رؤية وفهم الوضع الإنساني.. كتاب يمنحك القدرة على الوصول إلى أمور كانت تبدو في السابق بعيدة الاحتمال.

سوجورنر

- كتاب في غاية الأهمية.

ميرلين ستون، مؤلفة كتاب «عندما كان الله امرأة» ، وكتاب «مرايا قديمة للأنوثة»

- عمل يحمل بذور تطور في المستقبل، صمم للمناقشة والمحاورة على مدى السنين القادمة، ينبغي قراءته من قِبَل كل شخص يهتم بمصيرنا على هذه الأرض.

إيرفين لازلو مؤلف كتاب «التطور: التكوين الكبير»

- كتاب يفوق في أهميته أهمية اكتشاف طروادة أو كشف مغالق الحروف البابلية.

بروس ويلشاير، أستاذ الفلسفة، روتغرز، جامعة ولاية نيوجيرسي

- كتاب، قيمته لا يمكن أن تقاس... رائع في حقيقة رؤيته ومداه.

غلوريا أورنستاين ، أستاذة برنامج دراسات النساء والرجال في المجتمع، جامعة جنوب كاليفورنيا

- كتاب هام جداً.. يفتح الباب واسعاً أمام مسألة القيم، والهدف والواجب الكوني للفرد.

روبرت مولر، رئيس جامعة الأمم المتحدة للسلام

- أن تقرأ كتاب إيسلر هو أن تنظر إلى مشهد جديد عن الإمكانيات البشرية، التي تُشحن بالرعاية وقوى التجديد المرتبطة بالنساء.

نيو وومان

- أهم عمل صدر في عصرنا الحالي، قد تجعل من المستقبل ممكناً.

لوس انجيليس ويكلي

- تركيبة إيسلر المشوقة إسهام هام في التاريخ الاجتماعي.

ببليشرز ويكلي

- عمل مقنع وواسع الخيال.

لايبريري جورنال

- إن هذه الدراسة الواضحة والمنظمة تصلح لأن تشكل مادة رائعة للقراءة.

بوك ليست (لائحة الكتب)

- تكشف لنا عن العديد من الحقائق التاريخية الغامضة وتضع أسساً تمكننا من بناء عالم إنساني.

مجلة ذي هيومانيست

- كتاب رائع وجارف، يتفحص الماضي والحاضر وحتى المستقبل ليجيب على بعض الأسئلة المركزية في عصرنا الحالي.

سان دييغو ويكلي

- يعيد إحياء أملنا بأن الأشياء قد تتغير، وأن هناك إمكانية لنا جميعاً بأن نُخلق ونعيش في عالم من النوع الذي طالما حلمنا به.

وومان أوف باور

رواية

ريان إيسلر

الكأس المقدّسة وحدّ السكّين

ترجمة : فؤاد سروجي

مراجعة وتدقيق : محمود الزواوي





الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail : alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان ، وسط البلد ، خلف مطعم القدس
هاتف 4638688 6 00962 ، فاكس 4657445 6 00962
ص. ب : 7772 عمّان 11118
الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين ، مقابل طيران الشرق الأوسط (ممم)
بجانب البنك المركزيّ ، مكتب القاصة
مكتب بيروت
لبنان ، بيروت ، بئر حسن ، شارع السفارات
هاتف : 824203 1 00961 ، مقسم 19

◆

الكأس المقدّسة وحدّ السكّين
ريان إيسلر / الولايات المتّحدة الأمريكيّة
ترجمة : فؤاد سروجي / الأردنّ ◆ مراجعة : محمود الزواوي / الأردنّ

الطبعة العربيّة الأولى ، 2007

◆

تصميم الغلاف : **زهير أبو شايب 95297109 7 00962** ، الأردنّ

الصفّ الضوئي : **إيمان زكريّا خطّاب ، عمّان ، هاتف 079/5349156**

مهداة إلى ديفيد لوي

شريكي في الحياة والعمل

المحتويات

الرسومات

شكر وعرفان

شكّل هذا الكتاب جهداً تعاونياً بعدة طرق، معتمداً على أعمال ورؤىً لعدد لا يحصى من الرجال والنساء. وردت أسماء العديد منهم في هذه الملاحظات. كما كان هناك آخرون كُثر ممن قدّموا انتقادات واقتراحات وساعدوا على تحضير مسودة هذا الكتاب وفوق كل شيء قدموا من الدعم والتشجيع عبر السنوات العشر السابقة ما لا يُقدر بثمن.

كانت مساهمة ديفيد لوي الذي كرِّس هذا الكتاب له، هائلة لدرجة لا أستطيع معها التعبير عن امتناني. ولست أبالغ حين أقول إن هذا الكتاب لم يكن ممكناً له أن يشهد النور لولا المشاركة النشطة والكاملة التي قدّمها هذا الرجل الرائع على مدى عدة سنوات لدرجة أنه كان يضع جانباً عمله الهام كعالِم اجتماعي رائد ليمنحني من علمه وتفكيره ومهاراته التحريرية وتفهّمه بكل سخاء وصبر ونكران للذات جعلته يتفوق على حدوده الإنسانية.

ومن بين العديدات من النساء اللواتي قدمن مساعدتهن السخية لهذا الكتاب، أشعر بأني مدينة بشكل خاص لصديقتي وزميلتي آنيت إيرليخ التي أعطتني من وقتها الثمين كأستاذة لعلم النفس وكمستشارة في التحرير العلمي، لكي تقرأ مسودات مطولة لكتابي «الكأس المقدسة وحد السكين» مرات عديدة حتى استطعت تطويره في النهاية ليأتي بهذا الشكل. كانت انتقاداتها التحريرية غير المحدودة إضافة إلى دعمها الثابت لمعنوياتي ولطاقتي المتأرجحة التي كانت تفتر أحياناً، تشكل مساعدة هائلة لي. كما أنني ممتنة جداً لكارول أندرسون،

وفران هوسكن، ومارا كيلر، وربيكا مككان، وإيزولينا ريتشي والراحلة ويلما سكوت هايدي. فكل منهن قرأت معظم أو جميع مسودات الكتاب في مراحل مختلفة، وقدّمت اقتراحات هامة ودعماً سخياً ومحبة كريمة. كذلك أنا وكتابي مدينان بشدة لآشلي مونتاغو الذي وضع جانباً تكملة اثنين من كتبه من أجل مراجعة هذا الكتاب سطراً إثر سطر وملاحظة إثر ملاحظة. هذا بالإضافة إلى التعبير عن إيمان بعملي من رجل كرّس معظم حياته الطويلة والمتميزة في الإنتاج من أجل تحسين أحوال البشرية وكان لي خير مشجع وسند عظيم.

قد يأخذني الشكر إذا أردت أن أسديه بشكل يليق بجميع من أسهموا في دعم هذا الكتاب، كتاباً آخر ولكني سأذكر منهم: ابنتي أندريا ولورين آيسلر، وكيلتي إيلين ليفين، ومحرري جان جونسون إضافةً إلى محررين عديدين آخرين لدى دار النشر هاربر ورو، بمن فيهم كلايتون كارلسون، توم دورسانيو، مايك كيهو، إيفون كيلر، دوريان غوسي، وفرجينيا ريتش وجميع الذين اهتموا جيداً بهذا الكتاب في مراحل إنتاجه الأخيرة.

وسأذكر هنا بعض من الذين اطلعوا من خلال مجالات عملهم على أجزاء من هذا الكتاب خلال عملية كتابته وقدّموا إسهامات هامة لإخراجه وهم: عالما الآثار ماريجا غيمبوتاس ونيكولاس بلاتون وعالما الاجتماع جيسي بيرنارد وجون روكيل والطبيبة النفسية جين بيكر ميللر، ومؤرخا الحركة الثقافية والفنية إلينور غادون وميرلين ستون، والمتخصصة في الأدب المقارن غلوريا أورنيستاين وعالم الأحياء فيلموس كسانيي ومنظرا أنظمة الفوضى والتنظيم الذاتي إيرفين لازلو ورالف أبراهام والفيزيائي فريتجوف كابرا، وخبراء استشفاف المستقبل هازل هندرسون وروبرت جانك وعالمة اللاهوت كارول كرايست. وآخرون ممن قرأوا أجزاء من المخطوطة الأولية أو قدّموا مقترحات ومعلومات هامة، وتشجيعاً ودعماً، وأذكرهم هنا حسب الأبجدية: آندرا أكرز، ليتي بينيت، آنا بينيكوس،

جون برندل، ماري كانتلون، أولغا إيلفثيريادس، جوليا آيسلر، ماير غريف، ماري هاردي، هيلين هيلمر، آلي هيكسون، إليزابيث هولم، باربرا هونيغر، آل إيكوف، إد جارفيس، عبيدة خانم، سامسون نول، بات لالا، سنوزان مهرا، ماري ولويد مورين، هيكا بيتيلا، وكوزيت تومسون. وتستمر اللائحة ولكن الحيّز المحدود يجعل من المستحيل ذكر الجميع. ولذلك، أعتذر عن أي سهو، لأنني أرغب في أن أشكر بالاسم جميع من قدّموا على مدى سنين عديدة من البحث والكتابة تحفيزاً فكرياً ودعماً عاطفياً.

وأود أن أقدم شكري الخاص لمن ساهموا فيما بدا أنها عملية لا نهاية لها من تحضير المخطوطة وأخص بالذكر: جيني آدامز، ريان باوندز، كيدرون برايسون، كاثي كامبل، سيلفيا إيدغرين، إليزابيث دولمات، داي آنا، إليزابيث هارينغتون، شيري لونغ، جيني ماغريغور، مايك روزنبرغ، سيندي سبراغ، سوزان شافيون، إليزابيث وهبة، وجو وارلي.

مُقَدِّمَة

الكأس المقدسة وحدّ السكين

هذا الكتاب يفتح باباً، وقد تمت عملية تصميم المفتاح لفتحه من قِبَل عدد كبير من الناس وعدد كبير من الكتب، وسوف يتطلب الأمر أناساً أكثر وكتباً أكثر من أجل كشف الآفاق الواسعة التي تمتد وراءه. ولكن مجرد شق صغير في هذا الباب يكشف معلومات جديدة ومدهشة حول الماضي وحول نظرة جديدة لاحتمالات المستقبل.

بالنسبة لي، كان البحث عن هذا الباب عبارة عن عملية تنقيب استغرقت دورة حياة بكاملها. فقد شهدت منذ نعومة أظفاري أن نظرة الناس من مختلف الثقافات إلى ما يعتبرونه مسلمات تسير عليها الأمور، ليست هي نفسها في كل مكان. كما تطور لدي منذ الصغر اهتمام حميم بالوضع الإنساني. فعندما كنت صغيرة، شهدت تبعثر العالم الذي كان يبدو لي آمناً على يد الاحتلال النازي للنمسا ورأيت كيف كان رجال الجستابو يجرُّون والدي إلى المعتقل وكيف استطاعت والدتي بمعجزة أن تُطلق سراحه ومن ثم كيف هربنا أنا وأهلي لننجو بأنفسنا. وعبر هذا الهروب الذي امتد أولاً إلى كوبا وانتهى بنا في الولايات المتحدة، تمكنت من اختبار ثلاث ثقافات، لكلٍّ منها حقائقها الخاصة بها. وبدأت أيضاً بطرح العديد من الأسئلة، التي لا تعتبر بالنسبة لي ولم تكن أبداً أسئلة تجريدية.

لماذا نقتل ونضطهد بعضنا البعض؟ لماذا يمتلئ عالمنا بأعمال لا إنسانية يرتكبها الإنسان ضد الإنسان، سواء كان رجلاً أم امرأة؟ كيف يمكن للإنسان أن يتصرف بمثل هذه الوحشية ضد إنسان من جنسه؟ ما الذي يجعلنا نميل تاريخياً، نحو القسوة بدلاً من الرحمة، ونحو الحرب بدلاً من السلام، ونحو التدمير بدلاً من الإنجاز؟

من بين جميع أشكال الحياة الموجودة على هذا الكوكب، نحن فقط من يستطيع زراعة الحقول وحصد محاصيلها وكتابة الشعر وعزف الموسيقى والبحث عن الحقيقة والعدالة وتعليم الأطفال القراءة والكتابة، أو حتى الضحك والبكاء. وبسبب هذه القدرة الفريدة على تصور حقائق جديدة وإدراك هذه الحقائق عبر تقنيات أكثر تقدماً، أصبحنا في حقيقة الأمر شركاء في تطورنا، ومع ذلك فإن هذا الصنف الرائع الذي ننتمي إليه يبدو وكأنه ينزع إلى وضع نهاية ليس لتطوره فقط ولكن لتطور الحياة بمعظمها على الكرة الأرضية، مهدداً كوكبنا بكوارث بيئية أو إبادة نووية.

ومع مرور الزمن، تابعت دراستي المهنية، وأنجبت أطفالاً وأخذت أركز مزيداً من أبحاثي وكتاباتي حول المستقبل، واتسعت اهتماماتي وازدادت عمقاً. ومثل سائر الناس أصبحت مقتنعة بأننا نقترب من مفترق طرق في عملية تطورنا، إذ لم يكن الطريق الذي اخترنا السير عليه أشد خطراً مما هو عليه اليوم ولكن ما هو الطريق الذي ينبغي علينا أن نسلكه؟

يؤكد الاشتراكيون والشيوعيون أن الرأسمالية هي أساس مشاكلنا، بينما يصر الرأسماليون على أن الشيوعية والاشتراكية تسيران بنا نحو الدمار. ويجادل البعض بأن سبب مشاكلنا يعود إلى النموذج الصناعي وأن اللوم يقع على التوجه العلمي الذي اختاره عالمنا، فيما ينحي آخرون باللوم على الحركات الإنسانية أو النسوية أو العلمانية، ويضغطون باتجاه العودة إلى الأيام الخوالي السعيدة الأسهل والأبسط والأكثر تديّناً.

ومع ذلك، إذا نظرنا إلى أنفسنا، فسنجد أننا مجبرون عبر التلفزيون أو من خلال الطقوس البائسة اليومية التي نقرأ فيها الصحف على مائدة الإفطار أن نشاهد الأمم الرأسمالية والشيوعية والاشتراكية، منخرطة في سباق تسلح وفي أمور لا عقلانية أخرى تهدد كلاً من الإنسان والبيئة. وإذا نظرنا إلى ماضينا وإلى المذابح الروتينية التي ارتكبها الهون والرومان والفايكنغ والآشوريون، أو المذابح الوحشية التي اقترفها المسيحيون الصليبيون والمحاكم الكاثوليكية (محاكم التفتيش ضد الهراطقة) فسوف نجد أنه كان هناك من العنف والظلم في تلك المجتمعات الصغيرة التي عاشت ما قبل العلم والصناعة أكثر ما نجده أمامنا اليوم.

وإذا لم نجد أجوبة لهذه الأسئلة في العودة إلى الوراء إذن كيف سنسير إلى الأمام؟ لقد كتب الكثير حول العصر الجديد وحول تحول حضاري رئيسي وغير مسبوق. ولكن تحول من ماذا إلى ماذا؟ وما الذي سيتغير أو يحتمل أن يتغير على وجه الدقة بالنسبة لكل من حياتنا اليومية وتطورنا الحضاري في المستقبل؟ هل التحول من نظام يفضي بنا إلى حروب مزمنة ومظالم اجتماعية وعدم توازن بيئي، إلى نظام يقوم على السلم والعدالة الاجتماعية والتوازن البيئي، أمر يمكن تحقيقه؟ والأهم من كل هذا ما هي التغييرات التي ينبغي أن تطرأ على بنيتنا الاجتماعية لكي تجعل من هذا التحول أمراً ممكناً؟

لقد ساقني البحث عن أجوبة لهذه الأسئلة إلى إعادة فحص للماضي وللحاضر وللمستقبل، وهو فحص بُني عليه هذا الكتاب. إن كتاب «الكأس المقدسة وحدّ السكين» يذكر جزءاً من دراسة جديدة حول المجتمع الإنساني، تختلف عن معظم الدراسات السابقة من ناحية أنها تأخذ بعين الاعتبار التاريخ الإنساني برمّته (بما فيه مرحلة ما قبل التاريخ) إضافة إلى الإنسانية برمتها (بما فيها نصفاها الذكوري والأنثوي).

يقوم هذا الكتاب «الكأس المقدسة وحد السكين» بحياكة أدلة من الفن وعلم الآثار، والدين، وعلم الاجتماع والتاريخ ومجالات أخرى عديدة في البحث، بأنماط جديدة تتناسب بدقة أكبر مع أفضل المعلومات المتوفرة. الكتاب يروي قصة جديدة عن أصولنا الحضارية ويظهر أن الحرب والحرب بين الأجناس ليست حروباً مقدرة إلهياً وبيولوجياً، كما يقدم إثباتاً على إمكانية وجود مستقبل أفضل وأن هذا المستقبل متجذر بشدة في الأحداث الدرامية التي جرت في الماضي والتي ما زالت تطاردنا إلى اليوم.

الإمكانيات الإنسانية: بديلان

جميعنا يعرف تلك الأساطير التي تتحدث عن عصر سابق كان يعم فيه السلام والانسجام، ويخبرنا الكتاب المقدس عن فردوس كان يعيش فيه الرجل والمرأة في انسجام تام مع الطبيعة حولهما - قبل أن يقضي رب ذكوري بأن تكون المرأة خاضعة للرجل. ويصف الصيني تاو تي شينغ الزمن الذي كان فيه «الين» أو المبدأ الأنثوي غير محكوم بعد من المبدأ الذكوري أو «اليانغ» وهو وقت كانت فيه حكمة الأم تجد من يشرفها ويتبعها قبل كل شيء. كما كتب الشاعر اليوناني القديم «هيزيود» عن العرق الذهبي الذي كان يحرث الأرض بسلام وبساطة قبل أن يداهمه عرق أدنى بإله الحرب. ولكن على الرغم من أن العلماء يتفقون على أن هذه الأعمال مبنية في الكثير من جوانبها على أحداث جرت ما قبل التاريخ، إلا أن المراجع التي تتحدث عن زمن عاش فيه الرجال مع النساء في مشاركة تامة، ينظر إليها تقليدياً على أنها أمور ليست بأكثر من تخيلات.

عندما كان علم الآثار القديمة في بواكير نشأته، ساعدت الحفريات التي قام بها هنريك وصوفيا شلايمان على تثبيت حقيقة طروادة التي ذكرها هومر. واليوم تكشف الحفريات الأثرية المقرونة بإعادة تفسير لحفريات قديمة تُستخدم فيها الوسائل العلمية، أن قصصاً مثل قصة الطرد من جنة عدن هي قصص مأخوذة

عن حقائق قديمة، وعن ذكريات شعبية حملتها المجتمعات الزراعية الأولى التي قامت بزراعة أول البساتين على هذه الأرض. كذلك، وكما اقترح عالِم الآثار اليوناني سبيريدون ماريناتوس قبل خمسين عاماً، فإن أسطورة غرق أتلانتيس العظيمة في البحر يمكن أن تكون إعادة تجميع مغربلة للحضارة المينووية الإغريقية القديمة والتي يُعتقد بأنها انتهت مع انتهاء حضارة كريت والجزر المحيطة بها نتيجة الزلازل وأمواج المد العاتية[2].

وتماماً كما حصل في عهد كولومبوس عندما أسهم الاكتشاف الذي دلّ على أن الأرض ليست مسطحة، في إمكانية العثور على عالم جديد مدهش، كان موجوداً هناك طيلة الوقت، كذلك فتحت هذه الاكتشافات الأثرية التي دعاها عالِم الآثار البريطاني جيمس ميلارت بثورة أثرية حقيقية، العالم المدهش الذي كان ماضينا يخبئه[3]. فقد كشفت عن وجود حقبة زمنية طويلة من السلام والازدهار كان فيها تطورنا الاجتماعي والتقني والثقافي يصعد نحو الأعلى. حقبة امتدت لآلاف السنين في الماضي، وظلت فيها التقنيات الأساسية التي بُنيت عليها الحضارة تتطور داخل مجتمعات لا يهيمن عليها الذكور، ولا العنف ولا البنيان الهرمي.

ولعل ما يدل على حقيقة وجود مجتمعات قديمة انتظمت بطريقة تختلف تماماً عن مجتمعاتنا، هو ما بين أيدينا اليوم من صور يتعذر التيقن منها لآلهة صُوِّرت على شكل أنثوي في الفنون والأساطير القديمة وحتى في الكتابات التاريخية. ومن المؤكد أن فكرة الكون القائمة على أساس أنه أم معطاءة، ما زالت تحيا بين ظهرانينا إلى اليوم رغم ما طرأ عليها من تعديل. ففي الصين، ما زالت الآلهتان الأنثويتان تسو وكوان يين تُعبدان على نطاق واسع حتى اليوم ويُنظر إليهما على أنهما آلهتان حنونتان وخيّرتان. وفي الحقيقة أن الخبير في علم الإنسان ب. س. سانغرين ملاحظات ذكر أن من الواضح أن كوان يين هي أكثر الآلهة الصينية شعبية[4]. وعلى الوتيرة نفسها يمكننا أن نلمس التبجيل

الواسع الذي تلقاه السيدة مريم والدة الإله. وعلى الرغم من أن اللاهوت الكاثوليكي قد أنزلها إلى مرتبة غير ألوهية إلا أن ألوهيتها كامنة في تسميتها بوالدة الإله وفي صلوات الملايين الذين يسعون يومياً إلى نيل رحمتها وطلب مواساتها. كذلك فإن قصة ميلاد المسيح وموته وانبعاثه بعد الموت تحمل شبهاً لافتاً للنظر لتلك الديانات الواردة في الأساطير القديمة والتي كانت تدور حول أم إلهية وابنها، كما هو الحال في عبادة ديميتر وابنتها كوري.

وهناك بالطبع معنى بارز في أن التصورات الأولى للقوة الإلهية في أشكالها الإنسانية كانت أنثوية بدلاً من أن تكون ذكورية. فعندما بدأ أجدادنا الأوائل بطرح الأسئلة الأزلية مثل من أين جئنا قبل أن نولد؟ وأين نذهب بعد أن نموت؟ لابد أنهم لاحظوا أن الحياة تنبثق من جسد المرأة. لذلك كان من الطبيعي لهم أن يتصوروا الكون على شكل أم معطاءة تنبثق من رحمها الحياة كلها ، وتعود إليها بعد الموت لتولد من جديد تماماً مثل دورة النبات في الزراعة. كذلك الأمر، فإن هناك معنى لاستنتاجاتنا بأن تلك المجتمعات التي كانت تتحمل مثل هذا التصور عن القوى المتحكمة في الكون، كانت تملك بنية اجتماعية تختلف تماماً عن المجتمعات التي تعبد أباً إلهياً يطلق الصواعق أو يحمل السيف. ومن المنطق أيضاً أنه لم يكن يُنظر إلى المرأة في المجتمعات التي تتصور القوى المتحكمة في الكون على شكل أنثوي، بأنها خاضعة متذللة، بل إن تلك الصفات الأنثوية كالحنان والرأفة واللاعنف كانت صفات تعتبر سامية وقيِّمة في تلك المجتمعات. ولكن ما لا يقبله المنطق هنا هو الاستنتاج بأن المجتمعات التي لم يهيمن فيها الرجال على النساء كانت مجتمعات تهيمن فيها النساء على الرجال.

ومع ذلك، عندما ظهر أول دليل في القرن التاسع عشر على وجود تلك المجتمعات، كان الاستنتاج بأن هذه المجتمعات كانت مجتمعات تتبع نظام الأم ثم وعندما بدا أن هذا الدليل لا يدعم مثل هذا الاستنتاج، أصبح من المألوف أن

تجد من يجادل بأن المجتمعات الإنسانية كانت دائماً وستبقى خاضعة لهيمنة الرجل. إلا أننا، إذا حررنا أنفسنا من نماذج الحقائق المهيمنة، فسيبدو واضحاً لنا أن هناك بديلاً منطقياً آخر وأن هناك مجتمعات لا يتساوى فيها الاختلاف بالضرورة مع الدونية أو مع الهيمنة والتفوق[5].

تعرض نظرية التحول الحضاري أن الاتجاه الأصلي في التيار الرئيسي لتطورنا الحضاري كان نحو الشراكة ولكن، نتيجة مرور فترة من الفوضى والتمزق الحضاري الشامل، حدثت نقلة اجتماعية أساسية. ولعل توفر معلومات أكثر حول المجتمعات الغربية التي كانت ترتكز على موضوع العرقية في العلوم الاجتماعية الغربية جعل من الممكن توثيق هذه النقلة بشكل أكثر تفصيلاً من خلال تحليل التطور الحضاري الغربي. إلا أنه تبقى هناك مؤشرات أيضاً بأن هذا التحول في الاتجاه من نموذج الشراكة إلى نموذج الهيمنة وجد ما يوازيه بشكل تقريبي في أجزاء أخرى من العالم[6].

عنوان الكتاب، الكأس المقدسة وحدّ السكين مشتق من التحول المزلزل الذي حدث عند هذه النقطة في الحضارة الغربية ما قبل التاريخ أي عندما تغير اتجاه التطور الحضاري. عند هذا التفرع المحوري، تم اعتراض التطور الحضاري للمجتمعات التي كانت تعبد القوى الكونية التي أوجدت الحياة وحفظتها على وجه الأرض والتي ما زال يرمز إليها في وقتنا هذا بالكأس المقدسة. فقد ظهر في أفق ما قبل التاريخ غزاة جاؤوا من أطراف الأرض وأدخلوا معهم شكلاً مختلفاً جداً من النظام الاجتماعي. وكما تذكر عالِمة الآثار في جامعة كاليفورنيا ماريجا غيمبوتاس فقد كان هؤلاء قوماً يعبدون القوة المميتة لحد السكين[7] وهي قوة تأخذ الحياة ولا تعطيها وتعمل في نهاية الأمر على إيجاد الهيمنة وفرضها على العالم.

المفترق التطوري

نقف اليوم عند نقطة تفرع أخرى يمكن أن تكون حاسمة. ففي الوقت الذي تقوم فيه هذه القوة التي تحمل الموت في حد السكين بالتوسع مليون مرة في نشر الرؤوس النووية الحربية مهددة الحضارة الإنسانية بالفناء، نجد أن المكتشفات الجديدة حول التاريخ القديم والمعاصر والتي يرد ذكرها في كتاب الكأس المقدسة وحد السكين لا تزودنا بفصل جديد من الماضي فحسب بل الأهم من كل هذا أنها تحمل معها معرفة جديدة حول الحاضر وحول احتمالات المستقبل.

منذ آلاف السنين والرجال يخوضون الحروب حتى أصبح حد السكين رمزاً ذكورياً. ولكن هذا لا يعني حتمية كون الرجال عنيفين ونزاعين للحروب[8]. هناك الكثير من رجال السلام والعمل السلمي يرد ذكرهم في التسجيلات التاريخية كما أن مجتمعات ما قبل التاريخ ضمت العديد من الرجال والنساء الذين سادت بينهم حضارة العطاء والرعاية الممثلة بالكأس المقدسة. فأساس المشكلة ليس الرجال كجنس بشري بل إن أساسها يكمن في النظام الاجتماعي الذي تمثله قدرة حد السكين، حيث يتم تلقين الرجال والنساء بأن يساووا بين الذكورية الحقيقية وبين العنف والهيمنة وبأن ينظروا إلى الرجال الذين لا يتبعون هذا المثال على أنهم ناعمون جداً ومخنثون.

يصعب الاعتقاد لدى معظم الناس بإمكانية وجود طريقة أخرى للنظام الاجتماعي البشري، وإلى حد أقل يصعب الاعتقاد أيضاً بأن مستقبلنا قد يتوقف على أمر مرتبط بالنساء أو بالنسوية. وأحد أسباب هذا الاعتقاد يعود إلى أن أي شيء مرتبط بالنساء في المجتمعات التي تهيمن عليها الذكورية، يعتبر ثانوياً أو موضوعاً نسائياً لا تتم معالجته إلا بعد الانتهاء من حل المشاكل الأكثر أهمية.

وهناك سبب آخر يكمن في عدم تملّكنا للمعلومات الضرورية. فعلى الرغم من أن الإنسانية تتكون بشكل واضح من النصفين (الرجل والمرأة) إلا أن معظم الدراسات تُظهر أن اللاعب الوحيد في أغلب الأحيان كان هو الرجل.

وكنتيجة لما كان يعتبر حرفياً «دراسة الرجل» ، عمل معظم علماء الاجتماع ضمن هذه المعلومات المغلوطة وغير الكاملة التي لو وجدت سياقاً آخر لتمّ إدراك مدى عمق تصدّعها. وحتى يومنا هذا، ما زالت المعلومات عن النساء توضع جانباً ضمن مجال مغلق ومحدد بالدراسات النسائية. إضافة إلى ذلك، ركّز معظم الباحثين في الشؤون النسائية على مضامين الدراسات النسائية بأنها دراسات عن المرأة من أجل المرأة، وهذا الأمر يمكن تفهمه بسبب أهميته المباشرة في حياة النساء، وهو أمر تعرض للتجاهل لزمن طويل.

هذا الكتاب يختلف من ناحية تركيزه على مضامين تتعلق بكيفية تنظيم العلاقات بين نصفي البشرية من أجل كلية النظام الاجتماعي. من الواضح أن طريقة تركيب هذه العلاقات تحمل مضامين حاسمة في الحياة الشخصية لكل من الرجال والنساء وفي أدوارنا اليومية وخياراتنا الحياتية. ولكن ما يوازي ذلك في الأهمية، رغم إهماله بشكل عام، هو شيء سيصبح جلياً حالما يتم توضيحه. وهذا الشيء هو أن الطريقة التي نبني فيها أكثر العلاقات الإنسانية أساسية، والتي لا يمكن لجنسنا البشري أن يستمر بدونها، تحمل تأثيراً عميقاً على كل إنسان في مؤسساتنا وعلى قيمنا وعلى الاتجاه الذي يسير به تطورنا الحضاري سواء كان اتجاهاً سلمياً أو حربياً، وهو أمراً ستُظهره صفحات الكتاب التي ستلي.

إذا توقفنا وفكرنا بالأمر، نجد أن هناك طريقتين أساسيتين فقط في بناء العلاقات بين النصفين الذكري والأنثوي في البشرية. فجميع المجتمعات تقوم على نمط يسير إما على نموذج المهيمن الذي تبنى فيه الهرميات البشرية، إما على القوة أو على التهديد بالقوة أو على نموذج المشاركة مع وجود تنوعات فيما بين

النموذجين. كذلك الأمر إذا أعدنا دراسة المجتمع البشري من منظور يأخذ في حسابه كلاً من النساء والرجال، فإن بإمكاننا أن نرى أيضاً وجود أنماط أو أشكال تنظيمية تميز التنظيم الاجتماعي القائم، إما على الهيمنة أو على المشاركة.

على سبيل المثال، إذا نظرنا من منظور تقليدي فسنجد أن ألمانيا الهتلرية وإيران الخمينية واليابان في عهد الساموراي وحضارة الأزتك في أمريكا الوسطى، هي مجتمعات مختلفة جذرياً، إذ تختلف من ناحية العرق والأصول الإثنية والتطور التقني والموقع الجغرافي ولكن إذا نظرنا إلى هذه المجتمعات من المنظور الجديد لنظرية التحول الحضاري التي تحدد الشكل الاجتماعي المميز للمجتمعات المهيمن عليها بشدة من قِبَل الذكور، فإننا نرى تشابهات لافتة للنظر فيما بينها. فجميع هذه المجتمعات التي تفصل بينها مسافات تاريخية وجغرافية متباعدة، ليست مجتمعات خاضعة لهيمنة الذكور فحسب بل إنها تملك بنية اجتماعية هرمية وتسلطية بشكل عام تترافق مع درجة عالية من العنف وخاصة النزعة الحربية[9].

في المقابل، يمكننا أن نجد تشابهات مؤكدة بين مجتمعات تختلف عن بعضها كثيراً ولكنها أكثر مساواة بين الجنسين. هذه المجتمعات القائمة على نموذج الشراكة تتميز في ميلها ليس نحو السلم فحسب بل نحو شكل أقل هرمية وتسلطاً. ويظهر هذا جلياً في المعلومات التي تقدمها لنا أبحاث علم الإنسان المعاصرة (مثل بامبوتي وكونغ) حول التوجهات في المجتمعات العصرية الأكثر تساوياً بين الجنسين (مثل الدول الاسكندنافية كالسويد) والأبحاث التاريخية وأبحاث ما قبل التاريخ والتي سيرد تفصيلها في الصفحات اللاحقة[10].

وعبر استخدام نموذجي الهيمنة والشراكة في النظم الاجتماعية من أجل تحليل كل من حاضرنا واحتمالات مستقبلنا، يمكننا أن نبدأ بتجاوز الاستقطابات التقليدية بين اليسار واليمين وبين الرأسمالية والشيوعية، وبين الدين والعلمانية

وحتى بين الذكورية والنسوية. والصورة الأكبر التي تنبثق هنا تشير إلى أن جميع الحركات المعاصرة والحركات التي تلت الحقبة التنويرية والتي عملت من أجل العدالة الاجتماعية سواء كانت دينية أو علمانية، إضافة إلى الحركات النسائية والسلمية والبيئية الأكثر حداثة، هي جزء من حركة دفع أساسية تعمل نحو التحول من نظام الهيمنة إلى نظام المشاركة. وما وراء ذلك، يمكننا في هذا الزمن غير المسبوق من القوة التقنية الهائلة أن ننظر إلى تلك الحركات على أنها جزء من الدفع التطوري الذي يقوم به جنسنا البشري من أجل البقاء على وجه الأرض.

وإذا نظرنا إلى الامتداد الكلي لتطورنا الحضاري من المنظور الذي تحمله نظرية التحول الحضاري، فإننا نرى أن جذور الأزمة الحالية التي يعيشها عالمنا تعود إلى النقلة الجوهرية التي حدثت ما قبل التاريخ والتي جلبت معها تغيرات هائلة، ليس في النظام الاجتماعي فحسب بل في التقنية أيضاً. كانت هذه تشكل النقلة من التقنيات التي تغني الحياة وتحافظ عليها إلى التقنيات الممثلة بحد السكين والتي صممت من أجل التدمير والهيمنة، وشكلت التركيز التقني عبر معظم التاريخ المدوّن. وهذا التركيز التقني نفسه، وليست التقنية ككل هو ما يهدد اليوم الحياة على الأرض[11].

لابد أن نجد دائماً من يجادل بأنه وبسبب هذه النقلة التي حدثت ما قبل التاريخ من نموذج اجتماعي تشاركي إلى نموذج مهيمن، فإن المجتمعات استطاعت أن تتكيف أو أن تصبح تكيفية، ولكن هذه المناقشة حول التكيفية بسبب حدوث تطور ما لا تصمد أمام الحقيقة الساطعة التي تقدمها أدلة فناء الديناصورات. وعلى أي حال، وضمن نصوص التطور، فإن المدى الذي مرّ به تطور الحضارة الإنسانية يعتبر قصيراً جداً لكي يحتمل الحكم عليه. والنقطة الحقيقية تشير على ما يبدو إلى أن أمام هذه المعطيات الحالية التي يقدمها التطور التقني الهائل في عصرنا هذا، فإن نموذج الهيمنة في النظام الاجتماعي لا يتكيف جيداً.

ولأن هذا النموذج المهيمن يظهر الآن وكأنه قد وصل إلى حدوده المنطقية، فقد أخذ العديد من الرجال والنساء ينبذون هذه المبادئ التي طال تواجدها في التنظيم الاجتماعي، بما فيها تلك القوالب التي تحدد الأدوار الجنسية. بالنسبة لآخرين عديدين، تشكل هذه التغييرات إشارات على انهيار الأنظمة وعلى تصدعات فوضوية لابد من تهدئتها، ولكن التسارع الكبير الذي أخذ يشهده هذا العالم في عملية التغير، أعطى القدرة للمزيد من الناس وفي أنحاء واسعة من العالم لكي يلمسوا أن هناك بدائل أخرى.

كتاب «الكأس المقدسة وحدّ السكين» يستكشف هذه البدائل، ولكن بينما تُبيِّن المواد التي ستظهر في الصفحات اللاحقة، وجود إمكانية لمستقبل أفضل، فإن هذا لا يعني بأي شكل من الأشكال أننا وكي يرغب البعض في التصديق، ستتمكن حتمياً من تجاوز التهديد بحدوث محرقة نووية أو بيئية نحو عصر جديد أو عصر أفضل. ففي التحليل النهائي، يبقى هذا الأمر منوطاً بنا.

الفوضى أو التحول

يطلق علماء الاجتماع على الدراسة التي يستند إليها كتاب «الكأس المقدسة وحد السكين» اسم «البحث المتحرك»[12]. وهذا يعني أنها ليست مجرد دراسة حول ما كان وما هو الآن أو حتى حول ما يمكن أن يكون، بل هي أيضاً دراسة تستكشف كيفية استطاعتنا التدخل بشكل أكثر فعالية في تطورنا الحضاري. ما تبقى من هذه المقدمة يتوجه بشكل أساسي إلى القارئ الذي يهتم بالتعلم أكثر عن هذه الدراسة. أما القراء الآخرون فقد يرغبون بتجاوز هذه الصفحات والتوجه مباشرة نحو الفصل الأول أو ربما العودة إليها فيما بعد.

حتى الآن، ظلت معظم الدراسات التي طالت التطور الحضاري تركز بشكل رئيسي على التقدم الحاصل من مستويات أبسط في التطور التقني

والاجتماعي إلى مستويات أكثر تعقيداً[13]. وقد انصب الاهتمام بشكل خاص على التحولات التقنية الرئيسية مثل اكتشاف الزراعة، والثورة الصناعية والتحرك الأكثر حداثة نحو عصر ما بعد الصناعة، أو العصر النووي والإلكتروني[14]. مثل هذا النوع من التحرك يحمل بوضوح مضامين وتأثيرات اجتماعية واقتصادية في غاية الأهمية ولكنه رغم ذلك لا يروي لنا إلا جزءاً من القصة الإنسانية.

أما الجزء الآخر من القصة فيتعلق بنوع آخر من التحركات، مثل النقلات الاجتماعية نحو النموذج التشاركي أو المهيمن في التنظيم الاجتماعي. وكما ذكرنا للتو، فإن الموضوع المركزي في نظرية التحول الحضاري هو أن الاتجاه الذي يتبعه التطور الحضاري في كلٍّ من المجتمعات التشاركية والمهيمنة هو اتجاه مختلف تماماً.

وهذه النظرية تنبثق من تمايز هام لم يكن يجري عموماً وهو أن كلمة التطور تحمل معنىً مزدوجاً. ففي لهجة العلم تصف هذه الكلمة التاريخ البيولوجي، وبتوسع أكثر التاريخ الحضاري للكائنات الحية، ولكن كلمة التطور أيضاً تعتبر نصاً معيارياً وتستخدم بالتأكيد ككلمة مرادفة للتقدم، أي للتحرك من مستويات دنيا إلى مستويات عليا.

في الحقيقة الواقعية، لم يكن تطورنا التقني تطوراً يسير على خط مستقيم من مستويات أدنى إلى مستويات أعلى، ولكنه كان عملية تخللتها ارتدادات هائلة مثل عصر الظلام الإغريقي والعصور الوسطى[15]. ومع ذلك، يظهر لنا دفع أساسي نحو تعقيد تقني واجتماعي أكبر. وعلى وجه مشابه، يبدو لنا أيضاً وجود دفع باتجاه أهداف وغايات أكثر سمواً مثل الحقيقة، والجمال والعدالة. ولكن وكما يظهر جلياً من الوحشية والقمع والحروب التي تميز التاريخ المدوّن، فإن الحركة باتجاه هذه الأهداف بالكاد كانت تسير على خط مستقيم، ولعل المعلومات التي توثقها لنا هذه الدراسة تظهر وجود ارتدادات هائلة على هذا الطريق.

وإذا أردت تجميع هذه المعلومات التي كنت أدرسها حول التحركات الاجتماعية وإخضاعها للاختيار والفحص، فستجد أنني جمعت هنا مكتشفات ونظريات من عدة حقول في العلوم الاجتماعية والطبيعية. وقد كان هناك موردان ساعداني كثيراً بشكل خاص هما: العلوم النسوية الجديدة، والاكتشافات العلمية الحديثة حول تحركات التغيير.

إن إعادة تقييم كيفية تشكل الأنظمة ومحافظتها على نفسها، وكيفية التغيير، آخذة بالانتشار سريعاً عبر العديد من مجالات العلم وعبر أعمال مثل تلك التي قام بها إيليا بريغوغين الحائز على جائزة نوبل وإيزابيل ستنجرز في الكيمياء والأنظمة العامة، وكذلك الأعمال التي قام بها روبرت شو ومارشال فيجنبوم في علم الفيزياء، وهمبرتو ماتورانا وفرانسسكو فاريلا في علم الأحياء[16]. هذه النظريات والمعلومات النامية تقترن أحياناً بالفيزياء الحديثة وقد انتشرت شعبيتها في كتب مثل كتابي «تاو للفيزياء» و«نقطة التحول» للمؤلف فريجتون كابرا [17]. كما تسمى أحياناً بنظرية «الفوضى» لأنها ولأول مرة في تاريخ العلوم تركز على التغيير الأساسي والمفاجئ أي التغيير الذي أخذ يتزايد حدوثه في عالمنا.

هناك اهتمام خاص بالأعمال الجديدة التي تبحث في التطور والتغيير والتي يقوم بها علماء الأحياء وعلماء العصور الحجرية القديمة مثل فيلموس كسانيي، ونايلز إيلدريدج وستيفن جاي غولد، إضافة إلى أساتذة مثل إيريك جانتش وإيرفين لازلو ودافيد لوي حول مضامين نظرية الثورة في التطور الحضاري والعلوم الاجتماعية[18]. ولكن هذا لا يعني بأي شكل من الأشكال أن التطور الحضاري الإنساني هو نفسه التطور البيولوجي. إلا أنه رغم وجود اختلافات هامة بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية، ورغم أنه ينبغي على دراسات الأنظمة الاجتماعية تجنب الانحدار نحو الميكانيكية في الدراسة إلا أن هناك أوجه شبه هامة تتعلق بكل من تغير الأنظمة وتنظيمها الذاتي.

جميع الأنظمة تحافظ على نفسها من خلال التفاعل التعزيزي المتبادل بين أجزائها الأساسية. ووفقاً لذلك، توجد نواحٍ متشابهة لافتة للنظر بين نظرية التحول الحضاري التي نعرضها في هذا الكتاب وبين نظرية الفوضى التي أخذ علماء الطبيعة والأنظمة في تطويرها، خاصة بالنسبة لما حدثونا عما حدث وعما قد يحدث مرة أخرى عند التفرعات الأساسية للأنظمة أو عند نقاط تفرقها في حالة حصول تغير سريع لنظام شامل[19].

على سبيل المثال، يشير إيلدريدج وغولد إلى أن التطور، وبدلاً من السير بطريق تدريجي تصاعدي نحو مراحل أعلى، فإنه يدخل امتدادات طويلة من التوازن، أو من غياب تغيير رئيسي تتقاطعه عدة تفرعات في التطور أو نقاط مفصلية عندما يظهر صنف جديد على حافة بيئة الأصناف الموجودة[20]. وعلى الرغم من وجود اختلافات واضحة بين تفرع الأصناف الجديدة وبين النقلة الاجتماعية من نوع إلى آخر كما سنرى لاحقاً، إلا أن هناك تشابهاً مذهلاً في نموذج إيلدريدج وغولد حول المعازل الهامشية وبين مفاهيم علماء التطور ونظرية الفوضى بالنسبة لما يحدث وما قد يحدث الآن مرة أخرى في تطورنا الحضاري.

إن الإسهام الذي قدمته العلوم النسوية في تقديم دراسة شمولية حول التطور الحضاري الذي يغلف الامتداد الشامل للتاريخ الإنساني ولنصفي البشرية من الرجال والنساء، يبدو الآن أكثر وضوحاً. فهذا الإسهام يقدم المعلومات التي لا توجد في المصادر التقليدية. وفي الحقيقة أنه لم يكن بإمكان هذا الكتاب إظهار إعادة تقييم الماضي والحاضر والمستقبل لولا أعمال عالمات مثل سيمون دو بوفوار وجيسي برنار، وإستر بوزراب، وجيتا سين، وماري ديلي، وديل سبندر، وفلورنس هاو، ونانسي شودورو، وإدريان ريتش، وكيت ميلليت، وباربرا غيلبي، وأليس شليغل، وأنيت كوهن، وشارلوت بنش، وكارول كرايست، وجوديث بلاسكو، وكاثرين سيمبسون، وروزماري ريدفورد

روثر، وهازل هندرسون، وكاثرين ماكينون، وويلما سكوت هايدي، وجين بيكر ميللر، وكارول غيلليغان، وهن قلة بين العديد من الأسماء الأخرى[21]. فمنذ عهد آفرا بيهن في القرن السابع عشر وقبل ذلك التاريخ[22] ودخولاً إلى العقدين السابقين، أخذت المعلومات والمنظورات المنبثقة عن العالمات النسويات، مثلها مثل نظرية الفوضى تفتح آفاقاً جديدة للعمل.

ورغم تباعد هذين القطبين في الأصول، مع مجيء الأول من عالم ذكوري تقليدي والآخر من تجربة جوهرية نسوية مختلفة، إلا أن النظرية النسوية ونظرية الفوضى تحملان العديد من القواسم المشتركة فكلتاهما تعتبران حتى الآن ضمن التيار الرئيسي للعلوم نشاطين غامضين ما زالا على حافة المساعي المقدسة. ومن خلال تركيزهما على التحول تشترك هاتان النظريتان في تنامي الوعي بأن النظام الحالي آخذ في الانهيار وبأن علينا أن نجد طرقاً لاختراق هذا الانهيار باتجاه مستقبل من نوع آخر.

الفصول التي تلي هذه المقدمة، تعمد إلى استكشاف جذور هذا المستقبل والطرق المؤدية إليه. وتروي لنا قصة بدأت منذ آلاف السنين قبل أن يبدأ تاريخنا المكتوب. قصة حول كيفية انحراف الحضارة الغربية التي اعتمدت سابقاً على المشاركة نحو تحويلة دموية مهيمنة امتدت إلى خمسة آلاف سنة. وحول مشاكلنا العالمية المتفاقمة التي جاءت كنتيجة منطقية لنموذج الهيمنة في التنظيم الاجتماعي ضمن مستوى تطورنا التقني بحيث أصبح من المتعذر حلها ضمن سياق هذا النموذج. كذلك تظهر لنا أن هناك طريقاً آخر، ما زال أمر اختياره منوطاً بنا كشركاء في صنع تطورنا. وهذا هو بديل الاختراق الذي يحل محل الانهيار، وهو يعطي لنا فكرة كيف يمكننا التحرك من خلال اتباع طرق جديدة في بناء سياستنا واقتصاداتنا وعلومنا وروحانيتنا، نحو عهد جديد من التشاركية العالمية.

الفصل 1

رحلة في العالم المفقود:

بدايات الحضارة

تحكي لنا صورة امرأة وُجدت محفوظة داخل حرم كهف لأكثر من عشرين ألف سنة قصصاً حول أفكار أسلافنا الأوائل في الغرب. والصورة هي لامرأة صغيرة، منقوشة في الحجر وتعتبر واحدة من مجموعة تماثيل تسمى تماثيل «فينوس» وهي تماثيل تمثل أوروبا ما قبل التاريخ وقد عُثر عليها في أنحاء عديدة من أوروبا.

وهذه التماثيل، التي كشفت عنها حفريات أجريت في مساحة جغرافية واسعة تمتد من البلقان في شرقي أوروبا إلى بحيرة بايكال في سيبيريا وثم على طول الطريق غرباً إلى ويليندورف قرب فيينا وغروتي دي بابي في فرنسا، توصف من قِبَل بعض العلماء بأنها تعابير عن الإثارة الجنسية لدى الذكور، أي ما يشابه نسخة قديمة عن مجلة بلاي بوي اليوم. أما بالنسبة لعلماء آخرين فهي تمثل فقط أدوات استخدمت في مناسك بدائية وبذيئة للخصوبة.

ولكن ما هو المعنى الحقيقي الذي نلمسه من هذه المنحوتات القديمة؟ هل يمكن وضعها جانباً كونها منتوجات لمخيلة ذكورية لا يمكن تجديدها؟[1] هل كلمة فينوس هي الكلمة المناسبة لوصف هذه التماثيل ذات الأرداف العريضة أو الحبلى في بعض الأحيان أو المنقوشة بأسلوب راقٍ دون أن يكون هناك

ملامح لوجوهها في أغلب الأحيان؟ أو هل أن هذه المنحوتات التي ظهرت ما قبل التاريخ تحمل معها لنا شيئاً هاماً حول أنفسنا، وحول كيف كان الرجال والنساء في العصر القديم يحترمون ويوقرون القوى التي تهب الحياة في هذا العالم؟

العصر الحجري القديم

تعتبر هذه التماثيل النسائية، إضافةً إلى رسومات الجدران، والكهوف المقدسة ومواقع الدفن القديمة تسجيلات نفسية هامة لشعوب العصر الحجري الغابر، إذ إنها تشهد على الخوف الذي كان أجدادنا الأوائل يحملونه أمام كل من أسرار الحياة وغموض الموت. كما أنها تشير إلى أنه ومنذ بواكير التاريخ البشري، وجدت إرادة الحياة لدى الإنسان تعبيرها واطمئنانها عبر مجموعة من الطقوس والأساطير التي بدت وكأنها قد ارتبطت بمعتقدات أوسع انتشاراً تقول بأن الموتى يمكنهم أن يعودوا إلى الحياة عبر الولادة من جديد.

حول الكهف المقدس الكبير الذي اكتُشف في منطقة لي تروافرير في نيو أو في فونت دي غوم أو في لاسكو، يكتب المؤرخ الديني «إي. أو. جيمس»: لابد أن الطقوس كانت تشمل محاولة منظمة من طرف المجتمع... أي أن الوسائل المتبعة في السيطرة على قوى الطبيعة والأعمال الخارقة للطبيعة كانت موجهة للصالح العام. وكان التقليد المقدس، سواء كان مرتبطاً بتأمين الغذاء، أو أسرار الولادة والتكاثر والموت، ينشأ ويعمل كما يبدو استجابة لإرادة الحياة هنا الآن وفيما بعد[2].

وقد وجد هذا التقليد المقدس تعبيره في الفن المدهش الذي ظهر في العصر الحجري الغابر، وكانت مسألة ربط القوى التي تحكم الحياة والموت بالمرأة جزءاً أساسياً في هذا التقليد المقدس.

ويمكننا أن نلاحظ هذا الربط النسوي في قوة إعطاء الحياة خلال عمليات الدفن في العصر الحجري. على سبيل المثال: توجد حول وفوق الجثث التي عُثر

عليها في ملجأ صخري معروف باسم كرومانيون في منقطة «ليه إيزي» في فرنسا، حيث اكتُشفت عام 1868 أول بقايا عظمية لأسلافنا من العصر الحجري الأول، أصداف مرتبة ترتيباً جيداً. وهذه الأصداف التي أخذت شكل بوابات يدخل منها الأطفال إلى العالم، كما يسميها جيمس، تبدو وكأنها كانت مرتبطة بنوع من العبادة المبكرة لإلهة أنثى. ويذكر جيمس أن الصدفة كانت تمثل شيئاً يهب الحياة، كذلك الأمر مع المغرة الحمراء التي اعتُبرت في التقاليد اللاحقة بأنها وكيل يهب الحياة على الأرض أو دم الدورة الشهرية للمرأة[3].

وقد بدا أن التركيز الرئيسي هو على الربط بين المرأة وبين منح الحياة واستمراريتها، ولكن بدا أيضاً في الوقت نفسه أن موضوع الموت أو بشكل خاص بعث الحياة، كان موضوعاً دينياً مركزياً. كذلك بدا أن الطقوس المتعلقة بوضع أصداف تشبه في شكلها فتحة المهبل لدى المرأة حول وفوق أجساد الموتى، إضافة إلى طلي هذه الأصداف بصبغة المغرة الحمراء التي ترمز إلى قوة الدم في الحياة، هي جزء من مناسك جنائزية تهدف إلى إعادة الموت إلى الحياة عبر الولادة مرة أخرى. والأكثر خصوصية في هذا الأمر، كما يذكر جيمس، هو أن هذه الطقوس تشير إلى وجود طقوس جنائزية في طبيعة هذه المناسك التي تدعو إلى وهب الحياة، ترتبط بالتماثيل النسائية وبرموز أخرى متعلقة بديانات تعبد آلهة أنثوية[4].

وبالإضافة إلى هذه الدلائل الأثرية للطقوس الجنائزية في العصر الحجري هناك دليل يتعلق بطقوس بدت وكأنها تشجع الخصوبة لدى الحيوانات البرية والنباتات التي كانت تعطي الغذاء والحياة لأسلافنا الأوائل. على سبيل المثال، يوجد في صالة العرض التابعة لكهف توك دودوبيرت في منطقة آرييج بفرنسا، وهو كهف يصعب الوصول إليه، وعلى أرضية طينية ناعمة تحت الجدار رسم لثور وبقرة، وعلى هذا الرسم توجد ملامح لأقدام بشرية يعتقد العلماء أنها

كانت تدخل في رقصات طقوسية. كذلك الأمر في ملجأ كوغول الصخري في كاتالونيا، حيث عُثر على مشهد لامرأة، ربما كانت كاهنة، ترقص حول تمثال لرجل عارٍ أصغر حجماً منها فيما بدا أنه نوع من الطقوس الدينية.

هذه الكهوف المقدسة والتماثيل والمدافن والطقوس بدت وكأنها جميعها مرتبطة باعتقاد بأن المصدر الذي تنبع منه الحياة البشرية هو المصدر نفسه الذي تنبع منه حياة النبات والحيوان. وهو نفسه تلك الإلهة الأم التي تعطي الحياة للجميع والتي ما زلنا نعثر عليها في مراحل متأخرة من الحضارة الغربية القديمة. كما أنها تبين أن أسلافنا الأوائل أدركوا أننا والبيئة الطبيعية حولنا نشكل أجزاءً أساسية مترابطة للسر الكبير الذي يحكي قصة الحياة والموت، بحيث أنه يتوجب علينا معاملة الطبيعة باحترام وتقدير. وكان هذا الوعي الذي أكدت عليه فيما بعد صور الآلهات المحاطة برموز مأخوذة من الطبيعة مثل الحيوانات والماء والأشجار وما اختلط بينها، يشكل شيئاً مركزياً بالنسبة لإرثنا النفسي المفقود، وكذلك كانت هذه الرهبة والدهشة التي امتلكت قلوب أسلافنا الأوائل أمام الأعجوبة الكبرى للحالة البشرية، أي أعجوبة الولادة المتجسدة في جسم المرأة. وإذا أردنا الخروج بنتيجة أو حكم من هذه السجلات النفسية القديمة فإننا نستطيع القول بأن المرأة كانت تشكل الموضوع المركزي في الأنظمة الإيمانية لغرب ما قبل التاريخ.

ولا يشكل ما قمنا بتطويره حتى هذه النقطة رأي جميع العلماء، كما أنه ليس الرأي الذي يُدرَّس في معظم صفوف المسح التي تدرس أصول الحضارة، لأنها هنا أيضاً وكما في معظم الكتابات المنتشرة حول هذا الموضوع، ما زالت المفاهيم السابقة لأوائل العلماء الذين نظروا إلى فن العصر الحجري ضمن القالب التقليدي للإنسان البدائي، أي الصياد المقاتل أو المتعطش للدماء، تهيمن على هذه الكتابات، وهي في الحقيقة لا تعبر أبداً عن بعض أكثر التجمعات

البدائية التي اعتمدت على الصيد والتي تم اكتشافها في العصر الحديث[5]. لذلك وبناءً على ذلك التفسير للمواد المجزأة والمبعثرة المتوفرة منذ عهود العصر الحجري، تم وضع النظريات المتمحورة حول الذكور والتي تحكي عن التنظيم الاجتماعي في عهد ما قبل التاريخ. وحتى الاكتشافات الجديدة التي طرأت، تم تفسيرها من قِبَل العلماء بطريقة تدخلها في القوالب النظرية القديمة.

وقد كانت إحدى فرضيات هؤلاء العلماء، وهي فرضية بقيت إلى اليوم، أن الرجل الذي عاش ما قبل التاريخ هو فقط المسؤول عن هذا الفن، وهذه الفرضية لا تقوم على أية أدلة حقيقية بل جاءت نتيجة لمفاهيم سابقة موجودة لدى هؤلاء العلماء، وهي مفاهيم تقف في مواجهة المكتشفات مثل تلك التي ظهرت على سبيل المثال في «فيدا» المعاصرة بسريلانكا موضحة أن النساء وليس الرجال هن اللواتي قمن بالرسم على الصخر[6].

ولعل في أسس هذه المفاهيم تلك الفكرة التي وضعها جون فايفر في كتابه «ظهور الرجل» بأن الصيد هيمن على مخيلة رجل العصر الحجري وبأنه إذا كان يشبه الرجل العصري في شيء فهو في استخدامه الطقوس في مناسبات عديدة لكي يعيد شحن قواه وقدراته[7]. وهكذا ضمن هذا المفهوم المتحيز، تم تفسير رسومات الجدران في العصر الحجري على أنها مرتبطة بالصيد حتى ولو كانت تظهر رسومات لنساء يرقصن. كذلك الأمر وكما ذكرنا للتو، فقد تم تجاهل الأدلة التي اكتُشفت حول أشكال العبارة المتمحورة حول الأنثى مثل التماثيل العريضة الأرداف وتماثيل النساء الحبالى، أو تم تصنيفها على أساس أنها مواد جنسية بذيئة تدور حول فينوس المثيرة، أو صور جمالية وحشية[8].

ورغم وجود بعض الاستثناءات إلا أن نموذج التطور للرجل الصياد والمحارب قد لوّن معظم التفسيرات حول الفن في العصر الحجري. فقط في الحفريات الأخيرة التي جرت في القرن العشرين في شرقي وغربي أوروبا وفي

سيبيريا بدأت التفسيرات المتعلقة بالاكتشافات القديمة والجديدة تتغير. بعض الباحثات الجديدات كنّ من النساء اللواتي ذكرن وجود صور للأعضاء التناسلية للنساء، وأيّدن وجود تفسيرات دينية معقدة بدلاً من تفسيرات سحر الصيد في العصر الحجري الأول[9]. ومع ازدياد نسبة العلمانيين بين العلماء بدلاً من الرهبان أمثال آبي بروي الذين صبغت تفسيراتهم المتعلقة بالممارسات الدينية العديد من أبحاث القرنين التاسع عشر والعشرين حول العصر الحجري الأول، أخذ بعض الرجال الذين بحثوا في رسومات الكهوف والتماثيل القديمة وغيرها من مكتشفات العصر الحجري الأول يضعون علامات استفهام حول معتقدات كانت تلقى في السابق قبولاً لدى مؤسسة العلماء.

يتعلق أحد هذه التساؤلات المثيرة للاهتمام بأشكال النتوءات والخطوط المرسومة على جدران كهوف العصر الحجري أو المنقوشة في العظم أو في الأدوات الحجرية. بالنسبة للعديد من العلماء، بدا واضحاً أنها تمثل أسلحة مثل السهام والرماح والأنصال، ورماح الصيد، ولكن وكما يكتب أليكساندر مارشاك في كتابه «جذور الحضارة» فإن أول الأعمال التي تتحدى مباشرة مثل هذا التفسير المعياري، هو رسومات الخطوط والنقوش التي تظهر بسهولة وكأنها نباتات وأشجار وفروع وأوراق وعيدان قصب[10]. إضافة إلى ذلك فإن هذا التفسير الجديد يضع اعتباراً لما قد يكون بدلاً من ذلك غياباً واضحاً لصور نباتات موجودة بين شعوب اعتمدت بشكل كبير مثلما تعتمد الشعوب المعاصرة في غذائها على النباتات.

يتساءل بيتر أوكو وأندريه روزنفلد أيضاً حول الغياب الغريب للنباتات في كتاب «فن كهوف العصر الحجري»، كما يذكران لاحقاً وجود تنافر غريب، إذ إن جميع الأدلة تشير إلى أن نوعاً معيناً من رماح الصيد ذات الحدّين لم يظهر إلا في أواخر العهد الباليوليثي أو في العهد الجدلاني على الرغم من أن العلماء

ظلوا يعثرون على مثل هذه الرماح في نقوش تعود إلى آلاف السنين الماضية في رسومات جدران كهوف ما قبل التاريخ، ثم لماذا قام فنانو العهد الحجري بتصوير هذا العدد من حالات الصيد الفاشلة؟ لأنه إذا كانت النقوش والخطوط تمثل أسلحة في الحقيقة فإن الصور تظهرها وكأنها قد أخطأت أهدافها[11].

من أجل كشف هذا الغموض، قام مارشاك الذي لم يكن عالِم آثار ولم يكن لذلك يتبع التقاليد التي اتبعها هؤلاء العلماء، بإجراء فحص شامل للنقوش الموجودة على أداة من العظم ورد وصفها في رسومات الرماح واكتشف تحت المجهر أن أنصال تلك الأدوات التي يدعونها رماحاً كانت مقلوبة إلى الناحية الخطأ وكذلك رؤوس قصبات الرماح نفسها. بمعنى آخر، فإن تلك النقوشات التي صنِّفت تقليدياً على أنها أنصال رماح أو أدوات ذكورية لم تكن شيئاً أكثر من رسومات تمثل أشجاراً وغصوناً ونباتات[12].

وهكذا مرة إثر مرة، وتحت الفحص الدقيق، ظهرت التفسيرات التقليدية لفن العصر الحجري الأول والتي تظهر ضمن مجال الصيد البدائي، وكأنها انعكاسات لقوالب جامدة بدلاً من أن تكون تفسيرات منطقية لما يرى. وهكذا أيضاً يمكن فهم التفسيرات التي أعطيت لوجود تماثيل نسائية على أنها أدوات جنسية ذكورية بذيئة أو تعابير عن عبادات بدائية متعلقة بالخصوبة.

إلا أننا وبسبب شحة الآثار الموجودة حول العصر الحجري وطول المدة الزمنية التي تفصل بيننا وبين شعوبه، لن نكون متأكدين أبداً من المعنى الحقيقي لرسوماتهم وتماثيلهم ورموزهم. ولكن بعد التأثير الذي أوجدته الإصدارات الأولى لرسومات أهل الكهوف على لوحات ملونة رائعة، أصبحت قدرة هذا الفن الباليوليثي على الإثارة، أسطورية، فقد ظهرت بعض تفاصيل صور الحيوانات بمستوى أفضل الأعمال الفنية الحديثة وأعطت رؤية جديدة لا يستطيع إلا القليل من فناني العصر الحديث استيعابها. لذلك فإن هناك شيئاً

واحداً يمكننا التأكد منه وهو أن فن العصر الحجري الأول هو أبعد من أن يكون خربشات بسيطة لأناس بدائيين غير متطورين، بل هو فن يتحدث عن تقاليد نفسية وعقلية علينا أن نفهمها جيداً إذا أردنا أن نعرف ليس ما كان عليه البشر فحسب ولكن ماذا سيصبحون.

وكما كتب أندريه ليروي - غورهان، مدير مركز السوربون لدراسات ما قبل التاريخ، في إحدى أهم الدراسات الحديثة عن الفن في العصر الباليوليثي «من غير المرضي والسخف أن نضع جانباً الاعتقاد السائد بأن تلك الفترة هي فترة «عبادات بدائية للخصوبة» ، ولكن بإمكاننا، دون أي تجنٍ أو إكراه أن نفهم فن العصر الحجري الأول المصور برمّته على أنه تعبير عن مفاهيم تتعلق بالطبيعة وبالقوى الخارقة للطبيعة في عالم الأحياء» ، مضيفاً في ملاحظته أن شعوب العصر الحجري الأول (الباليوليثي) كانوا يعلمون وبدون شك عن انقسام عالمي الحيوان والإنسان إلى نصفين متقابلين وأن اتحاد هذين النصفين يحكم اقتصاد الكائنات الحية[13].

ويبين استنتاج ليروي - غورهان أن العصر الحجري الأول يعكس الأهمية التي علّقها أجدادنا الأوائل على ملاحظتهم بوجود جنسين من خلال تحليل آلاف الرسومات والأدوات التي عُثر عليها فيما يقارب ستين كهفاً يعود إلى ذلك العهد. وعلى الرغم من أنه يتحدث ضمن نصوص القوالب الذكورية - الأنثوية الجنسية، أي بكلمة أخرى، يتبع التقاليد الأثرية الأولية، إلا أنه يؤكد على أن الفن الباليوليثي عبَّر عن نوع من الديانات الأولية التي لعبت فيها الرموز والصور الأنثوية دوراً مركزياً. وفي هذا السياق يبدي السيد ليروي - غورهان ملاحظتين مدهشتين: أن ما يميز صور ورموز المرأة التي فسّرها على أنها أنثوية هو أنها كانت موضوعة في الموقع المركزي وسط الكهوف والغرف التي تم حفرها، أما الرموز الذكورية فقد كانت تحتل مواقع على أطراف الغرف أو كانت مرتبة حول الرموز والرسومات الأنثوية[14].

تسير مكتشفات ليروي - غورهان على خط واحد مع وجهة النظر التي اقترحتها سابقاً وهي أن الأصداف التي تشبه شكل فتحة المهبل إضافة إلى المغرة الحمراء المستخدمة في الدفن والتماثيل التي أطلق عليها اسم «فينوس» وتلك التي تحمل أشكالاً لأنصاف حيوانات وأنصاف نساء والتي رفضها الكُتّاب السابقون، على أنها أشكال وحشية، ترتبط جميعها بنوع قديم من العبادات التي لعبت فيها قوة المرأة واهبة الحياة دوراً رئيسياً. فقد جاءت جميعها كتعابير لمحاولات أجدادنا الأوائل تفهم عالمهم والإجابة على الأسئلة الإنسانية المتعلقة بـ: من أين جئنا عندما وُلدنا وأين نذهب بعد أن نموت؟ وقد أكدت هذه المعلومات ما يمكن افتراضه منطقياً بأنه مع ظهور أول بوادر الوعي للذات فيما يتعلق بالإنسان والحيوان والطبيعة، لابد أن يكون هناك وعي مرافق لهذا لغموض الرهيب، إضافة إلى أهمية عملية لحقيقة أن الحياة قد انبلجت من جسد امرأة.

يبدو من المنطقي القول بأن ثنائية الشكل أو الاختلاف في الشكل الذي يمكن رؤيته بين نصفي الإنسانية ترك أثراً عميقاً على معتقدات شعوب العصر الحجري الأول. كذلك يبدو من المنطقي أيضاً أن حقيقة ولادة الحياة لدى الإنسان والحيوان من جسد أنثى وأن جسد المرأة مثله مثل القمر والفصول يمر عبر دورات متعددة، دفعت أجدادنا الأوائل إلى رؤية قوى منح الحياة والمحافظة عليها في شكل المرأة أكثر منها في شكل الرجل.

خلاصة الأمر، وبدلاً من اعتبارها مواد عشوائية وغير مترابطة، تبدو بقايا العصر الحجري الأول سواء كانت تماثيل أنثوية أم مغرة حمراء في المدافن، أم أصدافاً تشبه في شكلها فتحة المهبل في جسد المرأة، وكأنها مظاهر لما شكل لاحقاً نوعاً من العبادة المعقدة المتمحورة حول عبادة الآلهة الأم كمنبع ومصدر لكل أشكال الحياة. وقد حافظت عبادة الإلهة هذه، كما ذكر جيمس وغيره من لعلماء، على نفسها جيداً عبر التاريخ القديم على هيئة صورة مركبة تمثلت على شكل الماغناماتر في الشرق الأدنى وفي العالمين اليوناني والروماني [15].

ويمكننا أن نلحظ هذا التواصل الديني بوضوح في آلهة مثل إيزيس ونت وماط في مصر، وفي عشتار وأستراتي وليليث في منطقة الهلال الخصيب وفي ديميتر وكوري وهيرا في اليونان، وأتارغاتيس وسيريس وسيبيل في روما. وحتى في الفترات اللاحقة وفي أرثنا اليهودي - المسيحي يمكننا ملاحظة ذلك في ملكة الجنة التي أُحرقت بساتينها في الكتاب المقدس، وفي تقاليد الكابال اليهودية التي تظهر فيها «شيخينا» وفي مريم العذراء والدة الإله في المذهب الكاثوليكي المسيحي.

مرة أخرى، يبرز السؤال التالي: لماذا لم يتم إظهار هذه الارتباطات، ولماذا تم تجاهلها طوال هذه المدة في أدبيات الأنثروبولوجيا التقليدية، طالما أنها كانت تمثل بهذا الوضوح. أحد الأسباب، كما ذكرنا سابقاً هو أنها لا تدخل ضمن النموذج المتمحور حول الذكورية وضمن التنظيم الاجتماعي المهيمن عليه من الذكور في تلك الحقبة التي سبقت التاريخ، ولكن السبب الآخر هو أنه لم يتم الكشف عن أكثر الأدلة أهمية حول هذا التقليد الديني الذي امتد آلاف السنين عبر الحقبة المدهشة التي تلت العصر الحجري الأول إلا بعد الحرب العالمية الثانية. وكانت هذه الحقبة تشكل الفترة الأطول في تطورنا الحضاري ما بين التطورات الحضارية الإنسانية الأولى التي حدثت خلال العصر الباليوليثي وما بين حضارات العصر البرونزي التي تلتها وهو العصر الذي استقر فيه أسلافنا الأوائل في مجتمعاتهم الزراعية في العصر النيوليثي (العصر الحجري الحديث).

العصر الحجري الحديث

في الوقت الذي كان فيه ليروي - غورهان يكتب عن مكتشفاته، حققت معلوماتنا حول حقبة ما قبل التاريخ تقدماً لا يُثمَّن من خلال الاكتشاف المذهل لموقعين من العصر النيوليثي والتنقيب فيهما. كان الموقعان في بلدتي كاتال هويوك وهاسيلار الواقعتين في سهل الأناضول المعروف اليوم بتركيا الحديثة.

وبالنسبة للرجل الذي قاد العمل في تلك الحفريات لصالح معهد الآثار البريطاني في أنقرة، جيمس ميللارت، فقد كان هناك تركيز خاص على ما أظهرته المعلومات الخارجة من هذين الموقعين حول استقرار واستمرار نمو المعتقد الذي ظل سائداً منذ آلاف السنين حول وجود حضارات متقدمة تعبد الآلهات.

وقد كتب ميللارت: إن إعادة التقييم الرائع الذي قدمها ليروي - غورهان حول ديانات العصر الباليوليثي الأول أزالت العديد من المفاهيم المغلوطة، فقد أظهرت نتائج التفسيرات للفن الباليوليثي الأول المتمحور حول موضوع الرموز الأنثوية المعقدة ضمن أشكال حيوانات أو رموز نسائية، وجود تشابه قوي مع الرسوم الدينية التي وُجدت في كاتال هويوك. كذلك ظهرت تأثيرات واضحة للفن الباليوليثي الأول في العديد من ممارسات العبادات التي شملت وجود مغرات حمراء في المدافن، وأرضيات مطلية باللون الأحمر، ومجموعات من الأحافير والأصداف والرواسب الكلسية المدفونة في أعماق المغاور كأمثلة عليها[16].

وقد لاحظ ميللارت فيما بعد أنه طالما بقي الاعتقاد سائداً بأن الفن الباليوثي الأول بكل تطوره الراقي وأسلوبه المميز ما هو إلا تعبير عن وجهة النظر المتعلقة بالصيد والتي أخذت عن مجتمعات الأبورجينيز المتخلفة في أستراليا، فلن يكون هناك إلا أمل ضئيل بالربط بين العبادات التي وجدت لاحقاً في الشرق الأدنى والمتعلقة بالخصوبة والمتمحورة حول صورة الإلهة العظمى وابنها، حتى ولو كان حضور هذه الآلهات في العصر الباليوليثي الأول أمراً لا يمكن إنكاره. ولكنه أضاف أن الوضع الآن قد تغير جذرياً في ضوء المعلومات المتوفرة[17].

بكلمات أخرى، قدمت لنا الحضارة النيوليثية في كاتال هويوك وهاسيلار معلومات موسعة حول قطعة من الأحجية المتعلقة بماضينا، ظلت مفقودة لزمن طويل، وهذه القطعة هي الوصلة بين العصر الباليوليثي والعصور اللاحقة

الأكثر تقدماً مثل العصر الشالكوليثي والعصر النحاسي والعصر البرونزي، وكما يكتب ميللارت: لقد أسست كاتال هويوك وهاسيلار الرابطة بين هاتين المدرستين الفنيتين العظيمتين، إذ بيّنت وجود تواصل في الديانات بدءاً من كاتال هويوك إلى هاسيلار حتى تصل إلى الآلهات الأمهات العظيمات للعصور القديمة[18].

وكما هو الحال في العصر الباليوليثي، احتلت التماثيل والرموز الأنثوية موقعاً فنياً مركزياً في كاتال هويوك التي انتشرت فيها معابد الآلهات وتماثيلهن. وكذلك تميز الفن النيوليثي بوجود التماثيل الأنثوية في مناطق من الشرقين الأدنى والأوسط. على سبيل المثال وُجدت تماثيل طينية للآلهات[19] في موقع يعود إلى العصر النيوليثي في أريحا حيث عاش الناس منذ 7000 عام قبل الميلاد في منازل مبنية من الطوب الطيني، احتوى بعضها على أفران مصنوعة من الطين ومداخن وحتى تجاويف للأبواب. وفي تل الصوان الواقع على ضفاف نهر دجلة الذي تميز بالزراعة المروية والصناعات الفخارية المزخرفة اللافتة للنظر والمعروفة باسم سامراء، عُثر على تشكيلة من التماثيل كان من بينها منحوتات ذات ألوان متقدمة تمثل أشكالاً أنثوية. وفي قايونو وهو موقع يعود إلى العهد النيوليثي في شمال سوريا، عُثر على أول استخدامات للمطارق النحاسية والطوب الطيني بالإضافة إلى تماثيل أنثوية مشابهة يعود تاريخ بعضها إلى أوائل عهد إنشاء الموقع. وقد وُجدت أشباه لهذه التماثيل الأنثوية في جارمو وحتى في أقصى الغرب في سيسكلو، تم تصنيعها قبل دخول صناعة الفخار في ذلك العهد[20].

وعلى الرغم من عدم انتشار هذه الاستكشافات بشكل عام، إلا أن العديد من الحفريات التي تعود إلى العصر النيوليثي والتي عثر فيها على تماثيل ورموز أنثوية، تغطي مساحة جغرافية واسعة تمتد إلى أبعد من الشرق الأوسط والأدنى. فحتى من مناطق الشرق البعيدة في هارابا وموهنجو- دارو في الهند تم اكتشاف تماثيل أنثوية مصنوعة من الطين، وهذه التماثيل أيضاً، كما كتب السير جون

مارشال، مثلت آلهات تشبه في صفاتها تماثيل الإلهة الأم أو سيدة الجنة[21]. كذلك الأمر في أقصى غربي أوروبا التي ازدهرت فيها حضارات أُطلق عليها اسم الحضارات الميغاليثية والتي قامت ببناء تماثيل حجرية منحوتة بدقة في مناطق مثل ستون هنج وآفبرري في إنكلترا. وقد امتدت بعض هذه الحضارات الميغاليثية جنوباً حتى جزيرة مالطا في البحر المتوسط حيث عُثر على تجمع لسبعة آلاف موقع دفن، يبدو أنه كان يعد موقعاً مقدساً لطقوس يدخل فيها الوحي والعبادات الأولية وحيث لعبت مسألة الإلهة الأم دوراً هاماً في تلك العبادات[22]، كما كتب جيمس.

تدريجياً بدأت تظهر صورة جديدة لأصول وتطورات كل من الحضارات والديانات. وكان الاقتصاد الزراعي النيوليثي أساساً لتطور الحضارة التي تواصلت على مدى آلاف السنين ووصلت إلى وقتنا هذا. وعلى مستوى العالم بأكمله تقريباً، كانت الاختراقات العظيمة الأولى في التقنية المادية والاجتماعية تحمل سمة مشتركة واحدة هي عبادة إلهة أنثى.

ما هي مدلولات هذه الاكتشافات بالنسبة لحاضرنا ومستقبلنا؟ ولماذا ينبغي علينا أن نؤمن بهذه النظرة الجديدة بدلاً من المقدسات الذكورية القديمة التي تعرضها كتب الآثار بطريقة توضيحية جميلة تجعل من المتعة قراءتها قبل النوم أو مع فنجان من القهوة؟ .

أحد الأسباب هي أن المكتشفات التي عُثر عليها من التماثيل الأنثوية وغيرها من السجلات الأثرية التي ترتكز على وجود إلهة في عبادات شعوب العهد النيوليثي هي من الكثرة بحيث تستغرق عملية تجميعها عدة مجلدات. ولكن السبب الرئيسي هو أن هذه النظرة الجديدة لما قبل التاريخ تأتي نتيجة تغير عميق في كل من مفاهيم ومحاور تركيز التحقيقات الأثرية.

إن التنقيب عن الكنوز الأثرية المخزونة في باطن الأرض هو عمل قديم كقدم لصوص المقابر الذين نهبوا مدافن الفراعنة المصريين. ولكن علم الآثار

يعود بتاريخه فقط إلى أواخر القرن التاسع عشر. وحتى في ذلك الوقت، كانت الحفريات الأثرية الأولى رغم أن دافعها كان نوعاً من حب الاستطلاع الثقافي حول ماضينا، تخدم بشكل رئيسي هدفاً قريباً من سرقة المقابر وهو امتلاك القطع الأثرية الهامة من قِبَل المتاحف في إنكلترا وفرنسا وغيرها من الدول الاستعمارية، ولم تنطلق فكرة تبني أعمال الحفريات الأثرية كوسيلة لاستخراج أقصى ما يمكن من المعلومات من الموقع، سواء كان الموقع يحتوي على كنوز أثرية أم لا، إلا لاحقاً. وفي الحقيقة أنه لم يصبح علم الآثار نوعاً من البحث المنهجي في مسائل الحياة والفكر والتقنية والتنظيم الاجتماعي لأسلافنا الغابرين إلا ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وتجري اليوم حفريات جديدة، ليس على يد عالِم واحد أو مكتشف واحد كما كان يحصل في السابق ولكن من قِبَل فرق من العلماء، يشارك فيها علماء الحيوان والنبات والمناخ والإنسان بالإضافة إلى علماء الآثار. مثل هذه المقاربات المنظمة التي أخذت تميز معظم فرق الحفر كأعمال ميللارت في كاتال هويوك، تقدم اليوم مفهوماً أكثر دقة للمرحلة التي سبقت تاريخنا.

ولكن لعل أهم ما حدث في هذا السياق هو عدد الاختراقات التقنية المتميزة التي زادت من استيعاب علوم الآثار الغابرة. ومن بين تلك التقنيات نذكر عملية التأريخ التي أوجدها ويلارد ليبي الحائز على جائزة نوبل والتي تتعلق باستخدام الكربون المشبع أو C_{14} ، إضافة إلى استخدام قياس محيط سيقان الأشجار لتحديد التواريخ والأعمار. وكانت عملية التأريخ في السابق تعتمد على الحدس والتخمين باستخدام مقارنات بين الأشياء الأقل والأكثر تقدماً وتطوراً. إلا أن كون عملية التأريخ أصبحت عملاً يعتمد على مسائل متكررة ومن الممكن إثباتها، جعل من الخطأ التسليم بأنه إذا كان فن معين أكثر تطوراً وتعقيداً من غيره، فإنه لا بد أن يعود بتاريخه إلى مرحلة أكثر تقدماً في التاريخ أو أكثر تمدناً.

نتيجة لذلك، حدثت عملية إعادة تقييم جوهرية لتسلسل الأحداث التاريخية مع الزمن، والتي بدورها أدت إلى إحداث تغيير جذري في وجهات النظر حول مرحلة ما قبل التاريخ. فنحن نعلم الآن أن تواريخ الزراعة وعمليات تدجين النباتات البرية والحيوانات تعود إلى مراحل أقدم بكثير مما كنا نعتقد. وفي الحقيقة، أن المؤشرات الأولى لما يطلق عليه علماء الآثار اليوم بالثورة الزراعية أو النيولوثية تعود ظواهرها إلى 9000 أو 8000 عام قبل الميلاد أي قبل أكثر من عشرة آلاف سنة.

شكلت الثورة الزراعية الاختراق الأكثر أهمية في عالم التقنية المادية لجنسنا البشري. ووفقاً لذلك فإن بدايات ما نطلق عليه اسم الحضارة الغربية جاءت أبكر بكثير مما كنا نعتقد سابقاً.

وهكذا مع ازدياد الموارد الغذائية وانتظام وصولها إلى الناس، بدأت أعداد السكان بالارتفاع وبدأ ظهور البلدات الكبيرة التي كان يعيش فيها مئات أو آلاف الناس أحياناً ويعملون في حراثة الأراضي وزراعتها وريِّها. كذلك ازدهرت التقنيات المتخصصة وتسارع النهوض التجاري في العصر النيوليثي. ومع تحرر طاقة الإنسان ومخيلته نتيجة لظهور الزراعة، نشأت حِرَف أخرى مثل صناعة الفخار والسلال والحياكة وصناعة الجلود والمجوهرات والنحت في الخشب والأعمال الفنية الأخرى كالرسم وصناعة التماثيل الطينية والنقش في الحجر.

وفي الوقت نفسه، تواصل التطور الروحي في ذهن الإنسان وتطورت أول عبادة تعتمد على الأشكال وتركز على وجود آلهة وانتقلت إلى استخدام نظام معقد من الرموز والطقوس والوصايا الإلهية والمحرمات والتي وجدت جميعها تعبيراً واضحاً في الفن الزخم الذي قدمته الفترة النيوليثية.

وقد جاء أحد أكثر الأدلة قوة فيما يتعلق بالتقاليد الفنية المتمحورة حول الأنثى من الحفريات التي أجراها ميللارت في كاتال هويوك. فهنا وفي أكبر المواقع

المعروفة في الشرق الأدنى والعائدة إلى العصر النيوليثي، تمتد البقايا الأثرية على مساحة تبلغ اثنين وثلاثين فداناً لم يتم الحفر إلا في رقعة تصل نسبتها إلى $\frac{1}{20}$ من المساحة الكلية للهضبة، ومع ذلك فقد كشفت هذه المساحة الصغيرة من الحفر لوحدها عن فترة تمتد إلى ما يقارب ثمانمائة عام تقريباً أي من عام 6500 إلى 5700 قبل الميلاد أيضاً. وما نجده هنا هو مركز فني متقدم ومميز في أعمال الفن، يشمل رسومات على الجدران وملصقات ونقوشاً حجرية إضافة إلى كميات كبيرة من تماثيل الآلهة الأنثوية المصنوعة من الطين والتي تركز جميعها على عبادة آلهة أنثوية.

كتب ميللارت حول كاتال هويوك في تلخيص ضم أعمال مواسمه الثلاثة الأولى التي امتدت من عام 1961 إلى عام 1963 يقول: إن المقدسات العديدة التي وُجدت في كاتال هويوك تشهد على وجود ديانة متقدمة تكتمل فيها الرموز والأساطير وتمتد في بنائها إلى فترة مولد الهندسة والإعمار والتخطيط الواعي، وفي اقتصادها إلى فترة الممارسات المتقدمة في الزراعة وتربية الحيوان وفي مستورداتها إلى مرحلة ازدهار التجارة في المواد الخام[23].

وبينما تقدم الحفريات التي جرت في كاتال هويوك وبلدة هاسيلار المجاورة لها، وهما بلدتان مسكونتان منذ ما يقارب 5700 إلى 5000 سنة قبل الميلاد، بعض أغنى المعلومات حول تلك الحضارة المبكرة، تشكل هضبة الأناضول موقعاً واحداً من بين عدة مواقع كانت مجتمعاتها الزراعية تعبد آلهة أنثوية، وقد تم توثيق هذه المعلومات في علم الآثار. وفي الحقيقة أنه بحلول عام 6000 قبل الميلاد، لم تكن الثورة الزراعية قد أصبحت حقيقة راسخة فحسب، بل، والقول لميلارت، بدأت المجتمعات التي تعتمد بأكملها على الزراعة تتوسع نحو مناطق هامشية مثل السهول الغرينية في بلاد ما بين النهرين والقوقاز وبحر قزوين من

جهة ونحو جنوب شرقي أوروبا من جهة أخرى. كذلك انطلقت بعض هذه التوسعات نحو البحر باتجاه جزيرتي كريت وقبرص وغيرهما. وفي كل من هذه الحالات، كان القادمون الجدد يحملون معهم اقتصادهم النيوليثي بكل طاقته[24].

باختصار، ورغم أن علماء الآثار كانوا ومنذ خمس وعشرين سنة فقط يتحدثون عن بلاد سومر بصفتها مهد الحضارات، ورغم أن هذا الانطباع ما زال هو الانطباع السائد لدى الرأي العام، إلا أننا نعلم الآن أنه لم يكن هناك مهد واحد للحضارات بل عدة مناطق تعود في تاريخها جميعاً إلى ألف سنة أبكر مما كنا نعلم سابقاً. أي إلى العصر النيوليثي. وكما كتب ميللارت في كتابه «العصر النيوليثي في الشرق الأدنى» الذي صدر عام 1975 فإن الحضارة الحضرية التي كان يُعتقد ولمدة طويلة بأنها اختراع بلاد الرافدين قد وجدت من سبقتها في مواقع مثل أريحا أو كاتال هويوك في فلسطين والأناضول التي كان يُنظر إليها كمواقع خلفية[25]. بالإضافة إلى ذلك، نحن نعلم الآن شيئاً آخر يحمل أهمية كبيرة حول التطور الأصلي لحضارتنا وهو أن في جميع تلك المناطق التي شهدت الاختراقات الأولى في تقنيتنا المادية والاجتماعية، كان الإله كما خلدته مارلين ستون في عنوان كتابها هو امرأة.

وقد أدت معرفة كون الحضارة أكثر قدماً وانتشاراً مما كان يعتقد سابقاً إلى إنتاج كتابات علمية جديدة رافقتها إعادة تقييم هائلة للنظريات المتعلقة بالآثار. ولكن الحقيقة الأساسية اللافتة للنظر تبقى أن كون الإيديولوجيات الأولى لهذه الحضارات تدور حول رموز أنثوية لم يثر اهتمام العلماء إلا النساء منهم، وإذا ما ورد ذكره بين العلماء الذكور فسوف لا يتعدى كونه جملة عابرة. وحتى هؤلاء الذين مروّا على ذكر الموضوع أمثال ميللارت لم يفعلوا ذلك إلا من باب الأهمية الفنية والدينية دون أن يشغلوا أنفسهم بالتقصي حول مدلولاتها الثقافية والاجتماعية.

وتبقى وجهة النظر السائدة، بالتأكيد هي أن الهيمنة الذكورية بالترافق مع الملكية الفردية والعبودية كانت جميعها نتاجاً للثورة الزراعية. وقد استمرت وجهة النظر هذه في المحافظة على استمراريتها رغم الأدلة التي جاءت لتنقضها وتبين أن التساوي بين الجنسين وبين الناس هو العُرف الذي ساد العصر النيوليثي.

سوف نتابع هذه الأدلة المدهشة في الفصول التي تلي، ولكن علينا أولاً أن نتحول إلى ساحة هامة أخرى تمكنت المكتشفات الحديثة من إزالة جميع النظريات الأثرية القديمة المتعلقة بها.

أوروبا القديمة

بعض أهم الأدلة المكتشفة حول نوعية الحياة التي سادت قبل آلاف السنين والحضارات البشرية المجهولة التي عاشت فيها، جاءتنا من مواقع لم يكن لتدخل أبداً في الحسبان. ففي موازاة النظرية التي سادت طويلاً حول كون الهلال الخصيب حول البحر المتوسط مهداً للحضارات، كانت أوروبا القديمة تعتبر ولفترة طويلة بأنها موقع حضاري خلفي شهد ازدهاراً طفيفاً في عهد الحضارتين المينيوية واليونانية، ونتيجة فقط لتأثيرات وصلتها من الشرق، ولكن الصورة التي برزت الآن تختلف تماماً.

«ظهرت اليوم علامة جديدة هي حضارة أوروبا القديمة تتضمن إدراكاً لوجود هوية وإنجازات جماعية لمجموعات حضارية مختلفة عاشت إبان العصرين النيوليثي والكالكوليثي في جنوب شرقي أوروبا» . وقد وردت هذه الفقرة في كتاب أصدرته عالِمة الآثار ماريجا غيمبوتاس من جامعة كاليفورنيا بعنوان «آلهات وآلهة أوروبا القديمة» . ويقوم هذا العمل المجدد بتصنيف وتحليل مئات المكتشفات الأثرية في مساحة تمتد بشكل تقريبي من بحر إيجة والبحر الإدرياتيكي (بما فيها الجزر) شمالاً على طول الطريق إلى تشيكوسلوفاكيا وجنوبي بولندا وغربي أوكرانيا[26] .

ولكن السكان الذين عاشوا في جنوب شرقي أوروبا منذ سبعة آلاف سنة لم يكونوا مجرد قرويين بدائيين، إذ تذكر غيمبوتاس أنهم وعلى مدى ألفيتين زمنيتين من الاستقرار الزراعي ظلت أحوالهم المعيشية والمادية تتحسن باستمرار من خلال زيادة استغلال الوديان الخصبة حول الأنهار. كان هؤلاء السكان يزرعون القمح والشعير والبيقة والبازيلاء وغيرها من البقوليات، كما قاموا بتدجين معظم الحيوانات الموجودة اليوم في البلقان ما عدا الحصان. وفي عهدهم تقدمت الصناعات الفخارية والتقنيات المتعلقة بأعمال النحت في الحجر والعظام. وفي عام 5500 قبل الميلاد دخلت الصناعات النحاسية إلى أوروبا الوسطى. وقد وفرت التجارة والاتصالات اللتان توسعتا خلال تلك الألفية دفعاً هائلاً في تنويع النمو الثقافي وفي الاختلاط بين الثقافات المختلفة، وقد تم إثبات وجود المراكب البحرية منذ الألفية السادسة قبل الميلاد عبر الرسومات والنقوش على الفخار[27].

وفيما بين الأعوام 7000 و 3500 قبل الميلاد، طور هؤلاء الأوروبيون الأوائل نظاماً اجتماعياً معقداً شمل وجود تخصصات حرفية. كما أوجدوا مؤسسات حكومية ودينية معقدة واستخدموا مواد مثل النحاس والذهب في صنع الأدوات وفي الزينة، وحتى أنهم طوروا ما بدا وكأنه كتابات بدائية. وتقول غيمبوتاس في هذا الصدد: «إذا قام المرء بتعريف الحضارة على أنها قدرة أناس معينين على التكيف مع الطبيعة وتطوير علاقات اجتماعية، وفنون وتقنيات ومخطوطات مناسبة، فإن من الواضح أن أوروبا القديمة قد حققت نجاحاً ملموساً في هذا الصدد»[28].

إن الصورة التي نحملها معظمنا اليوم للأوروبيين القدامى هي أنهم كانوا رجال قبائل برابرة مرعبين وأنهم ظلوا يندفعون جنوباً إلى أن استطاعوا في النهاية التغلب على الإمبراطورية الرومانية بسفك الدماء واستباحة روما. لهذا السبب كان من أهم الظواهر المتميزة والتي تستدعي التفكير بالنسبة لما كشفته

الحفريات الأثرية عن مجتمع أوروبا القديم أنه كان مجتمعاً مسالماً في صفاته. وتذكر غيمبوتاس أن الأوروبيين القدامى لم يحاولوا أبداً العيش في مناطق غير ملائمة للحياة مثل التلال الساحقة الانحدار والجبال العالية، كما فعل الهنود الأوربيون الذين جاؤوا بعدهم لاحقاً والذين بنوا القلاع الجبلية ذات الجدران الحجرية المنيعة. كذلك كان الأوروبيون القدماء يختارون مناطق سكناهم لجمال مواقعها ونوعية مائها وتربتها وتوفر مراعيها لإطعام حيواناتهم. وقد عرفت مناطق استيطانهم مثل فينسا، وبوتمير وبيتريستي وكوكوتيلي بمناظرها الخلابة وليس بقيمتها الدفاعية. ولعل غياب التحصينات الثقيلة والأسلحة الهجومية يتحدث بنفسه عن الطبيعة السلمية لهؤلاء الناس الذين أحبوا الفنون[29].

إضافة إلى ذلك، لم تبين لنا المواقع المكتشفة في أوروبا القديمة كما هو الحال في كاتال هويوك وهاسيلار، أية إشارات للدمار الذي خلفته الحروب عبر مدة زمنية تمتد إلى ألف وخمسمئة عام[30] والتي تشير فيها الأدلة الأثرية إلى أن الهيمنة الذكورية لم تكن هي العُرف السائد في ذلك الزمن، بل إن هذه الأدلة تشير إلى وجود تقاسم في الأعمال بين الجنسين دون أن يهيمن أي منهما على الآخر. وتضيف غيمبوتاس: في المقبرة رقم 53 من مدافن فينسا، بالكاد تستطيع أن تجد فرقاً في التجهيز بين قبر المرأة وقبر الرجل. بالنسبة لدور المرأة في المجتمع، يبين دليل فينسا بوضوح وجود علاقة متساوية مع الرجل وعدم وجود نظام أبوي في المجتمع، وينطبق الأمر نفسه على الأدلة الواردة في مجتمع فارنا، وأنا في الحقيقة لا أرى وجوداً لأي درجات اجتماعية تميز بين المرأة والرجل من حيث القيمة.

خلاصة الأمر أن الأدلة هنا كما هي في كاتال هويوك تشير إلى وجود مجتمع غير طبقي يتمتع بالمساواة دون وجود أية ميزات قائمة على أساس طبقة أو جنس. ولكن الفرق هنا هو أن أعمال غيمبوتاس لم تمر على هذه الملاحظات مرور الكرام بل كان هناك سعي إلى شد انتباهنا مرة تلو مرة من قِبَل هذه الرائدة المتميزة في علم الآثار والتي امتلكت الشجاعة للتركيز على ما تجاهله العديد من

العلماء إلى أننا في هذه المجتمعات لا نرى أي أثر لتفرقة جنسية حرص العلم دائماً على نقلها لنا على أنها طبيعة بشرية.

لقد ظهرت هذه المؤشرات على المساواة بين الرجل والمرأة في جميع تجهيزات القبور المعروفة والتي عثر عليها في مدافن أوروبا القديمة، وتذكر غيمبوتاس أيضاً أن هناك مؤشرات أخرى عديدة تدل على أن هذه المجتمعات كانت مجتمعات تعود في إدارتها إلى الأم وليس إلى الأب، أي أن سلالتها وورثتها يتم تعقبها وراء الأم[32] وزيادة على ذلك تشير غيمبوتاس إلى أن الأدلة الأثرية لا تترك مجالاً للشك بالدور الرئيسي الذي لعبته النساء في جميع نواحي الحياة الأوروبية.

كما تضيف غيمبوتاس أن نماذج الأضرحة والمعابد المنزلية وبقايا المعابد التي عُثر عليها تظهر وجود نساء يشرفن على تجهيز وأداء الطقوس المكرسة لنواحٍ ووظائف عدة للإلهة، فقد تم صرف طاقة هائلة في سبيل إنتاج معدات للعبادة وهدايا للنذور. وتظهر نماذج المعابد عمليات طحن القمح وخبز الخبز المقدس كما تظهر نساءً يعملن في ورشات المعابد التي تشكل عادةً نصف البنايات أو تحتل أرضيتها على تزيين مختلف القدور المعدة للاستخدام في طقوس مختلفة. وعلى جانب المذبح في المعبد يقف نول عامودي كان يتم بواسطته على وجه الاحتمال حياكة الألبسة المقدسة وتوابع المعبد. ولعل في هذا دليلاً على أن أكثر الأعمال تعقيداً وأثمن الأواني والمنحوتات التي بقيت موجودة كانت تصنع على يد النساء.

ولعل الميراث الفني الذي بقي لنا من هذه المجتمعات الموغلة في القدم والتي كانت عبادة الآلهة الأنثى تشكل محور مناحي حياتها، لم يتم الكشف عنه بعد من قِبَل الحفريات الأثرية. إلا أنه مع حلول عام 1974، عندما قامت غيمبوتاس بالإعلان عن مجموعة مكتشفاتها من الحفريات التي تعود إلى أكثر من ثلاثة آلاف موقع، كان هناك ما لا يقل عن ثلاثين ألفاً من التماثيل المصنوعة من

الطين والرخام والعظام والنحاس والذهب والتي تم اكتشافها بالإضافة إلى كميات هائلة من الأواني والمذابح والمعابد والرسومات المرسومة على الأواني وعلى جدران الأضرحة[34].

من بين هذه المكتشفات شكلت المنحوتات أكثر الأدلة إفصاحاً عن الحضارة الأوروبية في العهد النيوليثي. إذ أنها تقدم معلومات عن أوجه الحياة التي لا يستطيع عالِم الآثار الوصول إلى تفسيرها. ومنها الأزياء واللباس وطريقة تصفيف الشعر. وتعطي وجهة نظر أولية في الصور الأسطورية الواردة في الطقوس الدينية لهذه المرحلة . ولعل أهم ما تظهره هذه المنحوتات كما هو الحال في كهوف العصر الباليوليثي ولاحقاً في سهول الأناضول ومواقع العصر النيوليثي في الشرق الأدنى والشرق الأوسط، هو أنه هنا أيضاً احتلت التماثيل والرموز الأنثوية مركز الصدارة في كل موقع.

وفوق هذا أيضاً فإن تلك المنحوتات تقدم أدلة ملفتة للنظر تشير إلى الخطوة التالية في التطور الاجتماعي والفني لتلك الحقبة الحضارية المفقودة. ففي كل من أسلوبها وموضوعها، تتشابه العديد من هذه التماثيل والرموز الأنثوية بشكل لافت للنظر مع تلك التي وجدت في موقع ما زال محط زيارة مئات الآلاف من السياح الذين يعلمون تماماً ما الذي ينظرون إليه، إنها آثار حضارة العصر البرونزي التي ازدهرت على جزيرة كريت الخرافية.

ولكن قبل أن ننظر في أمر كريت وهي الموقع الحضاري الأكبر الذي عُرف بعبادة آلهة أنثوية خلال عصور التاريخ، دعونا أولاً نلقي نظرة عن قرب على ما يمكننا استنتاجه من البقايا الأثرية للعهد النيوليثي حول الاتجاه الأول لتطور الحضارة الغربية ومدى صلة هذا الاتجاه مع حاضرنا الحالي ومستقبلنا.

الفصل 2

رسائل من الماضي

عالم الإلهة

كيف كانت نوعية أجدادنا الذين عاشوا قبل التاريخ وعبدوا الإلهة. كيف كان شكل الحياة خلال الألفيات الزمنية التي شهدت تطورنا الحضاري قبل أن نبدأ بتدوين التاريخ؟ وماذا يمكننا أن نتعلم من تلك الأزمنة مما يحمل صلة بزمننا هذا؟

ولأنهم لم يتركوا لنا أية روايات مكتوبة، فليس علينا إلا أن نستنتج كما فعل شرلوك هولمز الذي تحول إلى عالم، كيف كان هؤلاء الناس في العصر الحجري الأول والذين تلوهم في العصر الحجري الثاني الأكثر تقدماً، يشعرون ويتصرفون؟ إلا أن كل شيء كنا قد تعلمناه حول هذه العصور القديمة ظل قائماً على الحدس فقط حتى السجلات التي وصلت إلينا حول الحضارات التاريخية الأولى مثل حضارات سومر وبابل وكريت هي في أفضل أحوالها شحيحة ومبعثرة وتتعلق بقوائم جرد البضائع والمواد التجارية الأخرى. كذلك كانت الروايات المكتوبة اللاحقة حول كل من معلومات ما قبل التاريخ أو بواكير التاريخ من عهود اليونان والرومان والعبرانيين والمسيحيين، قائمة بشكل أساسي على الاستدلال والاستنتاج دون الاستعانة بأي من الوسائل الحديثة المستخدمة في علم الآثار.

ومن المؤكد أن كل ما تعلمنا أن نفكر به كتطور حضاري لنا كان في الحقيقة تفسيراً. وهذا التفسير كما رأينا في الفصل السابق كان في الأغلب إبرازاً لوجهة النظر العالمية السائدة حول حضارة المهيمن. وقد تشكّل هذا التفسير من استنتاجات اعتمدت على معلومات مجزأة تم تفسيرها لتتناسب مع النموذج التقليدي لتطورنا الحضاري كتقدم مستقيم الخط من الرجل البدائي إلى ما يدعى اليوم بالرجل المتمدن وهما على رغم الاختلافات العديدة بينهما يتقاسمان مهنة مشتركة هي الغزو والقتل والهيمنة.

وقد استطاع علماء الآثار في السنين الأخيرة من خلال الحفريات العلمية التي قاموا بها في المواقع القديمة أن يحصلوا على قدر كبير من المعلومات الأولية المتعلقة بالتاريخ، وخاصة تلك المعلومات حول العصر الحجري الثاني (النيوليثي) الذي استوطن خلاله أجدادنا ولأول مرة في مجتمعات تحيا على الزراعة وتربية الحيوان. وعبر تحليلها من منظور جديد، وفّرت لنا هذه الحفريات قاعدة بيانات تساعدنا على إعادة تقييم الماضي وإعادة بنائه.

أحد المصادر الهامة لهذه المعلومات، كان الحفريات التي تشمل الأبنية ومحتوياتها، بما فيها الألبسة والمجوهرات والأطعمة والأثاث والأواني والأدوات وغيرها من الأشياء المستخدمة في الحياة اليومية. أما المصدر الهام الآخر فشمل الحفريات حول مواقع دفن الموتى والتي قدمت لنا معلومات ليس حول مواقف الناس تجاه الموت فحسب ولكن حول مواقفهم تجاه حياتهم أيضاً. أما المصدر الذي جمع هذه المعلومات معاً فكان الفن الذي شكل أغنى مصادر المعلومات حول فترة ما قبل التاريخ.

حتى حين كان هناك تقليد أدبي مكتوب أو شفهي، بقي الفن نوعاً من الاتصال الرمزي. فالفن الواسع الذي وردنا من العصر الحجري الثاني، سواء كان على شكل رسومات الجدران في الكهوف التي تحكي عن الحياة اليومية، أو

على شكل أساطير قديمة أو صور دينية منحوتة أو أفاريز تحمل صوراً لطقوس معينة أو أوانٍ مزينة وصور موضوعة على الأختام أو مجوهرات تحمل نقوشاً. هذا الفن يخبرنا الكثير حول طرق حياة هؤلاء الناس وطرق موتهم. كما يخبرنا أيضاً الكثير عن كيفية تفكيرهم لأن فن العصر الحجري الحديث يشكل في حقيقة الأمر نوعاً من اللغة أو الرموز المختزلة التي تعبر عن تجارب الناس في ذلك الزمان، والتي بدورها شكلت ما نطلق عليه اسم واقعهم[1]. وإذا تركنا هذه اللغة تتحدث عن نفسها دون أن نعكس عليها النماذج السائدة حول ذلك الواقع، فإنها ستخبرنا قصة مدهشة تشكّل لدى مقارنتها مع القوالب الموجودة حالياً، أملاً أكبر بكثير حول أصولنا الحضارية.

الفن في العصر الحجري الثاني (الحديث)

أحد أكثر الأشياء اللافتة للنظر في الفن النيوليثي هو ما لا يظهره لأن ما لا يظهره الناس في فنّهم يستطيع أن يقدم لنا من المعلومات بالقدر الذي يقدمونه لنا فيما يظهرونه.

وعلى نقيض حاد مع الفن الذي تلاه، يظهر لنا الفن النيوليثي غياباً ملحوظاً للصور التي تمثل المظاهر المسلحة والوحشية والقوة القائمة على العنف. فلا توجد في هذا الفن صور للمحاربين النبلاء أو مشاهد لمعارك، كما لا توجد أية مؤشرات عن بطولات الفاتحين ولا عن جر الأسرى في القيود ولا عن أية مظاهر أخرى من مظاهر العبودية.

وعلى نقيض حاد كذلك من البقايا التي تتعلق بأوائل الغزاة الذكور البدائيين الذين هيمنوا على المنطقة، فإن من الملاحظ لدى هذه المجتمعات التي عبدت الآلهات، غياب المدافن المترفة للزعماء. أيضاً وعلى تناقص ملموس مع الحضارات اللاحقة التي هيمن عليها الذكور مثل الحضارة التي سادت في مصر،

لا توجد أية إشارة للحكام الجبابرة الذين يأخذون معهم بعد موتهم الأشخاص الضعفاء ممن يضحَّى بهم ليرافقوهم في رحلة الموت.

كذلك لا نجد هنا أيضاً، وفي تناقص مع المجتمعات اللاحقة التي سيطرت عليها حضارة المهيمن أية مخابئ للأسلحة أو أية إشارة تذكر للاستخدام الكثيف للتقنية المادية أو للموارد الطبيعية في تصنيع الأسلحة. من هنا نستنتج أن هذه الفترة كانت فترة تنعم بالسلام الذي تعزز أيضاً بغياب التحصينات العسكرية. فقط وفيما بعد بدأت هذه الأشياء تظهر تدريجياً، ربما كرد على الضغوط التي جاءت من العصابات المتنقلة المحاربة التي قدمت من مناطق في أطراف الكرة الأرضية، وهذا الأمر سنقوم بفحصه فيما بعد.

في فن العصر النيوليثي، لا تحمل الإلهة ولا زوجة ابنها أياً من الشعارات التي تعلمنا في السابق أنها تترافق مع السلطة والقوة مثل الرماح والسيوف أو الصواعق الرعدية، ولا أياً من رموز الحكم الأرضي أو الإلهي الذي يفرض طاعته بالقتل والتشويه. كذلك وإلى حد أبعد من ذلك يخلو هذا العصر تماماً وبشكل لافت للنظر من أية صور تحمل علاقات الحاكم بالمحكوم أو السيد بالعبد، كتلك الصور التي تميز المجتمعات ذات الحكم المهيمن.

ما نجده حقاً في كل مكان، سواء في المعابد أو في المنازل، في رسوم جدرانه، وفي المواضيع التي تنقلها الزخارف على الأواني وفي المنحوتات الطينية والتماثيل والمخطوطات هو سلسلة من الرموز المشتقة عن الطبيعة. وهذه الرموز التي ترافق عبادة الإلهة تشهد بصدق على روعة وسحر الحياة.

فعلى سبيل المثال نجد من بين هذه الرموز، العناصر التي تعمل على استمرار الحياة مثل الشمس والماء، والأنماط الهندسية لأشكال متموجة ومتعرجة ترمز إلى تدفق المياه، وهذه العناصر تظهر بوضوح في أحد الهياكل الأوروبية

القديمة في المجر والتي يعود تاريخها إلى 5000 سنة قبل الميلاد. كما نجد هناك الرؤوس الحجرية العملاقة لثيران ذات قرون ضخمة وملتوية مرسومة على جدران معابد كاتال هويوك وصوراً لقنافذ في جنوب رومانيا، وأواني تحمل أشكالاً لأنثى الغزال في بلغاريا ومنحوتات حجرية على شكل بيض رسمت عليها وجوه أسماك إضافة إلى أوان تستخدم في العبادة صنعت على شكل طيور[2].

كما توجد صور لأفاعٍ وفراشات، وهي رموز للتحول كانت في العهود القديمة تعرَّف ضمن قوى التحول للآلهة كما في دمغات الأختام التي وُجدت في زاكرو بشرقي جزيرة كريت والتي تحمل صوراً لآلهة لها أجنحة فراشة ذات عيون. حتى الفأس المزدوجة التي وُجدت لاحقاً في جزيرة كريت، والتي تذكر بالمجارف التي تستخدم في تنظيف الأراضي المزروعة كانت مصممة على شكل الفراشة[3] ومثلها مثل الأفعى التي تنسلخ عن جلدها لتولد من جديد، شكلت هذه الرموز جزءاً من أعياد الآلهة ورمزاً آخر من قوة تجديد الشباب لديها[4].

وفي كل مكان، في اللوحات الجدارية والتماثيل والأواني المستخدمة لوضع النذور، نجد صوراً للآلهة التي تعرف في كل تسجيداتها كسيدة المياه والطيور والعالم السفلي أو بشكل أكثر بساطة الأم الإلهية التي تهز طفلها الإلهي بين ذراعيها(5).

بعض الصور بدت حقيقية لدرجة تبعث إلى الظن أنها حية، مثل صورة الأفعى التي تنزلق على صحن، ويعود تاريخها إلى أوائل الألفية الخامسة قبل الميلاد وقد عُثر عليها في مقبرة تقع في غربي سلوفاكيا. أما بعض الصور الأخرى فقد صممت بطريقة فيها من التجرد ما يبزُّ في تصميمه أكثر فنوننا الحديثة. ومن بين هذه الصور كأس مقدسة ومصصمة على هيئة إلهة متوجة على العرش وقد رسمت عليه مخطوطات مذهبية تعود إلى حضارة التيزا في جنوبي المجر، وكذلك صورة الآلهة ذات الرأس العمودي والذراعين المطويتين وتعود هذه الصورة إلى عام 5000 قبل الميلاد في رومانيا. كذلك التمثال

الرخامي للآلهة من تل آزمك في وسط بلغاريا، وهو تمثال له ذراعان مخططتان وحوض عريض عند الردفين ويعود تاريخه إلى 6000 عام قبل الميلاد. وقد وجدت أيضاً صور ذات جمال غريب مثل الجاموس ذي القرون الذي يملك صدر امرأة وهو يذكرنا بالتمثال الكلاسيكي اليوناني الذي يدعى النصر المجنح، والأواني المطلية التي تحمل أشكالاً مقدسة وتصاميم هندسية لولبية كأجساد الأفاعي، إضافة إلى صور الصلبان المنقوشة على سرر الآلهات أو على صدورهن والتي تثير تساؤلات هامة حول المعاني الأولى لبعض أكثر رموزنا أهمية(6).

هناك شعور خيالي يكتنف العديد من هذه الصور، فهي أشبه بحلم أو ربما هي أقرب إلى تذكيرنا بالأساطير المنسية أو بالطقوس الغريبة، على سبيل المثال صورة المرأة التي تحمل وجه عصفور والمرسومة على أحد النحوتات في موقع فينسا، وهي تحمل طفلاً يشبه وجهه وجه العصافير أيضاً. هنا كلا الاثنين يبدوان وكأنهما داعيان مقنعان لطقوس قديمة يمثلان دوراً في قصة أسطورية تدور حول إلهة عصفورة وطفلها الإلهي. ويبين رأسا الثور الذي يحمل عيوناً بشرية منذ 4000 عام قبل الميلاد في مقدونيا الأمر نفسه كما تظهر وكأنها داعية مقنعة لطقوس وأساطير أخرى من ذلك العصر. ويمكن القول أيضاً إن بعض تلك التماثيل المقنعة تبدو وكأنها تمثل قوى كونية، سواء كانت قوى صالحة أم قوى شريرة بينما يحمل غيرها تأثيرات فكاهية مثل الرجل المقنع السروال التحتي المبطّن والبطن المكشوف وقد اكتشف في بلدة فافكوس ويعود تاريخه إلى الألفية الخامسة قبل الميلاد وتصفه غيمبوتاس بأنه ربما كان مهرجاً. وتوجد أيضاً تلك الصور التي تطلق عليها غيمبوتاس اسم البيض الكوني وهي عبارة عن رموز للإلهة يتكون جسمها من كأس مقدس يحتوي على معجزة الولادة وقوة تحويل الموت إلى حياة عبر عملية دورية غامضة تقوم بها الطبيعة(7).

وبالتأكيد، فإن موضوع وحدة الأشياء جميعها في الطبيعة كما تجسدت في شخصية الإلهة، يبدو وكأنه موجود في قلب الفن النيوليثي. فهنا تظهر القوة

العليا التي تحكم الكون على شكل أم تمنح شعبها الحياة وتوفر له الرعاية الروحية والمادية وعندما يموت أطفالها تأخذهم وتعود بهم إلى رحمها الكوني.

على سبيل المثال، نجد في معابد كاتال هويوك صوراً للآلهة تصورها وهي حبلى أو وهي تلد وغالباً ما ترافقها في هذه الصور حيوانات قوية مثل الفهود والثيران[8]. وتبدو الآلهة في بعض الرسومات كرمز لوحدة الحياة في الطبيعة من حيث أنها نفسها مكوَّنة من نصف إنسان ونصف حيوان[9]. وحتى في أحلك مظاهرها التي يطلق عليها العلماء اسم المظاهر الأرضية، تبدو الإلهة وكأنها جزء من نظام العالم الطبيعي تماماً مثلما تولد كل الحياة منها تعود إليها هذه الحياة عند الموت لتولد من جديد.

ويمكن القول إن ما يصف فيه العلماء الناحية المنتمية إلى الأرض أو الناحية الأرضية للإلهة من جهة تصويرها في شكل سوريالي وغريب أحياناً، يمثل محاولة من أجدادنا الأوائل للتعامل مع المظاهر الأكثر ظلاماً في واقعهم عبر إعطاء مخاوفهم الإنسانية من هذا المجهول الغامض اسماً وشكلاً. ولابد أن مثل هذه الصور الأرضية كالأقنعة ورسومات الجدران والتماثيل التي ترمز إلى الموت وتجسده بأشكال خيالية ومضحكة أحياناً، قد تم تصميمها لتمنح المبادرات الدينية أو ممارسات العبادة معنى من الوحدة الغامضة مع القوى الخطرة والحميدة التي تحكم العالم.

وهكذا، وبالطريقة نفسها التي يتم فيها الاحتفال بالحياة ضمن المخيلة الدينية والطقوس العبادية، يتم إدراك واحترام التحركات المدمرة التي تحدث في الطبيعة. وفي الوقت نفسه الذي تم فيه تصميم الطقوس والاحتفالات الدينية لتمنح الفرد والمجتمع إحساساً بالمشاركة في منح الحياة والمحافظة على تحركات الطبيعة والسيطرة عليها، صممت طقوس واحتفالات أخرى لكي تحاول أن تبقى متيقظة ولتدافع عن نفسها أمام تحركات أكثر هولاً ورعباً.

ولكن في خضم كل هذا، تظهر صور الإلهة في مظهرها الثنائي المكون من الحياة والموت لتعبر عن رؤية لعالم كان فيه الهدف الرئيسي للفن وللحياة ليس القهر والغلبة والنهب والسلب بل زراعة الأرض وتوفير الأدوات المادية والروحية التي تعمل من أجل حياة مرضية. وبشكل عام، يبدو الفن النيوليثي ومثله الفن المينوني الأكثر تطوراً وكأنه يعبر عن وجهة نظر تعمل فيها القوى الغامضة المتحكمة في العالم ليس من أجل الإخضاع والعقاب والتدمير بل من أجل العطاء.

نحن نعلم أن الفن وخاصة النوع الأسطوري والديني منه، لا يعكس فقط مواقف الناس بل ثقافتهم وتنظيمهم الاجتماعي. ويبدو أن هذا الفن الذي يتمحور حول الإلهة ويغيِّب بشكل صارخ جميع صور الهيمنة الذكورية والحروب وكأنه يعكس نظاماً اجتماعياً تقف فيه المرأة على رأس القبيلة أو تلعب دور الكاهنة أو أدواراً هامة أخرى لاحقة كجزء مركزي، يعمل فيه الرجال والنساء بتساوٍ تام في سبيل المصلحة العامة. وحيث أننا لم نجد في هذا الفن أي ذكر أو رمز لتعظيم الآلهة الذكورية الغاضبة أو الحكام المدججين بالسلاح، أو الغزاة المنتصرين الذين يجرون عبيدهم المذلولين بالسلاسل، فلن يكون من غير المنطق الاستنتاج بأن السبب في هذا يعود لعدم وجود نسخ لهذه الصور في الحياة الحقيقية[10]. وإذا كانت الصور العبادية المركزية تتمحور حول صورة المرأة التي تلد وليس، كما في عصرنا هذا، صورة رجل يموت على صليب، فلن يكون من غير المنطق أيضاً الاستنتاج بأن الهيمنة كانت للحياة ولحب الحياة وليس للموت وللخوف من الموت، سواء في المجتمعات أم في الفنون نفسها.

عبادة الإلهة

أحد أكثر المظاهر المثيرة للاهتمام في عبادة الإلهة التي مورست في فترة ما قبل التاريخ، هو ما يُطلق عليه المؤرخ الديني ومؤرخ علم الأساطير جوزيف

كامبل وصف «عبادتين في وقت واحد» وهذا الوصف يعني بشكل أساسي أن عبادة الإلهة كانت تتخذ شكل عبادة إلهة واحدة وعبادة عدة إلهات في وقت واحد[11]. ومعنى عبادة عدة إلهات هنا أن العبادة كانت تتم تحت أسماء مختلفة وبأشكال مختلفة أيضاً، ولكنها كانت عبادة موحدة في الوقت نفسه لأننا نتحدث هنا عن إيمان بإلهة واحدة بنفس المعنى الذي نتحدث فيه عن الإيمان بالله ككيان يتجاوز الوجود المادي. بكلمات أخرى، هناك تشابهات لافتة للنظر بين الرموز والصور التي رافقت عبادة الإلهة في عدة أماكن فيما يتعلق بأشكالها المختلفة كأم و كعذراء أو كسيدة أو غيرها.

أحد التفسيرات المحتملة لمثل هذه الوحدة الدينية الرائعة هو أن عبادة الإلهة قد مورست أصلاً في المجتمعات الزراعية القديمة، فنحن نجد دليلاً على تأليه الأنثى التي تقدم الولادة والتغذية في طبيعتها البيولوجية تماماً كما تفعل الأرض أو الطبيعة الأم، في ثلاثة مواقع رئيسة انطلقت فيها الزراعة في العصور القديمة هي آسيا الصغرى، وجنوب شرقي أوروبا وتايلاند في جنوب شرقي آسيا ومن ثم لاحقاً في أميركا الوسطى[12].

في العديد من قصص الخلق الأولى التي جاءت من مناطق مختلفة من العالم، نجد أن الإلهة الأم هي منبع الحياة برمتها. فهي في الأمريكتين سيدة حاشية الأفعى، وهذا الأمر يثير الاهتمام لأن الأفعى شكلت تجسيداً أولياً للإلهة في كل من أوروبا والشرق الأوسط وآسيا. أما في بلاد ما بين النهرين القديمة فكانت فكرة الكون مغلفة ضمن مفهوم جبل عالمي هو جسد الإلهة أم الكون، وقد ظلت هذه الفكرة تتواصل عبر العصور القديمة. ونجد كذلك أن نامو وهي الإلهة السومرية التي أعطت الحياة للسماء والأرض قد وجدت تعبيراً لاسمها في مخطوطات ونصوص مسمارية تعود إلى عام 2000 قبل الميلاد، ترمز إلى البحر[13] وهذه المخطوطات محفوظة اليوم في متحف اللوفر بباريس.

كما أن ترافق مبدأ الأنثوية مع صورة المياه يعتبر موضوعاً كلي الوجود. على سبيل المثال، تعتبر مسألة الرمزية للمياه في الصناعات الفخارية المزخرفة لأوروبا القديمة، وهي رمزية تترافق عادة مع صورة البيضة الأولى موضوعاً يتكرر في الفن القديم. فهنا تحكم الإلهة العظمى التي تظهر في شكل طير أو في شكل أفعى، على قوة الماء المانحة للحياة. وفي كل من أوروبا والأناضول، تختلط المواضيع المتعلقة بالمطر والحليب كما تتواجد الأواني والكؤوس المتعلقة بطقوس العبادة كأدوات دائمة في معابد الإلهة وتلازم صورتها دائماً أواني المياه التي غالباً ما تتخذ شكلاً شبيهاً بها، تماماً مثلما كانت الإلهة المصرية «نت» تمثل تدفق المياه السماوية الأولية في وحدة واحدة، مثلما كانت إلهة كريت آدريان المقدسة والإلهة اليونانية أفروديت تخرج من البحر[14]. وفي الحقيقة أن هذه الصورة ما زالت تحمل قوة نافذة في أوروبا المسيحية لدرجة أنها أوحت لبوتيشيللي برسم صورة فينوس الخارجة من البحر.

ورغم أن هذه الأشياء نادراً ما تدخل في ما نتعلمه عن التطور الحضاري، فإن العديد من آثاره خلال العصر النيوليثي ما زال موجوداً معنا. وكما يذكر ميللارت «فقد شكل هذا التطور الأساس الذي بنيت عليه الثقافات والحضارات اللاحقة»[15] أو كما تضعها غيمبوتاس «حتى بعد أن تم تدمير العالم الذي تمثله، بقيت الصور الأسطورية لأجدادنا الذين عبدوا الإلهة في العصر النيوليثي تتغلغل في الأسس التي غذت التطور الثقافي الأوروبي اللاحق» معززة النفسية الأوروبية بشكل هائل[16].

ومن المؤكد أننا إذا نظرنا عن قرب إلى الفن في العصر النيوليثي، فسندهش لوجود أعداد هائلة من الصور المتعلقة بالآلهة والتي بقيت عبر التاريخ في حين فشلت جميع الأعمال القياسية حول تاريخ الأديان في تبيان هذه الحقيقة المدهشة. تماماً مثلما كانت الإلهة النيوليثية الحبلى تعتبر من السلالة المباشرة للآلهات

الحبالى في العصر الحجري الأول، تواصلت هذه الصورة في الأيقونات التي تصور السيدة مريم في القرون المسيحية الوسطى. كذلك استمر التبجيل الذي أحاط بصورة الإلهة الفتية أو العذراء منذ العصر النيوليثي ليحيط بمريم العذراء المقدسة فيما بعد. وبالطبع ما زالت صورة الإلهة الأم التي تحض طفلها الإلهي منذ العهد النيوليثي تظهر كشاهد مثير في تمثال السيدة مريم وطفلها.

كذلك استمر ظهور الصور التي رافقت الإلهة مثل صور الثيران أو قرونها كرموز لجبروت الطبيعة، عبر العصور الكلاسيكية والعصور المسيحية اللاحقة. وقد أصبح الثور يشكل رمزاً مركزياً في أساطير العبادات الوثنية فيما بعد، إلى أن تحول في الأيقونات المسيحية من رمز للقوة الذكورية إلى رمز للشيطان أو الشر. إلا أن قرون الثور التي نقرنها اليوم مع الشيطان، كانت موجودة في الرسومات التي عثر عليها في معابد ومساكن كاتال هويوك حيث تشكل صفوفاً أو هياكل متعاقبة تحت رسم الآلهة[17] وكان الثور نفسه يشكل مظهراً من مظاهر القوة المطلقة للإلهة. صحيح أنه يشكل رمزاً لمبدأ الذكورية ولكه مثله مثل باقي الأشياء ينبع من الرحم الإلهي الذي يمنح كل شيء كما ورد في رسومات كاتال هويوك التي تصور الإلهة وهي تلد عجلاً صغيراً.

وحتى صور الإلهة في شكليها المتزامنين، خلال العصر النيوليثي، والتي ظهرت في رسومات الإلهتين التوأم في كاتال هويوك، تواصلت عبر العصور التاريخية وتجلت في الصور الإغريقية الكلاسيكية لديميتر وكوري اللذين يمثلان مظهرين للإلهة: الأم والفتاة اللتان ترمزان إلى دورة التجديد في الطبيعة[18]. كما أن أطفال الإلهة مرتبطون بشكل أساسي بمواضيع الولادة والموت والبعث. وقد بقيت صورة الفتاة حية في الأزمنة الإغريقية الكلاسيكية على صورة بيرسيفوني أو كوري كما ظلت صورة الابن العشيق الزوج تتواصل عبر التاريخ بأسماء مختلفة مثل أدونيس وتاموتس، وأتيس وأخيراً يسوع المسيح[19].

وقد تصبح الاستمرارية المدهشة والمميزة للرمزية الدينية أكثر قابلية للفهم إذا اعتبرنا أن عبادة الإلهة الكبرى كانت تبدو وكأنها أكثر وأهم الظواهر الفردية بروزاً إبان كل من العصر النيوليثي الشالكوليثي (النحاسي) في أوروبا القديمة والعصر المينيوني/ المايسيني الذي مثّل حضارة العصر البرونزي فيما بعد. وتظهر عبادة الإلهة في آثار موقع كاتال هويوك في الأناضول وكأنها متغلغلة في جميع مظاهر الحياة في ذلك العصر. على سبيل المثال: من بين 139 غرفة تم حفرها ما بين العامين 1961 و 1963، كانت هناك أربعون غرفة مهيأة على شكل معابد[20].

وقد ساد هذا النمط نفسه في أوروبا النيوليثية والشالكوليثية. فبالإضافة إلى جميع المعابد التي كُرِّست لنواحٍ عدة من مظاهر عبادة الإلهة، كانت المنازل تحتوي على زوايا مقدسة فيها أفران وهياكل وأماكن لتقديم النذور والعطايا. وينطبق الأمر نفسه على حضارة كريت التي تلت ذلك، وتكتب غيمبوتاس في هذا الخصوص: «تتواجد المعابد من جميع الأنواع بكثرة تدفع إلى الاعتقاد بأنها كانت موجودة ليس فقط في كل قصر بل في كل منزل لاستخدامها في العبادة. وإذا أردنا أن نحكم على قصر كنوسوس من خلال تكرار وجود غرف العبادة والقرون ورموز الفأس الثنائية، فإن القصر بأكمله يمكن أن يعتبر مكاناً مقدساً في ذلك الزمان. فحيثما التفت حولك، تجد الأعمدة والرموز التي تذكرك بحضور الإلهة العظمى[21].

ولعل القول بأن هؤلاء الناس الذين عبدوا الإلهة كانوا شديدي التدين، يبخسهم حقهم ويغفل النقطة الرئيسة في الموضوع. ففي ذلك العصر لم يكن هناك فصل ما بين العلماني والمقدس، وكما ينوه مؤرخو العهود القديمة، بل ومؤرخو الأزمنة التاريخية، فقد كان الدين في ذلك الزمان هو الحياة وكانت الحياة هي الدين.

أحد الأسباب التي أدت إلى طمس هذه النقطة هو أن العلماء في السابق ظلوا وبشكل روتيني يشيرون إلى عبادة الإلهة ليس كدين ولكن كعبادة تتعلق بالخصوبة ويشيرون إلى الإلهة على أنها إلهة دنيوية. ولكن على الرغم من أن خصوبة المرأة وخصوبة التربة كانتا وما تزالان إلى الآن تشكلان متطلباً لحياة الأجناس، إلا أن هذا التشخيص يعتبر على درجة عالية من السذاجة، إذ يمكن بالمقارنة على سبيل المثال تشخيص المسيحية على أنها عبادة للموت لأن الصورة المركزية التي تظهر في فنها هي صورة الصلب.

وديانة العصر النيوليثي، مثلها مثل الديانات والإيديولوجيات العلمانية في عصرنا الحاضر، تعبر عن نظرة العالم في زمانها. كم تختلف هذه النظرة عن نظرتنا؟ الجواب يظهر في مقارنتنا بين الهيكل الديني في العصر النيوليثي وهيكل العصر المسيحي. ففي العصر النيوليثي، كان رأس الأسرة المقدسة امرأة هي الأم العظمى، ملكة السماء أو الإلهة في كافة مظاهرها وأشكالها. وكان الذكور الأعضاء في هذا الهيكل أي زوجها، وأخوها و/ أو ابنها مقدسين أيضاً. أما في العصر المسيحي فكان رأس الكنيسة المسيحية المقدسة هو الأب القوي المهيمن. أما الذكر الثاني في الهيكل فهو يسوع المسيح الذي يمثل رأساً آخر من رؤوس الإله. ولكن على الرغم من أن الأب والابن خالدان وإلهيان، إلا أن المرأة الوحيدة في هذه التركيبة الدينية أو العائلة ذات النظام الأبوي، وهي مريم فقد كانت فانية، ومثلها مثل سائر رفاقها الأرضيين كانت ذات طبيعة دنيا.

والأديان التي يشكل فيها الذكر القوة الأكبر تعكس نظاماً اجتماعياً يعتمد في تسلسله على الأب وفي مسكنه كذلك حيث تذهب الزوجة لتعيش في كنف زوجها أو عشيرته. وعلى النقيض من ذلك تعكس الأديان التي تشكل فيها الأنثى القوة الأكبر أو الإلهة الوحيدة، نظاماً اجتماعياً يعتمد في تسلسله على الأم وكذلك في مسكنه حيث يذهب الزوج ليعيش في كنف أهل زوجته[22].

كذلك تعكس الأديان التي يهيمن الذكر على تركيبتها نظاماً اجتماعياً هرمياً مبنياً على هيمنة الذكر ويتم المحافظة عليها من خلال عقائد دينية تفترض بأن خضوع المرأة للرجل هو أمر إلهي.

إذا لم يكن النظام قائماً على الأبوة فهو قائم على الأمومة

في تطبيقهم لمثل هذه المبادئ على الأدلة المتصاعدة التي تقول بأنه على مدى عدة ألفيات من التاريخ الإنساني ظلت السيادة في الألوهة للأنثى، وصل عدد من علماء القرنين التاسع عشر والعشرين إلى استنتاج بالغ الأهمية مفاده أنه إذا لم يكن النظام الاجتماعي في عصور ما قبل التاريخ نظاماً أبوياً فإنه لابد أن يكون نظام أمومياً يقوم على رئاسة الأم. بمعنى آخر، إذا لم يكن الرجال هم المهيمنين على النساء فلابد أن النساء هم الذين كانوا يهيمنون على الرجال.

بعد ذلك، وعندما لم يظهر دليل يدعم هذا الاستنتاج حول هيمنة المرأة، عاد العديد من العلماء إلى الرأي التقليدي الأكثر قبولاً وهو أنه إذا لم تكن هناك هيمنة من الأم فإن المنطق هو قبل كل شيء، حسب رأيهم هو أن هيمنة الرجل هي العُرف المتبع.

ولكن الأدلة لا تدعم أياً من هذين الاستنتاجين. ولنبدأ أولاً بالمعلومات الأثرية التي بأيدينا. تشير هذه المعلومات إلى أن البنية العامة للمجتمع الذي سبق مرحلة الهيمنة الأبوية كانت وضمن أي مقياس معاصر، بنيةً لمجتمع يساوي بين الرجل والمرأة. وفي المرتبة الثانية نقول إنه وعلى الرغم من أن هذه المجتمعات اعتمدت في تسلسل سلالتها على الأم، وعلى الرغم من أن النساء ككاهنات وكزعيمات للعشائر بدون وكأنهن يلعبن أدواراً قيادية في جميع مناحي الحياة في تلك الفترة، إلا أن هناك القليل من المؤشرات التي تدل على أن وضع الرجال

في ذلك النظام الاجتماعي يمكن مقارنته في أي ظرف بوضع التبعية الذي تعيشه المرأة في ظل نظام الهيمنة الذكوري الذي حلّ مكانه.

ويستنتج ميللارت، من خلال حفرياته التي أجراها في كاتال هويوك بهدف إعادة بناء منهجية لحياة سكان المدينة عبر دراسة آثارهم، أنه وعلى الرغم من دلالة وجود بعض التباينات الاجتماعية التي برزت من خلال حجم الأبنية والمعدات والهدايا المدفونة مع الأموات، إلا أن هذه التباينات لم تكن واضحة جداً[23]. على سبيل المثال، لا توجد في كاتال هويوك فروقات رئيسية بين المساكن، إذ أن معظمها تتكون من مخطط مستطيل يغطي مساحة 25م^2 من الأرضية، ولا توجد اختلافات في المعابد المبنية داخل المنازل فهي ليست بالضرورة كبيرة الحجم كما أن هذه المعابد متشابكة ببعضها البعض مما يدل على أن أسس البناء كانت مجتمعية أكثر منها مركزية أو هرمية أو دينية[24].

وتنبثق الصورة نفسها من تحليل عادات الدفن في كاتال هويوك، فخلافاً لقبور الزعماء الأوروبيين التي توضح وجود نظام اجتماعي هرمي محكوم من رجل قوي مرهوب وجبار كان يجلس على قمة الحكم، لا تشير مدافن كاتال هويوك إلى وجود أية اختلافات اجتماعية مميزة[25].

أما بالنسبة للعلاقة بين الرجال والنساء فالصحيح حسبما يشير ميللارت، هو أن العائلة المقدسة في كاتال هويوك تندرج في الأهمية من الأم إلى الابنة ثم الابن ثم الأب[26]، وهذا التدرج يعكس تركيبة العائلة لدى سكان المدينة وهي عائلات تتبع في تسلسلها ونسبها وسكنها لناحية الأم. والصحيح أيضاً أن الأشكال التي كانت تمثل الإلهة، مثل الصبية الشابة، والأم الناضجة، والجدة العجوز والتي تعود إلى الأم الأصلية القديمة، يمكن اعتبارها حسبما ذكر الفيلسوف الإغريقي فيثاغوروس لاحقاً، انعكاسات لمراحل مختلفة من حياة المرأة[27]. وتبين هذه الأشكال وجود نظام اجتماعي تهيمن عليه الأم حيث أن

غرفة النوم التي تضع فيها المرأة مقتنياتها الخاصة وسريرها وديوانها كانت توجد دائماً في الموقع نفسه على الجهة الشرقية من غرفة المعيشة بينما تنتقل غرفة الرجل في أمكنة عدة، كما أنها أصغر من غرفتها[28].

ولكن على الرغم من هذه الأدلة التي تشير إلى تفوق المرأة في المراتب الدينية والحياتية إلا أنه لا توجد تباينات كبيرة بين الرجل والمرأة ولا توجد أدلة على أن المرأة كانت تظلم الرجل أو تخضعه لها.

وفي تناقض صارخ مع الأديان المعاصرة التي يهيمن عليها الذكور، والتي ظلت وحتى مدة قريبة تسمح فقط للرجال بأن يكونوا أعضاء في الهرمية الدينية، يوجد هنا دليل على وجود كاهنات وكهنة. على سبيل المثال، يشير ميللارت إلى أنه مع أنه يبدو أن كاهنات قمن أساساً بطقوس عبادة الإلهة في كاتال هويوك، فإن هناك أيضاً أدلة تشير إلى مشاركة الكهنة في تلك الطقوس، ويقول إنه عثر على مجموعتين من المقتنيات التي توجد فقط في المدافن داخل المعابد الأولى عبارة عن مرايا من السبج والثانية عبارة عن مرابط للخصر مصنوعة من العظم، وبينما وُجدت الأولى فقط مع أجساد الموتى من النساء، كانت المجموعة الأخرى فقط بين مقتنيات الموتى من الرجال. وقد دفع هذا ميللارت إلى الاستنتاج بأن هذه المقتنيات هي لكاهنات وكهنة مما يفسر ندرتها ووجودها فقط في المعابد[29].

كما اكتُشف أيضاً وجود تماثيل لرجال كبار في السن وقد صنعت بأشكال تذكرنا بتمثال رودن الشهير: «المفكر» مما يدل على أن كبار السن من الرجال والنساء كانوا يلعبون أدواراً هامة ومحترمة في ذلك الزمان[30]. كذلك كانت تماثيل ورسومات الثيران، أو القرون المكرسة للنذور تحتل مكاناً مركزياً في معابد الأناضول وآسيا الصغرى، وأوروبا القديمة في العصر النيوليثي ولاحقاً في المينوني والمايسيني، وتشكل رموزاً للمبدأ الذكوري تماماً مثل رسومات الخنازير البرية التي ظهرت في وقت متأخر من العصر النيوليثي وخاصة في أوروبا.

إضافة إلى ذلك نجد أن رسومات وتماثيل الإلهات لم تكن فقط صوراً تحوي ملامح مهجنة من الإنسان والحيوان بل ملامح مبالغ فيها مثل الأعناق الطويلة التي يمكن تفسيرها بأنها ذكورية الترميز[31]. وبالطبع كانت هناك صور الإله الشاب الابن والزوج للإلهة الذي يلعب دوراً متكرراً في الأعجوبة المركزية للأديان التي سبقت الأديان الذكورية، وهو دور يتعلق بسر تجديد الشباب والولادة من جديد.

إذن، فمن الواضح أنه فيما كان المبدأ الأنثوي كرمز أولي لمعجزة الحياة متغلغلاً في إيديولوجية الفن النيوليثي، لعب المبدأ الذكوري دوراً مهماً أيضاً وكان الاندماج بين هذين المبدأين عبر الأساطير والطقوس المتعلقة بالزواج المقدس، يشهد ازدهاراً في العالم القديم وصولاً إلى أزمان الديانات الأبوية. على سبيل المثال كان معبد يازيليكايا في الأناضول الحتّية (نسبةً إلى الحتِّيين) مكرساً لهذا الغرض وكذلك الأمر عند اليونان والرومان لاحقاً حيث استمر على شكل «ألعاب البطولة»[32].

ومن المثير للاهتمام في هذا الصدد العثور على رسومات من العصر النيوليثي تشير إلى وجود تفاهم حول الأدوار المشتركة للنساء والرجال فيما قبل الخلق. على سبيل المثال يظهر أحد الدبابيس الحجرية الصغيرة التي عُثر عليها في كاتال هويوك مشهداً لامرأة ورجل في عناق حنون، وإلى جوارهما مباشرة نقش لامرأة تحمل طفلاً هو نتيجة اتحادهما[33].

كل هذه الرسومات والصور تعكس المواقف المختلفة والمتميزة التي سادت في العصر النيوليثي حول العلاقة بين الرجال والنساء وهي مواقف تظهر أن الارتباط وليس التصنيف هو الذي كان سائداً في ذلك العصر. وكما تذكر غيمبوتاس: هنا، لم يكن في عالم الأساطير أي استقطاب نحو الأنثى والذكر كما كان الحال عند الهنود الأوروبيين وغيرهم من الشعوب الرحّل والمجتمعات

الرعوية في السهول. فقد كان كل من المبدأين ظاهراً جنباً إلى جنب. وكانت الألوهية الذكورية المصورة على شكل شاب أو ذكر الحيوان تبدو وكأنها تؤكد وتعزز القوى الأنثوية النشطة والخلاقة. فلا أحد منهما تابع للآخر، بل كانت قوتهما تتضاعف عبر تكملتهما لبعضهما البعض[34].

مرة تلو أخرى، نجد أن الجدال الجاري حول ما إذا كان هناك نظام يتبع الأم أو لم يكن، يبدو وكأنه مبني على عقيدة سائدة وليس على أدلة أثرية[35]. أي أن ثقافتنا المبنية على أفكار تتعلق بالهرمية والتصنيف والتفكير المتوجه إلى داخل الجماعة مقابل التفكير المتوجه إلى خارجها، تركز على الاختلافات الصارمة والاستقطابات.

فثقافتنا تتميز بمبدأ «إذا لم يكن هذا فسيكون ذاك» ، وهو مبدأ حذَّر الفلاسفة القدماء من أنه قد يؤدي إلى قراءة مغلوطة حتى لأبسط الوقائع. كما كشف علماء النفس اليوم أنه علامة على تطور يعبر عن مرحلة أدنى تطوراً من الناحية المعرفية والعاطفية[36].

ويبدو أن ميللارت حاول التغلب على هذه المعضلة التي تقول بأنه إذ لم يكن النظام الاجتماعي معتمداً على الأب فإنه لابد أن يكون معتمداً على الأم، وذلك عندما كتب الفقرة التالية:

«إذا كانت الإلهة قد سادت على جميع النشاطات المتعلقة بالحياة والموت لدى سكان كاتال هويوك في العصر النيوليثي، فإن ابنها قد فعل الشيء نفسه بطريقة ما. فحتى لو ظهر دوره وكأنه تابع لها فقط، فإن دور الذكور في الحياة يبدو وكأنه دور معترف به تماماً»[37]. ولكن وسط هذا التناقض بين قولنا «تابع فقط» وبين «معترف به تماماً»، نجد أنفسنا وقد علقنا في خضم فرضيات ثقافية ولغوية متأصلة في عقيدة النظام المهيمن، أي أن العلاقات الإنسانية يجب أن تدخل ضمن نوع من النظام التصنيفي الذي يعتمد وجود أسياد وعبيد.

ولكن إذا نظرنا إلى الموضوع من وجهة نظر تحليلية أو منطقية، فإن سيادة الإلهة ومعها تلك المركزية في القيم التي يرمز إليها من خلال قوة التجديد والرعاية الموجودة في جسد الأنثى، لا تبرر الاستنتاج بأن النساء قد هيمنّ على الرجال. ويصبح هذا الأمر أكثر وضوحاً إذا بدأنا بمشابهة العلاقة الإنسانية الوحيدة التي لا يمكن وضعها ضمن مفهوم السيد والعبد حتى في أذهان المجتمعات التي يهيمن عليها الذكور. هذه العلاقة هي العلاقة بين الأم وطفلها، ولعل الطريقة التي ننظر بها إلى هذه العلاقة، هي ما تبقى لدينا من مفاهيم ما قبل سيادة الأنظمة الأبوية على العالم. فالأم الراشدة، الأكبر والأقوى تظهر بكل وضوح ضمن الهرمية المعتادة، أعلى مكانة من الطفل الأصغر والأضعف. ولكن هذا لا يتبع بأننا نفكر في الطفل عادة على أنه الأدنى قيمة.

وإذا قمنا بإجراء مشابهة بناءً على هذا الإطار التفكيري المختلف، فإن بإمكاننا أن نرى حقيقة أن النساء لعبن أدواراً مركزية وحيوية في ديانات ما قبل التاريخ وأن الحياة في ذلك الزمان لا تعني بالضرورة أن الرجال كانوا يعاملون كتابعين أو يعتبرون تابعين. لأن كلاً من الرجال والنساء هنا كانوا أطفالاً للإلهة كَمَا هم أطفال المرأة التي ترأست العائلات والعشائر. وفي حين أن هذا الأمر أعطى النساء قدراً كبيراً من القوة فإن مشابهتنا للعلاقة التي تقوم اليوم بين الأم وطفلها تدعونا إلى الاعتقاد بأن هذه القوة كانت قوة ترتبط بالمسؤولية والرعاية أكثر من ارتباطها بالقمع والامتياز والخوف.

باختصار، فإن على النقيض من وجهة النظر التي ما زالت تسود اليوم حول القوة المتمثلة في حد السكين، أي القوة التي تأخذ وتهيمن، بدا وكأن المجتمعات النيوليثية التي عبدت الإلهة كانت تحمل وجهة نظر مختلفة تماماً عن تلك القوة، وكانت تلك الفكرة تشكل العُرف السائد في حياتها. ورغم أن فكرة القوة المبنية على قوة المرأة في الرعاية والعطاء لم تكن تحظى بلا شك بالتزام

وإذعان كاملين، حيث أن هذه المجتمعات مؤلفة من بشر من لحم ودم وليس من مثاليات، إلا أنها كانت فكرة نموذجية في ذلك المجتمع يسير عليها الرجال والنساء على السواء.

ونظرة القوة التي تمثلها الكأس المقدسة والتي أقترح تسميتها بقوة تحقيق الواقع لكي أميزها عن قوة الهيمنة، تعكس وبوضوح، نوعاً من النظام الاجتماعي يختلف عما نحن معتادون عليه[38]. ويمكننا أن نستنتج من الأدلة التي قمنا بفحصها حتى الآن أنه مجتمع لا يمكن أن نطلق عليه صفة الاعتماد على الأم ولا الاعتماد على الأب كذلك، لأنه نظام لا يمكن إدخاله ضمن العقيدة التقليدية للهيمنة في النظم الاجتماعية الموجودة. إلا أننا إذا قمنا باستخدام مفهوم نظرية التحول الثقافي أو الحضاري التي نقوم بتطويرها الآن، فسوف نلمس وجود نظرية أخرى تدخل ضمن هذا السياق وهي مجتمع متشارك لا يتم فيه تصنيف نصف البشرية على أنه أعلى من النصف الآخر، ولا يساوي التنوع بمن هو أعلى وأدنى من الآخر.

وسوف نرى في الفصول التي تلي، كم استطاع هذان البديلان أن يؤثرا على تطورنا الحضاري. فقد أصبح التطور الاجتماعي والتقني أكثر تعقيداً بغض النظر عن النموذج السائد، إلا أن اتجاه التطور الحضاري بما فيه كون النظام الاجتماعي نظاماً حربياً أو سلمياً، يعتمد على فيما لو كنا نملك بنية اجتماعية تقوم على المشاركة أم بنية تعتمد على الهيمنة.

الفصل 3

الفـارق الأساسي

كريت

ما قبل التاريخ يشبه أحجية تركيب القطع ضخمة التي تعرض أكثر من نصف قطعها للدمار أو الضياع، لذلك فإن من المستحيل إعادة تركيبها بأكملها. إلا أن العقبة الأكبر التي تقف في طريق إعادة تركيب فترة ما قبل التاريخ ليست في افتقارنا إلى العديد من القطع ولكن في نموذج التفسير السائد الذي يجعل من الصعب تفسير القطع التي بحوزتنا ومعرفة النمط الصحيح الذي يساعدنا على تركيبها.

على سبيل المثال، عندما كتب السير فليندزر بيتري للمرة الأولى حول حفريات قبر ميرييت - نت في مصر، افترض مباشرة أن ميرييت - نت كان ملكاً. إلا أن الأبحاث التي جرت لاحقاً أكدت أن ميرييت - نت هي امرأة وأن فخامة قبرها تدل على أنها كانت ملكة. الخطأ نفسه ارتُكب لدى اكتشاف القبر الضخم في نجادة على يد البروفيسور دي مورغان حيث افترض أن المكان هو مدفن للملك هور - أها من السلالة الأولى في حين أظهر بحث لاحق أجراه عالم الأحياء وولتر إيمري أن القبر هو لنت-حوتب والدة هور - أها[1].

هذه الأمثلة التي تظهر كيف أدى التعصب الثقافي إلى ارتكاب أخطاء هي أمثلة استثنائية من حيث أنه تم تصحيحها كما تقول مؤرخة الفن ميرلين ستون. وقد تنقلت ستون حول العالم، وبحثت في حفرية تلو الأخرى وأرشيف تلو

أرشيف وقطعة إثر قطعة، لتعيد فحص المصادر الأساسية وتراجع كيفية تفسيرها. وقد اكتشفت ستون أن معظم الأدلة التي تظهر أن الرجال والنساء عاشوا متساوين في الأزمنة الغابرة، قد تم تجاهلها[2].

في الصفحات التي تلي، وفيما نحن نتفحص الحضارة القديمة الرائعة التي اكتشفت مع بواكير القرن العشرين في جزيرة كريت الواقعة في البحر المتوسط، فإننا سوف نلمس كيف أدى التعصب إلى ظهور وجهة نظر غير متكاملة بل ومشوهة في حقيقة الأمر ليس حول تطورنا الحضاري فحسب بل حول تطور الحضارة الأوسع أيضاً.

القنبلة الأثرية

كان اكتشاف الحضارة القديمة بنظامها الاجتماعي المعقد وتقنيتها المتقدمة في جزيرة كريت المينوية (سميت بذلك من قبل علماء الآثار نسبة إلى الملك الأسطوري مينوس) يشكل نوعاً من المفاجأة المذهلة أو القنبلة. وجاء وقع الاكتشاف كالصاعقة على رؤوس علماء الآثار كما يصفه نيكولاس بلاتون عالِم الآثار الذي كان قد مرّ عليه في العام 1980 أكثر من خمسين عاماً وهو يحفر في تلك المنطقة. ويضيف نيكولاس: لم يستطع علماء الآثار أن يفهموا كيف أن وجود مثل هذه الحضارة العالية التطور قد بقي دون اكتشاف حتى ذلك الحين[3].

منذ البداية، يقول بلايتون الذي عمل لعدة سنوات كمشرف على آثار كريت، تم تحقيق اكتشافات مذهلة ومع تقدم العمل عُثر على عدد كبير من القصور المكونة من عدة طوابق، ومنازل، ومزارع وضواحٍ لمدن كانت مأهولة ومنظمة بشكل جيد إضافة إلى معدات موانئ وشبكات من الطرق التي تقطع الجزيرة في طرفيها وأماكن عبادة ومدافن...[4]. ومع توالي الحفريات، تم العثور على أربع مخطوطات هيروغليفية ومخطوطات طولية بدائية وطولية من النوع (أ)

والنوع (ب) تظهر أن حضارة كريت قد دخلت في عصور التاريخ والقراءة والكتابة. وقد قدّمت هذه الحفريات معلومات واسعة حول النظم الاجتماعية والقيم التي ميزت المرحلتين المنيونية الأولى والمايسينية اللاحقة. ولعل أكثر الأشياء التي أدهشت العلماء مع تقدم الحفريات واكتشاف المزيد من ألواح الجص، والتماثيل والأواني والمنحوتات وغيرها من الأعمال الفنية، إدراكهم أن هذه البقايا والآثار تعود إلى تقليد فني وجمالي فريد من نوعه في تاريخ الحضارة.

تبدأ قصة الحضارة في كريت حول العالم 6000 قبل الميلاد عندما وصلت أول جالية من المهاجرين، الذين ربما قدموا من الأناضول، إلى شواطئ الجزيرة. وقد أحضر هؤلاء إلهتهم معهم إضافة إلى تقنيات زراعية صنّفت هؤلاء المستوطنين ضمن العصر النيوليثي. وعبر أربعة آلاف عام تلت، بقي التقدم التقني بطيئاً وثابتاً خصوصاً في الصناعات الفخارية والحياكة وعلم المعادن والنحت والهندسة وغيرها من الحِرَف، إضافة إلى ازدياد التجارة وتطور تدريجي في الفنون الحية والجميلة التي تميز كريت. ثم مع اقتراب عام 2000 قبل الميلاد دخلت كريت المرحلة التي يطلق عليها علماء الآثار اسم العصر المنيوي الأوسط أو فترة القصر القديم[5].

كانت هذه المرحلة قد تغلغلت جيداً في العصر البرونزي، وهو عصر أخذ يشهد في باقي المناطق المتحضرة من العالم استبدالاً متواصلاً للإلهة بآلهة الحرب الذكور. كانت الإلهة ما تزال تلقى احتراماً وتبجيلاً كما كان الحال مع الإلهتين حادور وإيزيس في مصر، وعشتار في بابل وإلهة الشمس في أرينا بالأناضول ولكنها أصبحت إلهة ثانوية توصف كزوجة أو كأم للآلهة الذكور الأكثر بأساً وقوة. كما شهد هذا العصر تراجعاً في قوة النساء وأصبح العُرف السائد هو هيمنة الذكور وحروب الغزو والرد على الغزوات.

أما في جزيرة كريت التي احتفظت بسيادة الإلهة، فلم يكن هناك أية مؤشرات عن وجود حروب. فقد شهد الاقتصاد ازدهاراً وشهدت الفنون انتعاشاً وحتى عندما وقعت الجزيرة في القرن الخامس عشر قبل الميلاد تحت حكم الأكيين حيث لم يعد علماء الآثار يتحدثون عن الثقافة المنيوية أو المايسينية، كانت العبادة للإلهة ما تزال هي السائدة في التفكير الديني للجزيرة.

وتحت النفوذ المنيوي الأكثر قِدَماً، والذي شهدته أيضاً أرض اليونان الأم خلال الفترة المايسينية، بدا وكأن أسياد الجزيرة من الأوروبيين قد تبنوا الكثير من الثقافة والديانة المينيوية. وعلى سبيل المثال: كانت صورة الإلهة وهي تركب عربتها التي يجرها حيوان خرافي نصفه نسر ونصفه أسد ، وتحمل الرجل الميت إلى الحياة الجديدة، ما تزال تملأ رسومات الهاجيا تريادا الشهيرة في القرن الخامس العشر قبل الميلاد، رغم أنها كانت أكثر صرامة وأفضل أسلوباً إلا أنها تعود بلا شك إلى فنون جزيرة كريت. كما كانت صور كاهنات الإلهة وليس صور الكهنة اللواتي يرتدين عباءات النساء الطويلة، تشير إلى أن الكاهنات كن ما زلن يلعبن الدور المركزي. وقد برز هذا أيضاً في صور الطقوس المرسومة أو الملصقة على لوحات الجص. فهنّ اللواتي كن على رأس المواكب، وهنّ اللواتي كن يمددن أيديهن للمس الهيكل.

وكما تنوه المؤرخة الثقافية جاكيتا هوكس بلغتها الطريفة والمقترنة بالعلماء: إذا كان هذا الأمر ما يزال صحيحاً في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، فإن انتشاره في الفترة التي سبقت هذا التاريخ هو أمر مفروغ منه بالتأكيد[6]، لذا نشاهد في قصر كنوسوس العظيم امرأة، هي الإلهة وحولها كاهناتها أو كما تعتقد هوكس ملكة كريت التي تقف في الوسط بينما يقترب منها موكبان من الرجال لتقديم الولاء لها[7]. وفي كل مكان يجد المرء وجوها نسائية، وقد رفعت العديدات منهن أذرعهن كإشارة للتبريك، فيما بعضهن يحملن الأفاعي والفؤوس الثنائية الرأس كرموز للإلهة.

حب الحياة والطبيعة

يبدو وكأن هذه الإيماءات المتعلقة بالتبريكات الوقورة، تمسك بجوهر الحضارة المنيوية. وكما يقول بلاتون، كان هذا مجتمعاً اتسمت حياته بإيمان غيور في الطبيعة الإلهية التي تعتبر منبع الخلق والانسجام. فقد سادت في جزيرة كريت وللمرة الأخيرة في التاريخ المدوّن روح من الانسجام بين الرجال والنساء كشركاء سعداء ومتساوين في الحياة. ووسط هذه الروح التي أشرقت من خلال التقاليد الفنية في كريت، برزت تقاليد، وبحسب قول بلاتون، فريدة في بهجتها وجمالها ونعمتها وحركتها، إضافة إلى تمتعها بالحياة والتصاقها بالطبيعة[8].

ويصف بعض العلماء الحياة في الفترة المنيوية بأنها تعبر تماماً عن فكرة الإنسان وعن نبضات إنسانية راقية من خلال تقاليد وفنون بهيجة وتحمل معاني أسطورية في الوقت نفسه، وقد حاول آخرون أن يلخّصوا حضارة جزيرة كريت بكلمات وعبارات مثل «حساسية» و«نعمة الحياة» و«حب الجمال والطبيعة». ورغم أن قلة من العلماء من أمثال سايروس غوردون، ممن حاولوا الانتقاص من قدر هذه الظاهرة أو إعادة وصفها لكي تلائم المفاهيم الأكثر شيوعاً وقبولاً من ناحية أنها أكثر تطوراً من ناحية الحروب وأقل تطوراً من الناحية الروحية، باستثناء العبرانيين، إلا أن غالبية العلماء وخاصة الذين توسعوا في أعمال الحفريات الميدانية على الجزيرة بدوا وكأنهم غير قادرين على كتمان إعجابهم وحتى دهشتهم في وصف ما اكتشفوه[9].

فالأمر هنا يتعلق بحضارة ذات تقنية غنية وثقافة متقدمة، ويقول عالما الآثار هانز - غونثر بوخولتز وفاسوس كاراجورغيس: جميع المظاهر الفنية في الحقيقة والتي تمثل الحياة بمجموعها بالإضافة إلى الموت، كانت مغروسة بعمق في ديانة عامة وكلية الوجود. ولكن هذه الديانة، وعلى نقيض واضح للحضارات المتقدمة الأخرى التي عاصرتها، ظلت تركز على عبادة الإلهة وبدت وكأنها

تعكس وتعزز نظاماً اجتماعياً «يقول فيه نيكولاس بلاتون: كان الفرح الكلي الوجود للحياة يطمس الخوف من الموت»[10].

كذلك وصف العلماء المتزنون من أمثال السير ليونارد وولي، الفن المنيوي بأنه الفن الأكثر إلهاماً في العالم القديم[11]. وقد استخدم علماء آثار ومؤرخون من سائر أنحاء العالم في وصفه عبارات مثل «سحر عالم خيالي» أو «تقبل تام لنعم الحياة لم يشهد العالم مثله»[12]. ولم يكن هذا الوصف الفريد يطلق فقط على ألواح الجص الرائعة التي رسمت عليها طيور الحجل بألوانها المتعددة، وعلى صور الحيوانات الخرافية، والسيدات الأنيقات والتحف الذهبية الصغيرة الرفيعة والمجوهرات الأنيقة والتماثيل الرائعة، ولكن على مجتمع جزيرة كريت بأكمله الذي صعق العلماء بصفاته الفذة الفريدة.

على سبيل المثال: من المظاهر الرائعة التي ميّزت المجتمع في كريت عن غيره من مجتمعات الحضارات القديمة هو أنه كان يتبّع سياسة المساواة في تقاسم الثروة، فحتى مستوى عيش الفلاحين، كما يقول بلاتون، كان عالياً بحيث لم تُبين أي من المساكن التي تم العثور عليها، وجود ظروف عيش بائسة أو فقيرة[13]. إلا أن هذا لا يعني القول بأن كريت كانت أغنى من مصر أو بابل أو حتى في مستوى غناهما. ولكن على ضوء الهوة الاجتماعية والاقتصادية التي كانت موجودة بين من كانوا في القمة ومن كانوا في القاع، والتي ميّزت حضارات أخرى، فإن من المهم أن نذكر هنا أن كريت كانت تستخدم الثروة وتوزعها بطريقة اختلفت منذ بدايتها عن سائر هذه الحضارات.

منذ بواكير الاستيطان في الجزيرة، كان الاقتصاد في أساسه زراعياً، ولكن مع مرور الزمن، أخذت قطاعات أخرى مثل الصناعة والإنتاج الحيواني والتجارة تأخذ اهتماماً متزايداً، وقد تعززت التجارة من خلال أسطول تجاري كان يبحر ويسيطر عملياً على كامل البحر المتوسط، مما أسهم بشكل كبير في

الازدهار الاقتصادي الذي عمّ البلاد. وعلى الرغم من أن أسس التنظيم الاجتماعي كانت ما تزال في أوائلها إلا أنه وحوالي العام 2000 قبل الميلاد كانت العشيرة التي ترأسها الأم قد أصبحت نظاماً أكثر مركزية في كريت. وهناك أدلة على أن تلك المرحلة التي يسميها السير آرثر إيفانز الفترة المنيوية الوسطى والمتأخرة، أو يسميها بلاتون فترة القصر القديمة والجديدة، قد شهدت وجود إدارة حكومية مركزية في العديد من قصور كريت.

ولكن المركزية هنا لم تجلب معها حكماً أوتوقراطياً، ولا سخرت استخدام التقنية فقط من أجل منفعة الأقلية من ذوي النفوذ لكي يستغلوا الجماهير ويبطشوا بها، وهي الأعراف التي كانت سائدة في غيرها من حضارات ذلك الزمان. إذ إنه على الرغم من كون الطبقة الحاكمة ني كريت طبقة موسرة إلا أنه لا يوجد أي دليل على كونها كانت مدعومة من قوى جماهيرية مسلحة، فيما عدا تلك الأساطير الإغريقية اللاحقة مثل أسطورة ثيسيوس والملك مينوس والميناطور.

وقد أدى تطور الكتابة إلى إنشاء أول بيروقراطية في التاريخ، كما يظهر في أحد ألواح المخطوطة (أ). ويعلق بلاتون على أن أموال الجباية التي كانت الحكومة تحصلها من ثروة الجزيرة المتصاعدة كانت تستخدم بحكمة وحصافة في تحسين الظروف المعيشية في الجزيرة والتي كانت تعتبر ضمن المعايير الغربية عصرية بشكل استثنائي «فجميع المراكز الحضرية كانت تتمتع بأنظمة صرف جوفي ممتازة إضافة إلى المرافق الصحية والخدمات المنزلية، ويضيف بلاتون أن مما لا شك فيه أن الأشغال العامة الموسعة كانت تدفع من صندوق الخزانة الملكي، وكانت تشكل نظاماً معمولاً به في العهد المنيوي في كريت. وعلى الرغم من أن الآثار التي تم استيضاحها حتى الآن ما زالت قليلة إلا أنها كشفت عن وجود جسور وطرق معبدة ومحطات مراقبة وحمايات على الطرق وأقنية ماء ونوافير

وسدود وغيرها. كما أن هناك أدلة على وجود أعمال ري موسعة وقنوات لنقل وتوزيع المياه[14].

ورغم الزلازل التي ضربت المنطقة بشكل متكرر وأدت إلى تدمير القصور القديمة وقطعت مرتين تطور مراكز القصور الجديدة، إلا أن هندسة الإعمار في كريت بقيت فريدة بين الحضارات. فهذه القصور كانت تشكل خليطاً رائعاً من المناظر الأخاذة التي تمتع النظر بدلاً من النُّصُبْ التي تدل على السلطة والقوة والتي تميزت بها حضارة سومر ومصر وروما وغيرها من المجتمعات الحربية الطابع التي حكمها الذكور.

كانت القصور في كريت تحتوي على واجهات واسعة وأفنية ضخمة إضافة إلى المئات من الغرف المبنية بطريقة متاهات منظمة أصبحت فيما بعد علامة متميزة لكريت في الأساطير الإغريقية. ووسط متاهات البناء هذه، كانت هناك شقق وطوابق مشادة على مختلف الارتفاعات ومرتبة بطريقة غير متجانسة حول الساحات المركزية، كما كانت هناك غرف مخصصة للعبادة. وكان للحاشية الملكية أجنحتهم الخاصة في القصر، أو كانوا يملكون منازل جميلة في الجوار. كذلك كانت هناك أحياء خاصة بالموظفين المدنيين في القصر. وقد وجدت في القصور صفوف طويلة من المخازن المرتبطة مع بعضها البعض بممرات، وكانت هذه المخازن تستخدم لحفظ الكنوز وتخزين الأطعمة، كما استخدمت القاعات الضخمة المزدانة بصفوف من الأعمدة الرائعة من أجل الاستقبالات والحضور والمآدب واجتماعات المجالس[15].

أما البساتين فشكلت مظهراً أساسياً في فن العمارة خلال معظم مراحل العهد المنيوي، وكذلك الأمر بالنسبة لتصميم البنايات والذي روعي فيه مسائل مثل الخصوصية والضوء الطبيعي المناسب والخدمات المنزلية، والأهم من ذلك كله، الاهتمام بالتفاصيل والنواحي الجمالية، ويكتب بلاتون في هذا الصدد:

كان كل شيء مصنوعاً بدقة: أعمدة من الجبس وحجر التوفه ذو المسامات والقرميد. كان يوجد وصلات متينة التركيب بين واجهات المباني والجدران والساحات والآبار المضاءة، وقواطع مزينة بالملصقات المصنوعة من الجصّ واللوحات الجدارية في معظم الحالات، إضافة إلى الواجهات الرخامية. كذلك كانت الأسقف والأرضيات مزينة بالرسومات سواء داخل البيوت أو المباني الحكومية أو المنازل في البلدات الصغيرة. وكانت الرسومات مأخوذة بشكل أساسي عن الحياة البحرية والنباتات البرية والاحتفالات الدينية وحياة البهجة التي عمّت البلاد. كانت عبادة الطبيعة تطغى على كل شيء[16].

حضارة فريدة

يمثل قصر كنوسوس الشهير بشرفاته المظللة بصفوف الأشجار وغرف الاستقبال الرائعة بداخله، نموذجاً للحضارة المنيوية في ظاهرها الجمالي أكثر مما تمثله التماثيل التي تزين غرفة العرش والشقق الملكية، ولعل هذا يشكل تعبيراً عن الروح الأنثوية في الفن المعماري لجزيرة كريت كما تصفها المؤرخة الثقافية جاكيتا هوكس[17].

عاش في قصر كنوسوس ما يقارب الألف ساكن،وكان القصر متصلاً بموانئ الشاطئ الجنوبي عبر طريق واسعة مرصفة، وهي الطريق الأولى من نوعها في أوروبا. أما شوارع القصر فكانت مثلها مثل مراكز القصور الأخرى المعروفة بماليا وفيستوس، معبدة وجيدة الصرف يتقدمها منزل بطابقين أو ثلاثة، مسطح السقف أو تعلوه سقيفة أو حجرة فوقية من أجل قضاء ليالي الصيف الحارة[18].

وتصف هوكس البلدات الصغيرة المحيطة بالقصور بأنها كانت مصممة للعيش المتحضر بينما يصفها بلاتون بأنها كانت تتميز بوجود حياة خاصة في

ذلك العصر وبأن هذه الحياة قد وصلت إلى درجة عالية من الرقي والراحة. ويلخص بلاتون ذلك كله بالقول: كانت البيوت مصممة لتتكيف مع جميع الحاجات العملية للحياة وحولها أجواء جذابة، فقد تميز المنيويون بقربهم الشديد من الطبيعة وكان فنّهم المعماري مصمماً للاستمتاع بها بأكثر قدر يستطيعونه[19].

كما كانت الأزياء في كريت مصممة لتغطي الناحية الجمالية والعملية، بحيث تسمح بحرية الحركة وشملت الرياضة الرجال والنساء الذين كانوا يمارسونها كمتعة للتسلية، أما بالنسبة للأطعمة، فقد شملت العديد من النباتات المزروعة إضافة إلى لحوم الماشية والأسماك والعسل والنبيذ مما وفّر لهم غذاءً صحياً ومتنوعاً[20].

كان هناك خلط بين التسلية والدين مما جعل من النشاطات الهادفة إلى تعبئة أوقات الفراغ ممتعة وذات معنى على السواء. ويقول بلاتون: كان هناك العديد من الاحتفالات العامة التي غلب عليها الطابع الديني، وكان يرافقها الاستعراضات والمآدب والعروض البهلوانية التي كانت تمارس على مسارح بنيت خصيصاً لهذا السبب، أو على مساحات خشبية ولعل أشهر ما عرف منها كانت ألعاب الثيران[21].

ويلخص عالم آخر هو رينولد هيغنز هذه الظاهرة في حياة جزيرة كريت فيقول: بالنسبة لأهل كريت كان الدين بمثابة مسألة سعيدة وكانت الاحتفالات تتم في معابد القصور أو في المناطق المقدسة المفتوحة على رؤوس الجبال وفي الكهوف المقدسة... وكانت ديانتهم مرتبطة كثيراً بتسليتهم. في الدرجة الأولى من الأهمية، كانت رياضة مصارعة الثيران التي تجري في الساحات المركزية للقصور. وكان الشباب والصبايا يعملون ضمن فِرَق تقوم كل بدورها بالتقاط قرن ثور هائج ثم شقلبة الثور ليقع على ظهره[22].

لعل المساواة في المشاركة بين الرجال والنساء والتي ميّزت المجتمع المنيوي، تبرز بوضوح أكبر في هذه الألعاب المقدسة مع الثيران حيث يشترك الشباب والصبايا معاً ويضعون حياتهم في يد بعضهم البعض. وتبدو هذه الطقوس التي تجمع بين الإثارة، والمهارة والحماس الديني وكأنها كانت تميز الروح المنيوية في ناحية هامة أخرى. فقد كانت هذه الألعاب مصممة ليس فقط من أجل متعة الفرد أو خلاصه بل أيضاً من أجل حث الروح الإلهية ودفعها لجلب الخير إلى المجتمع برمته[23].

مرة أخرى، نجد أن من الأهمية بمكان التركيز على أن مجتمع جزيرة كريت لم يكن مجتمعاً مثالياً بل مجتمعاً إنسانياً حقيقياً متكاملاً بمشاكله ونواقصه. كان مجتمعاً قد تطور منذ آلاف السنين حين لم يكن هناك علم كالعلم الذي نعرفه اليوم، وكانت الظواهر الطبيعية ما تزال تفسر أو يتم التعامل معها عبر طقوس الاستعطاف للآلهة وعبر المعتقدات المفسَّرة بالصور[24]. كذلك كان مجتمعاً يعمل وسط ظروف شهدت تصاعداً في الهيمنة الذكورية والأعمال الحربية في العالم.

نحن نعرف، على سبيل المثال أن أهل كريت كانوا يمتلكون الأسلحة، وبعض هذه الأسلحة كانت الخناجر المزخرفة الجميلة والمصنوعة بمهارة تقنية عالية. وربما مع تزايد القرصنة والأعمال الحربية في البحر المتوسط، اضطر أهل كريت إلى خوض معارك بحرية من أجل الحفاظ على تجارتهم وحماية شواطئهم، ولكنهم على النقيض من الحضارات الكبيرة الأخرى التي سادت في زمنهم، لم يكن الفن في كريت يمجد الحروب. بل وكما ذكرنا سابقاً، فقد كانت الفأس الثنائية الرأس لدى الإلهة ترمز إلى العطاء الخيِّر للأرض، إذ كانت مفصّلة على شكل مجرفة لتنظيف الأرض تمهيداً لزرعها إضافة إلى شكلها الذي يشبه الفراشة والذي كان يرمز إلى صفة الإلهة في التحول والولادة من جديد.

كذلك، لم ترد أي إشارات بأن موارد كريت المادية كانت مستثمرة بكثافة في تقنيات التدمير، كما هو الحال في عالمنا المعاصر الذي يشهد يومياً مثل هذه الأمور. على العكس من ذلك، تشير الأدلة إلى أن الثروة في كريت كانت تستثمر بشكل رئيسي من أجل العيش بانسجام والتمتع بالحياة.

وكما يذكر بلاتون: كانت الحياة برمتها مفعمة بإيمان غيور في طبيعة الإلهة التي تعتبر منبع الخلق والانسجام. وقد أدى هذا إلى حب السلام، والخوف من الطغيان واحترام للقانون. وحتى بين الطبقات الحاكمة، بدا وكأن الطموحات الشخصية كانت مغيبة، إذ أننا لا نجد أي ذكر لاسم مؤلف أو صانع لأي عمل فني ولا أي تسجيل لمنجزات الحكّام[25].

بالنسبة لزماننا هذا، عندما تتطلب الحياة «حباً للسلام وخشية من الطغيان واحتراماً للقانون»، تصبح الفروقات بين الروح التي سادت في كريت وبين جيرانها شأناً يستحق بل يثير الاهتمام بإجراء دراسة أكاديمية. فأمام حقائق تدل على أن البلدات في كريت كانت خالية من التحصينات العسكرية، والمنازل القائمة على أطراف البحر لم تكن محمية، كذلك أمام غياب أي دليل على نشوب حروب بين المدن والولايات داخل الجزيرة على نقيض المدن العالية الجدران والحروب المزمنة التي كانت تشكل عُرفاً متبعاً في كل المناطق الأخرى في ذلك الزمن، نجد أن هذا التأكيد القادم من أعماق الزمان الغابر يبين لنا أن التعايش بسلام وأمل بين البشر ليس مجرد أحلام طوباوية. أيضاً نجد ونحن نقف أمام الصور الأسطورية لكريت وللإلهة التي هي أم الكون والبشر والحيوان والنبات والماء والسماء كما تظهر على الأرض، أن إدراكنا لوحدتنا مع الطبيعة هو موضوع أخذ يعود إلى الظهور اليوم، كشرط مسبق لبقائنا في هذه البيئة.

ولكن أكثر ما يسترعي الانتباه بالنسبة لعلاقة المجتمع بالعقيدة أنه، وخاصة في أوائل فترة عصر المنيوية، بدا الفن في كريت وكأنه انعكاس لمجتمع لا تتماثل

فيه القوة مع الهيمنة والتدمير والظلم. وكما تقول جاكيتا هوكس وهي إحدى النساء القليلات اللواتي كتبن عن كريت: هنا تغيب صورة الملك المحارب والمنتصر الذي يذل أعداءه ويستعبدهم. ففي كريت التي كان حكامها المبجّلون يتمتعون بالثروة والنفوذ ويعيشون في قصور فخمة، لن تجد أثاراً لمظاهر العنترية الذكورية والوحشية الجاهلة[26].

ولعل أحد الملامح المميزة للحضارة في كريت، كان غياب التماثيل والرسومات التي تظهر أولئك الذين كانوا يجلسون على العروش أو قصورهم، فما عدا لوحات الجص التي تمثل الإلهة أو ربما الملكة/ الكاهنة التي كانت تحمل في وسط المسيرات والاحتفالات. لم يكن هناك على ما يبدو أي وجود لرسومات ملكية من أي نوع في المراحل الأخيرة من تلك الفترة. وحتى في هذه المراحل، كان الاستثناء الوحيد، هو ظهور صور مرسومة لأمير شاب عار حتى الخصر وغير مسلح، وله شعر طويل متوج بريش طاووس، تظهره وهو يتنزه بين الفراشات والورود.

كذلك، كان لافتاً للنظر أيضاً، غياب المناظر التي تصور المعارك أو الصيد في فن العهد المنيوي في كريت. وتعلق هوكس عل هذا قائلة: إن غياب مظاهر القوة الذكورية للحاكم والتي كانت منتشرة في ذلك الزمان وعامة في هذه المرحلة من التطور الحضاري، تعد أحد الأسباب التي تدفعنا للاعتقاد بأن من كان يجلس على عروش كريت المنيوية كنّ ملكات[27].

وهذا الاستنتاج هو تماماً الاستنتاج الذي توصلت إليه عالمة الآثار الثقافية روبي رورليخ - ليفيت التي كتبت عن كريت من وجهة نظر أنثوية وأشارت إلى أن علماء الآثار المعاصرين هم الذين أطلقوا على صورة الشاب التي ذكرناها سابقاً، اسم صورة الأمير الشاب أو الملك الكاهن، بينما في حقيقة الأمر لم يعثر على أي تمثيل لملك أو لإله ذكر مهيمن في تلك الحفريات. كما لاحظت أن

غياب مثاليات الهيمنة الذكورية والقوة المدمرة في فن جزيرة كريت يسير جنباً إلى جنب مع حقيقة كون هذا المجتمع مجتمعاً مسالماً استطاع أن يستمر في الحياة لمدة 1500 عام سواء داخل موطنه أو خارجه في زمن لم تتوقف فيه الحروب[28].

ويكتب بلاتون، في وصفه للمنيويين بأنهم شعب استثنائي في حبّه للسلام، ويكتب كذلك عن الملوك الذين حكموا كريت ويبدي دهشته الشديدة لكون كل ملك منهم استطاع ممارسة حكمه بانسجام تام وتعايش سلمي مع الآخرين، ويعلق بلاتون على الترابط الشديد بين الحكم والدين، وهو مظهر ساد الحياة السياسية القديمة، ولكنه يشير إلى التناقض الشديد الذي كان ماثلاً بين كريت وبين الحضارات المعاصرة، ويقول ربما كانت سلطة الملك هنا محددة من خلال مجالس يشغلها مسؤولون كبار كانوا يمثلون طبقات اجتماعية أخرى[29].

ولكن هذه المعلومات التي تم تجاهلها بشدة حول تلك الحضارة التي سبقت هيمنة النظم الاجتماعية الأبوية، في كريت القديمة، تزودنا ببعض الأدلة المدهشة التي سوف نقوم بمتابعتها لاحقاً، وهي أدلة تتعلق بأصول ما نعتبره اليوم ذا قيمة في الحضارة الغربية. والمدهش بشكل خاص كيف أن فكرتنا المعاصرة حول كيفية كون الحكومة ممثلة لمصالح الشعب قد تم تطبيقها في كريت المنيوية قبل زمن طويل من ولادة ما نسميها اليوم بالديمقراطية. كذلك تبدو الفكرة التي أخذت تنبثق حديثاً حول اعتبار القوة كمسؤولية بدلاً من كونها هيمنة، وكأنها تنبثق من جديد بعد أن كانت موجودة في تلك العصور الغابرة.

فالأدلة تشير إلى أن قوة كريت كانت تتساوى مع مسؤولية الأمومة أكثر منها مع انتزاع الطاعة لهيمنة نخبة من الذكور عبر استخدام القوة أو الخوف من القوة. وهذا التعريف للقوة يميز نموذج المشاركة في المجتمع حيث لا يتم الانتقاص من قيمة النساء والصفات التي يحملنها. وهذا التعريف للقوة كان ما يزال سائداً في كريت بينما أخذ تطورها الاجتماعي والتقني يصبح أكثر تعقيداً،

ومؤثراً بعمق على تطورها الحضاري. ولعل ما يحمل أهمية خاصة هو أنه وبعد فترة طويلة من دخول كريت في العصر البرونزي، في الوقت نفسه الذي كانت فيه الإلهة كواهبة لكل أشكال الحياة في الطبيعة، ما تزال تلاقي الاحترام والتبجيل كونها التسجيد الأسمى لأسرار هذا العالم، استمرت النساء في لعب أدوارهن البارزة في مجتمع كريت. وهنا كما تقول رولريخ - ليفيت: النساء هن المواضيع المركزية، وهن الأكثر تصويراً في الفنون والحِرَف. كما أنهن يظهرن بشكل رئيسي على الصعيد العام[30].

لم يكن هناك تأكيد بأن المدينة الدولة في ذلك الوقت والتي كانت تتطلب وجود معدات حرب وهرمية وإخضاع للنساء، قد وُلدت بعد. فمن الملاحظ في المدن الدول التي حكمت كريت وهي الجزيرة الأسطورية بثروتها وفنونها وحرفها وتجارتها المزدهرة، أن التقنيات الجديدة مع ما رافقها من تعقيدات في النظم الاجتماعية بما فيها زيادة التخصصات لم تجلب معها أي تراجع أو تدهور في منزلة المرأة.

على النقيض من ذلك، يبدو أن إعادة توزيع الأدوار في كريت المنيوية والتي رافقت التغير التقني قد عززت من مركز المرأة بدلاً من إضعافه، لأننا هنا لا نجد أية تغييرات إيديولوجية أو اجتماعية، فالأدوار الجديدة التي تطلبها التقدم التقني لم تجلب معها ذلك الانقطاع التاريخي الذي نلمسه في كل مكان. ففي مجتمعات جنوبي بلاد ما بين النهرين نلمس وجود نظام طبقي اجتماعي صارم وحروب متواصلة في الفترة حول 3500 عام قبل الميلاد إضافة إلى تدهور في مركز المرأة. أما في كريت المنيوية، وعلى الرغم من المدنية والتصنيفات الاجتماعية التي وُجدت، فقد بقيت الحروب مغيبة، وبقي مركز المرأة ثابتاً لم يتدهور[31].

الظاهر المستتر

ضمن النموذج السائد، الذي يعتمد تصنيف البشر في مبادئه التنظيمية، فإن القول بأن المرأة تحتل منزلة عالية يتبعه استنتاج بأن الرجل لابد أن يحتل منزلة

أدنى. وقد رأينا سابقاً كيف أن وجود دليل على الوراثة والتسلسل العائلي عن طريق الأم وأن اعتبار المرأة كإلهة عظمى ومنح الكاهنات والملكات سلطة دينوية، قد فُسِّر على أنه مجتمع محكوم من قِبَل الأم. ولكن هذا الدليل لا يجد تأكيداً في الأدلة الأثرية ولا يُستدل من خلاله كون المرأة في كريت تحتل منزلة عالية أن الرجال في كريت يحتلون منزلة تقارن بمنزلة النساء ضمن أنظمة اجتماعية يهيمن عليها الذكور.

في كريت المنيوية، كانت العلاقة بأكملها بين الجنسين، وليس فقط تعريفات وتقييمات أدوار كل جنس، بل الموقف تجاه الجنس والشهوانية، تختلف عن مفاهيمنا. على سبيل المثال كان لباس النساء الذي يبرز الصدر عارياً والثياب القصيرة والضيقة التي تبرز الأعضاء التناسلية عند الرجال، تُظهر نوعاً من التقدير الصريح للاختلافات بين الجنسين وللمتعة التي يمكن أن تأتي نتيجة هذه الاختلافات. ومما استطعنا معرفته من خلال طرق التحليل النفسي الإنساني، فقد عزز «رباط المتعة هذا» من الإحساس بالتبادلية بين الرجال والنساء كأفراد[32].

ولعل المواقف الطبيعية التي اتخذها أهل كريت تجاه الجنس، حملت معها نتائج أخرى تتساوى في صعوبة فهمها وسط النموذج السائد الذي تنظر فيه العقيدة الدينية إلى الجنس على أنه يحمل خطيئة أكبر من خطيئة العنف. وكما تذكر هوكس: «يبدو أن أهل كريت قد خففوا من عدوانيتهم أو حوّلوا اتجاهها عبر اتباعهم لطريقة حياة جنسية حرة ومتوازنة»[33]. فقد أسهمت مواقفهم التحررية تجاه الجنس بالترافق مع حماسهم للرياضة والرقص وحبّهم للحياة، في هيمنة روح مسالمة ومنسجمة، على الحياة في كريت.

وكما رأينا سابقاً، فإن هذه الروح هي التي وضعت كريت بعيداً عن الحضارات الكبرى الأخرى التي عاصرتها في ذلك الزمان، وكما يقول آرنولد

هاوزر فإن الحضارة المنيوية استثنائية من حيث الخلافات الجوهرية في الروح بينها وبين الحضارات التي عاصرتها[34].

ولكننا نصل الآن إلى الحصار الأبدي، إلى نقطة يواجه فيها العلماء المعلومات التي يتم استثناؤها ضمن وجهة النظر السائدة في العالم. لأنه عندما يصل الأمر إلى ربط هذا الاختلاف الجوهري بحقيقة أن كريت المنيونية كانت آخر المجتمعات الأكثر تقدماً التي لم تكن فيها الهيمنة الذكورية عُرفاً سائداً، يقف العلماء في الفراغ أو يردون رأسهم في اتجاه آخر. وفي أفضل الحالات ربما يلتفون حول الموضوع باتباع استراتيجية التهميش. ربما يذكرون بأنه وعلى نقيض حاد للحضارات المعاصرة القديمة فإن القيم الأنثوية في كريت من حيث المسالمة والحساسية تجاه احتياجات الآخرين كانت تعطى الأولوية في النظام الاجتماعي. كما قد يذكرون أيضاً وعلى النقيض من المجتمعات الأخرى، كانت النساء في كريت يحتلين مراتب اجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية عالية، ولكنهم في مرورهم على هذه النقطة دون التركيز عليها يعطون مؤشراً إلى القارئ الذي يتلقى المعلومات منهم بأن هذه النقطة هامشية أو لا قيمة لها.

من خلال مراجعة معظم الأدبيات المتعلقة بكريت، يتذكر المرء تاريخياً ملاحظة تشارلز داروين الفضولية حول سلالة الإنسان. فعندما كتب داروين في قسم الكتاب المتعلق بالاختلافات العرقية بالنسبة لهذا الموضوع العلمي الكلاسيكي، ذكر أنه عندما شاهد تمثال الفرعون أمونحب الثالث، لاحظ أن وجهه يحمل ملامح زنجية، وقد أدى هذا إلى الإقرار بوجود فراعنة سود في مصر. وعلى الرغم من أن ملاحظاته قد تم تأكيدها فيما بعد من قِبَل شخصين كانا معه، فقد اضطر إلى الاستشهاد بكلام مرجعين معروفين حول هذا الموضوع، وهذان المرجعان هما جي. سي. نوت، وجورج. ر. غليدون اللذان وصفا ملامح الفراعنة في كتابهما «أنواع البشر» بأنها: «أوروبية بحتة» وأكدا أن التمثال المذكور لم يكن يحمل أي مزيج زنجي على الإطلاق[35].

في بداية هذا الفصل، ذكرنا عدة أحداث من هذا النوع تتعلق بأدلة حول نساء الفراعنة مثل ميرييت - نيت ونيت - حوتب. وبينما نجد في الأدبيات المصرية نوعاً من التعامي السلطوي هنا وهناك، إلا أنه في معظم الأدبيات العلمية المتعلقة بكريت، يوجد تحريف عام يتسبب في أن تصبح الرسالة الواضحة غير مرئية أو مهمشة في أحسن الأحوال. ورغم الأدلة التي ظهرت بعد داروين بزمن والتماثيل التي دلّت على وجود حكام فراعنة من السود في مصر إلا أن الخبراء الذين هم معظمهم من الذكور البيض، ما زالوا مصرِّين على عدم وجود أي خليط زنجي في الفراعنة[36]. وعلى المنوال نفسه نجد أن الدليل الساطع للاختلاف الجوهري بين حضارة كريت وسائر المجتمعات الأخرى التي عاصرتها في ذلك الزمان، ما زال يتعرض لإنكار مستمر أو يمضي بدون تفسير من قِبَل معظم العلماء.

إن الدور المركزي الذي لعبته النساء في مجتمع جزيرة كريت، هو دور لافت للنظر بحيث أنه منذ اللحظة الأولى لاكتشاف الحضارة المنيوية، لم يتمكن العلماء من تجاهل الأمر تماماً، لكنهم مثلهم مثل داروين اضطروا إلى إدخال ما رؤوه بأعينهم لكي يتلاءم مع الإيديولوجية السائدة. على سبيل المثال، عندما بدأ السير آرثر إيفانز بالحفر على أرض جزيرة كريت في أوائل القرن العشرين، أدرك أن سكان كريت كانوا يعبدن إلهة أنثى كما رأى أن الفن في كريت كان يعرض مشاهد إيمانية أنثوية ولكنه في تعليقه على الأحداث شعر أنه مضطر إلى تشبيه هذه الصور فوراً بما سماه الأحاديث الدائرة حول فضائح المجتمع[37].

ولعل موقف هانز - غونتر بوخولتز وفاسوس كارجورغيس من ناحية يمثل رسماً كاريكاتيرياً للموقف الألماني النموذجي من المرأة، ومن ناحية أخرى نجد أنهما يعلقان بالقول بأن بروز الظاهرة الأنثوية في مجالات الحياة قد انعكس في البنثيون أو الهيكل المكرَّس لجميع الآلهة، وأنه في مرحلة لاحقة يمكن إدراك

المرتبة العالية للمرأة في الديانة الأكثر ذكورية والتي شملت عصر الحضارة المايسينية[38]. فقط جاكيتا هوكس وهي امرأة، وصفت الحضارة المنيوية بصراحة بأنها حضارة أنثوية، ولكنها توقفت أمام متابعة المدلولات الكاملة لمثل هذه الملاحظة.

أما بلاتون فيذكر بشكل خاص أن الدور الهام الذي لعبته المرأة ظاهر في كل المجالات. ويقول بلاتون لاحقاً إنه لا يجد شكاً في أن تأثير المرأة أو على الأقل تأثير الحساسية الأنثوية قد أسهم إسهاماً ملموساً في الفن المنيوني، ويضيف: أن الدور المهيمن الذي لعبته المرأة في المجتمع يبرز من خلال حقيقة مشاركتها بفعالية في جميع مناحي الحياة في القصر، ولكن رغم اعترافه بالمرتبة العالية للمرأة ومشاركتها الفعالة والنشطة في جميع مناحي الحياة، وبأن هذين الأمرين يميزان الحضارة في كريت إلا أننا نجده (أي بلاتون) مضطراً لإضافة ما يلي: «ربما كان هذا الأمر عائداً إلى غياب الرجال لمدة طويلة في البحر» . ولكن عمله يبقى عملاً علمياً استثنائياً رائعاً حيث يذكر بشكل خاص أنه على الرغم من الضلال الذي قد يرافق وصف مجتمع كريت بأنه مجتمع تهيمن عليه الأم إلا أن هناك دليلاً قوياً، حتى في الفترة الهيلينية اللاحقة، بأن سلالة النسب كانت تمر من خلال الخط الأنثوي.

وهكذا، مرة تلو أخرى، نلاحظ كيف أنه تحت ظل النموذج السائد، لا يمكن رؤية ماضينا الحقيقي، والدفع الأصلي لتطورنا الحضاري، إلا من خلال زجاج معتم. ولكن في اللحظة التي نقف فيها وجهاً لوجه أمام الأهمية الكاملة لما ينذر به هذا الماضي، وما كان يمكننا على مستوى تطورنا الاجتماعي والتقني أن نكون أو أن نعود إلى ما كنّا، فإننا نواجه السؤال الذي يسكننا دائماً: ما الذي جلب هذا التغير الجذري في توجهنا الحضاري، وما الذي قلبنا من نظام اجتماعي يرفع الكأس المقدسة إلى نظام يهيمن عليه حد السكين وكيف حدث هذا التغيير؟ وماذا يمكن لهذا التغيير الجامح أن يخبرنا عن ماضينا وعن مستقبلنا؟

الفصل 4

نظام ظلامي خارج من الفوضى

من الكأس المقدسة إلى حد السكين

نحن نقيس الزمن الذي تعلمنا أنه التاريخ الإنساني بالقرون. ولكن المدى الزمني الذي نقيس به بواكير حياة الإنسان على الأرض يحسب بطريقة مختلفة إذ أنه يقاس بالألفيات أو بآلاف السنين. فالعصر الحجري القديم يعود إلى أكثر من ثلاثين ألف سنة إلى الوراء بينما استمر العصر الحجري الحديث الذي انطلقت فيه الزراعة إلى أكثر من 10.000 سنة خلت. وقد ظهرت مدينة كاتال هويوك قبل 8500 سنة بينما تعود حضارة جزيرة كريت إلى 3200 سنة خلت.

بالنسبة لهذه الفترة الألفية من السنين، والتي تعد أطول بعدة مرات من التاريخ الذي نستخدمه في تقويماتنا وروزناماتنا منذ ميلاد المسيح في معظم مجتمعات أوروبا والشرق الأدنى، ظل التركيز منصباً على التقنيات التي دعمت وعززت نوعية الحياة. وعبر الآلاف من سنين العصر الحجري الحديث، تم تحقيق قفزات كبيرة في إنتاج الغذاء عبر الزراعة وصيد الحيوانات والأسماك وتدجين الحيوانات. كما تقدم الإعمار والإسكان عبر ابتكارات في البناء وصناعة السجاد والأثاث وغيرها من الأدوات المنزلية، وحتى في تخطيط المدن كما في كاتال هويوك[1]. كما أن الثياب في ذلك العصر تعدت زمن الجلود والفراء بعد

اختراع الحياكة والخياطة، وفيما كانت الأسس المادية والروحية توضع لبناء حضارة أكثر رقياً، شهدت الفنون أيضاً ازدهاراً كبيراً.

وكقاعدة عامة، كانت السلالة تتبع الأم، وكانت النساء الأكبر سناً أو رئيسات العشائر يدرن أمور الإنتاج وتوزيع ثمرات الأرض التي كانت تعتبر ملكاً للمجموعة برمّتها. وبالترافق مع الملكية العامة للوسائل الرئيسية للإنتاج، ومع اعتبار القوة الاجتماعية مسؤولية وأمانة لدى الجميع، جاء ما بدا أنه تنظيم اجتماعي تعاوني في أساسه. فقد عمل كل من النساء والرجال، وحتى أشخاص من أصول عرقية مختلفة كما في كاتال هويوك بتعاون تام من أجل الصالح العام[2].

لم تكن الذكورية الأكثر قوة هنا تشكل أساساً للظلم الاجتماعي أو للحروب المنظمة أو لتركيز الملكيات الشخصية في أيدي الأقوى من الرجال. كذلك لم تزود هذه الذكورية أية أسس لسيادة الرجال على النساء أو القيم الذكورية على القيم الأنثوية، بل على النقيض من ذلك كانت الإيديولوجية السائدة متساوية بين الجنسين، أو مرتكزة حول المرأة مع كون الألوهة متجسدة في الشكل الأنثوي.

كانت القوى الخلاقة، والداعية والمولّدة للطبيعة، بالرمز الأنثوي للكأس المقدسة ممثلاً مصدر الحياة، وليست القوى التدميرية، كما رأينا، هي التي تعطى القيمة الأعلى. وفي الوقت نفسه، بدا وكأن وظيفة الكاهنات والكهنة لم تكن من أجل خدمة وتقديس نخبة ذكورية قاسية بل منفعة الجميع في المجتمع بالطريقة نفسها التي كانت فيها زعامات العشائر من النساء يدرن أمور الأراضي التي تعتبر ملكاً للجميع ويعمل فيها الجميع[3].

ولكن، بعد ذلك كله، جاء التغيير الكبير، وقد بلغ هذا التغيير من الكِبَر درجة لا نجد حجماً قريناً له في مجمل التطور الحضاري التاريخي الذي نعرفه.

الغزاة الخارجيون

في البداية كان الأمر يشبه السحابة الوارد ذكرها في الكتاب المقدس «ليس بأكبر من حجم اليد» . هكذا يمكن أن نصف نشاطات تلك القبائل الرُّحَّل المهمشة على الأطراف الأقل قبولاً للعيش من الكرة الأرضية، والتي كانت تبحث عن كلأ لماشيتها. وخلال تلك الألفية عاشت تلك القبائل حياة قاسية في تلك الأصقاع الصعبة البائسة الأكثر برودة وتناثراً على أطراف الأرض. بينما كانت الحضارة الزراعية العظيمة تمتد حول البحيرات والأنهار في قلب الأراضي الخصبة. بالنسبة لهذه المجتمعات الزراعية بدا وكأن التمتع ببواكير قمة التطور الإنساني والسلام والرخاء شكل حالة من النعمة الأبدية بالنسبة للبشرية أما هؤلاء الرُّحّل فلم يكونوا أكثر من بدعة هامشية.

لا نملك شيئاً سوى التكهن حول كيفية ازدياد أعداد هذه المجموعات الرحّل من القبائل وتعاظم قوتها عبر فترة من الزمن[4]، ولكن مع حلول الألفية الخامسة قبل الميلاد أي قبل سبعة آلاف سنة، بدأنا نجد أدلة على ما سمّاه ميللارت نمطاً من التمزق في الحضارت القديمة للعصر الحجري الحديث في الشرق الأدنى[5]. وتشير بقايا الحفريات التي عُثر عليها إلى وجود مؤشرات واضحة على وقوع توترات في ذلك الزمان في العديد من المناطق. فهناك أدلة عن وقوع غزوات وكوارث طبيعية، أو كلتا الاثنتين أحياناً مما تسبب في إحداث دمار وتهجير هائلين.

وفي العديد من الأماكن، اختفت الرسومات الفخارية التقليدية الملونة، وشيئاً فشيء أخذ التدهور الحضاري والركود يملأ تلك الأماكن، وفي النهاية وفي وسط هذه الفوضى المتصاعدة، توقف التطور الحضاري. وكما يذكر ميللارت، تطلب الأمر ألفي سنة أخرى حتى تظهر حضارتا سومر ومصر[6].

وفي أوروبا القديمة، بدا أن هذا التمزق المادي والحضاري الذي حل بمجتمعات العصر الحجري الحديث التي عبدت الإلهات، قد بدأ في الألفية الخامسة قبل الميلاد، مع ما تُطلق عليه غيمبوتاس اسم موجة كيرغان الأولى. ويعود الفضل في رصد موجات الهجرة التي قام بها رعيان الجبال الذين أُطلق عليهم اسم شعب كيرغان، إلى تزايد أعداد تقويمات الكربون المشع. وتقول غيمبوتاس إن هذه الأقوام قد انتشرت في أوروبا ما قبل التاريخ وتوغلت مراراً داخل المناطق الحضرية القديمة متسببة بإيقاع صدامات حضارية ونقلات سكانية، وشمل توغلها موجات ثلاث: الأولى بين عامي 4300-4200 قبل الميلاد، والثانية من 3400-3200 قبل الميلاد، والثالثة من 3000-2800 قبل الميلاد (وقد تم قياسها عبر التقويمات التاريخية المبنية على عمر الأشجار)[7].

كانت شعوب كيرغان تنتمي إلى ما أطلق عليه العلماء اسم الأوروبيين الهنود الذين يتكلمون اللغة الآرية، وهو عرق بشري من النوع الذي أطلق عليه نيتشة وهتلر في عصرنا الحالي العرق الأوروبي النقي. وفي الحقيقة أنه لم يكن هؤلاء يمثلون الأوروبيين الأصليين، بينما هم يتدفقون على القارة قادمين من آسيا وشمال شرقي أوروبا، ولم يكونوا هنوداً بالأصل لأن الشعوب التي عاشت في الهند والتي تسمى الشعوب الدرافيدية كانت تمثل شعوباً أخرى قبل أن يغزوها الآريون ويهزموها[8].

ولكن كلمة الهنود الأوروبيين ظلت تلازمهم وهي تمثل حقبة طويلة من غزوات الأقوام الرحّل الذين قدموا من آسيا وشمالي أوروبا بقيادة كهنة ومحاربين أشداء جلبوا معهم آلهتهم الذكورية التي تخوض الحروب وتسكن الجبال. ومثلما فعل الآريون في الهند، والحتيون والميتانيون في بلاد الهلال الخصيب، واللويون في الأناضول والكيرغان في أوروبا الشرقية، والأخيون وبعدهم الدوريان في اليونان، فرض هؤلاء تدريجياً معتقداتهم وطرق معيشتهم على البلاد وعلى الشعوب التي قهروها[9].

كان هناك غزاة رحّل آخرون أيضاً، وأشهر هؤلاء الغزاة شعب سامي نطلق عليه اسم العبرانيين وقد جاء هؤلاء من صحارى الجنوب وقام بغزو أراضي كنعان (التي سميت فيما بعد فلسطين نسبة إلى الفلسطينيين الذين عاشوا في تلك البلاد). ولعل المفاهيم الأخلاقية التي نربطها عادةً بكل من الديانتين اليهودية والمسيحية وتركيز الكنائس المسيحية والكنس اليهودية على مسألة السلام، قد غيّب عنا حقيقة تاريخية هي أن هذه الشعوب السامية كانت في الأصل شعوباً محاربة ومحكومة من قِبَل طبقة منغلقة من الكهنة المحاربين (قبيلة اللاوي التي ينتمي إليها موسى وهارون ويشوع). وهؤلاء العبرانيون مثلهم مثل الهنود الأوروبيين جلبوا معهم أيضاً إلهاً قاسياً ومحارباً هو «يهوا» . وبالتدريج كما ورد لنا في الكتاب المقدس، فرض هؤلاء الكثير من معتقداتهم وطرق معيشتهم على شعوب الأرض التي قهروها. وقد أدت هذه التشابهات بين الهنود الأوروبيين وقدماء العبرانيين إلى الاعتقاد بوجود بعض الأصول المشتركة بينهم، أو على الأقل بعض عوامل التسرب الثقافي[10]. إلا أن ما يهمنا في الأمر ليس النسب ولا الاتصال الثقافي ولكن بنية الأنظمة الاجتماعية والإيديولوجية والتي بدت وكأنها قد وحَّدت هذه الشعوب على وجه التأكيد.

الشيء الوحيد الذي كان مشتركاً بين الجميع هو النظام المهيمن للتنظيم الاجتماعي: أي التنظيم الاجتماعي الذي يسود فيه عُرف هيمنة الذكر، والعنف الذكوري، إضافة إلى بنية اجتماعية سلطوية وهرمية. أيضاً، وعلى النقيض من المجتمعات التي وضعت أسس الحضارة الغربية، كانت هناك صفة مشتركة أخرى هي الطريقة التي تميزوا فيها في تحصيل الثروة، ليس من خلال تطوير تقنيات الإنتاج ولكن من خلال تطوير تقنيات التدمير الأكثر فعالية.

علم المعادن والسيادة الذكورية

في الأعمال الماركسية الكلاسيكية التي كتبها فريدريك إنجلز حول «أصول العائلة والملكية الفردية والدولة» ، برز إنجلز كأول من ربط بين ظهور النظم

الهرمية والطبقات الاجتماعية المبنية على الملكية الفردية وبين الهيمنة الذكورية على النساء. وفيما بعد ربط إنجلز بين النقلة من مرجع النسب إلى الأم ومرجع النسب إلى الأب وبين تطور علم معادن النحاس والبرونز[11]. ولكن على الرغم من أن هذا المفهوم كان رائداً، إلا أنه بالكاد أصاب الهدف، لأننا فقط وعلى ضوء الأبحاث الحديثة تمكنّا من رؤية تلك الطرق الخاصة التي أدهشت علم الاجتماع والتي استطاعت من خلالها العلوم المعدنية المتعلقة بالبرونز والنحاس أن تعيد توجيه مسار التطور الحضاري في أوروبا وفي آسيا الصغرى.

ما جاء بكل تلك التغييرات الجذرية لا يبدو مرتبطاً باكتشاف تلك المعادن بل بنقطة أساسية تتعلق بالتقنية التي نتّبعها، أي باستخدامات تلك المعادن.

والفرضية التي تقف في أساس هذا النموذج السائد هي أن جميع الاكتشافات التقنية الهامة التي جرت مبكراً قد تمت على يد الرجل الصياد أو الرجل المحارب بهدف تعزيز فعالية القتل. لقد تعلمنا من المساقات الجامعية ومن قصص الأساطير والبطولات الشعبية المعاصرة كقصة فيلم 2001 لآرثر. سي. كلارك أن هذا الأمر قد بدأ مع اكتشاف الأدوات الحجرية والخشبية التي كانت منطقياً تشكل هراوات وخناجر من أجل قتل الآخرين[12]. وهكذا سرت فرضية أن المعادن قد وُجدت منذ البداية لصنع الأسلحة. ولكن الأدلة الأثرية تظهر أن معادن مثل النحاس والذهب قد عُرفت منذ زمن طويل لدى شعوب العصر الحجري الحديث. إلا أن هؤلاء كانوا يستخدمونها لأهداف دينية وتزيينية ومن أجل صنع الأدوات[13]. كما أن وسائل التأريخ الجديدة التي لم تكن متوفرة أيام إنجلز، تشير اليوم إلى أن علم المعادن ظهر في أوروبا في الألفية السادسة قبل الميلاد بين الشعوب التي عاشت جنوب جبال كارباثيا وفي منطقة ديناريش وترانسلفانيا القريبة من جبال الألب. وكانت هذه المعادن الأولى على شكل مجوهرات أو تماثيل أو أدوات للعبادة. ومع حلول الألفية الخامسة

والرابعة قبل الميلاد بدا وكأن النحاس قد أخذ يُستخدم في صنع الفؤوس المبسّطة والمغارف والأسافين والصنارات المستخدمة في صيد الأسماك والمثاقب والإبر والدبابيس اللولبية المزدوجة. ولكن وكما تشير غيمبوتاس، كانت الفؤوس النحاسية في أوروبا القديمة تستخدم لأعمال الخشب وليس للمعارك أو رموز للسلطة الإلهية كما عُرف عنها في الحضارات الهندية الأوروبية قبل وبعد التاريخ[14].

وهكذا نرى أن الأدلة الأثرية لتلك الحضارات القديمة تدعم الاستنتاج القائل بأن الأمر لم يكن يتعلق بالمعادن في ذاتها ولكن في استخدامها لتطوير تقنيات أكثر فعالية في الفتك والتدمير وهي تقنيات لعبت دوراً جوهرياً على حد قول إنجلز في الهزيمة التاريخية التي لحقت بالجنس الأنثوي[15]. ويضيف إنجلز أن الهيمنة الذكورية لم تصبح عرفاً في مرحلة ما قبل التاريخ في الغرب عندما بدأت الشعوب التي تعمل في الصيد والتجميع بتدجين الحيوانات أي عندما أصبح الرعي تقنيتها الرئيسية في الإنتاج، بل حدث هذا الأمر في مرحلة لاحقة عبر آلاف السنين من الغزوات التي قامت بها حشود الرعيان ضد الأراضي الخصبة التي شهدت تطوراً تقنياً زراعياً كان هو عملها الإنتاجي الرئيسي.

وكما رأينا سابقاً، لم تكن تقنيات التدمير تشكل أولوية اجتماعية هامة بالنسبة للمزارعين الأوروبيين في العصر الحجري الحديث ولكنها كانت كذلك بالنسبة للجماعات المحاربة التي تدفقت من الأراضي القاحلة في الشمال ومن صحارى الجنوب. وهنا عند هذا المفترق التاريخي الفاصل أخذت المعادن تلعب دورها القاتل في تشكيل التاريخ الإنساني ليس كتقدم تقني عام ولكن كسلاح للقتل والسلب والاستعباد.

عملت غيمبوتاس جاهدة على إعادة بناء تلك العملية في تاريخ أوروبا القديم. وقد ابتدأت من حقيقة عدم وجود نحاس في المناطق التي جاء منها

الرعاة، أي الهضبات الجافة الواقعة شمال البحر الأسود، وقد أوصلها هذا إلى الفرضية القائلة بأن شعوب الكيرغان التي امتطت الخيول كانت على دراية بتقنية المعادن التي وُجدت جنوب جبال القفقاس خلال الألفية الخامسة والرابعة قبل الميلاد. وربما في تاريخ لا يبعد عن 3500 قبل الميلاد تعلم هؤلاء تقنيات علم المعادن من الشعوب التي عاشت عبر القفقاس وقاموا بعد ذلك بعمليات تعدين واستغلال نحاس القفقاس[16] أو ربما على الأرجح بعد أن استطاعوا تطوير الأسلحة الفتاكة المصنوعة من المعدن[17].

وقد بنت غيمبوتاس قاعدة معلوماتها على الحفريات الواسعة التي تم العثور عليها بعد الحرب العالمية الثانية كما اعتمدت أيضاً على وسائل التأريخ التي تم إدخالها حديثاً. وتشير هذه المعلومات إلى أن الانتقال من عصر النحاس إلى العصر البرونزي (أي عندما بدأت تظهر مخاليط النحاس والزرنيخ والنحاس والقصدير) قد حدث في الفترة بين 3500-2500 قبل الميلاد. ويعتبر هذا التاريخ أبكر من التاريخ الذي قدره العلماء الأولون أي ما يقارب 2000 قبل الميلاد. وقد تم ربط الانتشار السريع للبرونز في القارة الأوروبية مع أدلة حدوث غزوات واسعة من قِبَل شعوب الرعاة الذين جاؤوا من السهوب الشمالية وسموا بالكيرغان. كان هؤلاء يتسمون بالصفات الحربية وسرعة الحركة وتهيمن عليهم النزعة الذكورية والعلاقات الهرمية. وتقول غيمبوتاس في هذا الصدد: إن ظهور الأسلحة البرونزية كالخناجر والرماح والفؤوس، إضافة إلى الفؤوس الحادة والرفيعة المصنعة من البرونز أو تلك المصنوعة من الأحجار نصف الكريمة والسهام، قد ترافق مع توزع شعب الكيرغان في أنحاء أوروبا[18].

النقلة في التطور الحضاري

هذا لا يعني بأي شكل القول بأن التغيير الجذري الذي طرأ على التطور الحضاري للمجتمع الغربي كان ببساطة عاملاً من عوامل حروب الغزو. وكما

سوف نرى لاحقاً فإن العملية كانت أكثر تعقيداً. ولكن يبدو أن هناك مسألة صغيرة تدل على أن الحروب منذ البداية شكلت أداةً أساسية لتغيير نموذج الشراكة بنموذج الهيمنة. كما أن الحروب وسائر أشكال العنف الاجتماعي ظلت تلعب دوراً مركزياً في توجيه التطور الاجتماعي من المشاركة إلى الهيمنة.

وقد حصل هذا التحول كما سوف نرى لاحقاً بشكل تدريجي وإثر عملية متوقعة، إلا أن الأحداث التي أطلقت مثل هذا التغيير كانت أحداثاً فجائية وغير متوقعة في ذلك الوقت. وما تظهره لنا الأدلة الأثرية يتماشى بشكل مدهش مع التفكير العلمي الجديد حول التغيير غير المتوقع أو حول كيفية تحول دول أو أنظمة مضى على تأسيسها وقت طويل بسرعة نسبية من وضع متوازن أو قريب من التوازن إلى وضع فوضوي بعيد أقصى البُعد عن التوازن. والأكثر دهشة هو كيف يتناسب هذا التغيير الجذري في تطورنا الحضاري في بعض النواحي مع النموذج الذي يمثل توازناً متقطعاً وغير مستقيم الخط في التطور؟ وهو نموذج قدّمه كل من إيلدردج وغولد مع ظهور المنعزلات الهامشية عند نقاط التشعب الأساسية[19].

والمنعزلات الهامشية التي انبثقت الآن مما كان يُعرف عملياً بأطراف الكرة الأرضية (السهوب الشمالية الجرداء والصحارى الجنوبية) لم تكن تحتوي على أجناس بشرية مختلفة، ولكن هؤلاء في تعطيلهم لهذا التطور المنتظم للنموذج الاجتماعي التشاركي، جلبوا معهم نظاماً مختلفاً من التنظيم الاجتماعي.

في جوهر هذا التنظيم الاجتماعي الذي جلبه الغزاة كان إعطاء قيمة للقوة التي تأخذ الحياة أعلى من القوة التي تعطيها. وكانت هذه القوة تتمثل في الرمز الذكوري «حد السكين» الذي ظهر في رسومات الكهوف لشعب الكيرغان[20] والذي دلّ على عبادة هؤلاء الناس حيث كانوا تحت ظل وجود نموذج مهيمن في المجتمع محكومين من قِبَل آلهة ورجال حرب شكلوا في ذلك الزمان القوة

الأعلى. ومع ظهور هؤلاء الغزاة في أفق ما قبل التاريخ، وليس كما يقال مع اكتشاف الرجال تدريجياً أنهم لعبوا أيضاً دوراً فيما قبل الخلق، تحولت الآلهات والنساء إلى زوجات وعشيقات للذكور، وتدريجياً أيضاً أصبح العُرف السائد هو هيمنة الرجال والحروب واستعباد النساء والرجال الأكثر ميلاً للأنوثة.

وتلخص غيمبوتاس في هذه الفقرة مدى عمق الاختلافات التي كانت موجودة بين هذين النظامين الاجتماعين ومدى عنف هذه التغييرات في الأعراف التي فرضتها المنعزلات الهامشية والتي أصبحت تُعرف الآن باسم «الغزاة الخارجيون» .

«كانت حضارة أوروبا القديمة وحضارة الكيرغان تتناقضان الواحدة مع الأخرى. فقد كانت الحضارة الأوروبية القديمة حضارة زراعية ثابتة تميل إلى العيش في تجمعات سكانية أو بلدات جيدة التخطيط. وكان غياب القلاع والتحصينات والأسلحة يؤكد على التعايش السلمي لهذه الحضارة القائمة على المساواة بين البشر والتي تعتمد في أكثر الاحتمالات على نسب الأم. أما نظام حضارة الكيرغان فكان نظاماً قائماً على نسب الأب ويعتمد الطبقية ورعي الأغنام على مساحات شاسعة من الأراضي. وقد نتج عن هذين الاقتصادين، الأول زراعي والثاني قائم على رعي الأغنام، عقيدتان متناقضتان، فالإيديولوجية الأوروبية القديمة ركزت على الدورة الزراعية القائمة على الولادة والموت وإعادة الحياة المتجسدة في المبدأ الأنثوي «الأم الخالقة» فيما أفرزت إيديولوجية الكيرغان، كما هو معروف من الأساطير الهندية الأوروبية آلهة ذكورية مقاتلة تنتمي إلى رعود وبروق السماء. وبينما غابت الأسلحة عن الصور والرسومات الأوروبية القديمة، هيمنت رموز الخناجر والفؤوس الحربية على رسومات الكيرغان الذين مثلهم مثل الشعوب الهندية الأوروبية كانوا يمجدون القوة القاتلة لنصل السكين[21].

الحروب، العبودية والتضحية

تصف غيمبوتاس رسومات الأسلحة المنقوشة في الحجر والصخر والأعمدة الحجرية والتي ظهرت بعد غزوات الكيرغان بأنها من أوائل الصور المرئية لآلهة الحرب الهندية الأوروبية[22]. وتقول غيمبوتاس إن بعض الصور التي ظهرت في حفريات سلسلة من الصخور في جبال الألب الإيطالية والسويسرية، تمثل أشكالاً ومجسمات نصف بشرية تملك رؤساء وأذرعاً. ولكن معظمها كان على شكل صور مجردة تمثل الإله من خلال أسلحته فقط أو من خلال أسلحة مرفقة بزنار أو عقد أو قلادة ثنائية اللولب بالإضافة إلى حيوان ديني مقدس كالحصان أو الوعل. وفي العديد من المجسمات تظهر صورة شمس أو صورة قرون وعل في المكان الذي يجب أن يظهر فيه رأس الإله، وتتمثل ذراعا الإله في أماكن أخرى على شكل فؤوس أو رماح ذات قصبات طويلة كما نجد عدداً من الخناجر يتراوح من واحد إلى تسعة في منتصف التمثال أسفل الزنار أو أعلاه في أغلب الأحيان[23].

من الواضح، كما تقول غيمبوتاس، أن الأسلحة كانت تمثل مهمات الإله وقوته وكانت تعبد على أساس أنها تمثل الإله. وقد تجلّت قدسيتها في جميع الأديان الهندية الأوروبية من خلال الأدلة التي تم العثور عليها. فنحن نعرف من هيرودوتس أن السكيثيين كانوا يقدمون الأضاحي لخنجرهم المقدس «إكيناكيس». إلا أن هذه الصور التي تمثل آلهة تحمل أسلحة لم يعثر لها على أي دليل في رسومات منطقة جبال الألب خلال العصر الحجري الحديث[24].

وقد رافق هذا التمجيد للقوة القاتلة في حد السكين طريقة حياة كان فيها القتل المنظم لأبناء البشر الآخرين وتدمير ونهب أملاكهم وإخضاعهم واستغلالهم، يبدو وكأنه أمر عادي. وتشير الأدلة الأثرية إلى أن بداية استعباد الإنسان للإنسان كانت مرتبطة بهذه الغزوات المسلحة.

على سبيل المثال، تدلنا هذه المكتشفات الأثرية على أن معسكرات الكيرغان كانت تحوي أعداداً من النساء كنّ معظمهن من خارج الكيرغان، لا بل من سكان أوروبا القديمة في العصر الحجري الحديث[25]. ويبين هذا أن الكيرغان قاموا بذبح معظم الرجال والأطفال وأبقوا على بعض النساء ليتخذوا منهن جاريات وزوجات وجواري. ونجد في كتاب العهد القديم أدلة تشير إلى أن هذه الممارسة كانت أمراً معمولاً به رغم أن الكتاب ظهر بعد عدة ألفيات من الزمن ووردت مثل هذه الحكايات في غزوات قبائل العبرانيين الرُحَل لأرض كنعان. ونقرأ في الإصحاح 31:32-35 على سبيل المثال أن من بين غنائم الحرب التي وقعت بأيدي الغزاة إثر معركتهم مع أهل مدين كان هناك غنم وبقر وحمير إضافة إلى 32000 فتاة عذراء لم يمارسن الجنس مع رجال من قبل.

وهذا الإنقاص لقيمة النساء ولأطفالهن الإناث والذكور لدرجة أن يصبحن ملكاً للرجال موثق في ممارسات الدفن لدى الكيرغان. وتقول غيمبوتاس إن من بين أوائل الأدلة الثرية لهيمنة الكيرغان كان عدداً من القبور التي تعود إلى زمن يسبق الألفية الرابعة قبل الميلاد. بكلمة أخرى، في مرحلة قريبة تلت موجة اجتياح الكيرغان لأوروبا[26].

هذه القبور هي قبور الزعماء التي تميز الرئاسة في النظام الهندي الأوروبي المهيمن، وتشير إلى النقلة الجذرية في التنظيم الاجتماعي التي وضعت النخبة الأقوى على سدّة الحكم. وتذكر غيمبوتاس بوضوح أن هذه القبور تمثل ظاهرة حضارية غريبة كما تظهر تغييراً ملحوظاً في طقوس وممارسات الدفن. وعلى النقيض من المدافن الأوروبية القديمة التي تظهر مؤشرات قليلة على وجود عدم مساواة اجتماعية، توجد هنا اختلافات ملموسة في حجم الأضرحة إضافة إلى ما يطلق عليه علماء الآثار هدايا الدفن وهي المحتويات التي تجدها في القبور بالإضافة إلى الموتى[27].

ومن بين هذه المحتويات، نشاهد لأول مرة في قبور الأوروبيين إلى جانب هيكل عظمي لذكر متناهٍ في الطول، هياكل عظيمة لنسوة تمت التضحية بهنّ، ومنهن زوجات، أو جاريات أو عبدات الرجال الذين يتوفون. وتصف غيمبوتاس هذه الممارسة بأنها شبيهة بممارسة التضحية بالنساء التي كان يمارسها سكان الهند حتى أوائل القرن العشرين. وقد أدخلها الكيرغان معهم إلى أوروبا وقد ظهرت آثارها لأول مرة في منطقة تقع غرب البحر الأسود في سوفوروفو الواقعة في دلتا الدانوب[28].

هذه المبتكرات الجذرية التي طرأت على ممارسات الدفن، ظلت تميز كل الغزوات الثلاث التي قام بها الكيرغان. على سبيل المثال، نجد فيما يسمى بحضارة أمفورا العالمية التي هيمنت على شمالي أوروبا لأكثر من ألف عام بعد وصول الغزوة الأولى للكيرغان، ممارسات الدفن الوحشية نفسها التي تعكس التنظيم الاجتماعي والحضاري السائد نفسه. وكما تذكر غيمبوتاس، لا يمكن اعتبار موت هؤلاء الناس نتيجة حوادث عرضية بسبب تكرار حالات الدفن الجماعي التي عُثر عليها. فعادةً نجد الهيكل العظمي للذكر الميت مدفوناً مع هداياه على أحد أطراف الضريح بينما نجد شخصين أو أكثر من شخصين مكوَّمين على الطرف الآخر. وتؤكد قبور حضارة الأمفورا العالمية مبدأ الهيمنة الذكورية الذي ساد في ذلك الزمن إضافة إلى ظاهرة تعدد الزوجات التي وُجدت في أحد الأضرحة ببلدة فوتيخيفكا حيث عثر على هيكل عظمي لرجل مدفون على جنبه بينما دُفنت أسفل منه امرأتان وأربعة أطفال إضافة إلى شاب وشابة عند قدميه[29].

هذه القبور الرفيعة المَنزِلة كانت تشكل مخازن لأشياء بدت هامة بالنسبة لهذه الطبقة الحاكمة من الرجال، ليس في حياتهم فقط بل في موتهم. وتدل المعدات التي عُثر عليها في قبور الكيرغان، حسب قول غيمبوتاس، على وجود

وعي لمنزلة المحارب. فقد عُثر على أقواس وسهام ورماح وخناجر وفؤوس وعظام خيول[30] إضافة إلى أشياء رمزية مثل أنياب وعظام فك خنزير بري، وهياكل عظمية لكلاب، وعظام ثيران. كل هذا يقدم دليلاً ليس على وجود نقلة اجتماعية جذرية فحسب بل على نقلة إيديولوجية أيضاً.

تظهر هذه المدافن مدى القيمة الاجتماعية الكبيرة التي أولتها تلك الحضارة لتقنيات الدمار والهيمنة. كذلك تحتوي المدافن على أدلة تشير إلى وجود استراتيجية لطمس الإيديولوجيات والسيطرة على معتقدات الناس وهي أمور سنرى منها الكثير فيما بعد، ولعل أهم مظاهرها مصادرة الرجال للرموز الدينية الهامة المرتبطة بالأنثى والتي كانت الشعوب تستخدمها في عبادة الإلهة الأنثى.

وتذكر غيمبوتاس أن التقليد القاضي بوضع أنياب الخنازير وعظام الكلاب والثيران فقط في أضرحة الذكور، يمكن إرجاعه إلى عهد قبور الكيرغان الأول والثاني في سهوب بونتيك. وتكاد هذه التضمينات الاقتصادية المرتبطة بعظام الخنازير والخنازير البرية والتي توضع فقط في أضرحة الذكور من ذوي المنزلة العالية في المجتمع تطغى على الأهمية الاقتصادية لهذه الحيوانات كمصدر للغذاء. وتشكل هذه الارتباطات الرمزية بين الرجال والخنازير البرية والخنازير والكلاب، معاني عكسية للأهمية الدينية التي كانت لهذه الحيوانات في أوروبا القديمة حيث ظل الخنزير يعتبر المرافق المقدس لآلهة البعث[31].

بتر الحضارة

تقول غيمبوتاس، إنه مع دخول الكيرغان وانتشارهم في الغرب والجنوب، تغير مشهد أوروبا القديمة بشكل قاطع، إذ تم بتر التقاليد التي عاشت على مدى ألفيات من السنين، وأدى هذا إلى تدمير قرى وبلدات بكاملها، واختفاء العديد من الروائع الفخارية، إضافة إلى الهياكل والمعابد والتماثيل والرموز والمخطوطات[32].

وقد تزامن هذا مع ظهور آلة حرب حية وجديدة وتمثلت هذه في الخيالة الذين كانوا في ذلك العهد أشبه بالدبابات أو الطيارات في عهدنا اليوم. ومع صحوة التدمير الذي افتعله الكيرغان نجد نماذج لقبور زعماء محاربين تحيط بهم أضحياتهم من النساء والأطفال والحيوانات، إضافة إلى أسلحتهم[33].

ولكن قبل اكتشاف هذه الحفريات في أعوام الستينات والسبعينات من القرن العشرين، وقبل أن تبدأ غيمبوتاس بتنظيم تفسيرات المعلومات القديمة والجديدة مستخدمة الوسائل الجيدة في التأريخ كالكربون وأعمار الأشجار، كان غوردون تشايلد وهو مؤرخ أوروبي متخصص في فترة ما قبل التاريخ، قد وصف النمط نفسه. إذ ميّز حضارة الأوروبيين القدامى بأنها مسالمة وديمقراطية ولا يوجد فيها أي دليل على تخزين للثروة من قِبَل الزعماء[34]، ولكنه يذكر أيضاً أن هذا الأمر قد يتعثر فيما بعد تماماً مع دخول الحروب واستخدام الأسلحة المعدنية.

وعلى غرار ما ذكرته غيمبوتاس، ينوه تشايلد بأنه مع تزايد ظهور الأسلحة في الحفريات، ازداد ظهور أضرحة الزعماء والمساكن التي تظهر تمايزاً طبقياً بين أفراد المجتمع وأصبح العُرف العام هو حكم الرجل القوي. ويذكر تشايلد أن المستوطنات أخذت تبنى على رؤوس التلال وانتشرت التحصينات في الوديان والجبال، كذلك أدت المنافسة على الأراضي إلى تزايد النزعة للقتال، وظهور تخصص في الأسلحة القتالية بحيث لم يعد التغيير حكراً على النظام الاجتماعي فحسب بل شهد التنظيم الإيديولوجي في المجتمع الأوروبي القديم تغييراً جذرياً[35].

ويذكر تشايلد بشكل أكثر خصوصية حول كيفية تطور الحروب إلى عُرف في أوروبا القديمة فيقول: «إن رجحان كفة الذكور في المجتمع قد يكون السبب في الاختفاء التام للتماثيل الأنثوية». ويشير تشايلد أيضاً إلى كيف أن هذه التماثيل الأنثوية التي كانت كلية الوجود في السابق، لم تعد توجد بين الأدلة، مما يدفع إلى

الاستنتاج بأن الإيديولوجية القديمة قد تغيرت وانعكس هذا في التغير الذي حصل في النظام الاجتماعي من إرجاع النسب إلى الأم، إلى إرجاعه للأب[36].

وتبدو غيمبوتاس أكثر تحديداً حين تستخدم الدراسة المنهجية التي قامت هي وغيرها من علماء الآثار بإجرائها، بناءً على دراسة منهجية للتواريخ الأوروبية القديمة، لتصف بعد جهد كبير كيف أنه في صحوة كل موجة من الغزوات، لم يقتصر الأمر على تدمير مادي بل على ما دعاه المؤرخون إفقاراً حضارياً. ففي الموجة الأولى للغزو، كان الدمار كبيراً لدرجة أن جيوباً صغيرة فقط من الأوروبيين القدامى بقيت على قيد الحياة مثل تجمع كوتوفيني في وادي الدانوب التابع لأولتينيا، في غربي وشمال غربي مونتينيا وجنوب بانات وترانسيلفانيا. ولكن حتى في هذه المناطق، ظهرت مؤشرات على حدوث تغير ملموس فقد ظهرت الوسائل والطرق الدفاعية كالخنادق والاستحكامات[37].

بالنسبة لغالبية المستوطنات الأوروبية، مثل مزارعي كارانوفو في حوض الدانوب الأسفل، كان أثر غزوات الكيرغان كارثياً. فقد حدث هناك تدمير شامل للمنازل والمعابد والفنون والمنحوتات، وهي أمور كانت لا تعني شيئاً بالنسبة لهؤلاء البرابرة الغزاة؛ وقد تم هناك ذبح العديد من الناس أو استعبادهم، وهرب من استطاع منهم الهرب، ونتيجة لذلك حدثت سلسلة تنقلات بين السكان[38].

بعد ذلك بدأ ظهور ما أسمته غيمبوتاس الحضارات المهجنة. وقد قامت هذه الحضارات على إخضاع من تبقى من المجموعات الأوروبية القديمة وانخراط هذه المجموعات في الاقتصاد الرعوي والمجتمع الطبقي والنسب الأبوي للكيرغان[39]. ولكن هذه الحضارات الهجينة كانت بعيدة كل البُعد عن التقدم التقني والثقافي الذي استبدلته. فقد أصبح الاقتصاد الآن معتمداً على تربية الحيوانات. وعلى الرغم من وجود بقايا للتقنيات الأوروبية القديمة المتقدمة إلا أن

الفخاريات شهدت تراجعاً في النوعية إلى أدنى الحدود. على سبيل المثال أظهرت الحفريات التي جرت في مستوطنة سيرنافودا الثالثة في رومانيا بعد موجة الغزو الثانية للكيرغان، عدم وجود أي أثر لرسوم على الفخار أو لأي من التصميمات الرمزية الأوروبية القديمة. وكان الأمر كذلك في شرقي هنغاريا وغربي ترانسلفانيا. وقد أشار تقلص المجتمعات السكانية إلى حدود 30-40 فرداً وليس أكثر[40] في كل مجتمع إلى إعادة بناء النظام الاجتماعي على شكل وحدات رعوية. وتضيف غيمبوتاس أن التحصينات بدأت تظهر في كل مكان فيما راحت القلاع الجبلية تأخذ مكان المستوطنات القديمة التي لم تكن محاطة حتى بجدران.

وهكذا، وكما تظهر لنا الأدلة الأثرية، فقد تغير المشهد الأوروبي، ليس من ناحية التدمير المادي والتراجع الثقافي فحسب بل بدرجة أعمق من ناحية اتجاه التاريخ الحضاري للمنطقة أيضاً.

وقليلاً قليلاً، فيما كانت شعوب أوروبا القديمة تحاول حماية نفسها من الغزو البربري دون تحقيق نجاح يذكر، بدأت تظهر تعريفات جديدة لما يعتبر عادياً أو سائداً في كل من المجتمع والإيديولوجية. ففي كل مكان، حصلت نقلة في الأولويات الاجتماعية مثل سهم أطلق عبر الزمن ليمزق عصرنا برأسه النووي. واتجهت هذه النقلة نحو المزيد من تقنيات التدمير الأكثر فعالية مع ما رافقها من تغير إيديولوجي جذري. وجاءت قوى الهيمنة والتدمير عبر نصل السكين الحاد لتحل محل اعتبارات القدرة على دعم الحياة ورعايتها وتم بتر تطور بواكير حضارة الشراكة عبر الغزوات المسلحة، وأخذت المجتمعات التي لم يتم القضاء عليها تماماً بالتغير جذرياً.

والآن أصبح الرجال الأكثر قدرة على التدمير، والأقوى جسدياً والأكثر بطشاً ووحشية يعتلون القمة، وتحولت البنى الاجتماعية لتصبح أكثر تسلطاً وهرمية. وتحولت المرأة التي تعتبر أضعف جسدياً ومادياً من الرجل، والتي كانت

مرتبطة في السابق بإيديولوجية منح الحياة والكأس المقدسة، تدريجياً إلى منزلة أدنى بقيت فيها منذ ذلك الحين: أداة إنتاجية وولادية مسيطر عليها من قِبَل الذكور.

في الوقت نفسه، تحولت الإلهة نفسها تدريجياً لتصبح زوجة أو عشيقة الآلهة الرجال الذين أصبحوا هم الأسياد برموزهم التدميرية والرعدية والحربية.

وفي نهاية الأمر سوف نقوم ومن خلال عملية الانتقال الإيديولوجي والاجتماعي بعملية تفحص أكثر تفصيلاً لقصة الحضارة في الفصول التي تلي، وكذلك لتطور تقنيات اجتماعية ومادية أكثر تقدماً غطّت تلك الفترة الدموية التي امتدت من حضارة سومر حتى يومنا هذا. قصة العنف والهيمنة.

تدمير كريت

تعتبر نهاية كريت العنيفة قصة تلازم التاريخ وتحمل معها الكثير من العِبَر. ولكونها جزيرة تقع جنوب القارة الأوروبية الأم، بقيت كريت لفترة من الزمن بمعزل عن هجمات القطعان الحربية جوف البحر، ولكن نهايتها جاءت أخيراً وضاعت آخر حضارة اعتمدت على الشراكة بين جنسي البشر وليس على الهيمنة في تنظيمها الاجتماعي.

جاءت بداية النهاية على نمط ما حدث في الأرض الأم. فخلال الفترة المايسينية، التي سيطر فيها الأكاييون ذوو الأصول الهندية الأوروبية، أصبح الفن في كريت أقل عفوية وحرية وأصبح التركيز على الموت أكثر وضوحاً في السجلات الأثرية لجزيرة كريت. وتذكر هوكس في هذا الصدد: «أن أهل كريت، كانوا قبل وقوعهم تحت نفوذ الأكايين، لا يولون أهمية كبيرة للموت ولطقوس الدفن وكان موقف النخبة من الأكايين يختلف تماماً»[41]. ولكن أصبحنا نجد هنا أدلة على وجود نفقات باهظة من ثروة وعمالة على التدابير

المتبعة في دفن الملوك والنبلاء. ويعود هذا التناهي في الروح الحربية الذي وُجدت مؤشرات له في كريت، إلى تأثير الأكايين من ناحية وإلى تزايد التهديدات نتيجة موجات غزو القارة الأوروبية من ناحية أخرى» .

إلا أن تاريخ بداية الفترة المايسينية في كريت وكيفية انطلاقتها، ما يزال عرضة للكثير من الجدل. وتقول إحدى النظريات أن استيلاء الأكايين على كريت نفسها وعلى ما بدا أنه مستوطنات منيونية في الأرض اليونانية الأم جاء متزامناً مع سلسلة من الزلازل وأمواج المد التي أضعفت الحضارة المنيونية لدرجة لم تستطع معها أن تقاوم البرابرة الذين ضغطوا عليها من الشمال. ولكن الصعوبة التي تكمن في تصديق هذه النظرية هي أن الزمن الذي تم تحديده لوقوع هذه الكوارث كان حوالي عام 1450 قبل الميلاد ولكن لا توجد في هذا الوقت أية دلائل على غزو كريت[42]. ومع ذلك، سواء كان الأمر نتيجة فتوحات تبعت حدوث زلازل أم عبر انقلاب تسببت فيها ضغوطات عسكرية أم من خلال التزاوج بين زعماء الأكايين وملكات كريت، فإننا نعلم أنه خلال هذه القرون الأخيرة لحضارة كريت، وقعت الجزيرة تحت حكم ملوك الأكايين الناطقين باللغة الإغريقية. ورغم أن هؤلاء الملوك تبنوا العديد من طرق الحضارة المنيونية الأكثر تقدماً، إلا أنهم أدخلوا معهم نظماً اجتماعية وإيديولوجية تحمل توجهاً نحو الموت أكثر منها نحو الحياة.

بعض المعلومات التي بحوزتنا حول الفترة المايسينية، تصل إلينا عبر الألواح الخطية -ب- التي عُثر عليها في كل من جزيرة كريت والأرض اليونانية الأم والتي أصبحت اليوم مكتشفة. وفي هذه الألواح التي عُثر عليها في كنوسوس وبايلوس وهما مستوطنتان مايسنيتان على الطرف الجنوبي لليونان، عُثر على قوائم بأسماء الآلهة. وتكشف هذه الآلهة التابعة لمدافن العهد الأولمبي الأخير، ولصالح الذين ظلوا طويلاً مقتنعين بوجود تواصل بين كريت واليونان أن آلهة

مثل زوس وهيرا وأثينا وأرتيموس وهيرمس... كانت تعبد هناك حتى ولو بأشكال وسياقات مختلفة، لقرون عدة قبل أن أخذنا نسمع عنهم في قصص هيزيود وهوميروس[43]. وفي ترابط مع الأدلة الأثرية، تكشف هذه الألواح أيضاً، وكما تقول هوكس، زواجاً متوازناً جداً بين آلهة كريت وآلهة الأكايين[44]. إلا أن هذا الزواج المايسيني بين حضارتي المنيويين والأكاديين لم يعش طويلاً. وتظهر لنا ألواح بايلوس أن معظم المزاوجات قد تمت خلال الأيام الأخيرة للسلام كجزء من جهد تم بذله دون فائدة من أجل تفادي الكارثة. وتقول هوكس: إننا علمنا بأن الملك المايسيني قد تلقى إنذاراً مسبقاً بأن بايلوس سوف تتعرض للهجوم، وقد تم مواجهة هذه الحالة الطارئة دون ذعر وبقي الكتبة يدونون كل ما يحدث بصبر، وتم تنظيم أعداد من المجدِّفين لتعزيز الأسطول الدفاعي، وأرسل عدد من عُمّال البناء لبناء الاستحكامات والقلاع على طول الشاطئ غير المحصن. كما جمع ما يقدر بطنْ من البرونز لتزويد العسكر بالأسلحة واستدعي ما يقارب مائتي حداد، وتم الاستيلاء على البرونز التابع للأماكن المقدسة. وقد شكلت هذه التحركات شهادة مؤثرة على الأزمة التي أخذت تتحول من السلام إلى الحرب[45].

ولكن هذا كله كان بلا فائدة، ولا توجد مؤشرات على ظهور جدران حول بايلوس. تقول هوكس: علينا أن نترك تسجيلات الألواح حول مساعي إنقاذ المملكة وتتحول إلى بناية القاعة الملكية لكي نكتشف أن هذه المساعي قد فشلت. فقد اقتحم البرابرة القاعة ولاشك أنهم دهشوا لوجود هذه الرسومات والكنوز في غرفها إلا أنهم بعد أن نهبوا ما نهبوه لم يهتموا أبداً بتلك البناية ذات الزخرفات التي لا تمت إلى الحرب بصلة لذلك قاموا بإحراقها، وكان الحريق من الشدة بحيث أذابت حرارته الأواني الفخارية الموضوعة في حجرات الطعام لتتحول إلى أكوام من الطين بينما تحولت الأحجار إلى كلس. أما في غرف

التخزين ومكاتب الضرائب عند المدخل فقد تركت الألواح لتحترق مما زاد صلابتها وحفظها كل هذا الوقت[46].

وهكذا تم تدمير الحضارة الإغريقية في البر الرئيسي والجزر وكريت واحدة تلو الأخرى وآلت جميع الإنجازات التي حققتها هذه الحضارة الراقية في تطورها الثقافي إلى الخراب. ولابد أن القصة نفسها تكررت في كل مكان، في مايسينيا وتيرنز وغيرها من المعاقل الملكية، وفيما عدا أثينا، استطاع هذا المد البربري أن يبتلعها جميعها. وتقول هوكس أن الدوريين وهم شعب من الغزاة الذين دخلوا بلاد الإغريق اكتسحوا بيلوبونيسيا بأكملها ما عدا أركاديا ثم واصلوا مسيرهم ليهيمنوا على كريت ورودس وجميع الجزر المجاورة. أما كنوسوس وهي أضعف المعاقل الملكية وأكثرها عرضة فقد كانت آخر ما سقط في أيدي الغزاة[47].

ومع حلول القرن الحادي عشر قبل الميلاد، كان الأمر قد انتهى. إذ انهارت آخر جيوب المقاومة في كريت بعد أن انتقلت إلى الجبال وراحت تشن حرب العصابات على الغزاة الدوريين[48]. ومع المهاجرين الذين غادروا كريت، غادرت تلك الروح التي جعلت من كريت على حد قول هوميروس: «أرضاً غنية ورائعة» ، فلم تعد تلك البلاد موطناً لتلك الروح[49]. ومع مرور الزمن ضاع وجود النساء والرجال الواثقين بأنفسهم في كريت المنيوية في غياهب النسيان، كذلك اختفى السلام والإبداع وقوة الآلهة التي حافظت على استمرارية الحياة.

عالم متفكك

يمكن اعتبار سقوط كريت قبل حوالي ثلاثة آلاف سنة علامة على نهاية مرحلة. وهي نهاية بدأت كما رأينا منذ آلاف من السنين قبل ذلك. وبدءاً من أوروبا في الأعوام 4300 أو 4200 قبل الميلاد، وقع العالم القديم تحت سياط الغزوات البربرية واحدة تلو الأخرى. وبعد مرور المرحلة الأولية من التدمير

والفوضى، بدأت تنبثق في أوروبا المجتمعات التي ندعوها في كتبنا الدراسية والجامعية، علامات انبثاق الحضارة الغربية.

ولكن المخفي في هذه البدايات التي تظهر لنا عظيمة ومجيدة، كان الصدع الذي اتسع ليصبح أكبر وأخطر هوة شهدها زماننا. فبعد آلاف الأعوام من التحرك الصاعد نحو تطورنا الحضاري التقني والاجتماعي، أخذ الشرخ المشؤوم يتسع بين التطور التقني والاجتماعي من ناحية وبين التطور الحضاري من ناحية أخرى، نتيجة تلك الصدعات العميقة التي تركتها أحداث العنف في العالم. فقد تواصلت التحركات التقنية والاجتماعية باتجاه أكثر تعقيداً في وظائفها وبنيتها بينما تقزم التطور الحضاري ليبقى محشوراً بشدة وسط مجتمع الهيمنة[50].

وفي كل مكان، أصبح المجتمع هرمياً، حربياً وخاضعاً لسيطرة الذكور. وفي الأناضول التي عاش الناس فيها مثل شعب كاتال هويوك بسلام على مدى آلاف السنين، سيطر الحتيون ومن خَلَفَهم من الشعوب الهندية الأوروبية كما هو مذكور في الكتاب المقدس على كامل مناطقها. ورغم أن مخلفاتهم الأثرية العظيمة مثل مقدسات يازيليكايا تظهر استمرارية عبادة الإلهة إلا أن هذه الأخيرة أخذت تتراجع إلى مرتبة أدنى كزوجة أو أم للآلهة الذكور الجدد، آلهة الحرب والرعد. وشهدت أوروبا وبلاد كنعان وبلاد ما بين النهرين النمط نفسه، فلم تفقد الإلهة سيادتها وحسب بل تحولت أيضاً إلى راعية للحروب.

من المؤكد أنه بالنسبة للشعوب التي عاشت في تلك الأزمان المروّعة، بدا الأمر وكأن الجنات التي كانت مسكناً للإلهات الكريمات قد وقعت في أيدي قوى لا إنسانية وخارقة للطبيعة ومتحالفة مع ممثلين متوحشين لها على الأرض. فقد أصبح العُرف السائد هو حكم الرجل القوي المنظم من قِبَل الإلهة ونشبت الحروب في كل مكان إضافة إلى فوضى ثقافية عارمة ظهرت أدلتها الملموسة في الحفريات التي تناولت الفترة من 1500 إلى 1100 سنة قبل الميلاد.

في تلك الحقبة من الزمان، هزت عالم البحر المتوسط سلسلة من البراكين والزلازل وموجات المد، وكان التغير الفيزيائي الذي شهدته المنطقة من العمق بحيث يمكن من خلاله تفسير قصة غرق أتلانتيس وهي القارة التي غرقت نتيجة كارثة هائلة ومدمرة لا يمكن تصورها.

وبالترافق مع هذه الأهوال التي جاءت بها الطبيعة، كانت هناك أيضاً كارثة مروِّعة من صنع الإنسان. فمن الشمال كان الدوريون يتوغلون أعمق وأعمق في أنحاء أوروبا إلى أن وقعت اليونان وجزيرة كريت تحت نصال أسلحتهم الحديدية. ففي الأناضول انهارت الإمبراطورية الحربية الحتية تحت ضغط الغزاة الجدد، وأدى هذا الانهيار إلى دفع الحتيين جنوباً نحو سوريا. كذلك تعرضت منطقة شرق المتوسط للغزو خلال هذه الفترة من البر والبحر من قِبَل الشعوب المهجّرة بمن فيهم الفلسطينيون الذين ورد ذكرهم في الكتب المقدسة.

وإلى الجنوب، أصبح الآشوريون فجأة قوة عالمية واندفعوا باتجاه سوريا وفينيقيا وبلاد فارس ولم تسلم منهم بلاد الأناضول وجبال زاغروس في الشرق. ويمكن رؤية مدى بربريتهم اليوم في النقوش الضئيلة البروز التي تخلد الغنائم البطولية للملك الآشوري تيجلات - بيليسر. ويظهر في هذه النقوش ما يبدو أنهم سكان مدن بأكملهم معلقون أحياء على عصي تدخل عبر حناياهم وتخرج من أكتافهم.

وجنوباً إلى أرض مصر، وصلت تداعيات الغزو، عندما حاول غزاة ورد ذكرهم في المخطوطات الهيروغليفية على أنهم قوم جاؤوا من البحر، أن يستولوا على دلتا النيل مع بداية القرن الحادي عشر قبل الميلاد. ويعتقد العلماء أن هؤلاء كانوا من لاجئي البحر المتوسط. وقد تمت هزيمتهم على يد رمسيس الثالث. ولكننا ما زلنا نرى آثارهم اليوم على زينات جدران المعابد الخاصة

بالدفن في طيبة، وقد صوّرتهم الرسومات وهم يتقاطرون في سفنهم وعرباتهم وسيراً على الأقدام مع عائلاتهم وعربات تجرّها الثيران.

وفي بلاد كنعان التي يعتقد العلماء أنها شهدت ثلاث موجات من الهجرة، بدأت قبائل العبرانيين التي توحدت تحت حكم الكهنة المحاربين من الشرق سلسلة من الغزوات[51]. نقرأ في كتابهم (التوراة) اليوم أنه على الرغم من وعود إلههم (يهوا) لهم بالنصر إلا أنهم أمضوا مئات السنين وهم يواجهون مقاومة من الكنعانيين، وقد فسروها في كتابهم على أنها نوع من الحكم الإلهي الذي أراد أن يقوي تمرُّسهم في الأعمال الحربية وأن يمتحنهم أو يعاقبهم أو يحفظ لهم الأراضي المزروعة سالمة من الخراب حتى تزداد أعداهم بما فيه الكفاية[52]. ونقرأ في الكتاب المقدس أيضاً مثلاً في إصحاح ديتيرونومي 3:3-6 بأن ممارسات هؤلاء الغزاة الملهمين من الله كانت تدمير وقتل الرجال والنساء والأطفال في كل مدينة يغزونها.

وعلى اتساع رقعة العالم القديم بأكمله، وقفت الشعوب تتصدى لشعوب أخرى كما تصدى الرجال للنساء ولرجال آخرين. وراحت جموع غفيرة من اللاجئين تجوب أصقاع هذا العالم المتفكك عرضاً وطولاً، هاربة من أوطانها باحثة بيأس عن ملاذ لها و عن مكان آمن.

ولكن لم يعد هناك مكان آمن في ذلك العالم الجديد، لأن هذا العالم، بعد أن جرّد الإلهة الأنثى ونصف البشرية من قواها بعنف وبطش، أصبح الآن محكوماً من قِبَل رجال الحرب وأصبح عالماً يحكمه حد السكين وليس الكأس المقدسة، عالم لم يعد فيه السلام والانسجام موجوداً إلا في الأساطير القديمة التي ضاعت منذ ماضٍ طويل.

الفصل 5

ذكريات عصر ضائع

إرث الإلهة

تصغر في أعيننا الأحداث التي تحدثت عن سقوط الإمبراطورية الرومانية وعن العصور المظلمة والطاعون والحربين العالميتين الأولى والثانية مقارنةً بما حدث في ذلك الزمن الذي لا نعرف الآن عنه إلا القليل: وهو زمن وقفت فيه فترة ما قبل التاريخ في تطورها على مفترق طرق حدث عنده تحول عنيف في المجتمع الإنساني. واليوم، بعد مضي آلاف السنين وبينما نحن نقترب من احتمال حدوث تحول اجتماعي آخر - أي من مجتمع يعيش في ظل الهيمنة إلى مجتمع تشاركي وأكثر تقدماً، نجد أنفسنا بحاجة إلى تفهم كل ما يمكننا تفهمه حول هذه الفترة المدهشة من ماضينا المفقود. لأننا ونحن نقف أمام مفترق طرق ثانٍ في التطور، حين نملك تقنيات التدمير الشامل التي كانت تعزى فقط إلى قدرات إلهية، ونسأل أنفسنا بأن الأمر هذه المرة لن يكون شيئاً أقل من بقاء جنسنا على وجه الأرض.

ولكن، حتى ونحن نواجه قدرات البحث الحديثة وعلوم الآثار الحديثة المعززة بإسهامات هامة من العلوم الاجتماعية، فإننا نجد أن هذا الكم الهائل من المعرفة الجديدة حول حقبة تمتد إلى آلاف السنين من التاريخ الإنساني تتناقض بشكل كبير مع ما تعلمناه بحيث أنها لا تعلق في أذهاننا إلا كشبه رسالة كُتبت على الرمال. إذ أنها قد تستمر في رؤوسنا ليوم أو لأسبوع لتعود بعد ذلك

وتغيب تحت وطأة قرون طويلة من التعليم المناقض لها، بحيث لا يبقى منها إلا مجرد انطباع متلاشٍ عن زمن شهد الكثير من الروعة والأمل. فقط من خلال تعزيز هذه المعلومات من مصادر أخرى، مألوفة أم غير مألوفة، يمكننا أن نأمل بالحفاظ على هذه المعلومات مدة تكفي لنجعلها ملكاً لها.

التطور والتحول

تعتبر المعلومات الآتية من المكتشفات العلمية الجديدة حول استقرار الأنظمة وتغيرها، إحدى مصادر التعزيزات المعلوماتية في هذا الصدد. وتقدم مجموعة المعلومات التي انبثقت حديثاً والمعروفة باسم «الفيزياء الجديدة» ، أو «نظرية التنظيم الذاتي» و/ أو «نظرية الفوضى»، ولأول مرة إطاراً مناسباً للبدء بتفهم ما حدث لنا خلال فترة ما قبل التاريخ، وما يمكن أن يحدث لنا مرة أخرى لو اتجهنا اتجاهاً مختلفاً.

وضمن منظور هذا الإطار، وضمن ما تحتويه نظرية التحول الحضاري، نجد أن ما كنا نقوم بتفحصه يشمل ناحيتين من الحراك الاجتماعي. الناحية الأولى تتعلق بالاستقرار الاجتماعي وكيف أنه ومنذ آلاف السنين كانت هناك مجتمعات إنسانية منظمة بطريقة تختلف عن الطريقة التي تعلمناها حول تنظيم المجتمعات الإنسانية. والناحية الثانية تتعلق بكيفية تحول الأنظمة الاجتماعية مثلها مثل غيرها من الأنظمة تحولاً جذرياً.

رأينا في الفصل السابق التحركات التي أدت إلى التغيير الاجتماعي في تطورنا الحضاري، وكيف أنه بعد فترة من الفوضى أو اختلال توازن الأنظمة، ظهرت هناك نقطة تشعب انطلق منها نظام اجتماعي مختلف كامل الاختلاف. ولعل ما يمكننا اكتشافه حول أوائل تلك التغييرات في الأنظمة، يعزز بصيرتنا حول ما حدث خلال تلك الفترات من التغير الجذري الفوضوي، وينير لنا ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا.

ومع ذلك، قد يتساءل المرء: إذا كانت هذه النقلة من النظام التشاركي إلى النظام المهيمن قد حدثت في فترة متأخرة من تاريخ جنسنا البشري، فهل هذا يعني أن نظام الهيمنة هو، بعد كل شيء، خطوة صاعدة باتجاه التطور؟ هنا، نعود إلى النقطتين اللتين ذكرناهما في مقدمة الكتاب. الأولى ترتبط بالاستخدام المشوش لكلمة تطور على أساس أنها وصفية ومعيارية، أي أنها تصف ما حدث في السابق وتتضمن في معناها حركة من المستويات الأدنى إلى المستويات الأعلى، أي ما سيأتي لاحقاً يجب أن يكون أفضل. والنقطة الثانية هي أن تطورنا التقني لم يكن حركة سائرة بخط مستقيم بل عملية شهدت تقطعاً أدى إلى تراجعٍ وتردٍ هائلين.

ونعود أيضاً مرة أخرى لنقطة مساوية في الأهمية وهي: الفرق الجوهري بين التطور الحضاري والبيولوجي. فالأخير يتضمن ما يطلق عليه العلماء اسم «التطور في الأجناس» أي ظهور أشكال عديدة ومتنوعة وأكثر تعقيداً. في المقابل يتضمن التطور الحضاري الإنساني تقدم جنس واحد شديد التعقيد ويحمل شكلين مختلفين هما الأنثى والذكر.

وهذا الازدواج في الشكل، كما رأينا سابقاً، يعمل ككابح أساسي لإمكانيات تنظيمنا الاجتماعي الذي كان قد أقيم على أسس تصنف هذين النصفين من الإنسان على شكل مراتب أو تربطهما ببعض على شكل شراكة. والفرق الجوهري الذي ينبغي التركيز عليه هو أن محطة كل من النموذجين تحمل طابعاً يميز التطور الاجتماعي والتقني. نتيجة لذلك، نجد أن تطورنا الحضاري، سواء كان نحو السلم أم نحو الحرب يعتمد على أي من هذين النموذجين سيقود توجه حضارتنا.

إن بإمكان حضارتنا الاجتماعية والتقنية أن تتحرك من مستويات مبسطّة إلى مستويات أكثر تعقيداً في ظل مجتمع تشاركي أو مجتمع مهيمن، وقد فعلت

ذلك. إلا أن تطورنا الحضاري الذي يوجه استخداماتنا للأشكال التقنية والاجتماعية الأكثر تعقيداً، يختلف اختلافاً جذرياً في كل نموذج. وهذا التوجه بدوره يؤثر على اتجاه تطورنا الاجتماعي والتقني.

وتشكل التقنية أكثر الأمثال وضوحاً في هذا المجال. ففي ظل التوجيه الحضاري للنموذج التشاركي، يصبح التركيز على التقنية لأهداف سلمية ولكن مع نهوض النموذج المهيمن، انتقل هذا التركيز إلى تطوير تقنيات للتدمير والهيمنة استمرت في تصاعد مستمر عبر القرون حتى وصلت إلى هذه الأيام الخطرة التي نعيشها.

ولأننا لسنا معتادين على النظر إلى تاريخنا ضمن نموذجي المشاركة أو الهيمنة في المجتمع، وهما النموذجان اللذان يصنعان شكل ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا، فإننا نجد صعوبة في رؤية التأثيرات العميقة التي يتركها هذان النموذجان على تطورنا الحضاري. لهذا السبب، نرى أهمية وجود مصدر يمكنه تعزيز معلوماتنا حول التغيير الذي حصل في توجهنا الحضاري منذ خمسة آلاف عام. وعلى عكس نظرية الفوضى، فإن هذا المصدر ليس جديداً برمته، بل هو في الحقيقة شيء مزروع في أذهاننا، من معرفة سابقة: إنه مخزن الأساطير المقدسة والعلمانية والعلمية للحضارة الغربية التي لا يمكن النظر إليها الآن إلا كونها تكشف حقيقة ماضٍ عتيد وأفضل مما نحن عليه.

عرق ذهبي وأسطورة أتلانتس Atlantis

يخبرنا الشاعر هيزيود في كتاباته التي صدرت مع نهاية ما يسميها المؤرخون الغربيون «عصور الظلام اليوناني» - أي بعد ثلاثة أو أربعة قرون من غزو الدورانيين - أنه كان هناك عرقاً ذهبياً يملك جميع الأشياء الجميلة. فقد كانت الأرض تعطي خيراتها بوفرة لا حد لها وكانت الخيرات موجودة بكثرة وقطعان الماشية الغزيرة تملأ المكان وكان الناس يعيشون برغد وسلام[1].

ولكن بعد ذهاب هذا العرق الذي يطلق عليه هيزيود اسم «الأرواح الطاهرة» أو «المحصَّنون ضد الشر» ، جاء عرق من الفضة أدنى مرتبة ثم حل محل هؤلاء عرق برونزي مريع وبطاش يختلف تماماً عن العرق الفضي «خرج هؤلاء من أكوام الرماد» . كان هيزيود يصف الآخيين الذين عاشوا في العصر البرونزي وجلبوا معهم الحروب، والذين كان جلّ اهتمامهم ينصب على أعمال شريرة مؤسفة للإله آريس. وعلى العكس من العرقين الأولين، لم يكن هؤلاء مزارعين مسالمين ولم يكونوا من أكلة الحنطة بل كانوا يملكون قلوباً من حجر لا تستسلم ولا تعرف الهزيمة[2].

في تعليقه على العرق الثالث الذي وصفه هيزيود، يكتب المؤرخ جون مانسلي روبنسون: «نحن نعرف هؤلاء الرجال، فقد جاؤوا من الشمال في حوالي 2000 عام قبل الميلاد يحملون معهم أسلحتهم البرونزية واستقروا في البر اليوناني وبنوا القلاع المايسينية الضخمة وتركوا وراءهم وثائق في لوائح خطية (ب)، استطعنا من خلالها أن نعرف شيئاً عن شكل اليونان القديم ... يمكننا تتبع امتداد نفوذهم جنوباً إلى كريت وشرقاً إلى ساحل آسيا الصغرى حيث اجتاحوا مدينة طروادة مع بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد[3].

ولكن بالنسبة لهيزيود ، كان المايسينيون الذين خلفوا الآخيين والشعوب التي قهروها يشكلون عرقاً رابعاً ومنفصلاً. كان هذا العرق أكثر عدلاً ونبلاً من العرق السابق[4]، كما كتب هيزيود. ومثله مثل هوميروس، كان هيزيود يعتبر هذا العرق مثالياً في تخليه عن بعض بربريته وتبنيه لعادات أكثر تحضراً من قدامى الأوروبيين.

ولكن في ذلك الزمان ظهر في الأفق التاريخي الأوروبي، عرق خامس من الرجال، وكان هؤلاء هم الذين حكموا اليونان خلال عهد هيزيود، ومنهم انحدر هيزيود نفسه، «سواء كان لدي نصيب في هذا العرق الخامس من الرجال أم كنت

سأموت ثم أولد بعد ذلك فإن هناك دائماً رجلاً يجتاح مدينة أخرى ويستولي عليها. الحق سوف يعتمد على القوة ولن يبقى هناك تقوى بعد ذلك[5] ».

وكما يذكر روبنسون فإن رجال هذا العرق الخامس كانوا الدوريين الذين تمكنوا عبر أسلحتهم المصنوعة من الحديد أن يدمروا معاقل المايسينيين ويستولوا على أراضيهم[6].

اعترف العلماء بالطريقة التي اتبعها هيزيود في تأريخه للعرقين البرونزي والحديدي على أساس أنهما الآخيون والدوريون، وهما من الشعوب الهندية الأوروبية التي غزت اليونان. ولكن وصف هيزيود للعصر الذهبي ولزمن المزارعين المسالمين الذي كان ما يزال يذكر في عهده قبل دخول عبادة آريس إله الحرب، ظل يفسر باستمرار على أنه ضرب من الخيال.

ولوقت طويل، كان هذا الأمر صحيحاً أيضاً بالنسبة لأكثر الأساطير اليونانية المعروفة حول وجود زمن سابق أفضل: أسطورة أتلانتس التي، كما يقول أفلاطون إنها ضمت حضارة نبيلة، عظيمة ومزدهرة، والتي ابتلعها البحر فيما بعد.

حدد أفلاطون موقع حضارة أتلانتس المفقودة في المحيط الأطلسي، ربما بناءً على معلومات من مخبري سولون المصريين الذين قالوا إنها تقع في أقصى الغرب وحددوا لها زمناً أحدث بكثير. ولكن وكما يذكر جي. في لوس في كتابه «نهاية أتلانتس» فإن بعض العناصر التي أوردها أفلاطون في وصفه هي رسم دقيق بشكل صارخ للإمبراطورية المنيوية في القرن السادس قبل الميلاد[7].

كذلك، يكتب عالِم الآثار اليوناني نيكولاس بلاتون: إن تلك الأسطورة التي وصلتنا من أفلاطون حول أتلانتس التي غرقت في البحر قد تكون إشارة إلى تاريخ كريت المنيوية وتدميرها المفاجئ، لأنه بالنسبة لأفلاطون فقد دُمِّرت

أتلانتس بسبب حدوث زلازل وفيضانات عارمة تماماً مثلما أقرّ العلماء بخصوص الحضارة المنيونية التي يعتقدون أنها تلقت الضربة القاصمة من هذه الزلازل والفيضانات مما أتاح المجال لاجتياحها من قِبَل الآخيين الذين استولوا على كريت وعلى جميع المستوطنات المنيوية في اليونان(8).

تم اقتراح هذه الفرضية لأول مرة عام 1939 من قِبَل البروفيسور سبيريدون ماريناتوس مدير خدمات الآثار اليونانية. وحديثاً وجدت هذه الفرضية ما يدعمها في الأدلة الجيولوجية التي تقول إنه في حوالي العام 1450 قبل الميلاد حدثت في البحر المتوسط سلسلة من الانفجارات البركانية التي بلغت من الشدة أن تسببت في انزلاق جزء من جزيرة ثيرا (وهي اليوم قطعة صغيرة من الأرض تدعى سانتوريني) إلى البحر. كما تسببت هذه الانفجارات البركانية بإطلاق الزلازل الضخمة وأمواج المد الهائلة. وقد تم التحقق من وقوع هذه الكوارث الطبيعية القاسية التي شكلت الأساس للذكريات الشعبية حول غرق قطعة من الأرض، سميت أتلانتس من قِبَل أفلاطون، عبر الحفريات الأثرية التي أجريت في ثيرا وفي كريت. وهذه الحفريات تقدم أدلة على وقوع زلزال عنيف مدمر وأمواج مد هائلة مدمرة خلال تلك الحقبة من الزمن(9).

وكما يذكر لوس، يبدو لنا الآن أن أمواج المد العاتية كانت هي الثور الذي قَدِمَ من البحر والذي ابتلى حكام كنوسوس(10). كما يبدو لنا أيضاً أن قصة أتلانتس هي في حقيقة الأمر ذكريات شعبية محرَّفة لا تدور حول قارة أتلانتس بل حول الحضارة المنيوية في كريت(11).

جنة عدن وألواح سومر

يتكرر في أساطير بلاد ما بين النهرين ذكر الأزمنة الخوالي التي كان الناس يعيشون فيها بانسجام أكبر، وتتكرر الإشارات إلى زمن مفعم بالسلام، مثل زمن

ما قبل الفيضان عندما عاش الرجال والنساء في جنة من الطمأنينة. وهذه القصص هي تلك التي يعتقد العلماء أنها شكلت جزئياً أساساً لأسطورة جنة عدن التي وردت في كتاب العهد القديم.

وعلى ضوء الأدلة الأثرية التي كنا نقوم بفحصها، نجد بوضوح أن قصة جنة عدن تقوم على ذكريات شعبية. فهذه الجنة هي استعارة للعصر الحجري الحديث، الذي بدأ فيه الرجال والنساء لأول مرة بزراعة الأرض وتأسيس أول البساتين. كذلك تعكس قصة قابيل وهابيل في جزء منها المواجهة الحقيقية بين الرعاة (الذين يرمز إليهم هابيل بتقديمه نعجته المذبوحة) وبين المزارعين (الذي يرمز إليهم قابيل في تقديمه لفاكهة الأرض التي رفضها إله الرعاة يهوا). وعلى المنوال نفسه، نجد أن قصة جنة عدن والخروج من الفردوس مأخوذة جزئياً من أحداث تاريخية حقيقية. وكما سيرد تفصيله في الفصول اللاحقة، فإن هذه القصص تعكس التغير الحضاري العنيف الذي كنا ندرسه أي فرض الهيمنة الذكورية وما رافقها من انتقال من السلام والمشاركة إلى الهيمنة والنزاع.

ونجد في الأساطير القديمة لبلاد ما بين النهرين إشارات متكررة للآلهة ذات القداسة الأسمى أو ما تسمى ملكة الجنة (وهي تسمية نجدها لاحقاً في كتاب العهد القديم) إلا أنها تظهر هنا في سياق أحاديث الأنبياء الذين شجبوا أي بعث للأديان القديمة. من المؤكد أن النقوشات الأولى في بلاد ما بين النهرين تزخر بالإشارات إلى الإلهة، فهناك صلاة سومرية تمجّد الملكة الشهيرة نانا، على أنها السيدة القوية والخالقة، كذلك يوجد لوح يشير إلى الإلهة نامو على أنها الأم التي وُلدت منها الجنة والأرض[12]. ونجد أيضاً في كل من الأساطير السومرية والبابلية اللاحقة قصصاً تحكي عن خلق الرجال والنساء بشكل متزامن أو على شكل أزواج من قِبل الإلهة[13]. وهي قصص رغم ظهورها في مجتمع يهيمن

عليه الرجال إلا أنها تبدو وكأنها تعود إلى زمن لم يكن يعتبر النساء أدنى درجة من الرجال.

وتظهر ألواح أخرى عُثر عليها في تلك المنطقة المعروفة بمهد الحضارة أنه مرّ زمن على تلك البلاد لم تكن فيه النساء تحت سيطرة الرجال. على سبيل المثال، نقرأ حتى زمن قريب من عام 2000 قبل الميلاد وثيقة عُثر عليها في إيلام وهي مدينة مستقلة تقع شرق سومر بأن إحدى النسوة المتزوجات رفضت تقاسم إرثها مع زوجها ومررت جميع أملاكها إلى ابنتها. هنا أيضاً نجد أنه فقط في الفترات الأخيرة من ذلك العهد أنزلت الإلهة إيلام التي كانت معروفة باسم الزوجة العظيمة إلى مرتبة أدنى من مرتبة زوجها همبام. وحتى في العهود اللاحقة لبابل، والتي عُرفت بهيمنة الذكور فيها، عُثر على دليل موثق بأن بعض النسوة كنّ ما يزلن يحتفظن بأملاكهن ويدرنهنّ بأنفسهن وخاصة النسوة الكاهنات اللواتي احترفن التجارة[14].

إضافة إلى ذلك، وكما يذكر البروفيسور إتش. دبليو. اف. ساغس في كتاباته: «كانت الإلهات يتمتعن بمركز بارز في أوائل عهد الديانة السومرية، إلا أن هذا المركز اختفى فيما بعد، وإذا ما استثنينا الإلهة عشتار، فقد أصبحت الإلهات مرافقات للآلهة الذكور» . وهذا الأمر على حد قول ساغس يدعم الاستنتاج بأن مركز المرأة كان أعلى في أوائل بدايات الدولة السومرية منه فيما بعد[15]. كذلك تؤكد القبور التي عُثر عليها والتي تعود إلى أوائل عهد الهلاك الخصيب مثل قبر الملكة شوب - عاد من أوائل ملكات مملكة أور، مثل هذه الحقيقة إذ يؤكد علماء الآثار بأنه على الرغم من أن القبر الذي كان بجوار قبرها يعود لهيكل عظمي ذكوري هو هيكل الملك، إلا أن النقش على القبر كان فقط يحمل اسمها، إضافة إلى أن قبرها كان أكثر روعة واتساعاً[16]. كذلك وعلى الرغم من أن التاريخ السومري يتحدث بشكل عام عن حكم الملكين لوغالاندا ويوروكاغينا، ويمر مرور

الكرام على اسمي زوجتيهما بارانمتارا وشاغشاغ، إلا أن الوثائق تبين أن هذه التواريخ كانت مسجلة باسمي هاتين الملكتين[17]. وهذا ما يثير نوعاً من المساءلة عما لو كانت هاتان المرأتان مجرد مرافقتين تحت حكم وهيمنة الرجال.

كذلك، يثار هذا السؤال عندما نلقي نظرة عن قرب على النص الموثق لما يسمى إصلاحات يوروكاغينا في سومر والتي يعود تاريخها إلى حوالي عام 2300 قبل الميلاد. هنا نقرأ كيف أن الأشجار المثمرة والمحاصيل التي تنمو على أراضي المعبد سوف تستخدم لإعالة المحتاجين بدلاً من أن تذهب فقط إلى أيدي الكهنة، كما جرت العادة سابقاً. وكيف أن هذه الممارسة تعود إلى فترة في السابق كانت الأمور تسير على هذا المنوال. ولكن هذه الإصلاحات جاءت كما تقول مؤرخة الفن ميرلين ستون، في فترة كانت فيها الملكات ما يزلن في أوج قوتهن، مما يشير إلى أن المجتمعات الأولى في حضارة سومر كانت أقل هرمية وأكثر توجهاً نحو خدمة أعضائها[18].

وبعيداً عن ذلك، تدلنا هذه الوثائق أيضاً على وجود قوانين وأعراف أكثر إنسانية مثل الحاجة إلى مساعدة المحتاجين في المجتمع، تماماً مثلما كانت القوانين والأعراف في عهود المجتمعات التشاركية وأن الإصلاحات التي قادها يوروكاغينا جاءت فقط لتؤكد المفاهيم الأخلاقية التي كانت سائدة في تلك العصور القديمة. وكما تشير ستون، فإن هذا الاستنتاج يتعزز بالكلمة التي كانت تستخدم لوصف تلك الإصلاحات وهي كلمة «أمارجي» وتحمل باللغة السومرية معنيين هما الحرية و«العودة إلى الأم» . مرة أخرى يدلنا هذا على عودة الذاكرة إلى فترة سابقة أقل ظلماً، حينما كانت النسوة يترأسن القبائل وكانت الملكات يمارسن السلطة كنوع من المسؤولية وليس كوسيلة للسيطرة الفردية[19].

ونتعلم أيضاً من الألواح السومرية أن إلهة لاغاش المدعوة نانشي كانت تُعبد لأنها تعرف اليتامى والأرامل وتسعى لتحقيق العدالة للفقراء والمأوى

للضعفاء[20]، وأنها هي التي تحاكم البشرية كلها في يوم رأس السنة الجديدة. كذلك نقرأ في الألواح التي عُثر عليها في مدينة أخرى قريبة هي إيريش أن الإلهة نيدابا كانت تُعرف بأنها التي تدرّس القوانين وأنها الأكثر علماً في الحجرات المقدسة[21]. إن مثل هذه الألقاب القديمة التي أطلقت على الإلهات مثل «واضعة القوانين، ومانحة العدالة أو الرحمة، والقاضي الأول» ، تبدو وكأنها تشير إلى وجود نوع من التنظيم المبكر للقوانين، وربما أيضاً وجود نظام قضائي يمتاز ببعض التعقيد، حيث كانت الكاهنات السومريات اللواتي يخدمن الإلهات يحكمن في النزاعات ويدرن شؤون العدالة.

ونقرأ أيضاً في الألواح التي عُثر عليها في بلاد ما بين النهرين كيف كان الناس يحترمون ويبجلون الإلهة نينليل لأنها كانت تعلّم الناس أساليب الزراعة والحصاد[22]. كذلك توجد أدلة لغوية تشير إلى أصول الزراعة. فالكلمات التي عُثر عليها في النصوص السومرية لمعنى المزارع والحراثة والثلم ليست سومرية في الأصل وكذلك هي الكلمات التي تعني الحائك، وصانع الجلود، وصانع السلال والحداد والفواخيري والبنّاء. ولعل في هذا الأمر إشارة إلى أن جميع هذه المعلومات الأساسية في التكنولوجيا نقلها الغزاة الذين جاؤوا لاحقاً عن أناس سابقين كانوا يعيشون هنا ويعبدون الإلهات والذين كانت لغتهم ستضيع لولا أن حدث ما حدث.

هدايا الحضارة

هناك فرضية واسعة الانتشار تقول إنه مهما كانت الأمور دموية منذ أيام السومريين والآشوريين، إلا أن هذا كان يشكل بكل أسف شرطاً مسبقاً للتقدم التقني والحضاري. فلو كان هؤلاء المتوحشون الذين عاشوا على الأرض قبل ظهور بواكير حضاراتنا، أناساً مسالمين لكان من المنطقي أنهم بطبيعة الأمر، وقد افتقروا إلى دافع ملائم، لم ينتجوا شيئاً ذا قيمة يحمل عنصر الاستمرارية، لأن

مسألة الحث على الحروب التي يحملها رجل الشارع ومنظرو السياسة في البنتاغون هو أمر ضروري لإحراز التقدم التقني والحضاري. ولكن المعلومات التي نقوم بفحصها الآن، إضافة إلى الأساطير والأقاصيص القديمة، تخبرنا عن الشيء نفسه الذي نتعلمه من الحفريات الأثرية وهو أن أفضل الأسرار التي حفظها التاريخ هي أن معظم التقنيات الاجتماعية والمادية التي شكلت حجراً أساسياً في تطور الحضارة كانت قد تطورت قبل الدخول في فترة فرض الهيمنة الذكورية على المجتمعات الإنسانية.

إن مبادئ مثل إنتاج الغذاء والبناء والتعمير وتقنيات الثياب والأواني كانت معروفة من قبل شعوب العصر الحجري الجديد، التي عبدت الإلهات[24] وكذلك الأمر بالنسبة للاستخدامات الأكثر تعقيداً لموارد طبيعية مثل الخشب والأنسجة والجلود وما تبعها فيما بعد من معادن استخدمت في التصنيع. أما التقنيات غير المادية والتي تعتبر الأكثر أهمية بالنسبة لنا، مثل القوانين والأديان والحكومات، فإنها أيضاً تعود إلى المجتمع القديم، وهو نص افترضناه من تعريف غيمبوتاس لتلك المرحلة بأوروبا القديمة. والأمر نفسه ينطبق على الصلوات والأحكام والكهنوت والرقص والطقوس والأدب الشفهي أو الشعبي والفنون والعمارة وتخطيط المدن. فقد كانت هذه كلها تقنيات سبقت مرحلة الهيمنة الذكورية على المجتمعات[25]. أما التجارة البحرية منها والبرية فتعتبر أيضاً إرثاً قادماً من تلك الحضارة العريقة[26]. ويليها في ذلك الإدارة والتعليم وحتى التنجيم وقراءة المستقبل لأن أول تعريف ظهر للنبوة كان في عهد الكاهنات اللواتي كنّ يخدمن الآلهات[27].

يقوم الدين بدعم وإدامة التنظيم الاجتماعي الذي يعكسه. وتظهر العديد من نصوص الأديان القديمة التي وصلت لنا، بأن الإلهة وليس أي من الآلهة الذكورية التي كانت مهيمنة في لك الوقت، هي التي كانت تعرف أنها مانحة

الحضارة للإنسان[28]. ولعل الأساطير التي تنسب أهم مخترعاتنا المادية والروحية الرئيسية إلى الإلهات تعكس حقيقة كونها اختراعات نسائية[29].

إلا أن مثل هذه الفرضية تعتبر بمثابة أمر لا يمكن تصوره في ظل النموذج الذكوري السائد، لأن هذا النموذج يصور المرأة على أنها ثانوية بالنسبة للرجل وتعتمد عليه في حياتها، كما أنها ليست أقل منه ثقافة فقط، بل هي بالنسبة لكتابنا المقدس أدنى تطوراً من الرجل في المسائل الروحية لدرجة أن اللوم يقع عليها في خروجنا من الفردوس.

ويختلف الأمر في المجتمعات التي صورت السلطة العليا للكون على شكل إلهة، لها كل الوقار والتبجيل بسبب حكمتها وبسبب كونها مصدر جميع نعمنا الروحية والمادية. وهذه المجتمعات أضفت على المرأة صورة ذاتية تختلف تماماً عن النموذج الذي ساد بعد ذلك. فمع وجود مثل هذا النموذج للمرأة بدورها القوي، تميل المرأة إلى اعتبار أن من حقها وواجبها أيضاً أن تقود عملية تطوير واستخدام التقنيات الروحية والمادية. كما تميل إلى رؤية نفسها كشخص كفوء، مستقل ومبدع. وتوجد على وجه التأكيد أدلة متنامية على مشاركة المرأة وقيادتها في تطوير وإدارة التقنيات المادية وغير المادية التي جاء النظام الذكوري المهيمن ليفرض نفسه عليها فيما بعد.

وبالعودة إلى الزمن الذي بدأ فيه أجدادنا الأوائل بالتحول إلى شكل الإنسان، يحاول العلماء إعادة تركيب وجهة نظر أكثر توازناً حول تطورنا، وهي وجهة نظر تلعب فيها النساء وليس الرجال فقط أدواراً مركزية. فالنموذج التطوري الأول الذي قام على أساس «الرجل الصياد» ينسب بدايات المجتمع الإنساني إلى «الترابط الذكوري» الذي كان ضرورياً للصيد، كما يزعم بأن الأدوات الأولى التي قمنا بتطويرها كانت من أجل قتل فرائسنا وقتل منافسينا

الأضعف. أما الآن فيظهر نموذج تطوري بديل، اقترحه علماء مثل نانسي تانر وجين لانكستر وليلا ليبوفيتس وأدريان زيلمان[30].

وتقول وجهة النظر الجديدة أن القامة المنتصبة التي كانت مطلوبة لإطلاق وتحرير اليدين، لم تكن مرتبطة بالصيد بل بالنقلة التي حدثت من طريقة الأكل القائمة على التقاط الطعام من المراعي وأكله كيفما جاء إلى طريقة جمع الطعام وحمله للمشاركة والتخزين. كذلك، لم يكن الدافع وراء تطور دماغ أكبر وأكثر كفاءة للاستخدام في صنع الأدوات والمشاركة بالمعلومات، هو الترابط بين الرجال الضروري للقتل، بل إن الترابط بين الأمهات وأطفالهن هو الذي كان مطلوباً إذا ما أريد للوليد البشري أن يحيا. بناءً على هذه النظرية فإن الصناعات البشرية الأولى لم تكن الأسلحة بل كانت أواني نقل الأطعمة وأدوات حمل الأطفال إضافة إلى الأدوات التي استخدمتها الأمهات لتليين الطعام من أجل أن يستطيع أطفالهن تناوله، وحاجة هؤلاء الأطفال إلى حليب الأم وإلى الأطعمة الصلبة من أجل أن يبقوا على قيد الحياة[31].

وتتلاءم النظرية بشكل أكبر مع حقيقة أن أجدادنا الأوائل الذين شكلوا قبائل بدائية، اعتمدوا على جمع الطعام بدلاً من الصيد، وتتلاءم كذلك مع الأدلة التي تشير إلى أن أكل اللحوم كان جزءاً ضئيلاً من النشاطات الغذائية التي اعتمد عليها أوائل البشر، وتجد هذه النظرية دعمها أيضاً في حقيقة أن الثدييات الذين ننتمي إليهم نحن البشر يختلفون عن الطيور وغيرها من الأجناس من ناحية أن الأمهات فقط هن اللواتي يشاركن أطفالهن الطعام. كذلك نجد بين البشر الأوائل تطوراً لأول أدوات في التاريخ، لم تصنع من أجل القتل بل من أجل جمع الطعام والتعامل معه ونجد أيضاً من بين أكثر الثدييات التي تخضع لمراقبته مستمرة، إناث قردة الشمبانزي يستخدمن تلك الأدوات أكثر تكراراً[32].

لذلك لا نستبعد احتمال أن النساء كنّ أول من بذرن الحبوب في الأرض وبدأن بتدجين صغار الحيوانات من خلال إطعامها ورعايتها. ويشير علماء الإنسان إلى حقيقة أن في الاقتصادات الزراعية للأمم والقبائل النامية، ظلت زراعة الأرض وحتى يومنا هذا، على عكس ما ادّعته الفرضيات الغريبة، عملاً تقوم به النساء[37].

ونجد ما يعزز هذا الاستنتاج في العديد من الأساطير الدينية القديمة التي تنسب اختراع الزراعة بوضوح إلى الإلهة. على سبيل المثال، تشير السجلات المصرية القديمة إلى أن الإلهة إيزيس كان يشار إليها مراراً على أنها مكتشفة الزراعة. كما نجد في ألواح بلاد ما بين النهرين تبجيلاً للإلهة نينليل لأنها كانت تعلّم الناس كيف يزرعون[38]. وترد في كل من علم الآثار وعلم الأساطير إشارات غير شفهية تربط بين الإلهة والزراعة. وتغطي هذه الإشارات فترة طويلة جداً من الزمن تمتد من كاتال هويوك وحتى الأزمنة الإغريقية التقليدية حيث ظلت القرابين والعطايا تقدم إلى الإلهتين ديميتر وهيرا[39].

وبناءً على الأبحاث المستفيضة التي أجريت على أساطير ما قبل التاريخ، فقد توصل علماء مثل روبرت بريفولت وإيريك نيومان إلى نتائج تقول بأن صناعة الفخار كانت من اكتشاف النساء، وكان ينظر إليها في زمن من الأزمان على أنها عملية مقدسة ترتبط بعبادة الإلهة وبالنساء بشكل عام. وكذلك الأمر بالنسبة لحياكة الثياب وغزلها فقد ارتبطت هذه الصناعات في معظم الأساطير القديمة بالنساء بالآلهة الأنثوية التي ما زال يقال عنها كما في الأقدار اليونانية بأنها هي التي تغزل مصائر الرجال[40].

كذلك هناك أدلة في مصر وأوروبا والهلال الخصيب بوجود ارتباط بين الأنثوية والعدالة والحكمة والذكاء، يعود إلى عصور عريقة في القِدَم. فهناك ماط وهي إلهة العدل في مصر، وقد بقيت هذه الظاهرة بعد أن تم فرض هيمنة

الذكور حيث بقيت الإلهتان إيزيس في مصر-وديميتر في اليونان تعرفان بوضع القوانين وبإعطاء النصح والحكمة والمشورة العادلة. وتظهر السجلات الأثرية التي وجدت في مدينة نمرود في الشرق الأوسط والتي كانت تعبد الإلهة الشجاعة عشتار، أن بعض النسوة كن يعملن كقضاة في المحاكم. ونقرأ في الأساطير الإيرلندية التي سبقت مجيء المسيحية أن السلتيين عبدوا الإلهة سيريدوين كإلهة للذكاء والمعرفة[41]. وكما أن واضعي القوانين وملهمي الإبداع في اليونان كانوا من النساء، كذلك كانت صورة صوفيا أو الحكمة منتشرة بشكل واسع في العصور الوسطى للمسيحية، بالتزامن مع صورة الإلهة التي تعتبر سيدة الرحمة[42].

كما توجد وفرة من الأدلة على أن الروحانية وخاصة النظرة الروحية التي ميّزت الحكماء من العرافين والعرافات كانت صفة ملازمة للمرأة. ونقرأ في سجلات آثار بلاد ما بين النهرين أن عشتار إلهة بابل خليفة الإلهة إينانا، ظلت تعرف باسم سيدة الرؤيا، والسيدة التي توجه الكهنة، ونبيّة كيوا. وتضم الألواح البابلية إشارات عديدة على قيام كاهنات بتقديم نصائح نبوية في معابد عشتار، وقد برزت بعض هذه النصائح في سجلات الأحداث السياسية[43].

ومن السجلات المصرية القديمة، نجد أن صورة أفعى الكوبرا كانت تشكل إشارة باللغة الهيروغليفية إلى كلمة إلهة، وأن الكوبرا كانت معروفة «بالعين» أو أوزايت وهي رمز للبصيرة الباطنية والحكمة. وكانت الإلهة الكوبرا المعروفة باسم أوازيت تعتبر إلهة مصر السفلى (أي شمال مصر) في العهود التي سبقت ظهور السلالات الحاكمة. وفي مراحل لاحقة ظلت الإلهتان هاذور ومعاط تعرفان بالعين. ونجد صورة اليورايوس وهي الأفعى المنتصبة على مؤخرتها تغطي مراراً مقدمة رأس ملوك مصر، كذلك تقف المقبرة النبوية التي ربما تكون موقعاً لمعبد قديم للإلهة أوازيت، في مدينة بيرعطو المصرية التي أطلق عليها اليونانيون اسم بوتو، وهو اسم كان يطلقه اليونان على الإلهة الكوبرا نفسها[44].

ويقف معبد الوحي المعروف في دلفي على موقع كان يرتبط أصلاً بعبادة الإلهة. وحتى في الأزمنة الكلاسيكية الإغريقية القديمة التي طغت عليها فيما بعد عبادة الإله أبوللو ظل الوحي يتزل عبر شفاه امرأة. وكانت هذه المرأة كاهنة تدعى «بيثيا» وكانت تجلس على مقعد ثلاثي القوائم تكورت حوله أفعى تدعى البايثون. ونقرأ أيضاً أن من معبد أخيليوس الأكثر قداسة، كانت الإلهة تبجّل وكأنها إحدى النبيّات البدائيات. ولعل هذا يدلنا على أنه حتى أواخر العهد الإغريقي الكلاسيكي، ظل المجتمع التشاركي يسعى في تقاليده إلى كسب الحكمة والإلهام الإلهي من خلال المرأة وأن هذه الممارسة لم تكن بعد قد غيّبها النسيان[45].

ونقرأ في كتابات ديودوروس سيكولوس في القرن الأول قبل الميلاد أنه حتى في هذا الزمن الأخير بقي مفهوما العدالة والشفاء مرتبطين بالمرأة. فعندما سافر ديودوروس عبر مصر، وجد أن الإلهة إيزيس التي خلفت أوازيت وهاذور، كانت لا تزال تحظى بالتبجيل والتقديس ليس لأنها أسست القانون والعدالة فحسب، بل لأنها كانت طبيبة تشفي الأمراض ببراعة[46]. وفي هذا السياق، من المثير للاهتمام أن نلاحظ أن شعار الحيتين الملتفتين حول بعضهما البعض واللتين يطلق عليهما اسم كادوكيوس، ما يزال حتى الآن شعار مهنة الطب. وتقول الأسطورة إن هذا التقليد اشتُق من مسألة ربط الأفاعي بكهنة الإله اليوناني أسكليبيوس، إلا أنه بالعودة إلى تقليد أكثر قدماً، نجد أن هذا الشعار ينحدر من ربط الأفعى بالإلهة، وهو ربط ينطبق كما رأينا سابقاً على الشفاء وعلى النبوة[47].

وحتى اختراع الكتابة، الذي يفترض أنه يعود لتاريخ 3200 قبل الميلاد في سومر، يبدو وكأنه كان أبكر بكثير من ذلك، وأن جذوره ربما كانت أنثوية. ففي الألواح السومرية نجد وصفاً للإلهة نيدابا على عملها هو كاتب الجنة السومرية وأنها التي اخترعت فن الكتابة والألواح الطينية. أما في الأساطير الهندية، فنجد

أن اختراع الحروف الأبجدية الأصلية يُنسب إلى «سارفاستي»[48]. وقد اكتشفت غيمبوتاس، بناءً على حفريات أثرية أجريت في أوروبا القديمة أن بواكير الكتابة المخططة تعود إلى العصر الحجري الحديث كما أن هذه البدايات لا تبدو وكأنها تتعلق بمخطوطات تجارية وإدارية صممت من أجل تتبع أية تراكمات مادية، كما هو الحال في سومر، بل إن هذه الأداة الجبارة للاتصال بين البشر تبدو وكأنها كانت روحانية في طابعها بمعنى أنها مخطوطات مقدسة مرتبطة بعبادة الإلهة[49].

ولعل أكثر المكتشفات المعروفة دعماً لهذه النظرية الجديدة تأتينا من موقع أوروبي في فينسا التي تبعد 14 ميلاً شرق بلغراد في يوغوسلافيا. فكما هو الحال في عدد من المواقع، عندما تم اكتشاف فينسا، كان الاعتقاد السائد بأنها أحدث بكثير مما تبدو عليه في الحقيقة بسبب وجود درجة عالية من التعقيد في حضارتها. وقد استنتج البروفيسور م. فاسيش، الذي أشرف على حفريات حضارة فينسا ما بين الأعوام 1908 و 1932، في بداية الأمر بأن فينسا كانت مركز حضارة بحر إيجة في الألفية الثانية قبل الميلاد، ثم قرر بعد ذلك ، أن تاريخها يعود إلى فترة أحدث من ذلك، ولعلها في الحقيقة كانت مستعمرة إغريقية، وقد ظلت هذه الاستنتاجات مذكورة في عدد من القصص المعاصرة لمنطقة البلقان[50].

إن مثل هذه النظريات التي كانت منتشرة قبل أن يبدأ علم الآثار باستخدام وسائل مثل الكربون المشع والتأريخ الذي يعتمد على الأشجار، كانت تتلاءم مع الفكرة التي سادت في ذلك الوقت من أن البلقان القديمة لم تكن تملك حضارات أصلية متقدمة. ولكن التواريخ التي حصل عليها العلم من استخدام الكربون المشع عبر ثمانية مواقع في مراحل مختلفة من تاريخ فينسا الحضاري تظهر أن هذه الحضارة تعود إلى فترة تمتد بين الأعوام 5300 و 4000 قبل الميلاد أي قبل سبعة آلاف سنة من الآن[51]، ومثل هذه المعلومات، إذا ما أضيفت إلى

الأدلة الأثرية التي تقوْل بأن عبادة الإلهة كانت هي الممارسة السائدة في ذلك الزمن، تضع فينسا مباشرة في مرحلة المجتمع التشاركي.

ففي فينسا نفسها، تم اكتشاف ما سمي بألواح تارتارا، وغيرها من العلامات المنقوشة على التماثيل وعلى الأدوات الفخارية. وتقوم غيمبوتاس بوضع تواريخ تظهر كيف أن هذه المكتشفات، بالترافق مع وجود أدلة عن غزارة ملحوظة في الحياة الروحانية بشكل عام[52] أدت إلى بروز نظرية أخرى، تتلاءم على الأقل مع النموذج الأثري القديم القائل بعدم وجود حضارة أصلية لأهل البلقان، وذلك لأن حضارة فينسا استوردت من الأناضول أو ربما من بلاد ما بين النهرين. إلا أن حضارة فينسا قد ترسخت الآن على أنها كانت حضارة سكان البلقان. وهذا يدفعنا إلى الاستنتاج بأنه إذا كانت العلامات المنقوشة على الألواح والتماثيل والأدوات الأخرى التي اكتشفت في فينسا والتي تعود إلى العصر الحجري الحديث، إضافة إلى المواقع الأوروبية القديمة التي تظهر وجود مخطوطات بدائية لكتابة خطية، فإن أصول الكتابة تعود إلى عهود أكثر قدماً مما كنا نعتقد، أي إلى عهود سبقت عهود الهيمنة الذكورية[53].

ومن المؤكد أن هناك أدلة متزايدة تدعم هذا الاستنتاج. ففي عام 1980 ذكرت البروفيسورة غيمبوتاس أنه حتى الوقت الحالي يوجد ما يزيد عن ستين موقعاً معروفاً باحتوائه على نقوش. ومعظم هذه المواقع موجودة ضمن مجموعة حضارة فينسا وتيزا وكذلك حضارة كارانوفو في بلغاريا الوسطى. كذلك وجدت علامات منقوشة أو مرسومة على فخاريات ديميني وكوكوتيني وبيتريستي ولينغييل وبوتمير وبوك وفخاخير خطية أخرى. وتشير هذه المكتشفات إلى أنه لم يعد مناسباً التحدث عن مخطوطات فينسا أو عن صفائح تارتارا فقط، إذ يبدو أن هذه المخطوطات والصفائح تشكل ظاهرة عامة للحضارة الأوروبية القديمة[54].

كذلك، تبدو هذه المخطوطات وكأنها نتيجة تقليد قديم كان يستخدم الفن كنوع من الرؤية المختصرة لنقل مفاهيم هامة. فقد ظهرت عبر أوروبا برمتها تماثيل أنيقة جداً للإلهات حفرت فيها نقوش رمزية على شكل تعرجات أو إشارات أو دوائر أو التفافات أو خطوط متعددة أو أشكال على حرف V و X بالإنكليزية. وتذكر غيمبوتاس هنا أن هذه الصور تشكل وسائل اتصال مقبولة ومفهومة لنقل الفرضيات التي تفسر أمور الحياة الأساسية في ذلك الزمن. وعندما تقدم هذا الشكل من الاتصال الرمزي فيما بعد، أصبح أول شكل من أشكال الخط الإنساني. وكان هذا الشكل عبارة عن أحرف تم فيها تعديل العلامات الرمزية الموجودة من خلال السطور والالتواءات والنقاط، مع العلم أن هذا الشكل كان موجوداً في العصر الحجري الأول وواسع الانتشار في العصر الحجري الحديث. وتؤمن غيمبوتاس، التي تعمل على فك طلاسم المخطوطات الأوروبية القديمة، بأن بعض هذه الأحرف كان يحمل قيمة لفظية. فحرف V هو أكثر العلامات التي تظهر مراراً على التماثيل وعلى سائر الأشياء المستخدمة في العبادات. وفي رأيي أنه حرف كان يستخدم في الكتابة وكانت له قيمة لفظية مشتقة من علامة الحرف. كذلك كان حرف M يدل على الماء في اللغة المصرية ولابد أنه كان يحمل قيمة لفظية منذ بواكير الزمن أي على الأقل في الألفية السادسة قبل الميلاد[55].

وقد حاولت غيمبوتاس من خلال دراسة مستفيضة أجرتها على الرموز والعلامات التي وجدت أولاً على التماثيل ولاحقاً على الصناعات الفخارية، والأقراص والصفائح والأختام، أن تحل مغالق المعاني عبر الربط بين الأشياء، على سبيل المثال، أن حرف V ربما كان طريقة لتمثيل الإلهة في مظهر الطير وأن الأشياء التي تحمل علامة V هي في الأصل مكرسة لعبادتها. ولاحظت غيمبوتاس فيما بعد كيف أن العلامات اللاحقة كانت منقوشة في صفوف كما

هو الحال مع صحن غريدشيكا، حيث يحتمل أن تكون مجموعات الأحرف المكررة على شكل V و M و X و Y تمثل نذوراً أو صلوات أو قرابين للآلهة[56].

وتشير غيمبوتاس أيضاً إلى التشابهات التي لا تحتمل الشك بين الخصائص الأوروبية القديمة وتلك التي في خطوط (أ) أو في العهد المنيوي - القبرصي أو العهد القبرصي الكلاسيكي[57]. ويثير هذا الأمر احتمالاً كبيراً بأن الخط (أ)، وهو المخطوطة الأقدم منذ عهد كريت المنيوية، والتي لم يتم سبر غورها بعد، قد يشكل تطوراً لاحقاً لتقليد الكتابة الباقي على قيد الحياة منذ العصر الحجري الحديث، وليس كما ظلت الفرضية تقول بأن أهل كريت أخذوها عن التجار الذين كانوا يتعاملون معهم في آسيا الوسطى ومصر[58].

نظرة جديدة إلى الماضي

جميع هذه المعلومات التي جُمعت حول ماضينا المفقود، تدفع بشكل حتمي إلى تحريك الصراع بين القديم والجديد داخل أذهاننا. فالنظرة القديمة كانت ترى أن علاقات القرابة الأولى للإنسان والعلاقات الاقتصادية لاحقاً تطورت نتيجة لأعمال الصيد والقتل التي كان الرجال يقومون بها. أما النظرة الجديدة فترى أن أسس التنظيم الاجتماعي جاءت من مشاركة الأمهات والأطفال[59]. كانت النظرة القديمة لما قبل التاريخ تحكي قصة الرجل الصياد، أما النظرة الحديثة فتحكي عن الرجال والنساء وهم يتشاركون معاً في استخدام أعضاء أجسامهم الفريدة من أجل دعم وتعزيز الحياة.

وكما هو الحال في بعض المجتمعات الأكثر بدائية مثل جماعات البامبوتي والكنغ، والتي لم تتصف بوجود رجال كهف محاربين يجرّون النساء من شعورهن، فإن الأمر يبدو وكأن العصر الحجري الأول كان زمناً مسالماً بشكل ملحوظ. وتماماً مثلما تحدى هينريخ وصوفيا شلايمان المؤسسة العلمية في زمنهما

وأثبتا أن مدينة طروادة لم تكن من نسج خيال هوميروس بل كانت حدثاً حقيقياً في فترة ما قبل التاريخ، راحت المكتشفات الأثرية الجدية تثبت حقيقة التفسيرات التي برزت حول زمن جاء قبل أن يقوم إله ذكوري بإخضاع المرأة للرجل إلى أبد الآبدين، زمن كانت البشرية تعيش في سلام ورخاء.

خلاصة الأمر هي أن النظرة الجديدة للتطور الحضاري تجعل من الهيمنة الذكورية والعنف الذكوري والتسلط معطيات غير حتمية وغير أبدية. وبدلاً من أن يكون الأمر مجرد حلم مثالي (طوباوي) فإن إيجاد عالم مسالم ومتساوٍ في المستقبل هو احتمال حقيقي.

ولكن الإرث الذي وصلنا من تلك المجتمعات التي كانت تعبد الإلهة لا يشكل فقط ذكرى ما زالت تلازمنا عن زمن كان يُنظر فيه إلى شجرة الحياة وشجرة المعرفة على أنهما عطية من الطبيعة الأم إلى الرجال والنساء، ولا إحساساً حاداً بما يمكن أن يكون الأمر عليه لو يُسمح للإنسانية أن تصل إلى عصر تتمتع فيه بتلك العطايا، بل إن الأمر وكما رأينا سابقاً يتعدى ذلك إلى التأكيد بأن التقنيات الأساسية التي بُنيت عليها لاحقاً جميع حضارات الأرض هي إرثنا من هذه المجتمعات التشاركية القديمة.

إلا أن هذا لا يعني أن هذه المجتمعات كانت مجتمعات مثالية. إذ أنها رغم إسهاماتها العظيمة في الحضارة الإنسانية والتي وسمتها في الذاكرة بأنها كانت أفضل أمناً وأكثر براءة، إلا أنها لم تكن مجتمعات طوباوية. ولعل من الأهمية بمكان أن نشدد على القول بأن أي مجتمع مسالم لا يعني غياب العنف، وأن هذه المجتمعات كانت مصنوعة من لحم ودم بشري بكل ما يحمله البشر من عيوب ونقائص.

وكذلك، على الرغم من كل هذا الإبداع وهذه البشائر، إلا أن التقنيات المادية التي أفرزها العصر الحجري الحديث، كانت ما تزال بدائية مقارنةً مع ما نشهده اليوم، ورغم ظهور الأدلة على وجود كتابة في ذلك الزمن إلا أنه يبدو

وكأنه لم يكن هناك أدب مكتوب. ورغم المعرفة التي كانت موجودة حول أمور تمتد من الزراعة إلى الفلك إلا أنه لم يكن هناك علم كالعلم الذي نعرفه اليوم.

وفي الحقيقة أنه يمكننا من خلال دراسة الفن الديني في العصر الحجري الحديث أن نرى كيف حاول أجدادنا رغم افتقارهم إلى المعرفة العلمية التي نمتلكها اليوم أن يفسروا الكون ويؤثروا فيه بطرق تبدو في أيامنا هذه وكأنها طرق بدائية وخرافية. ورغم وجود أدلة هائلة على تقديم أضاحي بشرية في المجتمعات التي شهدت عصر الهيمنة لاحقاً إلا أن هناك عدداً قليل من المؤشرات التي تدل على أن طقوس ممارسة الأضاحي البشرية تعود إلى ذلك الزمن السابق[60].

ولعل بإمكاننا أن نبني منظوراً مفيداً حول إيجابيات وسلبيات ذلك العصر من خلال ما قد نطلق عليه دليلاً حول العقلية الخاصة بذلك العصر. فقد تميز فن العصر الحجري الحديث أحياناً باللاعقلانية لأنه يعج بأنواع التصاوير التي نربطها عادةً بالقصص الخرافية، وأفلام الرعب وحتى بقصص الخيال العلمي. ولكن إذا أردنا أن نعرِّف العقلانية أو المنطق ضمن أية معايير إنسانية تعني استخدام عقولنا للتغلب على وحشية الطبيعة وتدميرها، ونعرِّف اللاعقلانية بأنها تتعلق بأفكار وتصرفات تدميرية، فإن القول الأكثر دقة هو أن العصر الحجري الحديث لا يعكس فكراً لا عقلانياً بقدر ما يعكس نظرة للعالم تسبق العقلانية[61]. ومقارنةً مع التفكير التجريبي الذي نوليه قيمة كبيرة في عصرنا العلماني، فإن تفكير العصر الحجري الحديث جاء نتيجة عقلية تتميز بالخيال والفطرة والإدراك الباطني الروحاني.

ولكن هذا لا يعني، كما بيّن عالم النفس جوليان جينس أن هؤلاء الناس القدماء كانوا يستخدمون فقط الجانب الأيمن من دماغهم. فقد ادعى جينس أن الإدراك البشري الحقيقي والذي يتماشى مع استخدام الجانب الأيسر الأكثر منطقية في الدماغ، برز فقط عبر سلسلة الصدامات الدموية المزلزلة التي أحدثتها

الغزوات والكوارث الطبيعية التي مرّ ذكرها. وفي الحقيقة أنه جادل بأنه حتى حدوث تلك الصدامات لم نكن نملك أكثر من الجانب الأيمن من الدفاع المسيطر عليه أوتوماتيكياً من قِبَل الإله[62]. ولكن ما علينا إلا أن ننظر إلى مقدسات ستونهنج وآفبيري لنرى أن التفكير المنطقي، المتسلسل والمطرّد، وهو تفكير يميز الجانب الأيسر من الدماغ، كان راسخاً في ذلك العصر الحجري الحديث. ومن الواضح أن ترتيب هذه الأحجار الضخمة لتواكب حركة الشمس والقمر، إضافة إلى تشكيلها ونقلها ووضعها في أمكنتها، أمور تطلبت فهماً متقدماً لعلوم الرياضيات والفلك والهندسة[63]. ومن المؤكد أن سكان كريت الذين شيّدوا القنوات المائية والطرق المعبدة والقصور المعمارية المعقدة التصاميم، وكانوا يمدّون أنابيب المياه إلى منازلهم، وكانت لهم تجارة مزدهرة، ودرجة عالية من المعرفة بأمور الملاحة البحرية[63]، كانوا يستخدمون الجانب الأيسر من دماغهم بشكل مكثف إضافة إلى الجانب الأيمن، إذ أن الإنجازات المادية الهائلة لسكان كريت تعتبر مدهشة حتى ضمن المعايير الحديثة، ولعلها تتفوق على الكثير من المجتمعات النامية الحالية.

والنقطة الأكثر لفتاً للنظر، إذا قمنا بمقارنة مع العالم الحديث هي أن الإنجازات التقنية المتقدمة في تلك المجتمعات التشاركية التي عاشت ما قبل التاريخ كانت تُستخدم أساساً لجعل الحياة أكثر سعادة وليس من أجل الهيمنة والتدمير. ويقودنا هذا إلى التمييز الأساسي بين التطور الحضاري لمجتمعات الهيمنة وللمجتمعات التشاركية. كما تشير أيضاً إلى الاستنتاج القائل بأننا إذا نظرنا من هذه الناحية الهامة فإن هذه المجتمعات التشاركية القديمة الأقل تقدماً من الناحية التقنية والاجتماعية، كانت أكثر تطوراً من المجتمعات المعاصرة ذات التقنية العالية والتي تشهد موت ملايين الأطفال جوعاً كل عام بينما يتم إنفاق بلايين الدولارات على طرق القتل الأكثر تعقيداً.

من هذا المنظور، يمكن النظر إلى البحث المعاصر الذي يجري حول الروحانية القديمة المفقودة عبر ضوء جديد وأكثر فاعلية. ولعل جوهر هذا البحث الذي يقوم به عدد كبير من الأشخاص اليوم من أجل العثور على الحكمة الغامضة التي ميزت العصور القديمة هو بحث عن ذلك النوع من الروحانية الذي يميز مجتمعاً تشاركياً وليس مجتمعاً في ظل الهيمنة.

وتشير الأدلة الأسطورية والأثرية إلى أن أكثر الصفات التي يمكن ملاحظتها في العقلية التي سبقت عصور الهيمنة هي إدراك هؤلاء الناس لوحدتنا مع الطبيعة، وهو إدراك يقع في قلب عبادة الإلهة التي مورست في كريت وفي العصر الحجري الحديث. وتشير الأعمال الحديثة لعلماء البيئة المعاصرين بشكل متزايد إلى هذه الصفة العقلية المبكرة والتي ترتبط في عصرنا هذا مع بعض أنواع الروحانية الشرقية كانت بعيدة كل البُعد عن العقلية التدميرية الحالية للبيئة والطبيعة. ولعلها في الحقيقة تستبق النظريات العلمية الحديثة التي تقول بأن جميع الكائنات الحية على وجه الأرض، إضافة إلى الفضاء والمحيطات والتربة، تشكل بمجموعها نظاماً حياتياً مترابطاً ومعقداً. ويتناسب هذا القول مع فرضية غايا التي أطلقها العالِم الكيميائي جيمس لوفلوك وأستاذة علم الأحياء المجهرية لين مارغوليس، إذ إن غايا هو أحد الأسماء التي تطلق على واحدة من قدامى الإلهات في اليونان[64].

ولعل الفكرة التي سادت المجتمع القديم حول النظر إلى القوى التي تحكم الكون على أنها أم معطاءة راعية، هي فكرة تحمل اطمئناناً نفسياً أكبر وتوتراً اجتماعياً أقل، وقلقاً أخف، من فكرة الآلهة الذكورية التأديبية التي ما زالت تسيطر على معظم كرتنا الأرضية. ومن المؤكد أن هذا العناد الذي أظهره الرجال والنساء على مدى ألفيات زمنية من التاريخ الغربي في تمسكهم بصورة مريم العذراء المسيحية وتعلقهم بهذه الأم الرحيمة المبجّلة، خير شاهد على

مدى التلهف البشري لصورة تحمل معها الاطمئنان لقلوبهم. إلا أن هذا العناد وهذا التمسك، مثله مثل العديد من النواحي المحيرة في التاريخ، لا يمكن استيعابه إلا في سياق ما نعرفه اليوم عن تقاليد عبادة الإلهة ما قبل التاريخ والتي امتدت على مدى ألفيات زمنية عديدة.

وما يؤكد دقة هذا الأمر هو أن هذه المعرفة التي وصلتنا حول الاتجاه الأصلي لتطورنا الحضاري تلقي ضوءاً مختلفاً على ماضينا وعلى مستقبلنا المحتمل، لذلك فإن من الصعب علينا التعامل معها. لأنها تمثل تهديداً للنظام السائد حالياً مما يدفع قوى هائلة للعمل على قمعها.

وتوجد ضمن الأبحاث التي تزودنا بالمكتشفات الأثرية المذكورة في هذا الفصل حالات عديدة تتحدث عن أعمال طمس المعلومات التي يقوم بها نظام الهيمنة. ولعل أحد أكثر الأمثلة التي تلفت الأنظار في هذا الصدد هو ما حدث مع جيمس ميللارت الذي رغم عدم وصول الحفريات بعد إلى المستويات الأكثر قدماً في الموقع إلا أنه أمر بوقف الحفريات في موقع هاسيلار المرتبط بالعصر الحجري الحديث بحجة أن أي عمل آخر في هذا الموقع سيقدم معلومات متكررة لا تحمل قيمة علمية[65]. وقد اتخذ هذا القرار رغم الاحتجاجات التي رفعها ميللارت ورغم أن أغنى المعلومات الأثرية التي تضمها الأجزاء الجانبية من إحدى الروابي الصغيرة هناك لم يكن قد تم اكتشافها والحفر فيها بعد. ولكن توقف الدعم المادي والمؤسسي أجبر الحفر على التوقف. ومنذ ذلك الوقت تعرضت تلك الرابية لأيادي العابثين من صيادي الكنوز بحيث لم تعد اليوم تحمل فائدةً تُذكر.

وبدون شك، أسهمت عدة عوامل أخرى في القرار الذي اتخذ قبل أوانه بإغلاق مواقع الحفر الهامة، وقد علّق ميللارت على القرار بأنه أحد أكثر الفصول مأساوية في تاريخ علم الآثار[66]. ولكن السؤال يبقى إلى أي مدى كان

هذا القرار مدفوعاً ولو بدون إدراك صحيح من قِبَل المعرفة المنبثقة بأن وراء هذا النشاط الفني الغزير والمتنوع الذي عرفته هاسيلار توجد القوة العظيمة الملهمة التي تمثل ديانة الأناضول والتي تقف وراءها عبادة الإلهة العظمى[67].

وكما سنرى في الفصول التي ستلي، فإن الجهود التي ظل يبذلها المفكرون لجعل الحقائق تتلاءم مع وجهة نظر المجتمع المهيمن، تعود حتى إلى فترة ما قبل التاريخ. ومن المؤكد أن الأداة الرئيسية التي أسهمت في هذه النقلة الجذرية الطارئة على تطورنا الحضاري كانت نصل السكين. ولكن كان هناك أداة أخرى، وهي أداة كانت أقوى على المدى الطويل. وهذه الأداة هي أداة الكتابة والعلماء، أي القلم الذي استخدم في نقش الأحرف على الصفائح والألوان. وفي عصرنا هذا، على وجه الخصوص، وفيما نحن نحاول إيجاد مجتمع سلمي، فإن من المفيد أن نعرف أن القلم يمكن أن يكون أشد حدة من السيف لأنه يبدو في نهاية الأمر، أن تلك الأداة الضعيفة هي التي استطاعت أن تقلب الحقائق رأساً على عقب.

الفصل 6

الحقيقة تقف على رأسها

الجزء الأول

تعتبر أوريستيا ORESTEIA واحدة من أشهر المسرحيات الدرامية اليونانية التي يتكرر عرضها على مسارحنا. وفي هذه المسرحية التي يحاكم فيها أوريستيس لقتله أمه، يشرح الإله أبوللو أن الأولاد لا ينسبون إلى أمهاتهم ويؤكد: «أن الأم لا تعتبر أهلاً لهذا الذي يدعى طفلاً» ، بل هي فقط مرضعة لهذه البذرة الجديدة التي تم زرعها لتنمو[1].

ويتابع أبوللو: «سوف أقدم لكم دليلاً على ما قمت بشرحه: يمكن أن يكون هناك أب بدون وجود أم وها هي ابنة الإله الأولمبي زيوس تقف الآن شاهدة حية وطفلة لم تنجب مثلها أية إلهة ولم تنشأ أبداً في ظلمة الأرحام»[2].

عند هذه النقطة، تدخل الإلهة أثينا وهي التي خرجت كاملة النمو من رأس والدها زيوس حسب الديانة الإغريقية القديمة، وتؤكد تفسير أبوللو قائلة: فقط الآباء هم أهل لأطفالهم. أنا لم أولد من اي أم ولكن بالنسبة للزواج فأنا أقف دائماً إلى جانب الذكر بكل قلبي وأقف بقوة إلى جانب والدي[3].

وهكذا، تنطلق الجوقة التي يطلق عليها اليومينيديس أو إلهات العقاب، وهي جوقة تمثل النظام القديم، لتغني في تعجب ورعب: يا آلهة الجيل الأصغر،

لقد حطمتم قوانين الزمن السابق وانتزعتموها من بين يدي[4]. وعندها تدلي أثينا بصوتها وتتم تبرئة أوريستيس من أية تهمة تتعلق بقتل أمه.

قتل الأم - ليس جريمة

قد يسأل المرء، لماذا يحاول أحد أن ينكر أكثر العلاقات قوة ووضوحاً في العلاقات الإنسانية؟ لماذا يقوم كاتب مسرحي فذ مثل أخيليوس بكتابة ثلاثية درامية حول موضوع مثل هذا؟ ولماذا تعرض هذه الثلاثية - التي لم تكن تعتبر في ذلك الزمن مسرحاً بالمعنى الذي نفهمه اليوم ولكن دراما تدور حول طقوس صممت خصيصاً لتلامس المشاعر التي تتماشى مع الأعراف السائدة في ذلك الزمن - على جميع سكان أثينا بمن فيهم النساء والعبيد، في معظم المناسبات الاحتفالية الهامة؟

في محاولة للإجابة عن هذا السؤال المتعلق بالمهمة التي تهدف إليها مسرحية أوريستيا، يبرز التفسير المعياري للعلماء بأن المقصود من هذه المسرحية هو شرح أصول محكمة جرائم القتل الإغريقية (أريوباغوس). ومن المفترض في هذه المحكمة التي كانت حديثة عهدها، أن تحقيق العدالة من خلال آليات قانونية غير شخصية تتولاها الدولة بدلاً من أن يتولاها الثأر العشائري[5]. ولكن وكما تشير عالِمة الاجتماع البريطانية جون روكويل، فإن مثل هذا التفسير ليس مقنعاً لأنه لا يلامس السؤال المركزي: لماذا التركيز على مثل هذه القضية التي تتعلق بقتل الأم من قِبَل ابنها، وهي القضية الوحيدة التي عُرضت أمام محكمة إغريقية حول جريمة قتل. كما أن هذا التفسير يجيب على السؤال المركزي: كيف يمكن لمثل هذه المحاكمة التي يفترض فيها أن تقدم درساً أخلاقياً في دعم العدالة التي تتولاها الدولة ويتم فيها إخلاء سبيل ابن لارتكابه جريمة قتل ثأري متعمد وبدم بارد ضد أمه، والأكثر من ذلك أن الأمر قد تم على أساس منافٍ للعقل يقوم على ادعاء أنه لا يَمُتّ بصلة قرابة لها[6].

للإجابة على السؤال حول نوعية الأعراف التي تعبر عنها أوريستيا وتؤكد أنه ينبغي علينا أن ننظر إلى تلك الثلاثية بشكل شامل. ففي المقطع الأول منها «أغاممنون» تعمل الملكة كليتمنيسترا على الثأر لدم ابنتها المسفوح. وتخبرنا القصة أن زوجها أغاممنون خدعها وهو في طريقه لاحتلال طروادة بأن جعلها ترسل ابنتها إيفيجينيا لتتزوج أخيليوس، في ظاهر الأمر ولكن الحقيقة كانت أنه أراد أن يضحي بها للآلهة لكي تمنحه رياحاً هادئة خلال عبور أسطوله في البحر. ولدى عودته من حرب طروادة وبينما كان أغاممنون يمارس طقوس تطهير نفسه من خطايا الحرب، قامت كليتمنيسترا بإلقاء شبكة حوله وأوقعته في الشرك ثم تولت طعنه حتى الموت. وقد أوضحت كليتمنيسترا أنها فعلت ذلك ليس قط بدافع جزعها الشخصي وكراهيتها له ولكن ضمن دورها الاجتماعي كزعيمة لعشيرة مسؤولة عن الثأر لدم القرابة المسفوح. باختصار كان كليتمنيسترا تتصرف ضمن الأعراف السائدة للمجتمع الأمومي حيث أن دورها كملكة يتطلب منها تحقيق العدالة.

في المقطع الثاني «حاملو الشراب» ، يعود ابنها أوريستيس متخفياً إلى أرغوس ويدخل قصر أمه كضيف ثم يقتل مرافقها الجديد أغيسثوس وبعد تردد يقتلها انتقاماً لأبيه. أما المسرحية الثالثة المسماة «يومينيدس» فتعرض مشهداً لمحاكمة أوريستيس في معبد أبوللو بموقع دلفي. وتخبرنا القصة أن اليومينيدس وهم ممثلو النظام القديم، يقومون بدورهم في حماية المجتمع وتطبيق العدالة ويسعون لمحاكمة أوريستيس. وتظهر هنا هيئة محلفين مؤلفة من اثني عشر مواطناً أثينياً تشرف عليهم الإلهة أثينا، وتحمل هذه الهيئة مسؤولة اتخاذ القرار بإعدام أوريستيس أو تبرئته وإخلاء سبيله. ولكن بما أن أصوات الهيئة جاءت مناصفة، تدلي أثينا بصوتها وتقرر تبرئة أوريستيس على أساس أنه لا يمت بصلة قرابة إلى أمه، وبذا فإنه لم يسفح دم قريب له.

وهكذا تعود بنا قصة أوريستيا إلى زمن وقعت فيه صدامات بين الحضارة التي تنتسب إلى الآباء والحضارة التي تنتسب إلى الأمهات على حسب وصف العالمين التقليديين هـ. دي. ف. كيتو وجورج تومسون[7]. أما في لغتنا نحن فهي تعود إلى النقلة التي حدثت من القواعد التشاركية إلى القواعد المهيمنة، وهي تبرر لها أيضاً.

وكما تكتب روكويل، تنقلنا المسرحية من الرضا التام عن عدالة قضية كليتمنيسترا التي تجسدت في المقطع الأول إلى نقطة تم فيها نسيان ابنتها وفرض التعتيم حتى على شبحها وكأن قضيتها لم تكن موجودة في الأصل لأن النساء لا يملكن الحقوق والصفات التي تدعيها هذه القضية[8]. لأنه إذا كانت مخلوقة جبارة مثل كليتمنيسترا التي تعرضت للاستفزاز في مقتل ابنتها إيفيجينيا لا تملك حق الثأر، فأي امرأة يمكن أن تملك ذلك الحق؟ .

عبر هذا الدرس الذي حدث لتلك المرأة الجبارة رغم عدالة قضيتها، فإن جميع النساء قد مُنعن حتى من التفكير بالتمرد. وهنا نرى الدور الذي لعبته الإلهة أثينا في هذه الدراما المعيارية والذي تحدده روكويل بقولها: كان دورها قطعة بارعة من الدبلوماسية الثقافية، إذ إن من المهم في أي نقلة مؤسسية أن تظهر الشخصية القائدة للطرف المهزوم وكأنها تتقبل هذه القوة الجديدة[9].

وهكذا مع اعتراف الإلهة أثينا وهي المتحدرة من السلالة الإلهية والإلهة الراعية لمدينة أثينا، وقبولها بالسيادة الذكورية، لا بد أن تصبح هذه النقلة إلى الهيمنة الذكورية مقبولة لدى كل سكان أثينا، ومعها ما رافقها من تحول من نظام الملكية العامة والانتساب للأم إلى نظام للملكيات الخاصة التي أخضعت النساء للرجال. وكما تذكر روكويل: إذا كانت أول محاكمة في محكمة جنايات القتل قد أثبتت أن قتل الأم لا يعتبر جريمة نكراء بسبب عدم وجود قرابة للأم فأي حجة أفضل من هذه تليق بالانتساب إلى الأب؟[10].

لقد رأى كل أثيني من خلال مسرحية أوريستيا كيف استسلمت الأقدار القديمة وكيف ترسخ النظام الذكوري المهيمن وكيف احتلت الأعراف الجديدة مكان الأعراف القديمة دون أن ينفعها غضبها ولا قوة انتقامها. وهكذا تراجعت النسوة الغاضبات إلى الكهوف التي تقع أسفل الأكروبوليس فيما ظلت الإلهة أثنيا تحاول إقناعهن بالبقاء في أثنيا بعد أن أعادت تأكيد حجتها بأن قتل الأم لا يعتبر سفكاً لدم القرابة وبعد أن أدلت بصوتها الذي حسم الأمر في هذا الاتجاه، وقد حاولن بعد أن تم إخضاعهن بشكل واضح استحضار القوى القديمة، قوى الإلهات، ووعدن بحماية المدينة تحت إمرة أثينا، هذه المدينة التي استباحها زوس الجبار وآريس إله الحرب[11].

وقد بقيت بعض الآثار الأخيرة للقوة النسائية التي تعود إلى عصور سبقت العصور الأولمبية، وظلت تلك القوى الإلهية الأنثوية تدير مصائر الرجال والنساء وتقرر متى يولد الناس ومتى يموتون كما هو الحال، على حد قول روكويل بالنسبة للأم كالي في الأساطير الهندوسية[12]. أما الآن فإن هذه البقايا الأخيرة التي كانت تمثل القوى الأنثوية قد دُفعت إلى تحت الأرض وأصبحت تعتبر وجوهاً هامشية وسط الهيكلية الجديدة التي هيمنت عليها الآلهة الذكور.

الفكر المهيمن والعقلية التشاركية

صُمِّمت مسرحية أوريستيا للتأثير على رؤية الناس للحقائق ولتغيير هذه الرؤيا. والأمر اللافت للنظر هو أن هذه الطريقة كانت ما تزال ضرورية حتى بعد مضي 1000 عام من تاريخ سيطرة الأخيين على أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد. والأكثر لفتاً للنظر هو كيف استطاعت الجوقة التي تتحدث باسم اليومينيدس أن تلخص تماماً ما تريده أوريستيا وهو «أنهم تمكنوا من معاملتي بهذا الشكل، أنا، عقلية الماضي التي سُحبت إلى تحت الأرض، وألقيت جانباً كأنني قمامة»[13].

ورغم أن هذه العقلية التي تعود إلى الماضي وتحمل ذكرياته المتلاشية لم تكن قد دمِّرت تماماً في زمن أخيليوس، إلا أنه كان من المكن أن يقال جهاراً وسط مناسبة احتفالية كبرى بأن أخطاء الرجال المرتكبة ضد النساء، بما فيها قتل ابنة من قِبَل أبيها، هي أخطاء يجب أن تُنتسى بكل بساطة. وهنا نرى مدى التحول الجذري الذي جرى في عقلية الناس بحيث أصبحوا يؤمنون بحقيقة أن الأم لا تمت بصلة قرابة إلى طفلها. وأن الانتساب إلى الأم ليس له أساس في الواقع بينما الانتساب إلى الأب هو الصحيح.

وبعد مضي أكثر من ألفي سنة من ذلك التاريخ، ظل بعض عمالقة العلوم الغربية مثل هربرت سبنسر في القرن التاسع عشر يفسرون الهيمنة الذكورية عبر التأكيد بأن النساء لسن إلا حاضنات للحيوانات المنوية للذكور[14]. ولكن على ضوء الأدلة العلمية التي أظهرت أن الطفل يحمل عدداً متساوياً من الجينات من كل من أبيه وأمه، لم تعد تلك الفكرة القائلة بعدم وجود قرابة بين الأم وطفلها تدرّس في المدارس والجامعات. ولكن حتى تاريخ اليوم، ما زال عدد من زعمائنا الدينيين الأكثر نفوذاً إضافة للعديد من العلماء الأكثر احتراماً يقولون بأن النساء هن مخلوقات أوجدها الله على الأرض أو وضعتها الطبيعة لكي تزود الرجال بالأطفال مع الأفضلية للأبناء.

في زماننا هذا، ما زلنا نواصل تعريف الأطفال عبر أسماء عائلاتهم التي تفصح عن علاقتهم بأبيهم، كذلك ما زالت ملايين العائلات في الغرب تربط معاييرها الاجتماعية بما يتعلمونه عن الكتاب المقدس في منابر الوعظ الكنسية وفي البيوت. ونحن لا نتحدث هنا عن قصص إنجاب الأولاد التي لا تنتهي في الكتاب المقدس ولكن عن جميع المقاطع التي وردت في الكتاب المقدس بحيث إذا أردنا أن نعرِّف عن شخص مهم نقول إنه ابن أبيه وحتى أبناء إسرائيل وأبناء الإنسانية وحتى المسيح نفسه، يعرَّفون على أنهم أبناء الله الأب[15].

بالنسبة لنا، وبعد آلاف السنين من التلقين والتعبئة بهذا النمط من التفكير، فإن هذا في الحقيقة هو واقع الأمر الذي وصلنا إليه، ولكن بالنسبة للعقلية التي تم القضاء عليها والتي كانت تعبد الإلهة على أنها الخالق الأعلى لكل أشكال الحياة والأم الكبرى ليس للإنسان فحسب بل للحيوان والنبات، فإن الواقع كان يمكن أن يكون شيئاً مختلفاً تمام الاختلاف.

وبالنسبة لعقل تربى في مثل هذا المجتمع حيث تظهر مسألة الانتساب إلى الأب ومعها جميع الأمور المتعلقة بتخفيض منزلة المرأة لكي تصبح جزءاً من الملكية الخاصة بالرجل، أمراً بالكاد يبدو طبيعياً. ولا يمكن لهذه العقلية أن تستوعب مسألة عدم تنفيذ العدالة بابن قتل والدته، تماماً مثلما حدث لليومينيدس في مسرحية أخيليوس. ولا يمكن لهذه العقلية أن تستوعب أبداً الفكرة التي تقول بأن القوى العليا التي تحكم هذا الكون تجسدها آلهة حربية منتقمة لا تعرف التسامح بل إنها في الحقيقة تأمر الرجال باسم الأخلاق الصالحة أن يرتكبوا أعمال القتل والنهب والاغتصاب وتتغاضى عن مثل هذه الأعمال.

خلاصة الأمر، أن مثل هذه العقلية القديمة لا يمكن أن تتلاءم أبداً مع المهمات التي تنطوي تحت نظام الهيمنة، ربما يتم قمعها وإيقافها بالقوة والتهديد لفترة من الزمن ولكنها على المدى الطويل لن تتوانى عن تحويل نظرة الناس إلى الحقيقة التي تؤمن بها.

ولكن كيف يمكن لذلك أن يتم؟ كيف يمكن تغيير العقول؟ من المدهش، أننا الآن، ونحن نقف على عتبة نقلة كبيرة في تطورنا الحضاري، أخذ العلماء يدرسون مسألة كيفية انهيار الأنظمة في فترات الاضطراب الشديد، وحلول أنظمة مختلفة مكانها[16]. وتظهر أهمية خاصة لكيفية حلول نظام اجتماعي مكان آخر في أعمال هومبرتو ماتورانا وفرانسيسكو فاريلا في تشيلي، إضافة إلى فيلموس كسانيي وجورجي كامبيس في المجر، وهي أعمال تدور حول التنظيم

الذاتي للأنظمة الحية من خلال ما يطلق عليه ماتورانا وكساني «التولد الذاتي»[17].

ويشرح كساني كيف تتشكل الأنظمة وتحافظ على نفسها عبر عملية يسميها «استخراج النسخة المطابقة» وهي عملية نسخ ينظر إليها على المستوى البيولوجي من حيث قيام الخلايا بنسخ أنفسها عبر نسخ المعلومات المختزنة في حمضها النووي DNA. إلا أن هذه العملية تحدث على جميع المستويات الجزيئية والبيولوجية والاجتماعية مع احتفاظ كل نظام بمعلوماته الخاصة المستنسخة التي تشكل الأنظمة وتوسّعها وتربطها معاً[18].

وهذا النسخ للأفكار الذي يشير إليه كساني يعتبر أساسياً في بداية الأمر في تشكيل الأنظمة الاجتماعية ومن ثم المحافظة عليها، ومن الواضح أن المعلومات المستنسخة الخاصة بالمجتمع التشاركي الذي يعتمد في أساسه على المساواة، لا تصلح أبداً في مجتمع الهيمنة. فالأعراف والقواعد التي تعتبر طبيعية وصحيحة ضمن هذين النظامين الاجتماعيين، تقف على قطبين متباعدين.

لذلك، ومن أجل إحلال إبدال اجتماعي تشاركي، بنظام يقوم على الهيمنة، يتطلب الأمر إجراء تغييرات جذرية في المعلومات المستنسخة. وبالعودة إلى التشبيه البيولوجي فإن الأمر يتطلب تغييراً شاملاً في الشيفرة المستنسخة. وهذه الشيفرة يجب أن تصبح مطبوعة في دماغ كل رجل وامرأة وطفل بحيث يتم تغيير جميع الأفكار التي يحملونها حول حقائق الكون لتتلاءم مع متطلبات مجتمع الهيمنة.

من المستحيل خلال صفحات قليلة حتى أن نبدأ بوصف العملية التي تواصلت عبر ألفيات زمنية، وتستمر حتى يومنا هذا. وهي العملية التي تم فيها إعادة تشكيل العقل البشري، بالقوة أحياناً وبالحذق أحياناً أخرى، وعن عمد

أحياناً وأحياناً دون قصد، ليصبح نوعاً آخر من العقل يتلاءم مع متطلبات هذه النقلة الهائلة في التطور الحضاري. وكما رأينا سابقاً، فقد انطوت هذه العملية على تدمير مادي هائل تواصل عبر مراحل التاريخ. وما زال يمكننا أن نقرأ في الكتاب المقدس كيف قام اليهود ومن بعدهم المسيحيون والمسلمون بتدمير المعابد والأشجار المقدسة والأصنام الوثنية[19]. إضافة إلى ما انطوت عليه هذه العملية من تدمير روحي هائل تواصل عبر التاريخ، ليس فقط من خلال إحراق الكتب، بل من خلال حرق واضطهاد الهراطقة، أو الذين لم يشاؤوا أن ينظروا إلى الحقيقة كما وُصفت لهم فتعرضوا للقتل أو ارتدوا.

مباشرة، عبر الإكراه الشخصي، وغير مباشرة عبر استعراضات اجتماعية متقطعة للقوة مثل محاكم التفتيش والإعدامات، أخذت المسلكيات والمواقف والمفاهيم التي لم تتلاءم مع أعراف الهيمنة بالتداعي بشكل منهجي. وأصبح هذا التكيف مع الخوف جزءاً من نواحي الحياة اليومية، يخترق القوانين والمدارس وتربية الأطفال، وعبر هذا كله، وعبر أدوات أخرى من التكييف الاجتماعي أخذت المعلومات المنسوخة التي يتطلبها إنشاء مجتمع الهيمنة تنتشر عبر النظام الاجتماعي.

وعبر عدة ألفيات زمنية، ظل «التعليم الروحي» يشكل إحدى أهم أدوات التكييف الاجتماعي الذي مارسه كهنة ذلك العهد القديم، فقد عملت هذه المؤسسات الكهنوتية، كجزء أساسي من سلطة الدولة، وكان أفرادها أعضاء في النخبة الذكورية التي حكمت الناس واستغلتهم.

وكان هؤلاء الكهنة الذين راحوا ينشرون ما دعوه بكلام الله، وهو الكلام الذي انتقل إليهم بطريقة سحرية، مدعومين من الجيوش والمحاكم القضائية والجلادين، ولكن دعمهم الأساسي لم يكن دنيوياً بل روحياً، وكانت أقوى

أدواتهم في هذا المجال، القصص والطقوس والمراسم الكهنوتية التي كانوا من خلالها يغرسون في أذهان الناس، وبشكل منهجي، الخوف من الآلهة الرهيبة والبعيدة والغامضة. وكان عليهم أن يعلّموا الناس كيف يطيعون الحياة والموت بطرق وحشية ظالمة ونزوية ويفسروها حتى يومنا هذا بأنها إرادة الله.

وحتى في أيامنا هذه، ما زال الناس يتعلمون ما هو صالح وما هو شرير من القصص المقدسة ويتعلمون ما يجب اتباعه وما يجب تجنبه وما هو مقبول، لدى الآلهة وليس فقط للذات وللآخرين. وحتى إنهم يشاركون في هذه القصص من خلال الطقوس والاحتفالات. نتيجة لذلك، دخلت هذه القيم والتعابير في أعمق أعماق الذهن البشري وما زالت حتى يومنا هذا تعتبر حقائق مقدسة وغير قابلة للتغيير.

إلا أن هذا النوع من السيطرة المتجانسة والمركزية التي تمارس على هذه القصص المقدسة من قبل المؤسسات الكهنوتية التابعة لهذه المواقع اللاهوتية القديمة، يصعب استيعابه اليوم في وضع يستطيع الناس الاطلاع على وجهات نظر مختلفة وواسعة، باستثناء ما يتم كبحه من قِبَل الديانات أو الدول، والإعلام الجماهيري. ففي السابق، كانت معظم الجماهير أميّة وكان ما هو متوفر للقراءة مقابل الإصغاء محدوداً جداً أو معبراً عنه أساساً ضمن وجهات النظر المسموحة رسمياً. كذلك كان من المستحيل نسخ أية أفكار من شأنها تقويض الإيديولوجيا الرسمية المقبولة لدى السلطة، لأنه حتى لو تم تجنب يد المقص اللاهوتي، كان العقاب الموضوع على مثل هذه الهرطقة يصل إلى التعذيب البشع أو الموت.

ومع أنه بقيت هناك، كما هو الحال اليوم، ذكريات شعبية عن الأساطير والطقوس والأغاني والأشعار التي تمثل العهود القديمة إلا أن هذه أخذت مع مرور الأجيال تتعرض للتحريف والتشويه فيما كان الكهنة والشعراء وكُتّاب الأغاني يتحولون إلى ما كانوا يعتقدون أنه يلقى الرضا في أعين أسيادهم.

بلا شك، أن العديد من هؤلاء كانوا يؤمنون بأن ما يفعلونه هو ضمن إرادة آلهتهم وكانوا يشعرون بأنهم ملهمون من هذه الآلهة لقول ذلك، ولكن سواء جاء الأمر باسم الإله أو رجال الدين، أو الملوك أو كان ناتجاً عن إيمان أو طموح أو خوف، فإن هذا العمل الدائم على صياغة وإعادة صياغة أدبيات المعايير سواء شفهياً أم كتابياً لم يتبع التغيير الاجتماعي بل شكّل جزءاً أساسياً من عملية تغيير الأعراف، وهي العملية التي أرست منظور المجتمع الذكوري المهيمن بكل عنفه وهرميته، على أنه ليس فقط المنظور العادي بل هو المنظور الصحيح.

تحول الأساطير

تنبأ جورج أورويل في كتابه «1984» بمجيء زمن تقوم فيه «وزارة الحقيقة» بإعادة كتابة جميع الكتب وصياغة جميع الأفكار من أجل أن تلائم متطلبات رجال السلطة[20]. ولكن المرعب في الأمر أن هذا الزمن ليس زمناً سيأتي لاحقاً بل هو زمن وقع قبل مدة طويلة وفي كل مكان تقريباً من العالم القديم[21].

ففي الشرق الأوسط، بداية من بلاد ما بين النهرين وبلاد كنعان، ولاحقاً في الممالك العبرية في يهوديا وإسرائيل، عمل الكهنة بشكل رئيسي على إعادة صياغة القصص المقدسة وإعادة كتابة أعراف القوانين. وكما هو الأمر أيضاً في أوروبا القديمة، فقد بدأت هذه العملية مع بداية أولى الغزوات التي حملت بذور الهيمنة الذكورية، واستمرت على مدى ألفيات زمنية، وأخذت مصر وسومر ومناطق الهلال الخصيب تتحول تدرجياً إلى مجتمعات حربية يهيمن عليها الذكور. وقد أظهر الباحثون في العهود التوارتية ضمن توثيق موسع أن هذه العملية التي تولت إعادة كتابة الأساطير كانت ما تزال مستمرة حتى تاريخ متأخر من العهود القديمة وصل إلى 400 سنة قبل الميلاد، حيث يخبرنا العلماء أن الكهنة العبرانيين أعادوا للمرة الأخيرة كتابة التوراة العبرية أو العهد القديم[22].

أما التقويض الأخير للأساطير والقوانين والذي أثّر بشكل عميق على فكرنا الغربي ضمن كتاب مقدس واحد هو الجزء الأول من كتابنا المقدس، فقد وقع حوالي بضع مئات من السنين قبل أن يقوم أخيليوس بكتابة مسرحية أوريستيا في اليونان. في ذلك الزمان، كانت الميثولوجيا التوراتية التي اعتمدت عليها الديانات اليهودية والمسيحية والإسلامية ما تزال تتعرض للتنخيل والحذف والإضافة من قِبَل مجموعة من الكهنة العبرانيين الذين عرّفهم العلماء التوراتيون بالمدرسة الكهنوتية. وقد وضع هذا التعريف لكي يميز بينهم وبين أوائل الذين أعادوا كتابة الأساطير وهم الذي ينتمون إلى مدرسة إيلوهيم ويقومون بعملهم الكتابي في مملكة إسرائيل الشمالية، وكذلك بينهم وبين مدرسة يهوا في جنوب مملكة يهودا الجنوبية. وقد قامت هذه الفِرَق الكتابية بإعادة صياغة الأساطير البابلية والكنعانية وإعادة كتابة التاريخ العبري بما يلائم أهدافهم. بعد ذلك عمل الفريق الكهنوتي (المدرسة الكهنوتية) على هذه النصوص القديمة المتغايرة وحاول أن يصدر حزمة مقدسة جديدة بهدف ترجمة نسخة الدولة اللاهوتية إلى الواقع، على حد قول العلماء التوارتيين الذين وضعوا تعليقاتهم على حواشي توراة الدارتموث الشهيرة[23].

ويخبرنا هؤلاء العلماء الدينيون أيضاً أنه، سواء كانت مسألة إعادة صياغة هذه الأساطير، التي حملت دافعاً سياسياً، تنطوي تحت تعريف مؤامرة فكرية أم لا، فإن عملهم كان ينطوي بالتأكيد على مؤامرة. إذ قام هؤلاء بدمج المواد التي وضعتها مدرسة إيلوهيم ومدرسة يهوا، وكتابة حواشي توراة دارتموث مدخلين فيها المعلومات بحسب رؤية المدرسة الكهنوتية. وقد أثارت كمية وطبيعة هذه الإسهامات الأخيرة من قِبَل كُتّاب المدرسة الكهنونية دهشة الذين لم يألفوا عملهم. فقد شمل عملهم، نصف أسفار موسى الخمسة، وأحد عشر سفراً من أسفار التكوين الخمسين وتسعة عشرة من أسفار الخروج وثمانية وعشرين من الأعداد الستة والثلاثين من الكُتّاب وجميع أسفار العبرانيين[24].

إضافة إلى ذلك، تم التخلي عن العديد من النصوص التي كانت تعتبر مقدسة في السابق مثل أسفار الأبوكريفا الأربعة عشر التي كانت ملحقة بالعهد القديم. كذلك وكما وصلنا من توراة دارتموث فقد تم إقرار ممارسة الشعائر الدينية في ذلك الزمان من خلال إعادة أصولها إلى الماضي السحيق أو من خلال نسب هذه الممارسات إلى أصول إلهية[25]. باختصار، وبناءً على كلام توراة دارتموث، فإن إعادة الصياغة النهائية التي وصلت إلينا على شكل العهد القديم كانت عبارة عن «عملية ترقيع»[26].

ولعل في هذا تفسير لماذا، رغم جميع المحاولات التي جرت لإعطاء انطباع بوحدة النصوص، ظهرت هناك العديد من التناقضات والتضاربات الداخلية في التوراة. وأحد الأمثلة المعروفة حول هذه التناقضات يبرز في وجود قصتين مختلفتين لكيفية خلق الله للإنسان في الفصل الأول من سفر التكوين. القصة الأولى تقول إن الله خلق الرجل والمرأة بالتزامن، والثانية تسهب في وصف كيف خُلقت حواء من ضلع آدم.

العديد من هذه التضاربات، تشكل أدلة واضحة على النزاع الذي مازال متواصلاً بين الحقائق القديمة التي ظلت على قيد الحياة رغم تلاشيها في ثقافة الناس وبين الحقائق الأكثر حداثة والتي ظلت الطبقة الكهنوتية الحاكمة تحاول فرضها على الناس. أحياناً يبدو الصراع بين الطرفين واضحاً كما في قصة الخلق المتزامن مقابل خلق الرجل قبل المرأة، إلا أن هذا النزاع لا يبدو واضحاً في معظم الأحيان.

والحالة اللافتة للنظر حول هذه النقطة تتجلى في تعامل التوراة مع الأفعى. ولعل الدور الجزئي الذي تلعبه الأفعى في الخروج الدرامي من الفردوس لا يحمل معنى إلا في سياق الحقيقة الأولى التي تعتبر الأفعى من ضمن الرموز الرئيسية للإلهة.

وتشكل الأفعى موضوعاً يظهر مراراً في الحفريات الأثرية التي تغطي مرحلة العصر الحجري الحديث كما أن الأفعى إضافة إلى مشتقها التجريدي «اللولب» تشكلان الموضوع المهيمن في فن أوروبا القديمة. كما تقول غيمبوتاس[28] التي تشير أيضاً إلى أن الربط بين الأفعى والإلهة استمر طويلاً عبر الأزمنة التاريخية ليس فقط في شكله الأصلي كما في كريت ولكن عبر مختلف الأساطير الإغريقية والرومانية مثل أثينا، وهيرا، وديميتر، وأتارغاتيس ودي سيريا[29]. والأمر نفسه ينطبق على الشرق الأوسط والعديد من مناطق الشرق. وفي بلاد ما بين النهرين، تم العثور بين الحفريات على تمثال يعود إلى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد ويصور إلهة يلتف ثعبان حول رقبتها. وكذلك الأمر في التمثال الشبيه الذي عُثر عليه في الهند ويعود إلى 100 عام قبل الميلاد[30]. وفي الميثولوجيا المصرية القديمة، تعتبر الإلهة الكوبرا يوازيت الخالقة الأصلية للكون. كما تظهر إلهة كنعان عشتروت في الصور يرافقها ثعبان. وقد عُثر على منحوتة سومرية تعود إلى عام 2500 قبل الميلاد وتدعى إلهة شجرة الحياة، ويظهر ثعبانان إلى جانب صورتين للإلهة[31].

من الواضح أن الأفعى شكلت رمزاً هاماً جداً ومقدساً جداً وكلي الوجود لسلطة الإلهة لا يمكننا تجاهله. ولو قُدِّر للعقلية القديمة أن تعاد صياغتها لتلائم متطلبات النظام الجديد، لشكّلت الأفعى أحد شعارات الطبقة الحاكمة، أو بدلاً من ذلك لتراجعت مكانتها وتم تشويهها وإلحاق العار بها.

وهكذا، نرى الأفعى في الميثولوجيا الإغريقية تقف إلى جانب زوس كرمز للقوة الجديدة[32]. كذلك نجدها على درع أثينا الإلهة التي تحولت من إلهة للحكمة فقط إلى إلهة للحرب أيضاً كما تم الاحتفاظ بأفعى حية في مبنى الأريكتوم المجاور لمعبد أثينا في الأكروبوليس[33].

كان هذا التخصيص الموجه للأفعى من قِبَل ملوك الهنود الأوروبيين الجدد يخدم أهدافاً سياسية عملية جداً. فقد ساعد على إضفاء الشرعية على قوتهم عبر التأثيرات المضللة لوجود رمز القوة الذي كان يعود يوماً ما إلى الإلهة بين أيدٍ غريبة، إضافة إلى إسهامه في التذكير المتواصل بهزيمة الإلهة على يد آلهة الحرب الغزاة.

وقد قرأنا في الأساطير الإغريقية عن رموز أخرى لهزيمة النظام القديم، تمثلت في قتل العديد من الأفاعي، فقد ذبح زوس الأفعى سايفون، وقتل أبوللو الأفعى بايثون كما قتل هرقل الأفعى لادون التي كانت تحرس الشجرة المثمرة المقدسة التابعة للإلهة هيرا والتي قيل أنها مُنحت لها من قِبَل الإلهة غايا بمناسبة زفافها إلى زوس.

وكذلك الأمر في الهلال الخصيب حيث تطالعنا أسطورة بعل الذي كان يعتبر إله العواصف والأخ المرافق للإلهة، ونجده هنا يقهر الأفعى لوتان وهو اسم مرادف لاسم «لات» الذي يعني إلهة في لغة الكنعانيين. ونقرأ في الأناضول قصة «تتحدث عن كيف استطاع إله الحتيين الهندي الأوروبي أن يقتل التنين إيلويانكاس»[34].

وفي الأساطير العبرية، نقرأ في الإصحاح 1:41 والمزمور 74 عن يهودا الذي يقتل الأفعى ليفياثان التي تتمثل هنا على شكل وحش بحري متعدد الرؤوس. ولكننا في الوقت نفسه نقرأ في توراة دارتموث أن أكثر رموز الديانة العبرية قدسية وهو تابوت العهد عند اليهود من المحتمل أنه لم يكن يحتوي على الوصايا العشر. بل إن هذا التابوت الذي حافظ على مركزيته ومنزلته في الطقوس اليهودية حتى يومنا هذا كان يحتوي على أفعى مصنوعة من البرونز[35].

كان هذا هو الثعبان النحاسي الذي قرأنا عنه في سفر الملوك 18:2 والذي كتب عنه جوزيف كامبل يقول: كان يعبد في الهيكل في القدس وإلى جانبه

صورة زوجته الإلهة الجبارة المعروفة باسم «عشيرة»[36]. كما نقرأ في الكتاب المقدس أن الأمر استمر حتى ما يقارب العام 700 قبل الميلاد وهو العام الذي قام فيه الملك حزقيا باضطهاداته الدينية قبل أن يتم إخراج هذا الثعبان من الهيكل وقتله بعد أن جرَّه موسى بنفسه إلى الصحراء[27] ليثبت مدى قوة (يهوا).

ولكن الدليل الأكثر إثارة للدهشة عن تواصل قوة الثعبان يأتينا من قصة خروج آدم وحواء من الجنة[38]. فالثعبان هو الذي نصح حواء بعصيان أوامر يهودا وتناول الثمار من شجرة المعرفة، وهي نصيحة ما زالت تعتبر حتى يومنا هذا قدراً مشؤوماً على الإنسانية بالعقاب الأبدي.

جرت محاولات عديدة من قِبَل علماء اللاهوت لتفسير قصة الخروج من الجنة بطرق لا تُفسر البربرية والوحشية وبلادة الشعور على أنها نتائج حتمية للخطيئة الأصلية. ومن المؤكد أن إعادة تفسير معظم هذه الأساطير الدينية الشهيرة برموز جديدة وأقرب إلى الإنسانية هو أمر أساسي بالنسبة للتحول الإيديولوجي الذي يجب أن يرافق النقلة الاجتماعية والاقتصادية والتقنية من نظام الهيمنة إلى النظام التشاركي. ولكن من الضروري أيضاً أن نفهم بوضوح المغزى الاجتماعي والفكري لهذه القصة الهامة ضمن السياق التاريخي.

وفي الحقيقة أنه لا يمكن إعطاء معنى لقصة النصيحة التي قدّمها الثعبان إلى حواء إلا ضمن سياق هذا المنظور التاريخي. وفي الحقيقة أيضاً أن قيام الثعبان وهو رمز نبوي للإلهة بتقديم النصح إلى حواء، نموذج المرأة الأولى بأن تعصي أوامر الإله الذكر، لم يأتِ من قِبَل الصدفة، وهو ليس حدثاً عابراً فقط كما أن قيام حواء بإطاعة نصيحة الثعبان والأكل من ثمار شجرة المعرفة المقدسة، متجاهلة أوامر (يهوا) ليس حدثاً عابراً أيضاً. فشجرة المعرفة مثلها مثل شجرة الحياة كانت تعتبر رمزاً يرتبط بالإلهات في الميثولوجيا القديمة كما أن الحقائق الميثولوجية والاجتماعية القديمة كانت تعتبر أن المرأة الكاهنة هي الأداة التي

تنقل الحكمة والوحي الإلهيين، كما هو الحال مع بايثونيس في بلاد الإغريق وسيبيل في روما.

وضمن منظور هذه الحقيقة القديمة، فإن الأوامر التي صدرت عن الإله الجديد الجبار (يهوا) بأن لا تأكل حواء من الشجرة المقدسة (سواء كانت شجرة المعرفة أم الحكمة أم الحياة) تبدو أوامر لا تخالف الطبيعة فقط ولكنها أوامر مدنسة للمقدسات في ذلك الزمن. فقد كانت بساتين الأشجار المقدسة تعتبر جزءاً أساسياً من الديانة القديمة وكذلك الأمر بالنسبة للطقوس التي صُمِّمت لجلب المصلّين إذ كانت هذه الطقوس تشكل تلقياً واعياً للوحي الإلهي أو للحقائق الروحية، وكانت النساء هن اللواتي يترأسن القداسات ككاهنات للإلهة.

لذلك وضمن الحقائق القديمة، لم يكن لدى يهوا أي حق بإصدار مثل هذه الأوامر ولكنه وقد قام بإصدارها فليس من المتوقع لحواء أو للثعبان اللذين يمثلان الإلهات أن يطيعاه ويذعنا له.

ولكنه في حين أن هذا الجزء من القصة يجد معناه ضمن نصوص الحقائق القديمة، فإن باقي القصة لا يجد معنى إلا ضمن سياق القوة السياسية التي أرادت فرض نظام مجتمع الهيمنة. لأنه، وكما هو الحال مع التغيير الأخير الذي رافق تحول صورة الثور ذي القرون، وهو رمز قديم آخر يرتبط بعبادة الإلهة، إلى صورة الشيطان ذي القرون والحوافر في التصاوير والأيقونات المسيحية، كذلك كان تحول الرمز القديم لحكمة الوحي إلى رمز للشر الشيطاني ولوضع اللوم على المرأة في جميع مآسي الإنسانية، يشكل نوعاً من الوسائل السياسية التي استخدمت لقلب الحقيقة القديمة بشكل متعمد.

وهكذا كان توجه الكتاب المقدس نحو المشاهدين الأصليين وهم في هذه الحالة أهل كنعان الذين كانوا ما يزالون يتذكرون العواقب الوخيمة التي وقعت

لأسلافهم نتيجة غزوات الأقوام الذين جلبوا معهم آلهة الحرب والرعد. فقد كان العقاب الرهيب الذي حلّ بالعالم نتيجة عصيان حواء لأوامر يهودا لا يشكل فقط استعارة رمزية لخطايا الإنسان وشروره بل شكلت إنذاراً واضحاً لأهل كنعان بأن يتجنبوا عبادة الإلهة التي كانت ما تزال مستمرة في تلك البلاد.

لقد كانت خطيئة حواء في تحديها ليهوا وتجرؤها على الذهاب إلى مصدر المعرفة، تمثل في جوهرها رفضها التخلي عن تلك العبادة لأنها وهي رمز للمرأة الأولى، ظلت متمسكة بالإيمان القديم أكثر من آدم الذي سار وراءها فقط، لذلك كان عقابها أكثر شدة وقسوة. وهكذا فإن عليها أن تذعن في جميع الأمور، كما أن حزنها سوف يتضاعف[39] وكذلك أعداد الأطفال الذين يتوجب عليها حملهم، كما أنها ستبقى محكومة إلى الأبد من قِبَل هذا الإله المنتقم وممثله على الأرض أي الرجل.

وبعد كل هذا، فقد كان الحط من قدر الثعبان وربط المرأة بالشر، وسيلة للحط من منزلة الإلهة وتشويه سمعتها. والمثال الأكثر وضوحاً في هذا الصدد ليس الطريقة التي أسس لها الكتاب المقدس في تثبيت الهيمنة الذكورية والهرمية والحرب والحفاظ عليها كحقائق ثابتة ولكن، وكما سنرى في الفصول القادمة، فإن المثال الأوضح من كل شيء هو كيف تعامل الرجال الذين كتبوا الكتاب المقدس مع الإلهة نفسها[40].

الفصل 7

الحقيقة تقف على رأسها

الجزء الثاني

كان الغزاة في بداية الأمر عبارة عن عصابات تتوغل في المناطق للسرقة والقتل والنهب. ففي أوروبا القديمة على سبيل المثال، تزامن الاختفاء المفاجئ للحضارات المؤسسة في ذلك الزمن مع أول ظهور لمقابر زعماء الكيرغان[1]. كما نقرأ في الكتاب المقدس كيف أن مدناً بكاملها قد أحرقت وسُوِّيت في الأرض وأن أعمالاً فنية شملت أكثر الصور قداسة لدى الشعوب المقهورة من بينها الأصنام الوثنية قد تمت إذابتها لتحويلها إلى ذهب يسهل نقله[2].

ولكن بعد فترة من الزمن بدأ أمراء الأمراء الأسياد أنفسهم بالتغير، فقد تبنوا وتبنى أبناؤهم وأحفادهم وأبناء أبنائهم وأحفادهم أيضاً بعض التقنيات والقيم وطرق الحياة المتقدمة التي كانت تمتلكها وتعيشها الشعوب التي هزموها. فقد استقر المقام بهؤلاء الغزاة وصاروا يتزوجون بنساء من الشعوب المحلية. وأصبحوا مثلهم مثل الزعماء المايسينيين في كريت والملك سليمان في كنعان، يبدون اهتماماً أكبر بالأمور الأكثر جمالاً في الحياة فراحوا يبنون القصور لأنفسهم ويهتمون بالفنون.

وهكذا تدريجياً، بعد كل موجة غزو، أخذ الدفع باتجاه مزيد من التهذيب التقني والحضاري يعيد تثبيت نفسه، وفي كل مرة ينقطع فيه المسار الحضاري بعد

فترة تراجع، يعود لينهض مرة أخرى ولكن هذا المسار اتخذ الآن اتجاهاً مختلفاً تماماً. فالرجال الذين تربعوا في القمة، أصبحوا يرغبون في الحفاظ على مواقعهم وبقيت أمامهم ناحية واحدة متعلقة بالحضارة السابقة لا يمكنهم استيعابها، وهذه الناحية أو لنقل هذه المجموعة من النواحي شملت المساواة بين الجنسين والمساواة الاجتماعية والسلام الذي كان يشكل جوهر النموذج التشاركي السابق للمجتمع.

إعادة توجيه طريق الحضارة

كان استمرار نظامين أحدهما نظام مهيمن فرض نفسه على النظام التشاركي السابق، ينطوي على مخاطر كبيرة تتمثل في احتمال عودة النظام السابق مع تعطش الناس إلى منهجه السلمي والتخلص من الظلم، إلى سابق قوته. لذلك كان النظام الاجتماعي والاقتصادي القديم الذي يعتمد على عشائر تتزعمها نسوة يحظين بثقة الناس ويؤتمن على أراضيهم، يعتبر تهديداً مستمراً للنظام الذكوري المهيمن.

وهكذا، كان لابد من أجل تعزيز سيطرة النخب الجديدة الحاكمة أن يتم تجريد النساء من سلطة وضع القرارات، وفي الوقت نفسه تجريد الكاهنات من سلطتهن الروحية كما كان لابد من أن يحل نظام السلطة الأبوية على نظام سلطة النساء والأمهات بين الشعوب المقهورة. وقد تم لهم هذا الأمر إذ تزايدت النظرة إلى النساء في أوروبا القديمة، والأناضول وبلاد ما بين النهرين وكنعان، على أنهن أدوات إنتاجية وتناسلية مسيطر عليها من الذكور بدلاً من أن يكنّ مستقلات وعضوات قياديات في المجتمع.

كما أن الأمر لم يقتصر على اقتلاع النساء من مواقعهن السابقة في المسؤولية والسلطة، بل تعداه إلى استخدامهن لتعزيز نظام اجتماعي واقتصادي يعتمد على المراتب الاجتماعية، مع إحراز المزيد من التقدم التقني.

وكما هو معروف عن المجتمعات الواقعة تحت الهيمنة، فقد تم إعطاء الأولوية القصوى لتقنيات التدمير. ولم يقتصر الأمر على احترام ومكافأة الأكثر قوة ووحشية لشجاعته في الغزو والنهب، بل تعدى ذلك إلى حشد الموارد المادية ودفعها بشكل متزايد نحو تصنيع أسلحة أكثر تعقيداً وفتكاً. فقد تم إدخال الأحجار الكريمة واللآلئ وأحجار الزمرد والياقوت لتزيين مقابض الدروع والسيوف. ورغم أن السلاسل التي كان هؤلاء الغزاة يجرون بها أسراهم وراءهم، ظلت تصنع من المعدن العادي، إلا أن العربات التي كان يستخدمها ملوكهم وزعماؤهم الحربيون ظلت تُزيَّن بالفضة والذهب.

ومع استعادة التطور التقني نشاطه من جديد، إثر التراجع الذي خلفته موجات الغزو، أخذت أعداد البضائع والمواد تتراكم بشكل مطّرد ولكن مع تغير في التوزيع. فقد ركزت كريت القديمة على الأشغال العامة وعلى مستوى معيشي لائق لجميع سكانها. ولكن معظم الثروة الجديدة التي نتجت عن التقدم في التقنية والإنتاج أصبحت تخصص للرجال الجالسين على قمة الحكم مع نثر الفضلات على أتباعهم.

كذلك، عاود التطور الاجتماعي اندفاعه وأخذت المؤسسات السياسية والاقتصادية والدينية تصبح أكثر تعقيداً. ولكن مع تزايد الطلب على الوظائف المتخصصة والإدارية من قِبَل التقنيات الجديدة، تزايدت السيطرة على هذه التخصصات والإدارات من قِبَل الفاتحين الأقوياء وسلالاتهم.

كان النمط المتبع من أجل السيطرة أن يقوم هؤلاء الرجال بالوصول إلى مواقع الهيمنة عبر التدمير وعبر الاستحواذ على ثروة الأراضي التي قهروها دون أن يقوموا بخلق ثروات جديدة، وبعد ذلك، عندما تخلق التعقيدات التقنية والاجتماعية حاجة لأدوار جديدة في إنتاج الثروة وإدارتها، يقوم هؤلاء بالاستحواذ عليها أيضاً. وكان رجال السلطة يحتفظون بأكثر الأدوار كسباً ومنفعة بينما

تتوزع متبقيات الثروة على أتباعهم الذين يخدمونهم ويقدمون الطاعة لهم. ومن بين الأدوار التي كانوا يستحوذون عليها كانت مهنة جامع الجزية أو الضريبة كما سميت فيما بعد، إضافة إلى عدد من المناصب البيروقراطية التي لا تمنح متبوئها السلطة والامتياز فحسب بل تكسبه الثروة أيضاً[3].

بالطبع لم تكن هذه الأدوار المالية أو الاعتبارية الجديدة تعطى لزعيمات العشائر أو للكاهنات اللواتي بقين على طرقهن القديمة. بدلاً من ذلك، وكما نرى في سجلات المدن السومرية مثل إيلام، فقد تم نقل جميع الأدوار الاجتماعية والتخصصية الجديدة المتعلقة بالمنصب أو بالسلطة بما فيها الأدوار القديمة بشكل منهجي من النساء إلى الرجال[4].

الآن أصبحت القوة وأصبح التهديد بالقوة أمرين يتحددان بمن يسيطر على قنوات توزيع الثروات أو الاقتصاد. لذلك تم التأسيس لمبدأ المراتب في التنظيم الاجتماعي بدءاً من النصف الأقوى من البشر وهم الرجال وانتهاءً بالنصف الأنثوي، حيث كان على الجميع الإذعان لهذه الصياغة الجديدة والالتزام بها.

ومع ذلك، لم تكن القوة تكفي دائماً لفرض الإذعان ونيل الطاعة اللازمة، فكان لابد من إبدال القوى القديمة التي حكمت الكون ممثلة برمزها الذي يمنح الحياة وهو الكأس المقدسة، بقوى جديدة وآلهة أكثر جبروتاً تحمل بين يديها نصل السكين. ومن أجل هذه الغاية، كان لابد من تقويض كل من يمثل القوى القديمة أي المرأة، ليس على الأرض فحسب بل في المجالات الإلهية العليا أيضاً.

وقد تم إنجاز ذلك في بعض أساطير الشرق الأوسط عبر قصة تروي كيف تم ذبح الإلهات، وعبر قصص أخرى تتحدث عن إذلالهن وإخضاعهن من خلال اغتصابهن. فنجد على سبيل المثال أن أول ذكر ورد في أساطير الشرق الأوسط للإله الجبار «إنتيل» ، قد ارتبط باغتصابه للإلهة نينليل. وقد حققت

مثل هذه القصص هدفاً اجتماعياً هاماً فقد كانت جميعها ترمز إلى فرض سيطرة العنصر الذكوري، وتبرر له.

كذلك استخدمت وسيلة أخرى لتقويض منزلة الإلهات وإخضاعهن من قِبَل آلهة ذكورية جبارة إذ تم تحويل مرافقة الإله أو زوجته إلى إلهة حربية. على سبيل المثال، نجد في الأساطير الكنعانية الإلهة عشتار التي عُرفت بتعطشها للدماء وفرضت احترامها ومهابتها كإلهة للحرب. وتم تحويل الإلهات في الأناضول أيضاً إلى آلهات حرب. وقد شكل هذا الأمر ظاهرة كانت غائبة تماماً في النصوص القديمة[5] كما يقول العالِم إي. أو. جيمس.

في الوقت نفسه، تم إعادة تخصيص مهمات عديدة ارتبطت سابقاً بالإلهات، بالآلهة الجديدة، وتشير عالِمة الآثار الحضارية روبي رورليخ - ليفيت في هذا الصدد قائلة: عندما تم تغيير رؤساء الكتبة من خدمة الإلهات إلى خدمة الآلهة، اقتصر التوظيف في هذه المهنة على الذكور في المعابد والقصور وبدأ التاريخ يكتب من منظور ذكوري[6].

ولكن رغم أن كنعان، ومثلها بلاد ما بين النهرين كانت قد أخذت تتحرك لفترة من الوقت باتجاه مجتمع يهيمن عليه الذكور، إلا أنه لا يوجد مجال للشك بأن الغزو الذي قامت به القبائل العبرية الثلاث عشرة قد أسهم في تسريع، لا بل تجذير عملية التحول الاجتماعي والفكري. فقد كان ذِكْر الإلهات غائباً تماماً في نصوص الكتاب المقدس.

غياب الإلهة

هذا الإنكار المطلق للمشاركة الأنثوية، وبالتالي المرأة، في أي نشاطات إلهية يظهر جلياً في ضوء الحقيقة القائلة بأن العديد من الأساطير العبرية بنت نصوصها على أساطير سابقة لكنعان وبلاد ما بين النهرين. والأمر يبدو أكثر

وضوحاً في ضوء الحفريات الأثرية التي تظهر أن شعب كنعان ظل حتى بعد فترة طويلة من الغزوات العبرية لبلاده، يعبد إلهات.

وكما يذكر العالِم التوراتي رافييل باتاي في كتابه «الإلهة العبرية» ، لا تترك الحفريات الأثرية مجالاً للشك بأنه وحتى نهاية حكم المملكة العبرية، شكلت عبادة الإلهة الكنعانية القديمة جزءاً أساسياً في الديانة العبرية كذلك لعبت عبادة الإلهات دوراً أكثر أهمية من عبادة الآلهة الذكور في هذه ديانة العبرانيين[7]. فنجد على سبيل المثال في تلة بيت مسريم وهي بلدة توراتية كانت تدعى ديفير وتقع إلى الجنوب الغربي من مدينة الخليل الحالية أن أكثر الأشياء الدينية التي عُثر عليها منذ العصور البرونزية الأخيرة (القرون 21-13 قبل الميلاد) كانت ما يسمى بتماثيل أو لوحات عشتروت. ولكن حتى بعد مضي فترة على إعادة بناء هذه البلدة إثر تدميرها على يد الغزاة من العبرانيين في الأعوام 1300-1200 قبل الميلاد، فإن الأدلة الأثرية، كما يذكر باتاي، لا تترك مجالاً للشك بأن هذه التماثيل كانت تلقى شعبية كبيرة بين العبرانيين[8].

بالطبع، وردت في الكتاب المقدس بعض التلميحات لهذه الأمور. فقد كان الأنبياء عزرا وهوشع ونحميا وإرميا يشجبون بشدة عبادة الآلهة الأخرى، وكانوا يصبون جام غضبهم بالتحديد على هؤلاء الذين استمروا في عبادة ملكة الجنة[9] وقد حددوا بشكل خاص «بنات القدس» اللواتي واصلن الارتداد إلى العقائد الداعية إلى عدم احتكار السلطات الروحية والدنيوية من قِبَل الرجال. ولكن عدا عن تلك المقاطع التي كانت ترد أحياناً في الكتاب المقدس والتي تحمل طابعاً ازدرائياً لم ترد أية تلميحات بوجود إله غير الإله الذكر.

سواء كان الأمر يتعلق بإله الرعد، أو إله الجبل أو إله الحرب أو الإله الأكثر حضوراً الذي ظهر لاحقاً وأرسل أنبياءه إلى الشعوب، لم يعد هناك وجود إلا لإله واحد هو الإله الغيور الغامض يهوا الذي ورد عنه لاحقاً في الأساطير

المسيحية أنه أرسل ابنه الإله الوحيد يسوع المسيح ليموت ويمسح بذلك خطايا بني الإنسان. ورغم أن كلمة «إلوهيم» في العبرية تحمل جذوراً أنثوية وذكورية في معناها (حيث ورد عرضاً في تفسير قصة الخلق الأولى أن الألوهيم قد خلق الذكر والأنثى على صورته ومثاله)، إلا أن جميع التسميات الأخرى التي نسبت إلى الإله مثل: الملك، السيد، الأب والراعي كانت جميعها ذكورية[10].

وإذا قمنا بقراءة الكتاب المقدس على أساس كونه أدباً اجتماعياً معيارياً، فإننا نجد أن غياب الإلهات شكل التصريح الفردي الأكثر أهمية حول نوعية النظام الاجتماعي الذي كافح واضعو ومؤلفو هذه الوثائق الدينية من الرجال من أجل تثبيته والحفاظ عليه، لأن تغييب الإلهات من نصوص الكتاب المقدس كان يعني تغييب أية سلطة إلهية تستطيع حماية النساء والانتقام للأخطاء التي ارتكبها الرجال بحقهن.

لكن هذا لا يعني أنه لا يوجد في الكتاب المقدس حقائق ومفاهيم أخلاقية وباطنية، كما لا يلغي حقيقة كون الديانة اليهودية في تطورها اللاحق قد أسهمت إسهاماً إيجابياً في بناء التاريخ الغربي، إذ أن من المؤكد رغم ما يظهر بشكل متزايد أن الحضارة الغربية تحمل جذورها من شرائع ومعارف قديمة، إلا أننا نجد فيها الكثير من المعاني الإنسانية المأخوذة عن تعاليم الأنبياء العبرانيين، على سبيل المثال كانت معظم تعاليم أشعيا التي بنيت عليها لاحقاً تعاليم المسيح مصممة على أسس تشاركية لا تدعو للهيمنة. ولكن مع كل ما انطوت عليه هذه التعاليم من رفعة وإنسانية، يظل الكثير مما نجده في الكتاب المقدس لكل من اليهود والمسيحيين عبارة عن شبكة من الأساطير والشرائع التي صممت لفرض نظام هيمنة يحمل في طياته تنظيماً اجتماعياً واقتصادياً مهيمناً[11]، كما صممت للحفاظ عليه وعلى استمراريته.

ومثلهم مثل قبائل الكيرغان التي اجتاحت أوروبا القديمة قبل ألفيات من الزمن، اجتاحت القبائل العبرية أرض كنعان قادمة من صحارى الجنوب، جالبة معها إله الحرب الجبار يهوا أو يهودا الغيور والشرس. كان العبرانيون أكثر تقدماً من الناحية التقنية والثقافية من الكيرغان، ولكنهم مثلهم مثل الشعوب الأوروبية الهندية، كانوا يتصفون بالعنف والتشوق للحروب. ونقرأ في كتاب العهد القديم، مقطعاً وراء مقطع كيف كان يهودا الإله يعطي الأوامر بالتدمير والنهب والسلب والقتل وكيف تم تنفيذ هذه الأوامر بحذافيرها[12].

كان المجتمع القبلي العبري، مثله مثل مجتمع الكيرغان وغيرهم من الشعوب الهندية الأوروبية، مجتمعاً شديد الهرمية، يحكم من القمة من قِبَل قبيلة موسى اللاوية التي فُرضت عليها نخبة من الأقلية هي عائلة كوناث أو كوهن والتي بدورها توارثت الكهنوت عن نسل هارون. وكانت هذه النخبة تشكل السلطة العليا. ونقرأ في كتاب العهد القديم أن رجال هذه العشيرة كانوا يدعون بأن سلطاتهم منزلة مباشرة من الإله يهوا، كما يخبرنا علماء التوراة أن هذه النخبة الكهنوتية، هي التي قامت على الأرجح بإعادة كتابة الأساطير والتاريخ من أجل تثبيت موقعها المهيمن[13].

وأخيراً جاء ما يدعم ويكمل تصور مجتمع الهيمنة للعنف والسلطوية والهيمنة الذكورية في الدالة الصريحة التي أوردها كتاب العهد القديم والتي يقول فيها إن الله هو الذي أراد أن يحكم الرجل المرأة. ويعود السبب في ذلك إلى أن المجتمع القبلي العبري وعلى غرار مجتمعات الكيرغان وغيرهم من الشعوب الهندية الأوروبية، التي أحدثت كل هذا الدمار في أوروبا وآسيا الوسطى، كان مجتمعاً متشدداً في هيمنته الذكورية.

مرة أخرى، نقول إن من الواجب التشديد على عدم السماح للخيال بأن يشط بنا نحو أي تفكير ضمني بأن اللوم في فرض فكر الهيمنة يقع على ديانة

العبريين القدماء أو على الديانة اليهودية لأن النقلة من الحقائق التشاركية إلى حقائق الهيمنة كانت قد سبقت الغزوات العبرية لأرض كنعان، لمدة طويلة كما أنها وقعت بالتزامن مع غزوات أخرى شهدتها أجزاء متعددة من العالم القديم. كذلك، فإن اليهودية تعود بأفكارها الإلهية وأخلاقياتها إلى عهد سبق كتاب العهد القديم بفترة طويلة إضافة إلى أنها ومن خلال تقاليدها الروحية «الشيخينا» استطاعت الحفاظ على العديد من العناصر التي كانت موجودة في العبادات القديمة للإلهات.

وكما رأينا سابقاً، فقد ظلت عبادة الإلهات في حقيقة الأمر منتشرة بشكل واسع بين الشعوب العبرية دخولاً إلى عهود الملكية، كما ظهرت بين الحين والآخر نساء مثل النبيّة والقاضية ديبورا، ممن وصلن إلى مراتب قيادية عالية. ولكن المجتمع العبري ظل بمعظمه يدار من القمة من قِبَل نخبة صغيرة من الرجال. إلا أن الشيء المهم هنا هو أننا ما زلنا نستطيع أن نقرأ في كتاب العهد القديم القوانين التي صاغها هؤلاء الرجال والتي لم تضع النساء في مصاف المخلوقات المستقلة والحرة بل أتبعت النساء ضمن الملكيات الخاصة بالرجل. أولاً من خلال نسبهن إلى آبائهن، ولاحقاً من خلال امتلاكهن من قِبَل أزواجهن أو أسيادهن، والأمر نفسه كان ينطبق على الأطفال الذين يولدون منهن.

نحن نعلم من قراءتنا للكتاب المقدس أن العذارى وصغار البنات اللواتي كن يتعرضن للسبي من أتباع البلاد المهزومة (كما يصفهم إنجيل الملك جيمس) كنّ يُستعبدن بانتظام بناءً على أوامر الإله يهوا[14]. كما نقرأ أيضاً عن الغلمان الذين كانوا يعملون كعبيد. فقد كان هناك عبيد ذكور وخادمات إناث، وكان القانون يسمح للرجل ببيع ابنته كخادمة، والأكثر تأثيراً كان القانون التوراتي الذي ينص على أنه إذا ما أُعتق رجل من العبودية فإن زوجته وأولاده يبقون ضمن ملكية السيد[15].

ولكن ملكية الرجل لم تكن تقتصر على العبيد من الغلمان والجواري ونسلهم ونسلهن، فها هي القصة المعروفة لإبراهيم الذي أراد التضحية بابنه من زوجته سارة، إسحاق من أجل يهوا، دليل ساطع على أنه حتى أبناء الزوجات الشرعيات كانوا يعدون ضمن ملكية الرجل. والقصة الأخرى التي نوردها هنا هي كيف قام يعقوب بشراء زوجته لِيا بعد أن عمل سبع سنوات لدى أبيها، ولعل في هذه القصة إشارة واضحة إلى كيفية اعتبار النساء في ذلك الزمن.

الجنس والاقتصاد

قد لا تجد نظرة أكثر وضوحاً حول إذلال المرأة كتلك التي تظهر لنا من خلال قراءة حذرة لمجموع الوصفات والحمايات التي تعلمنا جميعاً بأنها موجهة لحماية شرف المرأة. على سبيل المثال في إصحاح دوترونومي 22:28-29 نقرأ: «إذا وجد رجل فتاة عذراء لم تخطب بعد وقام بمضاجعتها ثم اكتُشف أمرهما، يصبح لزاماً على الرجل الذي ضاجع تلك المرأة أن يدفع 50 شيكل من الفضة لأبيها على أن تصبح هي زوجته» . إن الانطباع الذي يصلنا هنا هو أن هذا النوع من القانون يمثل تقدماً كبيراً، إذ أنه يشكل خطوة أخلاقية وإنسانية إلى الأمام بعيداً عن الثقافة الوثنية الخاطئة واللاأخلاقية. ولكن إذا نظرنا إلى هذا القانون بموضوعية، وضمن السياق الاجتماعي الاقتصادي الذي تم فيه تفعيله، فإن من الواضح أنه لم يأت نتيجة اعتبارات أخلاقية أو إنسانية لا بل نجد أنه صُمِّم من أجل حماية حقوق ملكية الرجل في زوجته وبناته.

ما يقوله هذا القانون هو أن الفتاة غير المتزوجة التي تفقد عذريتها تفقد قيمتها الاقتصادية لدى أبيها لذلك يتوجب تعويض ذلك الأب. أما بالنسبة للالتزام القانوني الذي يتحمله الرجل المسبب لهذه المشكلة الاقتصادية بزواجه من الفتاة فإن هذا بالكاد يصب في مصلحة الفتاة في مجتمع يمارس فيه الأزواج سلطة لا حدود لها على زوجاتهم وحتى هذه العقوبة نفسها لها علاقة باقتصاديات

الذكور. فبما أن الفتاة قد أصبحت الآن سلعة لا قيمة لها فإن من غير المنصف إرهاق كاهل أبيها بمسؤوليتها، لذلك فإن المسؤولية تلقى على الشخص الذي تسبب في جعلها سلعة بلا قيمة.

أما الهدف الحقيقي لهذا النظام الشامل من العادات والقوانين الأخلاقية الجنسية فيظهر بشكل أكثر وحشية في إصحاح دوترونومي 22:13-21 وتتعلق هذه الفقرات بحالة رجل يدعي أنه ومنذ اكتشف أن عروسه ليست عذراء تحول إلى كرهها ورغب بأن يتخلص منها. أما العلاج القانوني الذي يقدمه الكتاب المقدس لمثل هذه الحالة فيتمثل فيما يلي: إذا استطاع والدا الفتاة أن يظهرا علامات على أنها عذراء فإن على الزوج أن يدفع لوالد العروس مائة شيكل من الفضة ولا يسمح له بإعادة زوجته إلى أهلها طوال حياتها. ولكن إذا لم تكن علامات العذرية واضحة ولم يستطع الوالدان إثباتها أمام كبار أهل المدينة فإن بإمكان الرجل التخلص من زوجته. فالقانون هنا يسمح له بأن يحضرها أمام باب منزل والدها بينما يقوم رجال المدينة برجمها بالحجارة حتى الموت.

ويخبرنا الكتاب المقدس أن هناك سبباً جيداً لقتل المرأة التي لا تكون عذراء عندما تتزوج وذلك لأنها ارتكبت حماقة في إسرائيل بارتكابها الدعارة في منزل والدها. وإذا قمنا بترجمة هذه الكلمات إلى لغتنا المعاصرة فإنها يجب أن تقتل كعقاب لها على جلبها العار، ليس لوالدها فقط ولكن لعائلتها الأكبر، أسباط إسرائيل الإثني عشر. ولكن السؤال هنا فقط: ما هو هذا العار الذي جلبته؟ وأي ضرر أو دمار يمكن أن يسببه فقدان فتاة لعذريتها، لشعبها ولوالدها؟

الجواب هو أن المرأة التي تتصرف كشخص حر جنسياً واقتصادياً تعتبر تهديداً لكامل النظام الاجتماعي والاقتصادي المتشدد الذي أسسه المجتمع الذكوري. ومثل هذا التصرف يجب أن يلقى رداً صلباً كي لا ينهار النظام

الاجتماعي والاقتصادي برمته، وهذا هو السبب الذي يقف وراء ضرورة فرض أقصى العقوبة والإدانة الاجتماعية والدينية لمثل هذا العمل.

على الصعيد العملي، تمت صياغة هذه القوانين التي تحمي عذرية المرأة لحماية ما يمكن أن يكون في الأساس صفقات اقتصادية بين الرجال. فعبر طلب دفع التعويض إلى الأب في حالة بطلان الاتهامات ضد ابنته يكون القانون قد عاقب على جريمة تشويه سمعة الأب كتاجر شريف، كما يكون قد منحه حماية أوسع، فإذا ثبت بطلان الاتهام، لا يعود بإمكان المدعي رد البضاعة (أي الابنة). ومن ناحية أخرى، إذا قام رجال المدينة برجم الفتاة حتى الموت في حال ثبوت صحة الاتهام، فإن القانون يكون قد حمى الأب أيضاً، لأنه وبما أنه لا يمكن إعادة بيع العروس التي جلبت العار، فإن من الأفضل اقتصادياً التخلص من هذه البضاعة التي لم تعد هناك قيمة لها. كذلك الأمر بالنسبة للقوانين التي تتحكم بالزنا والتي تتطلب قتل الزاني والزانية إذ أنها تعاقب الرجل لقيامه بسرقة وتخريب بضاعة رجل آخر (ابنته) وتعاقب الفتاة التي جلبت العار لأهلها لأنها لم تعد تشكل بضاعة صالحة للبيع.

إلا أن الرجال الذين وضعوا مثل هذه القواعد التي تحافظ على هذا التنظيم الاجتماعي لم يتحدثوا بمثل هذه النصوص الاقتصادية البحتة. وبدلاً من ذلك قالوا إن هذه القوانين لم تأتِ فقط لحماية الأخلاق والشرف ولكنها جاءت ككلام من الله. وحتى تاريخ اليوم نجد أننا إذا فكرنا بالنصوص المقدسة الواردة في الكتاب المقدس على أنها إنتاج إلهي أو على الأقل أخلاقي ومن باب الحكمة فإن من الصعب علينا أن نفكر بموضوعية ونلحظ المعنى الأساسي لهذا الدين الذي يعتبر الإله الأعلى ذكراً.

لقد علمونا أن التقاليد اليهودية والمسيحية هي أعظم تقدم أخلاقي حققه جنسنا البشري. بالتأكيد يهتم الكتاب المقدس بمسألة الحق والباطل ولكن ما

يعتبر حقاً وباطلاً في مجتمع مهيمن عليه يختلف عن الحق والباطل في مجتمع تشاركي. وكما لاحظنا توجد في نصوص الكتاب المقدس لدى اليهود والمسيحيين تعاليم تلائم النظام التشاركي في العلاقات الإنسانية. ولكن إلى المدى الذي تعكس فيه أخلاقيات المجتمع المهيمن عليه، فإن الأخلاقيات التي يطرحها الكتاب المقدس هي في أفضل أحوالها مقزّمة، وهي في أسوأ أحوالها أخلاقيات زائفة تستخدم فيها إرادة الله كوسيلة للتغطية على الوحشية والهمجية.

على سبيل المثال نقرأ في الإصحاح 31 عما حدث بعد سقوط المدائن، إذ بعد أن قام الغزاة العبرانيون بذبح جميع الذكور الراشدين، تحولوا إلى سبي جميع النساء الأسرى وأطفالهن. وهنا نجدهم يفعلون مثلما أخبرهم موسى بأن إرادة الله تقتضي ما يلي: أقتلوا جميع الرجال وجميع النساء اللواتي ضاجعنهم ولكن أبقوا على النساء اللواتي لم يعرفن رجالاً واحتفظوا بهن لأنفسكم[16].

وكما نقرأ غالباً في الكتاب المقدس، فإن أوامر الله تعتبر عقوبة. فالطاعون الذي تفشى بعد النصر اعتبره موسى عقاباً نتيجة أخطاء تلك النسوة الأسيرات. ولكن حتى هذا الأمر لا يمكن أن يبرر لماذا يأمر الله بأن يتم إبقاء الفتيات العذارى على قيد الحياة ليصبحن مُلكاً للرجال الذين قاموا بسبيهن. ولكن ما يبرر هذا هو إدراك رجال النخبة المنغلقة الحاكمة بأنه على الرغم من الأوامر الصادرة لرجالهم بقتل الراشدين من الرجال والنساء إلا أن هؤلاء الرجال لن يكونوا راغبين في تدمير غنائمهم من العذارى لأن بإمكانهم بيعهن كجوارٍ أو كعبيد أو حتى كزوجات.

أخلاقيات المهيمن

بلغت فعالية فرض هذا المجتمع المهيمن من الشدة بحيث أن الرجال والنساء الذين يعتبرون أنفسهم اليوم أشخاصاً ذوي أخلاق حسنة ظلوا يقرأون هذه

المقاطع الواردة في الكتاب المقدس دون أن يسألوا أنفسهم كيف يمكن لإله عادل وصالح أن يأمر بمثل هذه الأفعال الرهيبة وغير الإنسانية، ولا يبدو أنهم قد سألوا أنفسهم أيضاً عن أخلاقية بعض رجال المسلمين الذين يعتبرون أن واجبهم في حماية شرف المرأة يستدعي أن يهددوا بقتل بناتهم أو أخواتهم أو زوجاتهم أو حفيداتهم أو حتى يقوموا بقتلهن إذا اشتبهوا بارتكابهن الزنا سواء كان الأمر حقيقياً أم مجرد تخيل. كذلك لم يسألوا أنفسهم لماذا الاستمرار في تسمية هذه المفاهيم بالمفاهيم الأخلاقية في عيونهم وعيون الرجال عامة بينما هي تجرد النساء من أي قيمة تُذكر إذا لم يكنّ طاهرات.

في اللحظة التي نطرح فيها على أنفسنا مثل هذه الأسئلة، تبتعد أذهاننا عن نمط التفكير المتبع في مجتمع الهيمنة والذي لا يصل في مفاهيمه إلى أبعد من ذلك. وهكذا عبر عمليات نسخ الأنظمة المتبعة والتي بدأت تنكشف على يد علماء مثل فيلموس كسانيي، ما زال الملايين من الناس يبدون وكأنهم غير قادرين على تبصُّر ما تقوله أدبياتنا المقدسة وكيف تعمل من أجل الحفاظ على الحدود التي تبقينا مسجونين داخل نظام الهيمنة.

ولعل أكثر الأمثلة التي تلفت النظر في هذا التعامي عن رؤية الأنظمة هي تلك المتعلقة بمعالجة الكتاب المقدس لمسألة الاغتصاب. ففي كتاب الحكماء من الإصحاح التاسع عشر يخبرنا الكهنة الذين كتبوا الكتاب المقدس عن والد يقدم ابنته العذراء إلى مجموعة من الرعاع السكارى. فقد كان لدى الرجل ضيف من قبيلة اللاوي ذوي المنزلة الرفيعة، وجاءت مجموعة من الأشخاص المشاكسين من قبيلة بنيامين يطلبون رؤيته في الخارج، وقد بدا أنهم يريدون أن يضربوه. عندها قال لهم الأب: توقفوا هاكم ابنتي فهي عذراء ومخطية لهذا الضيف. سوف أحضرها لكم الآن فافعلوا بها ما تشاؤون ولكن إياكم أن تسيئوا لهذا الرجل[17].

نقرأ هذه القصة بشكل عابر وكأنها ليست بذات أهمية، ثم بعد ذلك تنكشف القصة أكثر فنعلم أن الرجل أحضر مخطيته لهؤلاء الرجال الذين أساؤوا إليها جسدياً طوال الليل وحتى ساعات الصباح حين استطاعت الزحف إلى عتبة المنزل الذي ينام فيه الرجل. بعد ذلك تقول القصة إن الرجل حين استفاق في الصباح وفتح باب منزله ليخرج في طريقه تعثر بها وأمرها بأن تنهض، ولكنه اكتشف بعد ذلك أنها ميتة، فحمل جسدها وألقاه على حماره وأقفل عائداً إلى منزله[18].

لا يوجد في هذه القصة الوحشية التي تنطوي على خيانة الابنة وخيانة ثقتها بعشيقها ومن ثم اغتصابها من قِبَل زمرة الرعاع وقتلها، أية إشارة إلى الرحمة بالقدر الذي تثير فينا النقمة والغضب. ولكن الأمر الأكثر وضوحاً والأشد هولاً هو أن هذا الرجل الذي قدّم ابنته الغالية للرعاع ليهتكوا عذريتها ويقتلوها، لم يرتكب أية معصية ضد القانون. ولعل الناحية الأشد رعباً تأتي من جهة أن الأعمال التي أدت إلى قيام الرعاع باغتصاب وتعذيب وقتل فتاة هي امرأة أحد اللاويين هو أمر لا يخالف القانون. ويدعون في نهاية الأمر أن هذا الكتاب مليء بالمفاهيم والمحارم التي تحدد ما هو صحيح وما هو خطأ أخلاقياً وقانونياً.

باختصار، كم تبدو لنا أخلاقية هذا النص المقدس الذي يزعم أنه يعرض قوانين إلهية مقزمة حين نقرأ أن النساء اللواتي يشكلن نصف بني البشر يمكن تقديمهن قانونياً من قِبَل آبائهن وأزواجهن لكي يتم اغتصابهن وضربهن وتعذيبهن أو قتلهن دون خوف من عقاب أو حتى دون أي رادع أخلاقي.

والأمر الأشد وحشية في كل هذا، هو ما تنقله هذه القصة من رسالة ما تزال تقرأ حتى يومنا هذا على أنها حكاية ذات مغزى أخلاقي تروى على مسامع المصلين في الكنائس والأطفال في مدارس الأحد عبر العالم الغربي برمته.

ونقرأ أيضاً قصة لوط الشهيرة الذي أنقذه الله وحده من المصير الذي لاقاه سكان المدينتين الفاسقتين سدوم وعمورة اللتين دمرتا تماماً. هنا أيضاً نقرأ في سفر التكوين 8:19 أنه وبالقوة نفسها العادية التي بدت وكأنها عادة مقبولة وواسعة الانتشار، قام لوط بعرض ابنتيه اللتين كانتا ما تزالان طفلتين على مجموعة من الرعاع كانت تهدد ضيوفه في منزله. مرة أخرى لا نجد في هذا الأمر تلميحاً إلى وجود أي خرق للقانون أو أي تعبير عن نقمة أخلاقية ضد هذا العمل غير الطبيعي الذي يقوم به أب بحق بناته. بل على العكس، فقد تبين فيما بعد أن ضيفي لوط كانا ملاكين مرسلين من الله الذي قذف سدوم وعمورة بالنار والكبريت عقاباً لهما على فسادهما، ولم يعاقب لوط بل كافأه على فعلته بأن أنقذه هو وعائلته[19].

ضمن مفهوم نظرية التحول الحضاري ماذا يمكننا أن نتعلم من هذه الأمثلة حول أخلاقيات الكتاب المقدس وحول النظام الذي تم تصميمه للحفاظ على هذه الأخلاقيات. من الواضح أن الأخلاقية التي تفرض بالقوة عبودية النساء جنسياً للرجل قد وضعت لتلبي متطلبات اقتصادية لنظام ذكوري مهيمن ومتشدد ينقل ملكية الأب إلى الابن ويجعل من النساء وأطفالهن بمثابة خدم للرجال. كذلك تم وضع مثل الأخلاقية لتلبي متطلبات سياسية وفكرية تهدف إلى عملية قلب جذرية للحقائق الاجتماعية القديمة التي كانت تنص على حرية المرأة اقتصادياً وجنسياً وسياسياً، وعلى أن الإلهات هن السلطة المساوية العليا. إذ إنه لا يمكن لمثل تلك البنية السلطوية القائمة على المنزلة المتشددة أن تستمر دون أن يتم قلب جميع الحقائق السابقة.

وهكذا، كما رأينا، لم يكن من قبيل الصدفة أن يتم في جميع أنحاء العالم القديم فرض الهيمنة الذكورية كجزء من النقلة من طريقة سلمية ومتكافئة في تنظيم المجتمع إلى نظام هرمي عنيف يحكمه رجال قساة جشعون. كذلك لم يكن

من قبيل الصدفة إذا نظرنا إلى الأمر من منظور الأنظمة أن النساء في العهد القديم قد تم استثناؤهن من دورهن السابق ككاهنات بحيث تبقى القوانين الدينية التي تحكم المجتمع موضوعة فقط من قِبَل الرجال. وأخيراً ليس من باب الصدفة أيضاً أن يتم عرض أشجار المعرفة والحكمة والحياة التي ارتبطت ذات مرة بعبادة الإلهات، على أنها ملك خاص للإله الذكر صاحب السلطة الأعلى، لكي ترمز بذلك وتشرع السلطة المطلقة في شؤون الحياة والموت لهذه الطبقة المنغلقة من الرجال، إضافة إلى سلطة الرجال على النساء.

المعرفة سيئة، الولادة قذرة، والموت مقدس

كما رأينا في سفر التكوين حول العقاب الأبدي الذي لحق بآدم وحواء لتحديهما أوامر يهوا بالابتعاد عن شجرة المعرفة، كان كل تمرد يقوم ضد السلطة الكهنوتية الذكورية الحاكمة، يعتبر خطيئة شائنة وبأمر مباشر من يهوا نفسه. وكانت كل من السلطوية والهيمنة الذكورية تبرر بشكل راسخ بنفس الرأي الفصل الذي يبشر به الديكتاتوريون المعاصرون والحكام المرشحون ليكونوا استبداديين، أتباعهم، سواء كان هؤلاء الحكام من المؤمنين اليمينيين أم من الملحدين اليساريين: «لا تفكر، تقبّل الأمر على ما هو، تقبل ما تقوله السلطة على أنه صحيح، وفوق كل شيء لا تستخدم ذكاءك وقواك الذهنية لتسائلنا أو لتبحث عن معرفة مستقلة لأنك إذا فعلت ذلك فإن عقابك سيكون صارماً».

ولكن في الوقت نفسه الذي يعتبر فيه عصيان السلطة والتجرؤ على تحصيل معرفة مستقلة لما هو حق ولما هو باطل، من أكثر الجرائم مقتاً، فإن جرائم القتل واستعباد البشر وتدمير ممتلكاتهم وغيرها من الجرائم تلقى الصفح والمغفرة في كتبنا المقدسة. والقتل في الحروب يعتبر أمراً محللاً من الله، وكذلك نهب الغنائم واغتصاب النساء والأطفال وتدمير المدن. كما أن عقوبة القتل لجميع أنواع الجرائم غير العنيفة بما فيها الزنا تظهر في الكتاب كأداة إلهية لتطبيق

العدالة حتى أن جريمة القتل المتعمد التي يرتكبها أخ ضد أخيه ليست بجدية جريمة عصيان السلطة من خلال الأكل من شجرة المعرفة، لأن الجريمة التي ارتكبها قابيل بحق أخيه هابيل ليست الجريمة التي بسببها يُحكم على البشر أن يعيشوا بأسى إلى أبد حياتهم بل جريمة حواء التي تصرفت باستقلالية حين أرادت أن تتحسس ما هو حق وما هو باطل.

في الوقت نفسه الذي أصبح فيه سفك دماء البشر في الحروب عقاباً وحشياً وأصبحت فيه طريقة فرض السلطة الذكورية المطلقة على النساء والأطفال، عُرفاً متبعاً، توسَم عملية منح الحياة بالقذارة والفساد. فنجد في كتاب العهد القديم، نصوصاً تتعلق بولادة الأطفال، محشورة بين التطهرات المتعلقة بالبرص واللحوم النظيفة والفاسدة. ونقرأ في إصحاح ليفيتيكوس 12 أن المرأة التي تلد طفلاً يجب أن تتطهر بالطقوس لئلا يؤدي نجسها إلى تلويث آخرين. وهذا الأمر لا ينطوي على عزلها فقط بل على دفع النقود للكهنة من أجل ممارسة طقوس التطهير. فقط من خلال تقدمة تكفر فيها عن قذارتها أمام أبواب المعبد ليقوم الكاهن بعد ذلك برفعها أمام الإله ليتشفع لها، يمكن لهذه المرأة أن تعود طاهرة ويعلن أمام الجميع أنها نظيفة[20].

وهكذا سار الأمر في بلاد ما بين النهرين وبلاد كنعان ولاحقاً في مملكتي يهودا وإسرائيل إذ أصبحت الحرب والحكم الاستبدادي وإخضاع النساء والأطفال، أجزاء أساسية في أخلاقيات مجتمع الهيمنة. كما أصبحت المعرفة خطيئة من خلال إعادة كتابة الأساطير ببراعة وحذق وحتى الولادة اعتبرت أمراً قذراً. باختصار، كانت عملية إعادة توجيه التطور الحضاري ناجحة لدرجة جعلت الحقيقة تقف تماماً على رأسها.

ومع ذلك، عندما ننظر إلى التاريخ خلفنا، نجد أن هذا التاريخ قد كتب على يد مؤرخين وفلاسفة وكهنة عملوا في خدمة هؤلاء الأسياد الأقوياء، كما

نجد أن العقلية القديمة التي ظهرت في بواكير الظهور الإنساني تسير على طريق تطوري مختلف تماماً وتسعى لإعادة ترسيخ نفسها.

هذه الإلهة العظيمة التي شكلت عبادتها جوهر الفكر الداعي إلى مجتمع أكثر سلاماً ومساواة، لم تختفِ تماماً. ورغم أنها لم تعد كما كانت العقيدة العليا التي تحكم العالم إلا أنها ما زالت تعتبر قوة معترفاً بها لدرجة أنها كانت تلقى كل التبجيل والاحترام في العصور الأوروبية الوسطى لكونها أم الله. ورغم مرور قرون عديدة من التحريمات النبوية والكهنوتية، إلا أن أحداً لم يستطع أن يلغيها تماماً من مجال العبادة. ومثله مثل هوروس وأوزيريس، وهيليوس وديونيسوس وقبلهم بكثير الإله الشاب في كاتال هويوك والإلهة الشابة بيرسيفون أو كوري في الأساطير الإيلوسينية القديمة، ظل المسيح يعتبر ابناً لأم إلهية. وهو في الحقيقة ما زال يعتبر طفل الإلهة ومثله مثل سائر الأطفال المقدسين، ظل يرمز إلى إعادة إحياء الطبيعة من خلال إعادة انبعاثه إلى الحياة في كل سنة في ربيع عيد الفصح.

وتماماً مثلما كان ابن الإلهة يعتبر زوجها في زمن من الأزمان ظل المسيح يعتبر في الميثولوجيا المسيحية عريساً لمريم التي تمثل الكنيسة الأم[21] كما أن جرن المعمودية أو الكأس المقدسة اللذين يعتبران في صلب الطقوس المسيحية، ما زالا يرمزان إلى الوعاء الأنثوي القديم الذي يحتوي على الحياة. مع كون المعمودية، حسب ما ذكره مؤرخ الأساطير إيريك نيومان، تمثل العودة إلى الرحم الغامض للأم العظمى ولماء الحياة[22].

حتى تاريخ ميلاد المسيح قد أصبح يعرف الآن بأنه مأخوذ عن الاحتفالات التي ارتبطت يوماً ما بعبادة الإلهة، رغم أن تاريخ الميلاد الحقيقي للمسيح ليس معروفاً. فقد تم اختيار تاريخ عيد الميلاد أو قداس المسيح لأنه كان يعرف بأنه وقت الاحتفال التقليدي بالانقلاب في كل سنة، أي اليوم الذي تمنح

فيه الإلهة الولادة للشمس، ويقع هذا اليوم عادةً ما بين 21 كانون الأول/ ديسمبر إلى 24 منه، كذلك كانت تلك الفترة الواقعة من 21 كانون أول/ ديسمبر إلى 6 كانون الثاني/ يناير (أي فترة عيد الغطاس) تشهد عدداً من أعياد الميلاد واحتفالات التجديد الشعبية خلال فترة حكم الرومان[23].

ولكن رغم جميع هذه التشابهات، ما زالت هناك فروقات أساسية. ففي العبادة الرسمية المسيحية، تبقى المرأة الوحيدة الموجودة هي الوجه الفاني الوحيد، ولا تزال تبجَّل على أنها الأم الرؤوفة والرحيمة. كما أنها تظهر في بعض الأيقونات مثل فيرجيس أوفرانتس على سبيل المثال وهي تحمل في جسدها الأعجوبة المطلقة وسر الحياة[24]، إلا أنها الآن تعتبر وجهاً ثانوياً، كما أن الصورة المركزية في الميثولوجيا التي يحملها هذا الدين المهيمن عليه من الذكور، لم تعد تدور حول ميلاد إله شاب بل حول الصلب والموت.

الأم تلد المسيح فقط، والأب الإلهي هو الذي يرسله إلى الأرض كتضحية لمحو خطايا البشرية. ومثله مثل سائر البشر، أرسل الابن الإلهي إلى الأرض ولكن المهم هنا ليس الزمن القصير الذي أمضاه في وادي الدموع ولكن موته ووعده بحياة أفضل بعد الموت هما الأمران المهمان فقط بالنسبة للمؤمنين الذين يطيعون أوامر الأب أما الباقون فليس لهم أمل حتى في الموت ولن يحصدوا إلا العذاب الأبدي واللعنة الأبدية.

لم يعد تركيز التصاوير الدينية ينصب على قوى الإلهة في إعطاء الحياة واستمراريتها وإعادة بعثها، فقد اختفت الأزهار والطيور والحيوانات والأشجار، اللهم إلا على شكل إسناد خلفي، وبقيت ذكرى الإلهة وهي تهز الطفل الإلهي بين ذراعيها. أما العقل الإنساني لكل من الرجال والنساء فقد أصبح اليوم مسكوناً ومستهلكاً من قِبَل موضوع قاطع نفذ إلى داخل الفن المسيحي برمّته. ونلحظ هذا الموضوع في اللوحات الزيتية المرسومة للقديسين

الذي يعذبون أجسادهم بطرق شيطانية، ونراها في الرسومات التي تصور شهداء المسيحيين وهم يُذبحون ويقتلون بطرق وحشية ومبتكرة ونراها في رؤى دورير الرهيبة عن جهنم عند المسيحيين وفي رسمة مايكل إنجيلو حول الحساب الأخير وفي صورة سالومي التي ترقص بلا نهاية حول الرأس المقطوع ليوحنا المعمدان (النبي يحيى).

واليوم أين يمكن أن نجد موضوعاً أشد وضوحاً كالموضوع الكلي الوجود للمسيح وهو يموت على الصليب. هنا يظهر بوضوح أن الصورة المركزية التي يدور حولها الفن لم تعد إحياء الطبيعة والحياة بل تمجيد الألم والمعاناة والموت[25]. إذ أن في هذه الحقيقة الجديدة التي أصبح يقال عنها بأنها الخلق الوحيد على يد إله ذكر، تم استبدال الكأس المقدسة التي تمنح الحياة والرعاية والتي تعتبر السلطة العليا في الكون بقوة مهيمنة مدمرة هي القوة القاتلة لنصل السكين. وهي حقيقة ابتلي بها الناس، رجالاً ونساءً وما زالت تكويهم بنارها حتى يومنا هذا.

الفصل 8

النصف الآخر من التاريخ

الجزء الأول

مثل مسافرين عبر مركب زمني، تنقلنا من خلال الاستكشافات الأثرية نحو حقيقة مختلفة. فعلى الجانب الآخر لم نعد نرى تلك القوالب الوحشية للطبيعة الإنسانية التي يحكم عليها بالحرمان إلى الأبد، ولكننا صرنا نرى أفقاً مليئاً بالاحتمالات نحو حياة أفضل. لقد رأينا كيف تم قطع تطورنا الحضاري في أوائل عهود الحضارة ومن ثم تغييره تغييراً تاماً. ثم رأينا كيف أكمل تطورنا الاجتماعي والتقني مسيرة هذه الحضارة ولكن في اتجاه مختلف ولكننا رأينا أيضاً كيف أن الجذور القديمة لحضارتنا لم تقتلع تماماً.

فالحب القديم للحياة والطبيعة والطرق القديمة التي كانت متبعة في العطاء بدلاً من الأخذ وفي الرعاية بدلاً من الظلم وفي النظرة إلى السلطة كمسؤولية بدلاً من كونها هيمنة، كلها أمور لم تمت تماماً إلا أنها بدلاً من ذلك ومثلها مثل المرأة والصفات المتعلقة بالأنوثة تردّت منزلتها لتوضع في مكان ثانوي.

كذلك، لم يختفِ عشق الإنسان للجمال والحقيقة والعدالة والسلام، ولكنه بدلاً من ذلك تعرض للقمع والطمس من قبل النظام الاجتماعي الجديد. وظل مع ذلك يكافح من حين لآخر لكي يعبّر عن نفسه. إلا أن الأمور أخذت تتجه

بشكل متزايد للإحساس بعدم وجود معنى واضح لهذا الترتيب الجديد الذي يبني العلاقات الإنسانية، وخاصة العلاقة بين نصفي البشر (الرجال والنساء)، على أسس متشددة ومراتب قائمة على القوة والسيطرة.

وقد شهد هذا التحول الذي جرى للحقيقة نجاحاً كبيراً في طمسه لهذه الحقيقة الجلية حول التأثير العميق الذي تتركه البنى الاجتماعية لأسس العلاقات الإنسانية على جميع نواحي التفكير والعيش، بحيث أنها وصلت إلى حد التعتيم التام مع مرور الزمن. ونتيجة لذلك نجد أنه حتى أكثر اللغات المعاصرة تعقيداً والتي استطاعت أن توجد كلمات ومعاني تقنية لكل شيء يمكن أو لا يمكن تصوره، عجزت عن إيجاد كلمات جنسوية تصف الاختلاف العميق بين ما كنا نسميه وما زلنا نسميه حتى الآن مجتمعاً تحكمه الهيمنة وبين مجتمع تحكمه المشاركة.

في أفضل الحالات نجد كلمات مثل الأمومي لوصف ما هو عكس الأبوي، ولكن حتى هذه الكلمات تعزز النظرة السائدة للحقيقة وللطبيعة الإنسانية عبر وصف جانبي العملة الواحدة. كذلك فإن كلمة أبوي من خلال ما توحيه للذهن من صور متناقضة ومشحونة بالمشاعر عن آباء مستبدين وعن رجال كبار حكماء، لا تعطي الوصف الدقيق للنظام السائد حالياً.

أما التشاركية والهيمنة فهما كلمتان تستخدمان لوصف مبدأين متعارضين في التنظيم كنا نحاول تفحصهما. ولكن رغم وجود خلافات أساسية بينهما، إلا أنهما لا يشرحان بشكل خاص نقطة أساسية واحدة هي أن هناك طريقتين متعارضتين في بناء العلاقات بين نصفي الإنسانية من الذكور والإناث، والتي تؤثر بشكل عميق على المجموع الكلي للنظام الاجتماعي.

نحن الآن عند نقطة نحتاج فيها من أجل توضيح الاتصال والاقتصاد في التعامل به إلى كلمات أكثر دقة من تلك التي تقدمها لنا المفردات التقليدية،

وذلك لكي نستطيع الاستمرار في اكتشاف كيف أثّرت هاتان الطريقتان البديلتان على تطورنا الحضاري والاجتماعي والتقني. كذلك نحن على وشك أن نأخذ نظرة عن قرب إلى حضارة الإغريق القدماء والتي تميزت بأول تعبير دقيق للتفكير العلمي. وهنا اقترح استخدام كلمتين جديدتين يمكن أن تشكلا ضمن سياقات معينة بديلين لكلمتي مهيمن وتشاركي ولكنهما مأخوذتان من الحضارة الإغريقية السابقة.

من أجل كلمة أدق من كلمة أبوية patriarchy في وصف نظام اجتماعي يحكم بالقوة أو بالتهديد من قِبَل الرجال، اقترح كلمة andocracy أو حكم الرجال وكلمة andros مأخوذة من أصول إغريقية وتعني رجالاً، أما kratos كما في تتمة الكلمة cracy فتعني حكماً.

ومن أجل وصف بديل حقيقي لنظام يقوم على ترتيب الإنسانية بشكل يعلو نصفها عن النصف الآخر أقترح استخدام مفردة جديدة هي gylany و gy مشتقة من أصل إغريقي لكلمة gyne وتعني امرأة أما an فهي مشتقة من كلمة andros وتعني رجلاً ويبقى الحرف L بينهما وهو حرف يحمل معنيين. فهو بالإنجليزية يعني الوصل بين النصفين وليس تصنيفهما كل في منزلة. وهو بالإغريقية مشتق من الفعل Lyein أو Lyo وهو فعل يحمل أيضاً معنيين هما يحل أو يحلل كما في تحليل Analysis ويفكك أو يحرر كما في Catalysis . بهذا المعنى يقف الحرف L ليعني حل المشاكل عبر تفكيك نصفي البشرية من التصلب الذي شوّه أدوارها وسفهها والذي فرضته الهرميات المهيمنة المتأصلة في أنظمة حكم الرجال.

ويقودنا هذا إلى تمييز أساسي بين نوعين مختلفين من الهرميات لم يستخدما سابقاً ضمن التقليد المتبع. واستخدام كلمة هرمية هنا أو Hierarchy يشير إلى أنظمة تصنف الإنسان في مراتب معتمدة على القوة أو على التهديد بالقوة.

وهذه الهرميات المهيمنة تختلف تماماً عن النوع الثاني من الهرميات، والذي سوف أقترح تسميته هرمية تحقيق الأمر الواقع أو هرمية تجانس الواقع وهي هرمية مألوفة جداً في الأنظمة وفي داخل هذه الأنظمة. ونضرب هنا أمثالاً مثل الجزيئات والخلايا وأعضاء الجسد التي تتقدم نحو درجة وظيفية أرقى وأكثر تطوراً وتعقيداً. على النقيض من ذلك نرى حولنا الهرميات المهيمنة تقوم بكبح تحقيق الأمر الواقع بالنسبة للوظائف الأعلى، ليس فقط ضمن النظام الاجتماعي الشامل ولكن في داخل الفرد الإنساني نفسه. وهذا هو السبب الرئيسي الذي يجعل من النموذج الذي يحرر الرجل والمرأة أو gylany نظاماً اجتماعياً منفتحاً على احتمالات تطور مستقبلية أعظم بكثير من النظام الذي يعتمد على حكم الرجال.

إرثنا المخفي

يبدو مناسباً على وجه الخصوص استخدام مفردات مشتقة من الإغريقية لوصف كيفية تأثير هذين النموذجين الاجتماعيين المتناقضين على تطورنا الحضاري. فالصراع بين نظام حكم الرجال ونظام الوصل بين الرجال والنساء كطريقتين مختلفتين للعيش على الأرض وكتقدم تطوري عبر تأثيرات نظام الوصل، يصبح جلياً بشكل كبير إذا ألقينا نظرة حديثة على بلاد الإغريق القديمة من منظور نظرية التغير الحضاري.

معظم المساقات التي تدرَّس عن الحضارة الغربية تبدأ بقراءات من هوميروس ومختارات من الفلاسفة الإغريق مثل فيثاغوروس وسقراط وأفلاطون وأرسطو، وأعمال للمؤرخين التقليديين المعاصرين تمجد عصر بيريكلس الذهبي في اليونان. وقد تعلمنا أن التاريخ الأوروبي يبدأ مع التسجيلات الأولى المعروفة للحضارة الآرية أو الهندية الأوروبية (هوميروس وهيزيود)، كما تعلمنا أننا مدينون بالعديد من أفكارنا الحديثة حول العدالة والديمقراطية إلى الحضارة المتميزة لبلاد الإغريق.

وقد نجد بين الحين والآخر عبر تصفح بعض الكتابات المكملة أن فيثاغوروس قد تعلم الأخلاقيات على يد ثيميستوكليا وهي كاهنة من دلفي أو أن ديوتيما وهي كاهنة أخرى من مانتينيا قد علّمت سقراط[2]. كذلك قد نصادف خلال قراءاتنا معلومات مثيرة للفضول تقول بأن الزعماء من معظم أنحاء العالم اليوناني كانوا يسافرون إلى دلفي حيث كانت توجد كاهنة تدعى بيثونيس، من أجل تلقي النصح والإرشاد على يديها حول أهم المسائل الاجتماعية والسياسية في زمانهم. ولكن في معظم الأحيان لا نجد أي ذكر للنساء فيما نقرأ، كما لا يوجد أي ذكر لكريت.

ونخرج من هذا بانطباع بأنه لم تكن هناك حضارة مبكرة لأوروبا قبل وصول الفاتحين من الهنود الأوروبيين وأن أوروبا كانت تقطنها شعوب متوحشة لا تملك حضارة من أي نوع. كما يقودنا هذا إلى الاعتقاد بأنه عندما ازدهرت أول حضارة أوروبية في اليونان، لم يكن للنساء على العموم أية حقوق مدنية أو سياسية ولم يكنَّ يحظين بأي مراتب في السلطة.

إلا أننا نجد في ملحمة هوميروس «الأوديسا» أن معظم الوجوه الحاضرة بقوة كانت وجوه نسائية. وعندما تبدأ الحركة، نجد أن أوديسيوس محتجز لدى حورية تدعى كاليبسو وتحكم جزيرة أوغيغيا. وعندما يتحرر أوديسيوس ويغادر أوغيغيا أخيراً إثر تدخل الإلهة أثينا، تواجهه عاصفة قوية ويتم إنقاذه من الغرق بواسطة خمار تقدمه له الإلهة إينو وهذا الخمار يساعده على العوم إلى أن يصل إلى أرض الفاسيين حيث تعثر عليه الأميرة نوسيكا.

في البلاط الفاسي الرائع الذي يعتبره العديد من العلماء صورة دقيقة عن القصور الملكية المايسينية، كانت والدة نوسيكا، الملكة آريت تكرَّم من قِبَل الملك كما لم تكرَّم امرأة من قبل وتُعبد من جميع أفراد الشعب الذين ينظرون إليها على أنها إلهة عندما تنزل إلى المدينة[3]. وبعد مغادرة أوديسيوس لفاسيا، تواجهه

فرق مدهشة من الوجوه النسائية مثل شيلا الغرغونة الرهيبة (ذات الرأس المغطى بالأفاعي) وثم شاريبدس وسايرنس المغرية وملكة السحر القوية سيرس.

وحتى لدى عودته إلى موطنه نتعرف على زوجته بينيلوبي كامرأة قوية العزيمة وصلبة تقاوم العديد ممن تقدموا للزواج بها من أجل السيطرة على إيثاكا مما يوحي بشدة أنه وحتى بعد الغزوات الآخية لليونان كان توارث الحكم من خلال النساء ما يزال هو العُرف السائد وهو المتطلب المسبق لأي ادعاء بحق الحكم[4].

وقد رأينا للتو كيف أن إشارات هيزيود إلى العصر الذهبي الذي كان الناس يعيشون فيه بأمن وسلام وكانت الأرض تجود بثمارها، هي ذكريات للشعوب الزراعية التي عاشت بسلام ومساواة خلال العصر الحجري الحديث، والذين حتى في عصر هيزيود كانوا ما زالوا يُذكرون فقط في الأساطير. ولعل حقيقة ورود اسم كايوس (وتعني بالعربية فوضى) في ميوثولوجيا هيزيود، وهو شخصية ذكورية ينسب إليها خلق العالم، تؤكد ما تعلمناه اليوم من سجلات الآثار وهو أن حكم الهنود الأوروبيين قد فُرض عبر فوضى عارمة من الدمار المادي ومن التدمير الحضاري.

ومثله مثل هوميروس، كانت أعمال هيزيود مليئة بذكريات قديمة عن مجتمع الوصل بين النساء والرجال والميثولوجيا المتعلقة به. على سبيل المثال، كان ما يزال يرد ذكر الأرض ذات الحضن الواسع، والتي مثلها مثل الإلهات القديمات، ولّدت السماء والجبال الشاهقة والمساكن السعيدة للإلهات الحوريات. وكذلك كان ما يزال ذكر القوة الأنثوية التي استطاعت، وكما ورد في الدين القديم، دون أن تتحد بالحب، أن تحمل البحر[5].

في ذلك الحين كان العالم الذي يعيش فيه هيزيود حربياً، هرمياً ومهيمناً عليه من الرجال ولكنه كان ما يزال عالماً لم ينسى بعد عصر التشاركية القديم ولا القيم التي رافقت ذلك العصر. بالنسبة لهيزيود، لم تكن الحرب شيئاً متأصلاً

في الطبيعة الإنسانية وهو أمر أكّده الفيلسوف اليوناني هيراكليتوس لاحقاً[6]. ويذكر هيزيود بوضوح أن الحرب وإله الحرب آريس قد أحضرا إلى اليونان من قِبَل عرق أدنى من الرجال وهم الأخيون الذين غزوا اليونان بأسلحتهم البرونزية والذين اتُّبعوا فيما بعد برجال يكرههم هيزيود أشد الكره وهم الدوريون، وقد عاث هؤلاء فساداً في اليونان بأسلحتهم المصنوعة من الحديد.

يستطيع المرء أن يقول بأنه إذا كان فرويد ويانغ على حق وأن هناك شيئاً يسمى ذاكرة عرقية منقولة عبر الجينات، فإن هذا ما حثّ هيزيود على الكتابة عن ماضٍ مفقود أفضل وأكثر إشراقاً. ولكن التفسير الأرجح هو ببساطة أن هيزيود كان ما يزال تحت تأثير القصص التي وصلت إليه عبر الأجيال حول كيفية تفسير الأمور في تلك الأزمنة السابقة.

«من الملهم ما نراه بوضوح في القول التالي لهيزيود: ليس مني ولكن من أمي، تأتيني قصة كيف كانت الأرض والسماء شكلاً واحداً في زمن ما»[7]. إن مثل هذا الكلام لا يبين فقط أن عمله مبني على قصص توارثها من جيل لجيل بل يشير أيضاً إلى أن أمه وهي امرأة كانت ما تزال تجد بعض العزاء والسلوان في هذا العالم الذي يهيمن عليه الذكور عبر ذكريات متلاشية عن زمن سابق أقل ظلماً من الزمن الذي تعيش فيه.

جاءت كتابات هيزيود مع بداية ما يطلق عليه المؤرخون اسم العصور الإغريقية المظلمة. وقد انتهت هذه الفترة مع انبثاق بلاد اليونان التقليدية بعد خمسمائة عام من غزوات الدوريين التي أغرقت أوروبا في الفوضى. ولكن من الواضح، كما يشير علماء مثل نيكولاس بلاتون وجاكيتا هوكس وجي. في. لوس وغيرهم، أن الحضارة الإغريقية لم تخرج كاملة النمو من رماد الدمار الذي أحدثه الدوريون في أوروبا مثلما خرجت أثينا من رأس زوس. كما أن هؤلاء الغزاة البرابرة لم يجلبوا معهم بذور هذه الحضارة وليس من المرجح كما يؤكد

البعض أحياناً، أن الحضارة اليونانية جاءت بشكل رئيسي نتيجة تسربات أو افتراضات ثقافية من حضارات أكثر قدماً وأكثر تقدماً في الشرق الأوسط عبر التجارة وعبر اتصالات أخرى.

ما هو الأكثر ترجيحاً والأكثر تلاؤماً مع المعلومات المستقاة من الحفريات الأثرية هو أن شيئاً آخر حدث. لم يستطع الغزاة الأخيون الذين حكموا في عهد المايسينيين، كما لم يتمكن أسياد الدوريين الذين حلوا مكانهم، أن يتقدموا إلى الأمام إلا بعد أن تمكنوا من استيعاب معظم الإنجازات المادية والروحية المختزنة في حضارة الشعوب التي هزموها.

حاول لوس أن يعيد تركيب هذه العملية فكتب يقول: مثل شجرة زيتون التهمتها النار مرت الحضارة المنيونية في سبات لزمن معين ثم بدأت تطلق فروعاً جديداً في ظل المدن المايسينية. فقد تزوجت الأميرات المنيونيات «بنات أطلس» في بيوت الأسياد المايسينيين، وقام المهندسون المنيونيون بتصميم القصور على أرض اليونان الأم، وأكمل الرسامون المنيونيون تزيين هذه القصور وزخرفتها بالتصاوير الجصّية كما أصبحت اللغة اليونانية لغة تكتب لأول مرة على يد الكُتّاب المنيونيون[8].

بعد ذلك، جاءت الغزوة البربرية التالية، ورغم تغير الشكل، عادت الفروع المنيونية لتنطلق مرة أخرى، ولعله ليس من قبيل الصدفة كما يقول لوس أن تتميز كريت الدورانية (نسبة إلى الدوريين الذين احتلوها) في هذه الفترة المعتمة بإبداعها في القوانين والمؤسسات فلم يكن باستطاعة أحد أن يقتلع ذلك المخزون الذي استمر ينمو في تلك البلاد لقرون طويلة. فقد أعيدت زراعة اليونان بمطعوم من المخزون نفسه وتجذر هذا المطعوم ليعود ويزدهر مرة أخرى[9].

وهكذا نرى أنه وحتى بعد التدمير الذي أحدثه الدوريون، يقول لوس، لم يضع كل شيء[10]. من المؤكد أن الكثير قد غرق في غياهب النسيان بحيث تحولت ذكرى الحضارة المنيونية إلى أساطير، كذلك تغير الكثير إذ أصبحت الإلهات العظيمات مثل هيرا وأثينا وأفروديت تابعات لزوس في هياكل العبادة اليونانية، ولكن رغم ذلك بقيت هناك عناصر مهمة في الحضارة اليونانية تلائم المجتمع التشاركي أكثر مما تلائم مجتمع الهيمنة. أو دعونا نستخدم عبارات أكثر دقة، المجتمع الذي يصل النساء والرجال والمجتمع الذي يهيمن عليه حكم الرجال.

الوحدة الدورية للطبيعة والانسجام بين الدورات

كان ظهور ما يسمى بفلاسفة وعلماء ما قبل مرحلة سقراط أحد أول ظواهر الحضارة الإغريقية. وكان قد أشير بأن نظرة هؤلاء العلماء إلى العالم، وهي نظرة سبقت أفكار العديد من الناس الذين ما زالوا يعتبرونها حتى اليوم صاعقة ومثيرة للجدل، شكلت أول المقاربات العلمانية والعلمية نحو الحقيقة[11]. لأنها، ولأول مرة في التاريخ المسجّل، لم تعد تصف المعرفة بكونها عملاً موحى إلهياً عبر الأساطير المقدسة والطقوس الدينية، بل إن المعرفة تأتي نتيجة تجارب ثبتت حقيقتها أم بطلانها. على سبيل المثال نجد في كتابات هوميروس أن قوس القزح منوط بعمل الإلهة إيريس، بينما هو في أناكسيمينيس نتيجة سقوط أشعة الشمس على هواء رطب وكثيف[12].

من هذه الناحية، مثلّت أفكار الفلاسفة الذين سبقوا مجيء سقراط، ومنهم كسينوفانس وثاليس وديوجينس وفيثاغوروس تغيراً حاداً في النظرة إلى العالم بعيداً عن النظرة الدينية السابقة. ولكن المدهش في الأمر هنا أن الفرضيات الأساسية التي وضعها هؤلاء الرجال، تلاءمت بطرق عديدة مع النظرة التشاركية للعالم أكثر بكثير من النظرة التي جاءت لاحقاً والتي مثلت مجتمع حكم الرجال.

على سبيل المثال، يقال إن كسينوفانس كان المصدر الأول لما أطلق عليه المؤرخ الفلسفي إدوارد هاسي فيما بعد الفكرة الجذرية المتعلقة بالتوحيد في العبادة (أي الإيمان بإله واحد) وهي فكرة كانت غريبة جداً عن ديانة المجتمع الإغريقي التقليدي[13]. ويشير هيسي إلى أن فكرة كسينوفانس المنادية بأن الكون محكوم بعقل شامل لا متناهٍ تتناقض تناقضاً حاداً مع النظرة التي عبّرت عنها المعابد الأولمبية الرسمية التي كانت تؤمن بتعددية إلهية مسلحة ولا يمكن التكهن بها تماماً على شكل آلاف الزعماء والملوك التافهين الذين جاءوا واكتسحوا العالم القديم. كما أنها آلهة تمارس سلطاتها بشكل اعتباطي ونزوي على حياة أتباعها[14] من البشر وعلى إيقاعات الطبيعة. ولكن في ضوء ما نعرفه اليوم عن عصر ما قبل التاريخ، يمكن القول بسهولة إن هذه النظرة للكون التي تبناها نظام الهيمنة هي التي اعتبرت جديدة وثورية وليس كما يذكر هاسي النظرة التي كانت في أساس التطورات السياسية والاجتماعية التي رافقت القرن السادس في اليونان[15].

يمكن القول أيضاً إنه لم يكن من باب الصدفة أنه مع بداية عودة انطلاقة الحضارة إثر الهجمات التي قام بها الدوريون، كان لابد من الرؤيا القديمة لنظام كوني متماسك ودوري ممثلة بالإلهة العظمى أو الأم المعطاءة للجميع، أن تعاود الظهور ولو بشكل مختلف. كذلك لم يكن من باب الصدفة أن يحدث هذا في الأماكن التي حدث فيها مثل المدن التي كانت تشكل جزءاً من الأناضول في زمن ازدهار كاتال هويوك، وفي الجزر القريبة من حضارة كريت المنيونية التي ازدهرت هناك يوماً ما والتي حافظت على جميع المظاهر المتعلقة بالإلهة العظمى الخالقة والأم والسيدة حتى استيلاء الدوريين عليها[16].

لقد لاحظنا سابقاً كيف أن عبادة الإلهة كانت موحَّدُة ومتعددة في الوقت نفسه. فقد كانت الإلهة تُعبد بأشكال متعددة، ولكن هذه الأشكال كانت تمتلك صفات مشتركة أهمها أن هذه الإلهة الأم التي تعطي كل شيء كان ينظر إليها في

كل مكان على أنها مصدر الطبيعة والحياة[17]. لذلك نجد في هذا الخصوص أن الفكرة التي سبقت مجيء سقراط حول وجود نظام عالمي منظم ومتماسك هي أقرب كثيراً إلى التصور القديم للإلهة كقوة فوق الإنسانية شاملة ومعطاءة لكل شيء من الفكرة التي تمثلها العبادات الأولمبية اللاحقة والتي تقول بوجود آلهة تحكم العالم وتحمل صفات المشاكسة والمعارضة ولا يمكن التنبؤ بتصرفاتها.

كذلك تبدو نظرة فيثاغوروس إلى الكون ككيان واسع يعيش في انسجام موسيقي مثل انسجام الدوائر الشهير، أكثر تلاؤماً مع النظرة الدينية الكونية القديمة منها مع العبادة الأولمبية التي تمزقها النزاعات. في النظرة الكونية التي سبقت مجيء سقراط، نجد بدلاً من الإلهة قوى أكثر موضوعية، مع الإشارة أحياناً إلى وجود ألوهية ذكورية تضم كل شيء ولكنها لم تزل بعيدة كل البُعد عن النظرة الفوضوية والعشوائية للكون التي ميزت بعض مفكري مجتمع الهيمنة.

أحد المبادئ التي تحكم نظرة عصر ما قبل سقراط إلى الكون هو أن نظام الكون يسير بانتظام ملحوظ، وأن التغييرات الرئيسية فيه تكرر نفسها ضمن حلقات يومية وسنوية[18]. وهذه النظرة تذكرنا بما يمكننا تسميته الدين القديم الذي يعتبر دورات الطبيعة والمرأة مواضيع متكررة. يقول أرسطوطاليس في معرض حديثه عن ثاليس أنه يعتبره (أي ثاليس) رائد الفلسفة الطبيعية، ويضيف أنه كان يؤمن بأن الماء هو أصل كل الأشياء. مرة أخرى تذكرنا هذه النظرة بالفكرة القديمة عن الإلهة وعن الأرض التي انبثقت أصلاً من مياه بدائية[19]. وكذلك الأمر فإن التصور الجدلي حول استخدام نظرية توازن الأضداد كمبدأ أساسي لكل من التغيير والاستقرار، كان قد وجد تعبيراً له في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد من قِبَل فلاسفة مثل أناكسيماندر، وزينو وإيمبيدوكليس[20] ولكن ما نراه الآن هو أن هذا التصور كان قد ظهر في زمن أبكر، هو عصر التصور الكوني لعبادة الإلهة.

ونجد في الفخاريات المزخرفة لحضارة كوكوتيني الأوروبية التي تعود إلى أواسط الألفية الرابعة قبل الميلاد أن التعارض والتضاد بين كل زوج من الأشياء هو موضوع يتكرر كثيراً[21]. فتحركات الطبيعة وإعادة إحيائها بشكل دوري عبر التضاد بين الحياة والموت كانت هي المواضيع الرئيسية للميثولوجيا الدينية القديمة. فقد كانت الإلهة تجسد ازدواجية الحياة والموت وكانت المبادئ المتناقضة بين الأمومة والعذرية مدمجة لدى الإلهة[22]. وكذلك كانت مواضيع أخرى مثل الذكورية والأنوثة مدمجة أيضاً في بواكير الصور الخنثوية ولاحقاً في طقوس الزواج المقدس. وفي الحقيقة كان موت وحياة البشرية أجمعها، إضافة إلى الطبيعة يشكل في الميثولوجيا الدينية القديمة مظاهر عن وضع شيء بجانب شيء آخر ووحدة جوهرية بين القوى الخالقة والقوى التدميرية للآلهة. وقد لخص إيريك نيومان هذه الشخصية التحولية الشاملة للإلهة القديمة في عبارة أطلق عليها اسم إلهة التناقضات[23].

وبسبب وجود تشابهات بين الأفكار في حضارات مصر وبلاد ما بين النهرين وغيرها من حضارات الشرق الأوسط، حاول بعض العلماء تفسير أفكار المرحلة التي سبقت مجيء سقراط بأنها اقتباس من تلك الحضارات القديمة والأكثر تقدماً والتي كانت في ذلك الحين قد تحولت بمعظمها إلى مجتمعات الهيمنة. لقد شكّل التسرب الحضاري وبلا شك عاملاً في تطور النظرة إلى الكون في مرحلة ما قبل سقراط، ولكن العامل الأكثر أهمية، سواء استمر قمعه أو تجاهله حتى اليوم، بدا وكأنه تأثير التقاليد والأساطير المحلية.

وقد بدا وكأن التطورات المحلية، على وجه الخصوص قد أدت إلى تخفيف تدريجي لسطوة نظام حكم الرجال، فقد شهدت فترات السلم بين مختلف المناطق الإغريقية والفترات التي هدأت فيها الغزوات الخارجية انبعاث الفنون والحِرَف، إضافة إلى تحرك نحو استبدال الزعماء والملوك الأقوياء بحكومات ديمقراطية منتخبة من الفئات الأرستقراطية والملاّكين.

لذلك لم يكن من المفاجئ حسب قول هاسي، أن تعكس أفكار الفلاسفة الإغريق انتشار المساواة السياسية، والعمل لترسيخها، إضافة إلى عودة ظهور القانون كشيء مؤكد، ثابت وغير منحاز[24]. ومن المؤكد أن فكرة فيثاغوروس حول المساواة الهندسية[25] بين عناصر الكون وبين البشر لا تتماشى مع حكم الرجال الأقوياء في النظام الجديد رغم أنه في حقيقة الأمر تبدو تسويات فيثاغوروس وكأنها محكومة من نظام القلة المنتخبة على الخط نفسه الذي سارت عليه أفكار أفلاطون فيما بعد حول الملوك الفلاسفة[26].

ومن المهم في هذا الصدد أننا نعلم من حديث أريستوكسينوس أن فيثاغوروس كان قد تلقى معظم علومه الأخلاقية على يد امرأة تدعى ثيمستوكليا، وهي كاهنة من دلفي. ويقال أيضاً إن فيثاغوروس أدخل التصوف في الفلسفة الإغريقية وإنه كان يميل إلى مناصرة المرأة[27]. وضمن الإصلاحات التي أدخلها إلى الدين الأورفيوسي الغامض، بدا فيثاغوروس وكأنه يشدد على عبادة مبدأ أنثوي[28]. ويخبرنا ديوجينيس أن النساء كن يدرسن في مدرسة فيثاغوروس إلى جانب الرجال تماماً مثلما فعلن لاحقاً في أكاديمية أفلاطون[29].

من المهم أيضاً ملاحظة أن معظم الفلسفة الأفلاطونية، كما تذكر المؤرخة الكلاسيكية جين هاريسون، تقوم على قاعدة تأثيرات فيثاغوروس وعلى رموز أورفيوسية تحافظ على عناصر سبقت ديانات وأخلاقيات مجتمع حكم الرجال[30]. وتبدو تصورات أفلاطون حول نظام عالمي منسجم، منظم ومثالي يقبع خلف الكهف المظلم لتصورات الإنسانية وكأنها قادمة من التقاليد نفسها. ومن المؤكد أن فكرة مناصرة أفلاطون لمساواة النساء في التعليم في جمهوريته الفاضلة، لا يمكن اعتبارها فكرة تتماشى مع تفكير الهيمنة الذي ينادي قبل كل شيء بقمع النساء[31].

اليونان القديمة

يبدو واضحاً لنا ونحن ننظر إلى اليونان القديمة أن الكثير مما كان جميلاً في تلك الحضارة المدهشة، مثل عشق الفن والاهتمام بالطبيعة والتعابير الأسطورية الغنية والمتنوعة برموزها الأنثوية والذكورية، إضافة إلى محاولة ترسيخ شكل متكافئ للتنظيم السياسي أطلق عليه اليونانيون اسم ديمقراطية، يمكن إرجاعه إلى عهود سابقة. في الوقت نفسه، ليس من الصعب اليوم أن نجد المصدر الذي كان أقل تقدماً من الناحية الحضارية بالنسبة لليونانيين. فحقيقة أن الديمقراطية اليونانية استثنت معظم أبناء الشعب ولم تتح للنساء أو للعبيد المشاركة في الانتخاب، شكلت نوعاً من البيئة الفوقية التي فرضها حكم الرجال على النظام الأكثر سلاماً وتكافؤاً والذي كان موجوداً في السابق. كذلك كان انشغال الطبقة اليونانية الحاكمة بالحروب، وإسباغ الصفات المثالية على الشجاعة والقتال بالسلاح عند الذكور إضافة إلى التدهور الكبير الذي حلّ بمنزلة المرأة.

يمكننا أن نرى بوضوح النزاع والتفاعل بين عناصر التشاركية والهيمنة لليونان التقليدية في أثينا الإلهة التي كانت تعكس تقاليد الاتجاه التشاركي القديم للتطور الحضاري في كونها إلهة الحكمة التي ترفع علامة الأفعى شعاراً لها، ولكنها في الوقت نفسه تعكس تقاليد اتجاه الهيمنة كونها الإلهة الجديدة للحرب بخوذتها ورمحها وكأسها المقدسة التي تحولت هنا إلى درع. كذلك نرى هذين العنصرين أيضاً في جمهورية أفلاطون بتناقضاتها حول الدولة الهرمية والمتكافئة إنسانياً في الوقت نفسه.

فمن ناحية، نجد أفلاطون يناصر وجود مجتمع من ثلاث طبقات يربطه ما يطلق عليه هو من باب السخرية «كذبة نبيلة» وهي القصة التي تقول إن الطبقة الحاكمة أو الأوصياء، قد صُنعوا من ذهب أما المحاربون فقد صُنعوا من الفضة ويبقى الفلاحون والطبقة العاملة وهؤلاء مصنوعون من معادن أساسية. ومن

ناحية أخرى نجد أن طبقة الأوصياء هي طبقة يتساوى فيها الجميع ضمن نظام شيوعي صارم محكوم في ممارسة نفوذه على مبادئ المساواة التي تتماشى أكثر مع المبادئ التي ترمز إليها الكأس المقدسة منها مع مبادئ نصل السكين. وعلى الرغم من أن أفلاطون لا يمكن أن يعد مناصراً للمرأة حتى ولو شطح بنا الخيال، في تناقض حاد بينه وبين الإلهة أثينا، إلا أنه في كتابه «الجمهورية» يؤيد منح نساء الطبقة الحاكمة التعليم نفسه الذي يتلقاه الرجال.

والأكثر وضوحاً ما نراه في وضع التشاركية إلى جانب الهيمنة في الفن الإغريقي. فالحب القديم للطبيعة والحياة يجد تعبيره في التصوير والنحت المتقن لأجساد الرجال والنساء، إضافة إلى التعبير عن النزاعات المسلحة والقتال.

كذلك، نرى أدلة أخرى على وجود هاتين الحضارتين المتنازعتين في الديانة الإغريقية. ونجد شهادة على الجذور المبكرة للديانة اليونانية في نظرتها إلى الكون وهي نظرة لا تُقمع فيها القيم الأنثوية ولا النساء، في حقيقة استمرار عبادة الإلهات وبقاء المعابد النسائية المحلية وسط الهياكل العبادية الأولومبية. رسمياً يعتبر زوس هو الإله الأعلى ولكن الإلهات ما زلن أقوياء وأحياناً أقوى من الآلهة الذكور. ونلمس بوضوح وجود هذه الجذور الحضارية نفسها في الطقوس السرية الإيليوسينية التي كانت تقام كل عام في بلدة إيليوسيس التي تبعد عدة أميال عن أثينا. هنا كانت الإلهة بشكليها التوأمين ديميتر وكوري ما تزال تكشف أرفع الحقائق الروحية لاتباعها المتدينين وما زلنا حتى اليوم نرى فيما حفظ لنا من آثار ختماً ذهبياً بوتيانياً ورسماً لإناء زهور من ثيبيس، تظهر فيه الكأس المقدسة كصورة مركزية تمثل الأداة الأنثوية وسط تلك الطقوس[32].

مرة أخرى، نجد هذين العنصرين بشكليهما المتعارض في المجتمع الإغريقي في وضع المرأة الأثينية التي على الرغم من القيود القانونية والاجتماعية الهائلة التي تحد من حركتها، كان وضعها أفضل بكثير من وضع النساء في ممالك الشرق

الأوسط. وبسبب كون المرأة أقل تعرضاً للقمع في المجتمع الأثيني، ظهرت هناك مؤشرات على وجود شيء قريب من الحركة النسائية في أثينا.

صحيح أن النساء مثلهن مثل العبيد من الجنسين كن مستثنيات من الديمقراطية الأثينية الشهيرة، ولكن من المؤكد كما تشير القصة التي وصلت إلينا عبر أغسطين حول كيفية فقدان نساء أثينا لحقوقهن في التصويت في الوقت نفسه الذي حصلت فيه نقلة من النظام النسائي إلى النظام الأبوي، أن فرض حكم الرجال على أثينا شكّل علامة على نهاية الديمقراطية الحقيقية[33]. ففي تلك الأزمنة التقليدية، كان على معظم نساء الطبقة الراقية أن يعشن حظراً فاسداً غير صحي ضمن أمكنة مخصصة للنساء. ومع ذلك توجد أدلة في أثينا نفسها التي كانت فيها النساء يعشن أسوأ وضع بين المدن الإغريقية الأخرى حسب قول المؤرخة الثقافية جاكيتا هوكس، بأن بعض النسوة لعبن أدواراً هامة في الحياة الثقافية والعامة[34]. ومنهن على سبيل المثال أسباسيا، رفيقة بيريكليس التي عملت كعالمة وكسيدة في الدولة تدعم تعليم ربّات البيوت الأثينيات وتساعد على تربية مؤرخين للحضارة المدنية الشهيرة التي يطلق عليها بيريكليس اسم «العصر الذهبي»[35].

ورغم أن معظم التعليم كان مقتصراً على الرجال في أثينا، كما لاحظنا سابقاً، إلا أن بعض النسوة كن يدرسن في أكاديمية أفلاطون. وهذا يشكل دليلاً على النزعة التشاركية بين النساء والرجال في الحضارة اليونانية، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن النساء في الولايات المتحدة لم يتمكنّ من تحصيل التعليم العالي حتى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

كذلك توجد أدلة على وجود أعمال وكتب نسائية في مختلف فترات التاريخ الإغريقي في المكتبات «الوثنية» التي تعرضت للتدمير فيما بعد على يد المتشددين من المسيحيين المسلمين والمسيحيين. فقد ذكرت على سبيل المثال امرأة

يونانية كانت قد درست في مدرسة فيثاغوروس عن الفيلسوف أريغنوت، وأصدرت كتاباً بعنوان: «الحديث المقدس» كما ألّفت كتاباً آخر أسمته «طقوس ديونيسوس»[36]. وهناك تكهنات بأن الأوديسا قد تكون كُتبت على يد امرأة كما توجد أدلة على أن بعض النسوة ترأسن مدارس فلسفية تابعة لهن. كانت إحداها مدرسة آريت في سيرين التي ظلّت تركز جلّ اهتمامها على علوم الطبيعة والأخلاقيات وعلى عالم لا يوجد فيه أسياد ولا عبيد[37]. كما عُرف عن امرأة تدعى تيليسيلا من آرغوس أنها كانت تقدم معزوفات وأغاني سياسية، وكذلك كورينا من بيوتيا وهي معلمة بيندار التي تقول عنها المؤرخة النسائية إليس بولدنغ إنها فازت خمس مرات في منافسة شعرية ضد بيندار، كما كانت هناك إيرينا التي سواها الأقدمون بهوميروس.

من بين القطع القليلة التي بقيت من أعماله، نعلم أن الشاعر الإغريقي سافا أو سافو من ليسبوس والذي كان يدير مدرسة للنساء، قد كتب شعراً جميلاً يمجّد الحب بدلاً من تمجيد الحرب كما هو معروف عن الشعر اليوناني جاء فيه: «البعض يقولون إن الخيالة وآخرين يدّعون أن المشاة أو الأساطيل ذات المجاذيف الطويلة هي المنظر الأجمل على هذه الأرض السوداء ولكن أقول لهم إن الأجمل هو الإنسان الذي نحبه»[38].

بالنسبة لبعض النساء الإغريقيات، كانت مهنة هيتيرا تقدم لهن بديلاً استقلالياً وأكثر احتراماً من دور ربّة البيت التابعة دائماً. ورغم أن مهنة هيتيرا كانت تعادل خطأ مع مهنة الدعارة، إلا أن هذه النظرة لم تكن نظرة الإغريق القدماء. فقد كانت النساء اللواتي يعملن في هذه المهنة يعتبرن محظيات في البلاط، وقد امتلكن نفوذاً سياسياً هاماً في أوروبا القرنين السابع والثامن عشر. فقد كن مضيفات ومرافقات بارعات وعلى درجات مختلفة من الثقافة والتعليم. ولكن الأمر الأكثر أهمية هو وجود سجلات تشير إلى بروز معلمات

وشخصيات عامة قيادية من بين نساء الهيتيرا. وتذكر بولدنغ أن نسوة الهيتيرا القادمات من دولتي - مدينتي أيونيا وأتوليا كن يعتبرن الأكثر ذكاءً ويُعتقد بأن اثنتين من تلميذات أفلاطون، هما لاثينيا من مانتوا وأكسيوثيا[39] إضافة إلى أسباسيا التي قدمت إسهامات كبيرة في الثقافة الأثينية، كن من نسوة الهيتيرا.

ولعل الدليل الأكثر بروزاً الذي يؤشر إلى استعادة التنظيم الاجتماعي التشاركي في الحضارة اليونانية هو ظهور شيء قريب من كونه حركة لتحرير النساء. وهذا الأمر مسجل على شكل سخريات لاذعة وحاقدة على النساء صدرت من قِبَل رجال مثل أريستوفانس وكراتينوس، وتتحدث هذه القصص الساخرة عن نسوة يعقدن لقاءات ضمن مجموعات ويتحدثن عن رغبتهن بأن يصبحن مثل الرجال[40]. من المرجح أن النسوة اللواتي كن يلتقين بانتظام وتكرار في الاحتفالات والتجمعات الدينية، احتفظن بحس قوي لهويتهن الأنثوية، لذلك نجد حالات عديدة في تلك الفترة لنسوة إغريقيات امتلكن مصدراً للسلطة والنفوذ، وهو شيء افتقرت إليه النساء في الحضارات الغربية التي تم فيها التخلي عن الإلهات أو تم محوهن تماماً عن الوجود.

وعلى المستوى نفسه من الأهمية، تبرز مؤشرات على ظهور تحركات ضد الحرب من قِبَل النساء في اليونان القديمة. فقد سجّلت تحركات أشبه بالتحركات من أجل السلام التي يقوم بها ناشطو السلام المعاصرون، لعل أبرزها ما ظهر في المسرحيات اليونانية القديمة التي بقيت إلى عهدنا مثل مسرحية ليسيستراتا الشهيرة لأريستوفانس والتي تهدد فيها النساء بالإحجام عن تقديم أية خدمات جنسية إذا لم يتوقف الرجال عن خوض الحروب. ولعل في تحويل هذا الموضوع إلى مسرحية كاملة من قِبَل كاتب ساخر معروف، مؤشر على القوة المحتملة لهذه الحركة وعلى استراتيجية تشكل نموذجاً متبعاً في مجتمعاتنا المعاصرة التي يهيمن عليها الذكور، أي المحافظة على السيطرة الذكورية من خلال تسفيه وإذلال النساء والسخرية منهن.

كانت هذه الوسيلة التسفيهية إضافة إلى الوسيلة الأكثر شيوعاً وهي عدم إدخال أي معلومات حول النساء، تشكلان ميزة عامة في التواريخ الإغريقية، حيث كان أي شيء متعلق بالنساء يعتبر ثانوياً في ذاته أو لا يعطى له أي اعتبار. وفقاً لذلك، تجاهل المؤرخون التقليديون باستمرار أية نشاطات قامت بها النساء المكافحات من أجل إقامة مجتمع إنساني عادل. ولكن مع كشف الحقائق واحدة وراء أخرى، بدأ تاريخنا المفقود يُظهر أهمية هذه التحركات النسائية، لأنه وكما سنبين لاحقاً وبتفصيل أكبر، فإن هذه السجلات تظهر أن النساء في اليونان وفي كل مكان، رغم إعطائهن نصف الفرصة، كن يعملن بنشاط من أجل وضع القيم النسائية مثل السلام والإبداع في قائمة الأولويات الاجتماعية المعمول بها.

ومثله مثل غياب الكلمات الجنسوية من المفردات التي استخدمها المؤرخون، كذلك كان الإلغاء المنهجي للنساء من حسابات الماضي يخدم المحافظة على نظام أقيم على وضع مراتب وتصنيفات للرجال والنساء، ويعزز العقيدة المركزية للهيمنة الذكورية والتي تقول بأن النساء لسن بأهمية الرجال. وقد أدى هذا الإلغاء لأي إشارة إلى مركزية القضايا النسائية في تنظيمنا الفكري والاجتماعي إلى إخفاء البدائل الاجتماعية التي تميز كلاً من حكم الهيمنة والحكم التشاركي، إخفاءً فعالاً.

ولكننا إذا نظرنا إلى التاريخ من منظور جنسوي شامل، يصبح بإمكاننا أن نرى الصراع الخفي بين الهيمنة والتشاركية كطريقتين للحياة على هذا الكوكب. وعندها يمكن رؤية الحرية النسبية التي كانت تتمتع بها النساء اليونانيات مقارنة بالنساء في الحكومات الدينية في الشرق الأوسط، على أنها مؤشر اجتماعي مهم. إذ يمكن اعتبارها على سبيل المثال مسبباً ومؤثراً في انبعاث وتواصل النظرة الأكثر إنسانية إلى السلطة السياسية في اليونان، باعتبارها مسؤولية بدلاً من اعتبارها نوعاً من السيطرة. وهي نظرة ميزت الفترة التي سبقت حكم الرجال.

ونجد أن العديد من أفكارنا الغربية المتعلقة بالعدالة الاجتماعية، مثل الحرية والديمقراطية على سبيل المثال، قد اقتُبست من فلاسفة إغريقيين مثل سقراط وفيثاغوروس، والنتيجة هي أن هذه المفاهيم قد أزهرت من جذور نسائية مبكرة في الحضارة وهي نتيجة تعززها حقيقة أن كلاً من هذين الرجلين قد تتلمذ على يد نساء. كذلك من المهم ملاحظة أن كل من ثيميستوكليا التي علّمت فيثاغوروس، وديوتيما التي علّمت سقراط، كانتا كاهنتين، وكانتا تعملان على حفظ ونقل الديانة القديمة وتقاليدها الأخلاقية.

ولكن بينما يمكننا أن نرى في اليونان القديمة إشارات عديدة إلى انبعاث الروح التشاركية، نستطيع أن نرى أيضاً المقاومة الشرسة التي شنّتها قوى الهيمنة ضد هذا الدفع التطوري. فقد كانت الديانة اليونانية الرسمية بشكل أساسي ديانة هيمنة، حيث أسس زوس سلطاته عبر الأعمال الوحشية والبربرية التي شملت العديد من حالات الاغتصاب للإلهات وللنسوة الغانيات. وقد لاحظنا للتو كيف تم تصميم مسرحيات طقوسية ضخمة في تلك الأوقات، مثل أوريستيا لكي تعمل على تعزيز أعراف مجتمع الهيمنة والعنف الذكوري. وقد انعكس هذا في سياسة النخب الحاكمة في اليونان. لأنه ومهما بلغ الرجال من التمدن والحضارة مبلغاً متقدماً، لم يكن في مقدورهم المحافظة على مواقعهم المهيمنة إلا باستخدام مرتكزات ثلاثة، هي الدكتاتورية والهيمنة الذكورية والعنف الاجتماعي المؤسسي، وهي صفات ميزت أنظمتهم الذكورية.

الحق والباطل في المسلّمات الذكورية

كانت المسألة الإنسانية تروق للرجال الذين حكموا بلاد الإغريق، وكانوا أحياناً يعجبون بها ولكن إلى حد لا يسمحون لأحد بتجاوزه. في هذا الصدد، تكشف لنا واقعة الحكم بالموت على فيلسوف عجوز لم يكن ليسبب الأذى لأحد كما بدا الأمر، عن أهم الأحداث غرابة واضطراباً في اليونان القديمة. ما

هي الأفكار الثورية التي تسببت بالحكم بالموت على فيلسوف عظيم مثل سقراط اتهم بإفساد شباب أثينا؟ من الواضح أنها كانت تلك الأفكار المرتبطة بهرطقات نسائية بالنسبة للحكام في ذلك الزمان وهي أفكار تشمل المساواة في التعليم للنساء ورؤية للعدالة واجهت بشكل مباشر المبادئ التي حملها هؤلاء المهيمنون إلى المجتمع.

كان تحدي سقراط لنظام أقام تنظيمه المبني على المراتب للمجتمع بالقوة بارزاً في «جمهورية أفلاطون» حيث نجد أفكاره المتعلقة بمساواة النساء في التعليم والتي أصابت فلاسفة يفترض أنهم متنورون بالصدمة ومنهم جان جاك روسو الفرنسي الذي عاش في القرن الثامن عشر. ونجد في فلسفة سقراط الغربية التقليدية حواراً مع الفيلسوف السفسطائي غلوكون. والموقف الذي عبر عنه غلوكون والذي كان سقراط قد شكك فيه بشدة أن العدالة والقانون بالنسبة للحكام الرجال في اليونان القديمة، كانا مسألتين تتعلقان فقط بالخبرة.

وقد اتُّهم السفسطائيون أحياناً بأنهم كانوا يقوضون الأخلاقية التقليدية بسبب رفض البعض منهم للآلهة اليونانيين. ولكن في هذا الحوار، يبين أفلاطون أن تعاليمهم الفلسفية عبّرت عن الأخلاقية التقليدية لزمنهم دون أية مواربة أو خداع[41].

كانت نظرة السفسطائيين إلى الكون هي ببساطة نظرة الرجال الذين حكموا اليونان، كما هي نظرة الرجال الذي يحكمون العالم اليوم، فقد تجاوز السفسطائيون التعبير عن آرائهم في الأخلاق إلى آراء في الحقائق السياسية والاجتماعية للحياة تحت حكم الرجال والتي يعمل فيها الرجال على إثبات حقهم، مثلما هو الحال اليوم عبر القوة المسلحة.

في كتاب الجمهورية، يخبر غلوكون سقراط بأن القانون لم يعد من ابتكار الضعفاء الذين يملكون ما يكفي من الحذق ليروا أن مصلحتهم تقضي بكبح جماح الأقوياء. أما بالنسبة للعدالة فهي عبارة عن حل وسط بين ما هو أفضل

للجميع، أي ارتكاب الخطأ وتجنب العقاب، وبين ما هو أسوأ للجميع، أي أن يقع الخطأ بحقك دون أن تتمكن من الثأر لنفسك[42].

ومن اللافت للنظر على وجه الخصوص، أن مثل هذه النظرة إلى العالم وإلى العدالة نجدها في كتابات المؤرخ اليوناني الشهير ثوسيدايدس الذي أرّخ الحرب البيلوبونية ما بين العامين 431 و 403 قبل الميلاد. ونجد في كتاب ثوسيدايدس سرداً لحوار بين وفد يمثل أثينا وبين ممثلي ميلوس وهي دولة مدينة صغيرة تقع في سيكلادس، كان الأثينيون يرغبون في ضمّها إليهم، وفي الحوار نجد الأثينيين يخبرون أهل ميلوس بوقاحة أنهم غير مهتمين بما هو صحيح وما هو خطأ، وأن اهتمامهم ينصب فقط على ما فيه منفعة لهم. لأن مسألة العدالة تبرز فقط بين طرفين متساويين في القوة، بينما يفعل الطرف الأقوى ما يستطيع ويعاني الطرف الأضعف ما عليه أن يعانيه[43].

وتقوم هذه الأخلاقية النفعية، كما يشير جون مانسلي روبنسون في تحليله للفلسفة اليونانية، في جزء منها على أساس المبدأ القائل بأن البشر هم عبارة عن حيوانات أنانية لا تعرف الرحمة وتحب التملك[44]، وهذه المبادئ بدورها تقوم على أسس أخرى تقول بأن تصنيف البشر على أساس مراتب وطبقات بالقوة هو أمر طبيعي ولذا فهو أمر صحيح. بالنسبة لهذا الرأي كما يشير أرسطوطاليس في كتاب «السياسة» ، توجد في الطبيعة عناصر يجب أن تحكم وعناصر يجب أن تُحكم. بمعنى آخر، أن المبدأ الذي يجب أن يحكم التنظيم الاجتماعي هو المراتب وليس الارتباط أو الوصل. ويوضح أرسطو بصراحة أن أسس فلسفة الهيمنة ونظرتها إلى الحياة تقوم على أنه مثلما يُحكم العبيد من الأسياد كذلك تُحكم النساء من الرجال وأي شيء ينتهك هذا المبدأ الواضح ينتهك طبيعة الأشياء[45].

وكما رأينا سابقاً، فإن هذه المبادئ الفلسفية شكلت من بين مبادئ رئيسة أخرى، أسس الحضارة الغربية، التي نطلق عليها الإرث اليهودي المسيحي. وتجد هذه الأسس تعبيرها في الأفكار المسيحية حول الخطيئة الأصلية وفي الميثولوجيا الدينية التي تصنف الله فوق الرجال والرجال فوق النساء والأطفال والطبيعة مخلوقة ضمن نظام إلهي[46].

في الحقيقة، إذا درسنا التاريخ المسيحي فسنجد أن الكلمة التقليدية التي تعبر عن فكرة التصنيف أو الهرمية، يشار إليها أصلاً بحكم الكنيسة. وكلمة hierarchy أي الهرمية مشتقة من الكلمة اليونانية hieros وتعني الحكم. وتصف هذه الكلمة مراتب ومستويات القوة التي يمارس من خلالها رؤساء الكنيسة نفوذهم على كهنتهم وعلى سائر شعوب أوروبا المسيحية[47].

إلا أن هناك جانباً آخر لهذا الإرث اليهودي المسيحي مختلفاً تمام الاختلاف، يشكل أساساً لأمل منسي ولكنه ما زال يثابر وهو أن التطور الروحي للإنسانية يمكنه يوماً ما أن يتحرر من نظام غارق في مستنقع البربرية والظلم. وهذا الجانب الذي سنراه في الفصول اللاحقة، هو جانب كان بإمكانه قبل ألفي عام أن يُحدث تحولاً ثانياً في الأعراف الغربية نحو المجتمع التشاركي الذي يساوي بين النساء والرجال.

الفصل 9

النصف الآخر من التاريخ

الجزء الثاني

قبل ما يقارب الألفي عام، وعلى شواطئ بحيرة طبريا وقف شاب يهودي لطيف رحيم ليشجب الطبقات الحاكمة في زمانه، ولم يقتصر شجبه على الأغنياء وأصحاب النفوذ ولكنه تعداهم إلى شجب السلطات الدينية، لقيامها باستغلال الناس في فلسطين وإلحاق الظلم بالعباد. كان هذا الشاب يعظ داعياً إلى المحبة بين الناس جميعاً، ومنادياً بأن الشرفاء والمتواضعين والمستضعفين سيرثون الأرض يوماً ما. كذلك دعا إلى نبذ إخضاع النساء وعزلهم في مجتمعه، منادياً بحرية المرأة، وهي دعوة كانت تشكل نوعاً من الهرطقة في زمانه، لكن المسيح نادى بالمساواة الروحية بين الجميع.

لا عجب إذن، وفقاً لما جاء في الإنجيل أن تعتبره سلطات ذلك الزمان شخصاً خطراً ينبغي إسكاته ومنع نشر أفكاره الثورية بأي ثمن. وليس هناك أبلغ من التعبير الذي ورد في السفر 28:3 «رسالة إلى أهل غلاطية» ، دلالة على مدى ثورية هذه الأفكار في نظر النظام المهيمن الذي يعتبر ترتيب الرجال في مستوى أعلى من النساء نموذجاً للترتيب البشري، حيث يقول: نقرأ هنا عن الذين يتبعون رسالة المسيح المخلّص: لا يوجد شيء اسمه يهودي أو يوناني، ولا حر ولا عبد ولا ذكر ولا أنثى فالجميع واحد مع يسوع المسيح.

ظل عدد من علماء اللاهوت المسيحيين من أمثال ليونارد سويدلر يؤكدون أن المسيح كان من أنصار المرأة، فقد ظهر في النصوص الرسمية أو المقدسة وبشكل جلي أن يسوع المسيح رفض التفرقة المتشددة بين الرجال والنساء كما رفض حالة التبعية التي تعيشها النساء في ذلك الزمن[1]. ولكن حركة أنصار المرأة تهدف بشكل أساسي إلى تحرير النساء، لذلك فإن القول بأن المسيح كان من أنصار المرأة هو قول لا يلامس الدقة، بل إن من الأدق أن نقول إن تعاليم المسيح انطوت على نظرة تساوي بين المرأة والرجل في العلاقات الإنسانية.

مثل هذه النظرة ليست جديدة، بل كانت وكما لاحظنا سابقاً تظهر في تلك الأجزاء من كتاب العهد القديم التي تتماشى مع مجتمع التشاركية. ولكن من الواضح أن الأوساط الدينية في ذلك الوقت كانت تنظر إلى هذا النجار الشاب على أنه يبشّر بأفكار هرطقية، ورغم أن الفكرة المركزية في دعوة يسوع لم تكن تحرير المرأة إلا أننا إذا نظرنا إلى عظاته من منظور فرضية التحول الحضاري، نلحظ وجود موضوع مدهش وموحد: وهو رؤيته لتحرير الإنسانية بأجمعها من خلال استبدال النظام المهيمن بالنظام التشاركي.

المسيح والمساواة بين الذكورية والنسوية

تعتبر الكتابات التي أوردها كتاب العهد الجديد والمنسوبة إلى رسل زعموا أنهم عرفوا المسيح، مثل متّى ومرقص ولوقا ويوحنا، المصدر الأفضل لمعرفة المسيح الحقيقي. ورغم أن كتاباتهم ظهرت بعد موت المسيح بسنوات وتعرضت للكثير من الحذف والتغيير إلا أنها تظل على الأرجح تعكس تعاليم المسيح بشكل أدق مما تعكسه أعمال أو رسائل القديسين.

في هذه التعاليم نلاحظ فيما عدا بعض الاستثناءات الغياب الواضح للنظرة إلى النساء كونهن في مرتبة أدنى وهي الفكرة التي تشكل حجر الزاوية في

إيديولوجيا مجتمع الهيمنة، وبدلاً من ذلك، نجد أن تعاليم يسوع تمرر رسالة هامة هي المساواة الروحية.

والأكثر لفتاً للنظر هو ما يتخلل تعاليم يسوع من دعوات إلى رفع مستوى الفضائل النسائية من مرتبة ثانوية داعمة إلى مرتبة رئيسية ومركزية. يقول يسوع: علنيا أن لا نستخدم العنف بل أن ندير الخد الآخر، وعلينا أن نعامل الآخرين كما نحب أن يعاملونا، وأن نحب جيراننا وحتى أعدائنا وبدلاً من الفضائل الذكورية التي تمجد الخشونة والعدائية والهيمنة، علينا أن نضع في قيمنا المسؤولية المتبادلة، والرحمة، والمودة والمحبة.

عندما ننظر عن قرب ليس إلى ما علّمه المسيح فحسب بل إلى الطريقة التي نشر فيها رسالته، نجد مرة تلو أخرى أن ما كان يبشّر به المسيح هو المجتمع التشاركي. فقد رفض الفكرة القائلة بأن الرجال ذوي المراتب العليا في زمانه، مثل الكهنة والنبلاء والأغنياء والملوك هم المحظيون عند الله. وكان يختلط بحرية مع النساء ناكراً بشكل مكشوف أية أعراف تتعلق بالسيادة الذكورية. وعلى النقيض تماماً من بعض آراء الحكماء المسيحيين التي ظهرت لاحقاً وطرحت جدالاً حول ما إذا كانت المرأة تملك روحاً خالدة، لم يقم يسوع بأي عظة تتحدث عن الهيمنة الأبدية للذكور، ولا قال أي كلمة حول كون النساء روحياً أدنى مرتبة من الرجال.

سواء يسوع كان موجوداً في الواقع، هو أمر خضع لنقاش طويل. والحجة هنا، وهي حجة موثقة جيداً، تقول بأنه لا توجد أية أدلة موثقة على الإطلاق تتحدث عن وجوده إلا من المصادر المسيحية المشكوك فيها بشدة. والتحاليل تذكر أن معظم الأحداث التي جرت في حياة يسوع إضافة للعديد من تعاليمه هي من الناحية العملية موجودة في حياة وتصريحات شخصيات أسطورية ظهرت في ديانات أخرى. وفي هذا إشارة إلى أن يسوع قد صُنع واقتبست

تعاليمه من مصادر أخرى لخدمة أهداف أوائل العلماء الكنسيين. ولعل ما يلفت النظر أن أكثر الحجج إقناعاً حول الوجود التاريخي ليسوع تأتي من أفكاره وأعماله المتعلقة بمواقفه من المرأة ومن المساواة بين الناس لأن الأمر المعهود في ذلك الزمان كان، وكما رأينا سابقاً، يتعلق بحاجة طاغية للنظام لكي يصنع آلهة وأبطالاً يدعمون قيمه في الهيمنة ولا ينبذونها.

لذلك نجد من الصعب رؤية لماذا يتم اختراع شخص مثل هذا، يتحدى الأعراف المهيمنة في زمانه، كما ورد في إنجيل يوحنا 4:7-27، عبر التحدث بشكل منفتح مع النساء، ويثير دهشة تلاميذه بانفتاحه في التخاطب مع النساء بهذا الشكل، ولا يجيز ذلك العُرف الذي يدعو إلى رجم الزانيات اللواتي ارتكبن الذنب الشنيع بمضاجعة رجال ليسوا في رأي الحكام الذكور، أسيادهن.

ونقرأ في إنجيل لوقا 10:38-42 كيف أدخل يسوع نسوةً ضمن رفقته بل وشجعهن على تجاوز أدوارهن الخدمية والانتقال للمشاركة بنشاط في الحياة العامة. وقد أثنى على مريم الناشطة أكثر من أختها المدجنة مرثا. ونقرأ في جميع الأناجيل الرسمية عن مريم المجدلية، التي زعم بأنها مومس، بينما كان هو يعاملها برعاية واحترام.

والأكثر دهشة من كل هذا، ما نتعلمه من الأناجيل بأن ظهوره الأول بعد موته كان أمام مريم المجدلية التي ظلت تحرس قبره الفارغ بعد موته وتبكي عليه. هناك شاهدت مريم المجدلية في رؤياها يسوع قبل أن يظهر في رؤى أي من تلاميذه الذكور الإثني عشر. وكانت مريم هي التي بلّغها يسوع بأن تخبر الجميع بأنه على وشك الصعود إلى السماء[2].

لذلك، لم يكن من المدهش أن تلقى تعاليم يسوع ترحيباً لدى نساء ذلك الزمان. ورغم أن المؤرخين المسيحيين نادراً ما يشيرون إلى هذا الأمر حتى في

المخطوطات الرسمية أو في كتاب العهد الجديد، إلا أننا نجد نساءً من بين القيادات المسيحية. على سبيل المثال نقرأ في أعمال الرسل 36:9 عن إحدى تلميذات المسيح وتدعى طابيثا أو دوركاس التي اجتمعت الشكوك حول غيابها من الصورة المعروفة للرسل الإثني عشر في العشاء السري. وفي إصحاح الرومان 7:16 نجد بولس يقدم الاحترام لإحدى التلميذات وتدعى جونية والتي يصفها بأنها أعلى منه مرتبة ضمن الحركة، فيقول: أدّوا التحية لمريم التي قدّمت لنا جهدها. كما نقرأ: أدوا التحية لإندرونيكوس وجونية، أقربائي ورفاقي في السجن، الذين كانوا من بين الرسل الذين كانوا قبلي مع المسيح.

يعتقد بعض العلماء أن الرسالة الإنجيلية حول العبرانيين في العهد الجديد قد تكون كُتبت على يد امرأة تدعى بريسيللا. وقد ورد ذكرها في العهد الجديد على أنها زوجة أكيلا وأنها تعمل مع بولص. وكان اسمها يُذكر قبل اسم زوجها[3]. وكما تشير المؤرخة اللاهوتية كونستانس بارفي فإننا نجد في سفر الأعمال 17:2 تعييناً واضحاً للنساء كنبيّات ونقرأ هنا: سوف أمنح روحي لكل جسد، وسوف يكون هناك أنبياء بين أبنائكم وبناتكم.

وهكذا نلمس بوضوح، أنه على الرغم من الضغوط الاجتماعية القوية لنظام الهيمنة الذكوري في ذلك الزمن، لعبت النساء أدواراً قيادية بين الجماعات المسيحية الأولى. وكما تشير عالمة اللاهوت إليزابيث شوسلر فيورينزا، فإن هذه الأدوار تؤكد الحقائق التي وردت في كتاب العهد الجديد عن أن معظم اجتماعات المسيحيين الأوائل كانت تدور في بيوت نساء. ففي الرسائل إلى أهل كولوسي 15:4 على سبيل المثال نقرأ عن الكنيسة في بيت نيمفا وفي سفر كورينثيوس 11:1 نقرأ عن الكنيسة في بيت عائلة كلو كما نقرأ في الأعمال 14:15،15 و40 أن الكنيسة في فيليبي قد بدأت مع اعتناق امرأة تعمل في التجارة هي ليديا المسيحية وهكذا دواليك[4].

وكما بيّنا للتو، فإننا نقرأ بشكل متواصل في كتاب العهد الجديد عن مريم المجدلية. وتوصف مريم في الكتاب على أنها مومس لأنها انتهكت الأعراف الذكورية الأساسية لرفضها أن تُستعبد جنسياً من قِبَل زوجها أو سيّدها. ولكن رغم هذه المحاولة للحطّ من شأنها إلا أنها تظهر بوضوح بكونها عضواً هاماً في الحركة المسيحية. وفي الحقيقة، وكما سنرى لاحقاً، توجد أدلة دامغة بأن مريم المجدلية كانت زعيمة الحركة المسيحية الأولى بعد موت يسوع. وقد ظهرت في إحدى الوثائق التي تم قمعها وهي تقاوم بشدة إعادة فرضها ضمن إحدى الفِرَق المسيحية التي اعتمدت مراتب كان يسوع قد رفضها وتحداها، وهذه الأدلة لم تظهر ضمن الكتابات التي وضعها زعماء هذه الفئة في كتاب العهد الجديد.

بالنسبة للعقلية المهيمنة، فإن فكرة انخراط يسوع ضمن ثورة مضادة تطالب بالمساواة بين النساء والرجال، هي فكرة غير مستوعبة. ولكي نعيد صياغة مغزى هذا القول فإن من الأسهل إدخال جمل عبر خرم إبرة من أن تدخل فكرة مثل هذه في أذهان المتشددين الذين يعلقون على مؤخرات سياراتهم اليوم عبارات تحث الآخرين على السير في خطى يسوع. ولنبدأ بالقول لماذا يهتم يسوع برفع منزلة القيم النسائية ومنزلة المرأة من مكانها الوضيع؟ بالنسبة لهم، كان على يسوع أن يهتم بأمور أكثر جدية مما يزيل أي تفكير بأنه كان يدعو لمناصرة قضايا المرأة.

ومن الملفت للنظر، في الحقيقة، أن يسوع علّم ما كان يعمل به، لأنه هو نفسه جاء من مجتمع مهيمن. فقد وُلد في زمن كانت فيه اليهودية تحت هيمنة كاملة من المجتمع الذكوري ونقرأ عن هذا الزمن في إنجيل يوحنا 8:3-11 أن النساء كنّ ما زلن يرجمن بالحجارة حتى الموت لارتكابهن الزنا خارج حدود الملكية الجنسية لأزواجهن أو أسيادهن. وفي هذه النقطة بالذات، نجد أن يسوع حين منع رجم الزانية قد تحدى الكتبة والفريسيين الذين كانوا يتعمدون وضعه في مواقف محرجة للكشف عن خطورة مواقفه الثورية.

ومع ذلك، توجد ناحية لا تلفت فيها تعاليم يسوع حول المساواة بين الرجال والنساء النظر كثيراً. فقد بقيت النظرة إلى يسوع على أنه أحد أعظم الشخصيات الروحية عبر الزمن. وضمن أي مقياس إبداعي، تُظهر صورة يسوع التي يعرضها الإنجيل حساسية وذكاءً منقطعي النظير بالإضافة إلى شجاعة في الوقوف أمام سلطة راسخة حتى ولو على حساب حياته، وقدرة على التحدث ضد الجشع والوحشية والظلم. لذلك لا عجب أن يكون يسوع واعياً ومدركاً بأن هذه القيم الذكورية في الهيمنة والقتال وعدم المساواة هي التي تشوه وتحط من قيمة الحياة البشرية وأنها يجب أن تستبدل بقيم أكثر لطفاً وأكثر نعومة أو أنوثة تقوم على الرحمة والمحبة والمسؤولية.

إن إدراك يسوع بأن تطورنا الروحي الذي تعطل نتيجة بناء العلاقات الإنسانية على قاعدة طبقية مدعومة بالعنف، كان يمكن أن يؤدي إلى تحول اجتماعي جذري، يحررنا من نظام الهيمنة ولكن كما حدث في ثورات أخرى دعت إلى التشاركية كانت مقاومة النظام قوية جداً، وفي نهاية الأمر ترك لنا آباء الكنيسة عهداً جديداً تم كبحه عبر فرض قيم متناقضة تماماً ولكنها كانت مطلوبة من أجل تبرير البنية الذكورية المهيمنة للكنيسة وأهدافها اللاحقة.

الكتب المقدسة المطموسة

إن الحقائق التي تنطوي عليها الإبداعات القديمة، غالباً ما يتم كشفها عن طريق المجدِّدين في الفن، والذين يتوجب عليهم كشطها طبقة خلف طبقة لإزالة ما يعتليها من سخام ودهان ومحاليل أخرى. بالطريقة نفسها تم الكشف عن يسوع المناصر لمبدأ المساواة بين الرجل والمرأة على يد علماء لاهوت ومؤرخين دينيين جدد قاموا بنبش أبعاد جديدة ينطوي عليها كتاب العهد الجديد.

ولكي نفهم الطبيعة الحقيقية للمسيحية الأولى، فهماً أفضل، علينا أن نبحث خارج الكتابات الرسمية المتضمنة في العهد الجديد، عن وثائق مسيحية

قديمة تم اكتشاف البعض منها حديثاً. ومن بين أكثر هذه الوثائق أهمية وغنى بالمعلومات، تلك الأناجيل الاثنين والخمسين التي أخرجت من تحت الأرض عام 1945 في منطقة نجع حمادي في إقليم الوجه القبلي بمصر[5].

وتذكر إيلين باغلز وهي أستاذة دراسات دينية في جامعة برينستون، في كتابها «الأناجيل الروحية» أن الذين كتبوا هذه النصوص ونشروها لم يكونوا يعتبرون أنفسهم هراطقة[6]. ومع ذلك فإن معظم ما ظلت تعرف سابقاً بأنها كتابات هرطقية، جاءت من الرجال الذين هاجموا وانتقدوا هذه الكتابات، وهؤلاء لا يمكن أن تعتبر مواقفهم وآراؤهم موضوعية.

وفي حقيقة الأمر، أن الرجال الذين سيطروا منذ بداية العام 200 بعد الميلاد على ما أطلق عليه لاحقاً الكنيسة الأرثوذكسية أو الكنيسة الحقيقية الوحيدة، أمروا بإتلاف جميع هذه النصوص، ولكن كما تذكر باغلز، يبدو أن أحدهم والأرجح أنه راهب من دير قريب في سانت باخوميوس أخذ هذه الكتب وخبأها في جرّة وبذا استطاع حمايتها من الإتلاف، حيث بقيت مدفونة تحت الأرض لما يقارب 1600 عام[7]. وبسبب سلسلة من الأحداث التي وقعت بعد الاكتشاف، وهي أحداث شبيهة بالقصص البوليسية لم يتسنّ للعلماء إنهاء دراساتهم لهذه الكتابات إلا بعد مضي خمس وثلاثين سنة على اكتشافها، وقد أظهرتها باغلز إلى العلن في كتابها عام 1979.

ووفقاً للبروفيسور هيلموت كوستر من جامعة هارفارد، فإن بعض هذه الكتابات المسيحية المكتشفة هي أقدم عمراً من أناجيل العهد الجيد. ويذكر البروفيسور أنها تعود إلى بواكير النصف الثاني من القرن الأول بعد الميلاد (50 -100) ربما إلى زمن مرقص ومتّى ولوقا ويوحنا أو ربما أبكر من ذلك[8].

إذن، فقد كتبت هذه الأناجيل الروحية في زمن كانت فيه هيمنة الرجال على الحكم قد أصبحت عُرفاً في العالم الغربي ومنذ مدة طويلة. وهذه الكتابات

لا تعتبر كتابات مؤيدة لما نسميه المبدأ التشاركي بين الرجال والنساء، ولكننا نجد في نصوصها تحدياً صارخاً لأعراف مجتمع الهيمنة.

وكلمة Gnostic مشتقة من الكلمة اليونانية gnosis وتعني المعرفة وهي عكس كلمة agnostic الشائعة الاستعمال في وصف الجهل وتتعلق بالشخص، الذي لا يشك في مثل هذه المعلومات أو لا يدري بها أي يجهلها. والمسيحية الروحانية، مثلها مثل غيرها من التعاليم الدينية الغربية والشرقية تحمل نظرة غير هرطقية بأن أسرار الحقائق العليا أو الإلهية معروفة لدينا جميعاً عبر النظام الديني والأخلاق.

إذن ما الذي يجعل من «المعرفة» هرطقة لكي يتم منعها؟ ما نجده في هذه الأناجيل بشكل خاص هو الفكرة نفسها التي دفعت الكهنة اليهود إلى لعن يسوع والسعي للتخلص منه. إنها تلك الطريقة للوصول إلى الله التي لا تمر عبر الهرمية الدينية أو عبر حاخام أو أسقف أو بابا كنيسة، بل تمر مباشرة عبر المعرفة أو عبر المعرفة الإلهية دون أن يضطر المرء إلى تقديم التزام أو دفع ضريبة إلى أي من كهنة النظام الدكتاتوري.

والمعلومات التي وصلت إلينا عن هذه الكتابات التي تعرضت للقمع من قِبَل أجهزة الكهنوت المسيحية التقليدية تؤكد لنا أمراً كنا نشك فيه منذ مدة طويلة سواء في الكتابات الرسمية أم في أجزاء المعلومات التي اكتشفت سابقاً. وهذا الأمر يتعلق بمريم المجدلية التي تؤكد لنا المعلومات أنها كانت واحدة من أهم شخصيات الحركة المسيحية الأولى.

ففي إنجيل مريم نقرأ مرة أخرى أنها كانت أول من رأى قيامة المسيح من القبر (كما هو مسجل في أناجيل مرقص ويوحنا)[9] كما نقرأ أيضاً أن المسيح أحب مريم المجدلية أكثر مما أحب باقي الرسل كما هو مثبت في إنجيل فيليب[10].

ولكن مدى أهمية الدور الذي لعبته مريم المجدلية في تاريخ المسيحية الأولى لا يظهر جلياً إلا في هذه الكتابات التي قمعت وأخفي أثرها. فما نقرأ في إنجيل مريم أنها كانت الزعيمة المسيحية التي امتلكت الشجاعة لتحدي سلطة بطرس، رأس الهرمية الكنسية الجديدة في ذلك الزمن والذي ادعى أنه هو وكهنته وأساقفته فقط يمتلكون خطاً مباشراً للاتصال مع الله[11].

وتعلق باغلز: لنعتبر المدلولات السياسية التي ينطوي عليها إنجيل مريم. «مثلما وقفت مريم أمام بطرس، كذلك وقف أنصار المعرفة الروحية الذين اتخذوها نموذجاً، في تحديهم لسلطة الكهنة والأساقفة الذين يدعون أنهم خلفاء بطرس»[12].

هناك أيضاً اختلافات عقائدية ومساوية في أهميتها البالغة لما ذكرنا سابقاً، بين الكنيسة الهرمية التي يرأسها بطرس والتي أخذت في الانتشار وبين المجتمعات المسيحية الأولى مثل أنصار المعرفة الروحية وطوائف أخرى كالمرقصيين وغيرهم. فقد كانت هذه الطوائف والمجتمعات، على النقيض من هؤلاء الرجال الذين يوصفون بأنهم آباء الكنيسة، يحترمون النساء كونهن مرسلات ونبيات ومؤسسات للديانة المسيحية، كجزء من التزام هذه الجماعات بتعاليم يسوع حول المساواة الروحية، كما كانوا يقبلون بوجود نساء بين قياداتهم[13].

وفي معرض تركيزهم الأكبر على المبدأ التشاركي الأساسي ومن أجل تجنب التصنيفات الدائمة، كان أنصار المعرفة الروحية يختارون قياداتهم في كل اجتماع بالقرعة. وهذا ما نقرأه في الكتابات التي كان يحررها أعداء المعرفة الروحية مثل الأسقف إيرينيوس الذي أشرف على الكنيسة في ليونز حوالي العام 180 بعد الميلاد[14].

تقول باغلز، إنه في الوقت الذي كان فيه المسيحيون الأرثوذكس يميزون بين رجال الدين وبين المؤمنين من سواد الناس، كانت هذه المجموعة المسيحية من

أنصار المعرفة الروحية ترفض الاعتراف بهذا التمييز، وبدلاً من تصنيف أعضاء مجموعتهم ضمن مراتب عليا ودنيا، اعتمدوا الهرمية في تنظيمها. كانوا يتبعون نظام مساواة متشدداً، فالجميع رجالاً ونساءً كانوا على قدم المساواة في مشاركتهم بالسحب والاقتراع وكان أي منهم يمكنه أن ينتخب كاهناً أو أسقفاً أو نبياً. ولما كانوا، إضافة إلى ذلك، يدلون باقتراعاتهم في كل اجتماع، فقد كانت ميزات الفرد الذي يتم اختياره نتيجة الاقتراع لا تعطيه صفة مرتبة دائمة[15].

بالنسبة للمسيحيين ممن اتبعوا نظام الهيمنة، والذين كانوا يستولون على السلطة في كل مكان على أسس مرتبية، كانت تلك الممارسات تعتبر تصرفات بغيضة. على سبيل المثال كان ترتوليان الذي ظل يكتب حوالي العام 190 بعد الميلاد لصالح الموقف التقليدي، يستشيط غضباً لأن هذه الجماعات كانت تعامل أفرادها على قدم المساواة، وكان أعضاؤها يصطفّون ويصلّون بشكل متساوٍ تماماً كالأوثان على حد قوله. كما كان يمقت بشدة قيامهم بتقبيل جميع من يفد إليهم قبلة السلام[16].

ولكن ما كان يثير حنق ترتوليان أكثر، هو موقف الجماعة من المساواة بين الرجال والنساء، كون هذا الأمر يشكل تهديداً للأسس التي تقوم عليها البنية التحتية للهيمنة التي كان يحاول هو وزملاؤه القساوسة فرضها داخل النظام الكنسي. فكان ترتوليان يحتج بشكل خاص على مشاركة نساء هؤلاء الهراطقة في مواقع السلطة جنباً إلى جنب مع الرجال، كما تذكر باغلز. فقد كانت المرأة تمارس التعليم وتشترك في النقاشات وتطلق التعاويذ وتعالج المرضى وكان يشك في أنها تقوم بأعمال مثل التعميد، وهي أعمال تعتبر بالنسبة له من اختصاص القساوسة[17].

بالنسبة لأشخاص مثل ترتوليان، كانت هناك بدعة واحدة تعتبر أعظم من فكرة كون الرجال والنساء متساوين روحياً، وهذه البدعة هي التي تعتبر التهديد

الأساسي للرجال الذين أصبحوا الآن يجهزون أنفسهم ليصبحوا أمراء الكنيسة الا وهي فكرة أن يكون الله امرأة. وهذه الفكرة التي يمكننا قراءتها في الأناجيل الروحية وغيرها من الوثائق المسيحية التي لم ترد في كتابات العهد الجديد، شكلت تماماً ما كان يعظ به الأوائل من أتباع يسوع.

في إثر التقاليد القديمة التي ظلت في الذاكرة والتي كان يُنظر فيها إلى الإلهة على أنها الأم التي تعطي كل شيء، استمر اتباع فالنتين ومرقص يصلّون للأم على أنها الصمت الروحي الخالد، والنعمة والحكمة التي لا تُفسد[18].. وفي نص آخر أطلق عليه اسم «الفكر الأساسي الثلاثي الشكل» نجد إحياءً لقوى مثل الفكر، والذكاء والبصيرة باعتبارها قوى أنثوية (Trimorphic protennoia). وهذا النص يبدأ بكلمات لشخصية إلهية تقول: «أنا الفكر الأساسي الذي يسكن في الضوء... هي التي وجدت قبل كل شيء. أنا أتحرك داخل كل مخلوق، ولا يراني أحد. أنا البصيرة وأنا المعرفة، أتكلم بواسطة الفكر... أنا الصوت الحقيقي»[19].

وفي نص آخر منسوب إلى المعلم الروحي سيمون ماغوس يصف فيه الجنة نفسها التي بدأت فيها الحياة على أنها رحم الأم[20]. وفي تعاليم أخرى منسوبة إلى ماركوس أو ثيودوتوس حوالي 160 بعد الميلاد نقرأ أن العنصرين الأنثوي والذكري يشكلان معاً أفضل إنتاج للأم وهو الحكمة[21].

مهما كانت الأشكال التي اتخذتها هذه الهرطقات، تبقى جميعها مشتقة من تقاليد دينية قديمة كانت تعبد الإلهة التي كانت الكاهنات يمثلنها على الأرض. ووفقاً لذلك تم تشخيص الحكمة الإلهية وبشكل منتظم في صورة امرأة تماماً مثلما هي الكلمة العبرية «الحكمة» والكلمة اليونانية «صوفيا» ومعناها «الحكمة» أو «المعرفة الإلهية»، وقد كان هذا النهج سائداً أيضاً في تقاليد شرقية وغربية روحانية أخرى[22].

هناك شكل آخر اتخذته تلك الهرطقات وهو الطريقة غير التقليدية التي تم فيها تصوير العائلة المقدسة. وتزعم إحدى الجماعات التي تعتبر مصدراً للأناجيل والروحانيات أنها تلقت تعاليم سرية من يسوع عبر جيمس ومريم المجدلية. وتذكر باغلز أن أعضاء هذه الجماعة كانوا يصلّون لكل من الأب الإلهي والأم الإلهية. «من الأب والأم، الاسمين الخالدين، والدي الإله وساكني الجنة والإنسانية، وذوي الاسم العظيم»[23].

كذلك، كان المعلم والشاعر فالنتين يقول بأنه على الرغم من عدم قدرتنا على تمييز الشكل الإلهي في جوهره، إلا أن الله يمكن تخيله على أنه ثنائي مكوّن من مبادئ ذكورية وأنثوية[24] وفي حين كان آخرون حرفيين في إصرارهم على اعتبار الإله ذكراً أو في وصفهم للروح القدس على أنها أنثوية بحيث أنه وضمن النص الكاثوليكي المتعلق بالثالوث الإلهي، جاء المسيح الابن نتيجة اتحاد الأب والروح القدس التي تعتبر الأم الإلهية[25].

هرطقة المساواة بين الذكورية والنسوية

لم يكن هؤلاء المسيحيون الأوائل يشكلون تهديداً للسلطة المتنامية لكنيسة الآباء فحسب، بل شكلت أفكارهم تحدياً مباشراً لسيطرة الذكور في العائلة. فقد كانت مثل هذه الأفكار تقوض تلك السلطة المستمدة من الله والتي تثبت سلطة الذكر على الأنثى وتبنى على أساسها العائلة الأبوية.

وغالباً ما ذكر علماء الإنجيل أن نظرة السلطات الرومانية واليهودية إلى المسيحية الأولى كانت باعتبارها تهديداً لهم. ولم يكن السبب وراء هذه النظرة كون المسيحيين غير راغبين بعبادة الإمبراطور وتقديم الولاء للدولة فحسب، بل وكما يشير البروفيسور: س. سكوت بارتشي، المدير الأسبق لمعهد دراسات الأصول المسيحية في توبنجن بألمانيا الغربية، كان هناك سبب أكثر إلحاحاً وهو

أن تعاليم يسوع ومن تبعه تشكل خطراً جذرياً يكمن في وضع التقاليد العائلية الموجودة في دائرة المساءلة. فقد كانت تلك التعاليم تعتبر المرأة شخصاً له حقوق متجاهلة بذلك كل من البنى العائلية الرومانية واليهودية التي كانت سائدة في تلك الأيام والتي كانت تعتمد على إخضاع المرأة[26].

وإذا نظرنا إلى العائلة كدائرة صغيرة ضمن العالم الأوسع، أو كأنها العالم الوحيد الذي يمكن للطفل الصغير القابل للتكيف أن يعرفه، يصبح بإمكاننا ملاحظة هذا التجاهل وعدم الاحترام لسيطرة الذكر على العائلة حيث كلمة الأب هي القانون، مما يعني تهديداً رئيسياً وجسيماً للنظام القائم على الهرمية المدعومة بالقوة. كما يفسر لماذا يضع البعض في زماننا في أولويتهم الرئيسية مسألة العودة إلى العائلة التقليدية. ويلقى الضوء أيضاً على الصراع الذي مزّق العالم قبل ألفي عام حين بشّر يسوع في إنجيله داعياً إلى الرحمة والمحبة ونبذ العنف.

هناك العديد من التشابهات المثيرة للاهتمام بين زماننا هذا وبين تلك الأعوام المضطربة التي بدأت فيها الإمبراطورية الرومانية، بالانهيار بعد أن كانت تعد من أقوى المجتمعات المهيمنة عبر العصور، فكلا الزمانين يشهدان بحسب أصحاب نظرية الفوضى، تصاعداً في اختلال توازن الأزمنة، وكلاهما يمهدان لوقوع أحداث غير مسبوقة وغير متوقعة. وإذا ما نظرنا إلى السنوات التي سبقت وتلت مباشرة موت يسوع من منظور النزاع المستمر بين المبادئ الذكورية والمبادئ التشاركية، نجد أن الفترتين تشهدان انبعاثاً قوياً للتشاركية، ولا عجب في ذلك، فقد ذكر إيليا بريغوغين وهو عالِم حائز على جائزة نوبل في علوم الديناميكية الحرارية، أنه خلال تلك الفترات من التخلخل الاجتماعي، يمكن لعدة تقلبات صغيرة أن تؤدي إلى تغيير في الأنظمة السائدة[27].

وإذا نظرنا إلى المسيحية في أيامها الأولى على أنها تقلبات صغيرة ظهرت أول ما ظهرت على أطراف الإمبراطورية الرومانية (مقاطعة يهودا) الصغيرة

فإن احتمالات تطورنا الحضاري تأخذ معاني جديدة، كما أن فشل هذه الاحتمالات يحمل آثاراً أكثر شدة. كذلك، إذا نظرنا إلى المسيحية في أيامها الأولى ضمن هذا الإطار الأوسع الذي ينظر إلى الترابط بين ما يحدث لجميع هذه الأنظمة، فإن بإمكاننا ملاحظة عدة ظواهر لانبعاث مبادئ التشاركية بين النساء والرجال حتى ضمن روما نفسها.

ففي روما، وعلى سبيل المثال، كان التعلم قد بدأ يتغير بحيث نال كل من الأولاد والبنات المنتمين إلى الطبقة الأرستقراطية التعليم نفسه من ناحية المنهج. وكما تذكر مؤرخة علم اللاهوت كونستانس بارفي، فقد ظهر في أوساط الإمبراطورية الرومانية في القرن الأول بعد الميلاد عدد كبير من النساء المتعلمات، وكانت بعضهن متنفذات، يمتلكن حرية كبيرة في الحياة العامة[28]. كانت هناك بعض التقييدات القانونية. فقد كان على النساء أن يتخذن أوصياء من الرجال، وكن ممنوعات من حق التصويت، إلا أن الطبقات العليا من الإمبراطورية شهدت دخولاً متزايداً للنساء في الحياة العامة. بعضهن عملن في الفنون وأخريات في الطب، وفي التجارة وفي البلاط الحاكم وفي الحياة الاجتماعية، والرياضة وكن يشاركن في المسارح والأحداث الرياضية والحفلات الغنائية كما كن يسافرن دون الحاجة إلى مرافقين من الذكور[29]. بكلمة أخرى، وكما يذكر كل من بارفي وباغلز، كان هناك تحرك خلال تلك الفترة نحو تحرير النساء.

كانت هناك تحديات أخرى تواجه النظام الذكوري المهيمن، ومنها ثورات العبيد وحركات التمرد في الأقاليم النائية. كما شهدت تلك الفترة تمرداً لليهود تحت قيادة باركوخبا ما بين عامي 132-135 بعد الميلاد، وقد شكل هذا التمرد نهاية يهوداً[30]. ولكن فيما كان التحدي يواجه النظام الذكوري، ظل المسيحيون الأوائل يناصرون مبدأ نبذ العنف ويبشرون بالرحمة والسلام، وأصبحت روما أكثر عنفاً واستبداداً.

ولكن وكما تكشّف لنا من تطرف الأباطرة وإسرافهم (بمن فيهم الإمبراطور المسيحي قسطنطين) وكذلك عروض مدرجات الإمبراطورية الرومانية البشعة، فقد آل هذا التحدي الذي أظهره المسيحيون الأوائل لمثل هذا المجتمع الدموي إلى الفشل، ولم يكن لهذه المبادئ التشاركية أن تنجح، حتى داخل المسيحية نفسها.

البندول يعود إلى الوراء

تذكر باغلز أنه رغم النشاط العام السابق للنساء المسيحيات، إلا أنه مع حلول عام 200 بعد الميلاد، كانت معظم المجتمعات المسيحية تتبنى ضمن قوانينها الكنسية، رسالة بولص الزائفة إلى القديس تيموتي والتي تبالغ في تركيزها على العنصر المعادي للنساء في أفكار بولص مثل قوله: «دع النساء يتعلمن بصمت وبخضوع كامل، أنا لا أسمح لأي امرأة بأن تُعلِّم أو أن تمتلك سلطة على الرجال. إن عليها أن تبقى صامتة... وهكذا مع حلول نهاية القرن الثاني بعد الميلاد، أصبحت مشاركة النساء في العبادة أمراً مداناً في العلن كما اعتُبرت المجموعات التي استمرت تحت قيادة النساء بأنها حركات هرطقية[31].

وتضيف باغلز: من الذي كان على استعداد في أوائل تاريخ المسيحية (دراسة حول آباء الكنيسة) ليتحقق من الفقرة التي اختتم فيها توما إنجيله: قال لنا بطرس (والحديث موجه إلى الرسل): دعوا مريم تغادرنا، إن النساء لسن جديرات بالحياة، لقد قال يسوع أنا سوف أقودها بنفسي لكي تصبح ذكراً فربما تتحول إلى روح حيّة تشبهكم أيها الرجال، لأن كل امرأة تحوّل نفسها إلى ذكر ستدخل ملكوت السموات[32].

مثل هذا الاستثناء الصارخ لنصف الإنسانية من استحقاق الحياة، وخاصة، وللمزيد من السخرية، ذلك النصف الذي تخرج منه الحياة، لا يجد معنى له إلا في سياق التدهور والقمع الذكوري الذي أخذ يترسخ. وهو يؤكد صحة ما شعر

به العديد منا في داخلهم دون أن يستطيعوا تحديده وهو أن خطأً كبيراً قد حصل مع التعاليم المسيحية الأصلية للمحبة. وإلا فكيف يمكن لمثل هذه التعاليم أن تستخدم لتبرير كل هذا التعذيب والقتل وسفك الدماء الذي ارتكبه بعض المسيحيين المخلصين ضد أبناء جلدتهم وضد غيرهم عبر معظم فترات تاريخ الغرب؟

لأنه في نهاية الأمر، كان هناك تغيير جذري وغير متوقع في أنظمة العالم الغربي. فمن وسط الفوضى التي رافقت انهيار عالم روما التقليدي، تشكل عهد جديد، وما بدأ كمذهب غامض ضعيف تحول إلى دين جديد للغرب، ولكن رغم الرسالة المتواصلة التي أطلقها هذا الدين لتغيير الذات وتغيير المجتمع، تغير هو نفسه، تماماً مثلما حصل مع الأديان التي سبقته والتي لحقته، إذ أصبحت الديانة المسيحية ديانة ذكورية واستبدل اسم الإمبراطورية الرومانية ليصبح الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

وهكذا مع حلول العام 200 بعد الميلاد، كانت هذه الحالة الروحانية تقف على رأسها، فقد كانت المسيحية في طريقها للتحول إلى نظام شبيه بذلك النظام الهرمي القائم على العنف والذي كان يسوع قد تمرد ضده. وبعد تحول الإمبراطور قسطنطين إلى المسيحية، أصبحت هذه الديانة تشكل ذراعاً رسمياً في خدمة الدولة. وكما تذكر باغلز، عندما أصبحت المسيحية ديناً رسمياً في القرن الرابع للميلاد، تحول الأساقفة المسيحيون الذين كانوا يتعرضون للذبح من قِبَل الشرطة إلى أسياد لهؤلاء الشرطة أنفسهم[33].

ووفقاً للتاريخ المسيحي، فقد قيل إنه في العام 312 بعد الميلاد، وفي اليوم الذي سبق قيام قسطنطين بهزيمة وقتل منافسه ماكسنتيوس ليُعلن بعد ذلك إمبراطوراً، كان قد رأى في مغيب الشمس رؤيا تضمنت رسالة إلهية تُظهر صليباً وقد حفرت عليه الكلمات التالية (بهذه العلامة ستكون المنتصر). ولكن ما

أغفل المؤرخون المسيحيون ذكره كالعادة ما قيل أيضاً عن أن هذا الإمبراطور المسيحي قد أمر بوضع زوجته فوستا في الماء المغلي حتى تموت كما أمر بقتل ابنه كريسبوس[34]. إلا أن سفك الدماء والقمع الذي أدخل أوروبا إلى المسيحية لم يكن مقصوراً على أعمال قسطنطين الشخصية فقط، ولا على أعماله العامة وأعمال من خلفه من المسيحيين الذين أصدروا القوانين باعتبار الهرطقة عملاً خيانياً يستحق التعذيب والموت.

لقد أصبح إصدار الأوامر بتعذيب وقتل كل من لا يتقبل النظام الجديد[35]، ممارسة عادية بالنسبة لزعماء الكنيسة المسيحيين، كما أصبح فيما بعد ممارسة معيارية من أجل تنفيذ كبح منهجي لجميع المعلومات الهرطقية التي يمكن أن تهدد حكم هذه الهرمية الذكورية الجديدة.

وهكذا بدلاً من أن يصبح الله روحاً نقية للأب والأم، أصبح ذكراً خالصاً، كما أصرّ الباب بولس السادس على التأكيد عام 1977 بأنه قبل ألفي عام تم منع النساء من أن يصبحوا كهنة لأن الله (سيدنا) كان ذكراً[36]. وفي الوقت نفسه تم تدمير ومصادرة وشجب جميع الأناجيل التي ظل يتداولها المسيحيون في بداية عهد المسيحية، بعد أن أطلق عليها هؤلاء الذين دعوا أنفسهم تقليديين نصّبوا أنفسهم كنيسة شرعية، صفة الهرطقة.

وتضيف باغلز أن جميع تلك المصادر، مثل الأناجيل السرية، والأسفار، والتعاليم الروحانية، لم تكن مدخلة في القائمة التي تشكلت منها مجموعة العهد الجديد. كما تم حذف كل نص من النصوص السرية التي كانت الجماعات الروحانية تحترمه وتصرح به بحيث أقصيت تلك التعاليم من مجموعة القوانين المسيحية واعتبرها هؤلاء الذين سموا أنفسهم بالمسيحيين التقليديين، هرطقة، وهكذا مع أواخر العام 200 بعد الميلاد، كانت جميع التصورات الأنثوية لله قد اختفت من التقاليد المسيحية الرسمية[37].

ولعل قيام مسيحيين بوصم مسيحيين آخرين بالهرطقة، يعتبر أمراً مثيراً للسخرية في ضوء حقيقة أن المجتمعات التي عاش بها الرسل الأوائل كانت تضم نساءً ورجالاً يعملون كما أمرهم يسوع في محبة أخوية مدهشة. كما أن ما يثير السخرية أكثر هو أن هؤلاء الرجال والنساء الذين عاشوا وعملوا يداً بيد قد لاقوا حتفهم كشهداء مسيحيين بينما أمضى هؤلاء الذين استخدموا المسيحية لتثبيت حكمهم، وقتهم في جعل الحياة المسيحية والإيديولوجية المسيحية ملائمة للشكل الذكوري في الحكم وفي الحياة.

ومع مرور السنين، أصبحت مسالة تحويل وثنيي أوروبا إلى المسيحية، ذريعة لإعادة تثبيت مبدأ الهيمنة القائل بأن الحق هو للقوة. وكان هذا الأمر يتطلب فقط هزيمة كل من لا يعتنق المسيحية الرسمية أو إرغامه على اعتناقها بالقوة. كما تطلب الأمر أيضاً تدمير المعابد والهياكل والأصنام الوثنية وإغلاق الأكاديميات الإغريقية التي تطرح في داخلها الأسئلة الهرطقية. وقد لاقت الكنيسة نجاحاً منقطع النظير في إثبات مقولتها بأن الحق هو للقوة بحيث أنه وحتى عصر النهضة أي بعد ألف عام من هذه الأحداث، لم يكن هناك عملياً أي وجود لأي تعبير فني أو سعي لمعرفة تجريبية غير مبارك من قِبَل الكنيسة. لقد كان التدمير شاملاً لكل معرفة بقيت على قيد الحياة، وشمل هذا التدمير حرق الكتب وامتد إلى خارج أوروبا، وإلى أي مكان استطاعت يد السلطة المسيحية أن تطاله.

ففي عام 391 بعد الميلاد وتحت حكم ثيودوسيوس الأول، قام هؤلاء المهيمنون على النظام المسيحي بحرق مكتبة الإسكندرية وهي إحدى المخازن الوحيدة التي بقيت تحتفظ بالحكمة والمعرفة السابقتين[38]. وبمساعدة وتحريض من الرجل الذي تم تطويبه قانونياً فيما بعد باسم القديس سيريل، وهو أسقف الإسكندرية المسيحي، قام الرهبان المسيحيون باستخدام الأصداف البحرية من

أجل تمزيق كتب الرياضيات والفلك وكتب فيلسوفة الإسكندرية المشهورة في فلسفة العصر الحجري الحديث «هايباتيا» والتي كانت معروفة لكونها أشهر علماء ذلك الزمان. إلا أنها بالنسبة لسيريل كانت امرأة تُكثر من طرح الأسئلة وكانت، خلافاً لتعاليم الله، تقوم بتعليم الرجال[39].

في الكتابات الرسمية القانونية، مثل تلك المنسوبة إلى بولص والتي بدأ العلماء يكتشفون بشكل متزايد أنها زائفة، يظهر تشديد على أن المرأة وما يمتّ لها بصلة الأنثوية، هي مخلوق أدنى درجة وخطر بحيث يتطلب الأمر السيطرة عليه بصرامة. ولكن وُجدت استثناءات قليلة مثل كتابات كليمنت من الإسكندرية، التي تصف الله بأنه ذكوري وأنثوي معاً، وتقول بأن الرجال والنساء يتشاركون في صفة الإنسانية[40]. إلا أن نموذج العلاقات الإنسانية الذي اقترحه يسوع والذي يساوي بين الذكر والأنثى والغني والفقير واليهودي وغير اليهودي، كان منزوعاً تماماً من جميع الإيديولوجيات والممارسات اليومية التي كانت تتبناها الكنيسة المسيحية التقليدية.

ادعى الرجال القيّمون على الكنيسة التقليدية الجديدة بأنهم يرفعون في طقوسهم الكأس المقدسة القديمة والتي أصبحت الآن كأس العشاء الرباني المليء بالدم الرمزي للمسيح، ولكنهم في الحقيقة عادوا ليرفعوا نصل السكين فوق الجميع. وتحت هذا النصل وتحت نار التحالف الذي قام بين الكنيسة والطبقة الحاكمة، سقط العديد من الناس، ليس الوثنيون واليهود وأنصار الديانات السابقة فحسب بل المسيحيين أيضاً الذين رفضوا الإذعان لهذا الحكم الجديد. وقد استمر هؤلاء القيّمون على الكنيسة بالادعاء بأن هدفهم هو نشر تعاليم الإنجيل حول المحبة ولكنهم عبر وحشيتهم التي تجلّت في حروبهم الصليبية المقدسة وفي اصطياد الساحرات وحرقهن، وإحراق الكتب، لم ينشروا أية محبة بل نشروا أصناف القمع والتدمير والتخريب والموت.

وهكذا ولسخرية الحدث، تحولت ثورة المسيح اللاعنيفة والتي مات من أجلها على الصليب، إلى حكم للقوة والرعب. وكما ذكر المؤرخان ويل وآرييل دورانت، فإن مسيحية القرون الوسطى، في سعيها لتشويه وتحريف تعاليم يسوع، أعادت التطور الأخلاقي إلى الوراء[41]. وبدلاً من أن تشكل تهديداً للنظام الذكوري القمعي أصبحت، مثلما أصبح غيرها من الأديان الأرضية التي تشن حملاتها التبشيرية باسم النور الإلهي والحرية، أداة سلطوية جبارة في استمرار ذلك النظام.

ومع ذلك، فإن الصراع بين نظام الهيمنة والنظام التشاركي لم ينته بعد. ففي بعض الأزمان والأماكن المعينة عبر القرون المظلمة لحكم المسيحية الذكورية، والملوك المستبدين والبابوات الذين حكموا أوروبا باسم المسيحية، ظلت الريح التشاركية تهب بين الفينة والأخرى لاستعادة مسار تطورنا الحضاري. وكما سنرى في الفصول التي تلي، كان هذا الصراع هو القوة الرئيسية غير المرئية التي أعطت شكلاً لتاريخ الغرب وستظل تفعل ذلك في المستقبل القادم.

الفصل 10

أنماط الماضي

المساواة بين الذكورية والنسوية في التاريخ

يعتبر التاريخ الذي يدَّرس في المدارس، بشكل عام، مسألة صراع على السلطة بين الرجال وبين الأمم. فهو تسجيل لتواريخ المعارك وأسماء الملوك والجنرالات الذين اشتهروا في بناء القلاع والقصور والتماثيل الدينية أو في تدميرها. ولكن إذا أعدنا النظر إلى التاريخ في ضوء المعلومات الجديدة التي فحصناها والإطار النظري الذي يجري تطويره، فسنلاحظ بروز نوع مختلف من النزاع. فالآن، وخلف جميع التواريخ والأسماء الدموية، يمكن رؤية بعض العمليات الأساسية التي يقوم بدراستها علماء من أمثال: إيليا برغوغين، وإيزابيل ستينجرز وإدوارد لورنز ورالف أبراهام، في العالم الطبيعي[1] مثل: التذبذب أو ما يبدو أنه حركة بلا نمط، والتقلب أو الحركة الدورية، وتغير الأنظمة عند نقاط تفرع حاسمة حيث يقوم النظام، حسبما يذكر برغوغين وستينجرز باختيار مستقبل محدد من بين عدة احتمالات مستقبلية[2].

إذا نظرنا على السطح، يمكننا أولاً ملاحظة التذبذبات التي تطرأ عبر التاريخ من فترات حرب إلى فترات سلم، ومن تسلط إلى أوقات أكثر حرية وإبداعاً، ومن أوقات تشهد قمعاً للنساء إلى أوقات تتمكن فيها بعض النساء على الأقل من توسيع فرصهن في الحياة وفي التعليم. ومثل هذه الأنواع من

التذبذبات لا تدهش المؤرخ التقليدي لأنها ببساطة تشكل ما هو موجود ولا تحمل بالضرورة أية معانٍ أكبر.

ولكن هل هي في الحقيقة حركة عشوائية بلا نمط؟ إذا نظرنا نظرة أكثر عمقاً، فسنلحظ وجود أنماط لتلك التذبذبات التاريخية، ويمكننا من خلال المنظور الذي نقوم بتطويره أن نلحظ أن أوقات الحروب هي أوقات يزداد فيها التسلط وأن أوقات السلام هي أوقات تزداد فيها المساواة ويزداد فيها التطور الحضاري والإبداع الراقي. وإذا تعمقنا أكثر في نظرتنا، يظهر لنا النمط الدوري لهذه التذبذبات والتحركات، كما نلحظ أن وراء هذه التحركات الدورية توجد أسس للحركة لم تحظَ حتى الآن إلا بدراسة هامشية أو سطحية.

إذا نظرنا إلى التاريخ من منظور شمولي، آخذين في اعتبارنا كلاً من نصفي البشرية بالإضافة إلى مدى شامل لتطورنا الحضاري، فسنلاحظ كيف أن هذه الأنماط الدورية ترتبط بالتحول الأساسي الذي قمنا بتفحصه: أي التغير الذي وقع في الأنظمة في فترة ما قبل التاريخ والذي وضعنا على مسار يختلف اختلافاً جذرياً في تطورنا الحضاري. وإذا تمعنا فيما حدث بعد هذا التحول من النموذج التشاركي بين نصفي البشر إلى النموذج المهيمن في النظام الاجتماعي على ضوء المبادئ الجديدة المتعلقة باستقرار الأنظمة وتغيرها التي تم اكتشافها حديثاً في العلوم الطبيعية، فإن تسجيلنا للتاريخ سيتطلب منا تقديم توضيحات جديدة بالإضافة إلى بروز تعقيدات جديدة.

يستخدم علماء الرياضيات في دراستهم لعمليات تحرك الأنظمة كلمة تدعى: الجاذبون؛ attractors وهي كلمة قريبة لكلمة مغناطيسات، وهؤلاء الجاذبون قد يكونون على شكل نقطة أو على شكل موقع ثابت وغير متحرك يتحكم بحركات الأنظمة التي هي في حالة توازن؛ كما قد يكونون على شكل جاذبين دوريين يتحكمون بحركات التقلب الدوري، أو على شكل جاذبين

فوضويين أو غرباء يميزون حالة بعيدة كل البُعد عن التوازن[3]. وعلى شبه المنعزلات الهامشية التي وضعها غولد وإيلدريج، يمكن للجاذبين الفوضيين أو الغرباء أن يصبحوا بطريقة نسبية سريعة وغير متوقعة، نوىً لبناء نظام شامل وجديد. ولكن يمكن أيضاً أن تحدث تحولات تدريجية ولطيفة عندما تفقد النقاط الجاذبة بعضاً من جاذبيتها ويصبح الجاذبون الدوريون أكثر قدرة على الجذب[4].

كذلك، يتحدث برغوغين وستينجرز عن تذبذبات تتركز أولاً في جزء صغير من النظام. وإذا كان النظام ثابتاً، فإن طريقة العمل الجديدة المتمثلة في هذه الذبذبات لن تستمر في الحياة. ولكن إذا تضاعفت هذه الإبداعات بالسرعة الكافية فإن النظام بأكمله قد يتبنى طريقة جديدة في العمل[5]. بكلمة أخرى، إذا تجاوزت الذبذبات ما يطلق عليه برغوغين وستينجر اسم عتبة تكوين النواة، فإن هذه الذبذبات ستنتشر في كامل أجزاء النظام، ومع تضاعفها تنشأ نقاط تفرُّع حاسمة. وتشكل هذه النقاط عملياً منافذ لتغيرات محتملة في الأنظمة يتم فتحها. وعندما يتم الوصول إلى نقاط التفرع هذه، تنهار الوصفات المحددة ويصبح اختيار الفرع الذي سيؤدي إلى المستقبل أمراً لا يمكن توقعه أو التنبؤ به[6].

كيف يمكننا تطبيق هذه الملاحظات المتعلقة بالعمليات الطبيعية، على العمليات الاجتماعية؟ بالطبع هناك اختلافات هامة بين الأنظمة الكيميائية والبيولوجية والاجتماعية، ليس من ناحية التعقيد فحسب، بل من ناحية أكثر ملاحظة وهي وجود عنصر اختياري أكبر للتقدم. ولكن على الرغم من ضرورة عدم تقليص ما يحدث في النظم الاجتماعية إلى ما يحدث على المستويات الأكثر بساطة في النظم الأخرى، إلا أننا إذا ألقينا نظرة عن قرب إلى جميع الأنظمة الحيّة فسنلحظ وجود تشابهات لافتة للنظر في الأنماط التي تتحكم بجميع مستويات التغيير والاستقرار. وإذا نظرنا إلى التاريخ من منظور متحرك تمنحه لنا هذه النظرة الجديدة حول تطور الأنظمة وتغيرها، يصبح بإمكاننا أن نبدأ بصياغة

نظرية جديدة للتغير الحضاري أو بشكل أخص للتغير الذي يرافق الأنظمة التشاركية والأنظمة التي يهيمن عليها الرجال.

وبدلاً من أن تحدث بشكل عشوائي، يمكن النظر إلى التذبذبات والتقلبات المسجلة عبر التاريخ، على أنها انعكاسات لحركة دورية في الأنظمة المهيمنة السائدة نحو نموذج تشاركي جاذب في التنظيم الاجتماعي. على المستوى البنيوي، ينعكس هذا الأمر على التغيرات الدورية في طرق تنظيم العلاقات الاجتماعية، وخاصة العلاقة بين نصفي البشر ذكوراً وإناثاً. أما على مستوى القيم التي تشمل كل شيء من الأدب إلى السياسات الاجتماعية، فإن الأمر ينعكس على الصراع الدوري الذي يحدث بين القيم الذكورية المتشددة المتمثلة في نصل السكين والقيم اللطيفة المتمثلة في الكأس المقدسة.

أيضاً، يمكن رؤية هذه التحركات التاريخية من منظور تطوري أوسع. فكما رأينا في الفصول السابقة، كان توجه التطور الحضاري لجنسنا البشري خلال الأعوام التي تشكلت فيها الحضارة الإنسانية نحو ما يمكن أن نسميه تشاركية مبكرة أو نموذجاً مجتمعياً تسود فيه القيم الأنثوية. وقد اتخذ تطورنا الحضاري شكله الأولي على هذا النموذج ووصل إلى ذروته المبكرة في حضارة كريت الإبداعية الراقية. بعد ذلك، تلت فترة من عدم التوازن أو الفوضى، وعبر موجات متتالية من الغزوات، وسيطرة متكررة لقوى السيف والقلم، أخذ نموذج الهيمنة يعمل في البداية كجاذب فوضوي ليصبح بعد ذلك جاذباً مثبتاً أو نقطة جذب للحضارة الغربية بأكملها. ولكن عبر التاريخ المدوّن وخصوصاً خلال فترات عدم الاستقرار الاجتماعي، استمر النموذج التشاركي أو الأنثوي بالعمل كجاذب دوري أكثر ضعفاً ولكنه متواصل. ومثله مثل نبتة ترفض أن تموت رغم تكرر تقطيعها وتهشيمها. كما سيظهر لنا التاريخ الذي سنعيد فحصه الآن، ظلت التشاركية تسعى مرة إثر مرة لإعادة تأسيس مكان لها تحت الشمس.

الأنثوية كقوة في التاريخ

شكلت النظرة إلى التاريخ على أنه حركة جدلية للقوى المتصارعة الفكر الهيجيلي والماركسي وغيرهما من التحليلات السياسية. فقد تمت ملاحظة الدورات التاريخية أيضاً من قبل أرنولد توينبي وأوزوالد سبنغلر وآرثر شليزنيغر وغيرهم[7]. إلا أن التواريخ التقليدية المتمركزة حول الذكورية تتميز بعدم ذكر التغيرات القوية التي تجرَي بين فترات عن الصعود الأنثوي (التشاركية) والتراجع الذكوري (هيمنة الرجال على الحكم).

ومن أجل فهم هذه التغيرات الدورية التي وصلت الآن مرحلة حاسمة علينا أن نتحول إلى أعمال المؤرخين غير التقليديين، لأن أي نقلة من السلم إلى الحرب يمكن أن تكون الأخيرة بالنسبة لهذا العالم.

أحد هؤلاء المؤرخين هو هنري آدامز، ورغم كونه صاحب رؤيا في بعض النواحي، إلا أنه في الأساس رجل محافظ يجادل لصالح العودة إلى القيم القديمة الأكثر تديناً. ولكننا إذا نظرنا إلى أعمال آدامز نظرة ما دون السطح، نجد إدراكاً لقوة تاريخية جبارة تعرضت للتجاهل من قِبَل التقليديين. وقد أكّد آدامز أنه بدون فهم حركة الجنس، يعتبر التاريخ مجرد سرد كلامي. وكما انتقد التاريخ الأميركي لأنه بالكاد يذكر اسم امرأة وانتقد التاريخ البريطاني بسبب تعامله مع المرأة بسذاجة وكأنها جنس جديد لم يرد وصفه[8]. إلا أن من المؤكد أن الدافع الرئيسي في تحليل آدامز هو قوله بأن قوى التحضر في التاريخ الغربي[9] كانت ما أطلق عليه اسم «العذراء» . وأضاف أن كل البخار في العالم لا يمكنه أن يبني شيئاً مثل العذراء لأن العذراء هي أعظم قوة شعر بها العالم الغربي[9]. وفي مواجهة القوة الإيجابية التي تمثلها العذراء، كانت هناك قوة سلبية تدميرية قاسية أطلق عليها آدامز اسم «الدينامو» أو التقنية الشريرة التي تجرد الإنسان من إنسانيته.

وضع آدامز ملاحظاته ضمن خليط من القوالب الذكورية الجنسية والتعميمات الروحانية. ولكن عند تخطي هذه العقبات، ينبثق في الحقيقة الصراع نفسه الذي حددناه سابقاً على أنه صراع بين منظورين للقوة يتمثلان في الذكورية البحتة وفي الأنثوية المشاركة مع الذكورية بشكل متساوٍ، أي نموذجي نظام الهيمنة ونظام التشاركية، وبكلمة أخرى الكأس المقدسة وحد السكين. وتمثل الكأس المقدسة إلى جانب العذراء رمزين للقوة الأنثوية على الإبداع والرعاية، بينما يمثل حد السكين والدينامو رمزين ذكريين للتقنية المدمرة والمجنونة.

سبق هذا التحليل للتاريخ، تحليل أكثر لفتاً للنظر يتعلق بالنزاع بين ما يسمى القيم الأنثوية والقيم الذكورية، وقد ورد هذا التحليل في كتاب راتراي تايلور «الجنس عبر التاريخ»[10]، ولكن كما هو الحال مع آدامز، فإن استخدام المعلومات التي قدمها تايلور يتطلب منا تجاوز ما يقول إنه يصفه إلى حقيقة ما يصفه. وتبعاً لنظريات فيلهيلم رايخ[11] وغيره من علماء النفس المعروفين الذين رأوا في المجتمعات الأبوية نوعاً من القمع الجنسي، يبين تايلور أن التاريخ يتأرجح بين مواقف متسامحة جنسياً ومواقف كابتة وقامعة للجنس، وهذه المواقف تأتي في أسس التغيير بين فترات أكثر حرية وإبداعاً وفترات أكثر استبداداً أو أقل إبداعاً[12]. ولكن ما يوثقه كتابه في الحقيقة هو أن وراء هذه الدورات توجد نقلات بين القيم التي يشير إليها هو باسم قيم منسوبة للأب (أبوية) وقيم منسوبة للأم (أمومية).

ومن المؤكد أن التعريفات التي وضعها تايلور بسبب عدم وجود مفردات توضح ما يريد أن يصفه مثل «التعريف من خلال الأم» أو «التعريف من خلال الأب» ، هي تعريفات تشبه ما تصفه مفردات الذكورية والأنثوية المتساوية مع الذكورية. والفترات التي شهدت التعريف من خلال الأم، هي الفترات التي حظيت فيها القيم النسائية والمرأة بمنزلة أعلى، وتميزت هذه الفترات بإبداعات

أكبر، وقمع اجتماعي وجنسي أقل وإصلاحات اجتماعية أكثر وفردية أكبر. وعلى العكس من ذلك تميزت فترات «التعريف من خلال الأب» بازدراء أكثر صراحة للمرأة، وهي فترات شهدت خلال تصاعدها قمعاً اجتماعياً وجنسياً أكبر مع تركيز أقل على الفنون الإبداعية والإصلاحات الاجتماعية[13].

ويستخدم تايلور فترة «التروبادور» في جنوب فرنسا كمثل على فترات التعريف من خلال الأم في العصور الوسطى أو كما نضعها نحن في مفرداتنا فترة انطلاق التشاركية بين الذكور والإناث. فقد شهدت هذه الفترة الخارجة من بلاط القرن الثاني عشر للملكة أكويتين، إليانور وابنتاها ماري وأليكس حباً مهذباً واحتراماً وتقديراً للمرأة تمثل في مواضيع مركزية لكل من الشعر والحياة[14]. وكانت النظرة إلى المرأة في فترة التروبادور مشرقة وقوية بدلاً من أن تكون خاضعة للهيمنة ومحتقرة، فيما كانت النظرة إلى الرجل نبيلاً ومهذباً وليس مهيمِناً وقاسياً. وهذه النظرة ليست جديدة إذ أنها كانت تكرر كلاً من كريت والعصر الحجري الحديث. كما أنها كانت تشكل نظرة ثورية حقيقية تتحدث عن الشهامة النبيلة والرجال الشرفاء والمهذبين والحب الرومانسي، في عصر سادت فيه أعراف الوحشية والعنترية الذكورية.

ويبين تايلور أنه لا يوجد أي شك بأن قيم الأنثوية أو التروبادور المرتبطة بالأم أدت إلى تعميق إنسانية التاريخ الغربي[15]. إذ أن هذه القيم لم تكن تزدهر خلال فترات تصاعد الأمومية، فحسب بل إنها دفعت الذكوريين إلى حد ما، لتقبل مثال المعاملة المهذبة للضعفاء والأطفال والنساء، شرط أن يكون أولئك النساء من طبقتهم نفسها[16].

ويكتب تايلور عن التروبادوريين فيقول أنهم كانوا مبدعين وتقدميين، يهتمون بالفنون ويضغطون باتجاه الإصلاحات الاجتماعية. وقد تجنبوا استخدام

رة وكانوا يبتهجون للألوان الزاهية والثياب الملونة. وفوق كل شيء
بوا السيدة العذراء كشفيعتهم الخاصة، وكتبوا فيها العديد من القصائد،
1140 تم إحياء عيد جديد في ليونز، وهو عيد احتج عليه برنارد أس
رفو بقوله إنه كان غير معروف في التقاليد الكنسية، وغير مقبول منطقياً و
موح به تقليدياً، وهو عيد «الحمْل النقي»[17].

وكانت إدانة برنارد لهذا العيد تقوم على عدم وجود أسس لتقليد مس
يقضي بعبادة المرأة التي أنجبت الابن الإلهي. فعبادة مريم العذراء تعني ال
ممارسة العبادة القديمة للإلهات. ولم تكن مقاومة الكنيسة الشديدة لعبادة
ي اعترافاً صامتاً منها لتواصل قوة هذا الدين القديم، ولكنها كانت تعبيراً
ومة ذكورية لعودة ظهور المبادئ الأنثوية التشاركية التي ميزت -
روبادور.

وإذا رغبنا من خلال قراءتنا أن نستبدل كلمات تايلور التي استخدمها
سب إلى الأب والنسب إلى الأم بكلمات مثل ذكورية وأنثوية تشاركية،
ظم ما كان يبدو لنا صعب الاستيعاب في تاريخ العصور الوسطى يصب
ى سياسي خاص. فحكم الكنيسة على النساء، كونهن خاضعات ومذ
مت، يمكن أن يرى ليس على شكل سر تاريخي بل كتعبير أولي عن س
موذج الذكوري المهيمن على الكنيسة. لقد كان ضرورياً أن يتم إخ
ساء وإسكاتهن، إلى جانب إسكات القيم النسوية التي كان يسوع يعظ ب
صل، وذلك من أجل أن تسود الأعراف الذكورية ومعها سلطة الكنيس
رون الوسطى.

هناك ناحية أخرى يتعذر تفسيرها حول تاريخ العصور الوسطى ولكن
تسب معنىً سياسياً مفهوماً وحاسماً إذا ما وضعت ضمن المفهوم الج

وهذه الناحية هي قيام الكنيسة بالحطّ من منزلة المرأة ووصفها بالمصدر الشهواني[18] لجميع الشرور، (كما ورد في كتاب ضرب الساحرات وهو الدليل الذي باركته الكنيسة لكل من أراد اصطياد الساحرات).

وفي معظم كتب التاريخ، مرت قصص اصطياد الساحرات التي جاءت بناءً على أوامر من الكنيسة عبر قرون عديدة وقام على أثرها العديد من الرجال بإنزال التعذيب السادي الوحشي على آلاف وربما ملايين الساحرات، مرور الكرام. وحين كانت هذه القصص التي تحكي عن أعمال اضطهاد بربري للنساء شملت إيقاع آلام شديدة بهن من خلال إحراقهن ببطء حتى الموت، تُذكر من حين لآخر، فإنها كانت تبرر على أنها نوع من الهستيريا أو الجنون الجماعي. فقد أبلغنا أنه ما بين القرن الثالث عشر والقرن السادس عشر بعد الميلاد تعرض الفلاحون في أوروبا إلى موجة من الجنون أو أن الساحرات أنفسهن كن مجنونات. وقد كتب غريغوري زيلبورغ يقول: إن ملايين الساحرات والمشعوذات كن يشكلن كماً هائلاً من المهووسات والمصابات باضطرابات عصبية[19]. وكما تشير باربرا إيرينرايخ وديردري إنجلش «إن الهوس الذي عمّ ضد الساحرات لم يكن على شكل حلقات إعدام دون محاكمة قانونية أو على شكل انتحار جماعي بل كان يتبع إجراءات قانونية محكمة التنظيم وكانت حملات اصطياد الساحرات تنظم بشكل جيد وتعزز وتنفذ من قِبَل الكنيسة والدولة»[20].

كان أحد الدوافع وراء هذا الاضطهاد هو بدء عمل الأطباء الذكور الذين تعلموا على يد الكنيسة دون أن يعطوا أي تدريبات عملية لمعالجة الناس، بمعالجة الملوك والنبلاء في القرن الثالث عشر. وقد أخذ هؤلاء يتنافسون مع النساء الحكيمات اللواتي كن يعالجن بالطرق التقليدية واللواتي اتهمنّ بامتلاك قوى سحرية تؤثر على صحة الإنسان، واللواتي تعرضن للموت حرقاً بتهمة استخدام هذه القوى السحرية للمساعدة والشفاء[21]. كذلك كان هناك دافع

آخر انعكس في الاتهام الذي وُجِّه لأولئك الساحرات بإقامة مواقع منظمة في الغابات يجتمع فيه الوثنيون لمعاشرة الشياطين. ولعل السبب وراء هذا كان تعلق العديد من النساء بمعتقداتهن الدينية السابقة التي تشمل عبادة إلهة أنثى ورفيقها الإله المتمثل في الصورة القديمة للثور والذي أصبح الآن رمزاً للشيطان ذي الأظلاف المشقوقة. ولكن التهمة الأكثر تكراراً لهؤلاء الساحرات كانت تتعلق بكونهن يمارسن الجنس لأن قوة الساحرات في نظر الكنيسة كانت مشتقة من جنسهن الأنثوي الأثيم[22].

عادةً ما تظهر هذه النظرة المريضة الكارهة للنساء نتيجة لعدم منطقية بعض الرجال المكبوتين جنسياً، ولكن موقف الكنيسة الأخلاقي في الحطّ من منزلة النساء كانت أبعد من أن تكون مسألة نفسية. لقد كانت ذريعة للهيمنة الذكورية ورداً مناسباً ومنطقياً بالنسبة للنظام الذكوري ليس على ما تبقى من التقاليد الأنثوية التشاركية القديمة فحسب، بل على ما قد يظهر لاحقاً من تمرد أنثوي، كما يذكر تايلور، يمكن أن يهدد بإسقاط السلطة الأبوية[23].

بكلمة أخرى، لم يكن السماح الرسمي باصطياد الساحرات، وتكرار الإذلال لجنس المرأة من قِبَل الكنيسة، يشكل ظاهرة شاذة ليس لها ارتباط، بل كان يشكل عناصر أساسية في فرض النظام الذكوري والمحافظة عليه إضافة إلى كونه وسيلة ضرورية ومنطقية في مواجهة أي تمرد أنثوي.

وفي تركيزه على موقف الكنيسة الهستيري ضد الجنس وقمعها الوحشي له، وهو ما جعل من العصور الوسطى الأخلاقية ممراً طريفاً بين مركز حفظ جثث الموتى وملجأ للأمراض العقلية[24]، ينزع تايلور إلى عدم ذكر الطابع العدائي للأنثوية في موقف الكنيسة الاتهامي ضد الجنس. ومع ذلك، فإن المعلومات التي يقدمها لا تترك إلا القليل من التساؤل حول ما الذي كانت الكنيسة تعتبره قبل كل شيء هرطقة. مراراً وتكراراً يبين تايلور أن الخيط الذي

يربط بين مختلف المذاهب التي اعتبرتها الكنيسة هرطقية واضطهدتها بوحشية هو أنها جميعها كانت تحمل قيماً أنثوية. وهذه المذاهب كانت تعبد في العادة العذراء على أنها سيدة الفكر. ومثلها مثل المذاهب المسيحية الأولى التي لعبت دوراً هاماً في الانبعاث الأنثوي في زمانها، كانت الأخيرة تعطي المرأة منزلة عالية ومراكز قيادية[25].

وكما يذكر تايلور نفسه: إن السؤال الذي يجب علينا أن نطرحه هو لماذا كانت الكنيسة تشعر، مهما كان هذا الشعور غامضاً، بوجود عامل موحد يربط التروبادور والكاثار والباغارد وغيرها من المذاهب الصغيرة التي كانت تدعو إلى الحب الطاهر؟ والجواب لابد أن يكون بأنه كان هناك مثل هذا العامل المشترك... فبينما اختلفت عقائد وطقوس هذه المذاهب وبينما ادعى بعضها أنه ما زال معدوداً ضمن الكنيسة، إلا أنها من الناحية النفسية كانت ترتبط بشيء مشترك هو التعريف من خلال الأم. وهذا الأمر الأخير هو الهرطقة الوحيدة التي كانت كنيسة العصور الوسطى تهتم بها[26].

التاريخ يعيد نفسه

في كتاب «الجنس في التاريخ» نجد أن الصفة الأساسية لكنيسة العصور الوسطى كانت التعريف من خلال الأب. أي صفة الذكورية أو الهيمنة في مفرداتنا التي نستخدمها. كذلك نبدأ برؤية أن وراء تقلبات التاريخ توجد نزاعات محددة بين قيم الهيمنة وقيم التشاركية.

على سبيل المثال، يلحظ تايلور كيف أنه خلال العصر الإليزابيثي، أي عندما اعتلت عرش إنجلترا الملكة إليزابيث الأولى، شهدت القيم الأنثوية، ومسألة التعريف من خلال الأم تصاعداً في وتيرتها، ورغم استمرار القسوة المتبعة في ذلك الزمان، إلا أن إنجلترا في عهد إليزابيث شهدت صحوة ضمير من

ناحية المسؤولية تجاه الآخرين. وقد وجدت هذه الصحوة تعبيرها في مؤسسة قانون الفقراء. كذلك شهدت تلك الفترة ميلاً نحو التعلم الحر الذي وجد تعبيره في البعثات التعليمية وفي إقامة المدارس للطلاب وفي بروز طاقات إبداعية، خاصة في مجالات الشعر والمسرح وهما الشكلان الفنيان الأكثر تفضيلاً في إنجلترا، إلا أن هذه الطاقات ظهرت أيضاً في مجالات الرسم والعمارة والموسيقى[27].

والأمر الملاحظ، بل والحاسم كما سنرى لاحقاً في نواحي الأنظمة أنه خلال فترات الانبعاث الأنثوي مثل فترة التروبادور، والعصر الإليزابيثي وعصر النهضة، هو أن نساء الطبقة الراقية حصلن على حريات أكبر وعلى قدر أكبر من التعليم[28]. على سبيل المثال ظهرت بورثيا وغيرها من بطلات قصص شيكسبير كنسوة متعلمات مما يعكس نوعاً من المنزلة الأعلى للنساء في تلك الفترة، ولكن كما تشير معاملة «كيت» بطلة مسرحية «ترويض المرأة السليطة» لشيكسبير أيضاً والتي اعتبرت هرطوقية متمردة، إضافة إلى أعمال أدبية أخرى، فإن التوجه العنيف لإعادة تثبيت السيطرة الذكورية كان في طريقه للعمل حتى قبل أن يصل عهد الملكة إليزابيث إلى نهايته.

وقد شكلت عودة انتعاش العقائد التي تتحدث عن بغض النساء، دلالات أكيدة بأن بندول الساحة قد عاد يتأرجح للجهة الثانية، وإلى جانب ذلك تم إدخال حقائق جديدة من أجل تبرير إخضاع المرأة وإذعانها. وكانت هذه كلها تشكل مؤشرات لما أطلق عليه تايلور اسم «تضليل الذات المستمر الذي اتبعه أصحاب الهيمنة الذكورة في افتراضهم بأن معايير المسلكيات آخذة في التراجع» وأن إعادة فرض قيم التعريف على أسس الأبوية يتوجب إنجازها بأي ثمن[29]. والأهم من ذلك ن هذه المؤشرات شكلت تحذيراً مبكراً بأن فترة أشد قمعاً ودموية من الانتكاس الذكوري هي على وشك الظهور.

وتعتبر الأعمال الحديثة لعالِم النفس ديفيد وينتر ذات صلة خاصة بهذا الموضوع، فإلى جانب العلماء المعاصرين المعروفين، كان وينتر يدرس ما أطلق عليه في كتابه اسم الدافع نحو السلطة[30]. وكعالِم نفسي واجتماعي، عمل وينتر على كشف الأنماط التاريخية عبر قياسات موضوعية. وعلى الرغم من أن علينا أن ننظر إلى أبعد مما شدد عليه وينتر من منظور علم النفس التقليدي المتمحور حول الذكورية، إلا أن النتائج التي توصل إليها توّثق بشكل جذري بأن المواقف الأكثر قمعية تجاه النساء تشكل تنبؤات لفترات من الحروب العدوانية.

ويبني وينتر تحليله لشخصية «دون جوان» فاتن النساء الجريء في أشهر القصص الأدبية الرومانسية، على دراسة تكرر مواضيع محددة في الوثائق الأدبية. ويلاحظ وينتر أنه وعلى الرغم من الإدانات الإجبارية لأعمال دون جوان ونعتها بالأعمال الشريرة الملعونة إلا أن دون جوان كان يمثل أعظم زير نساء في إسبانيا وكانت الدوافع وراء أعماله، عداءه وكرهه للنساء ورغبته في إذلالهن ومعاقبتهن، ولم تكن تلك الدوافع جنسية. ويضيف وينتر في ملاحظاته شيئاً ذا أهمية نفسية وتاريخية عميقة هو أن المواقف المتشددة في العداء للنساء تظهر في الأزمنة التي تخضع فيها النساء لأشد حالات القمع. وتشكل إسبانيا التي خرجت منها قصة دون جوان مثالاً تقليدياً لهذا الوضع، عندما تبنت الطبقة الأرستقراطية الإسبانية عادة العرب في الأندلس الذين كانوا يبقون نساءهم في عزلة عن الناس[31]. ويشرح وينتر في ملاحظاته أن السبب النفسي وراء تصاعد هذا العداء للنساء هو توتر العلاقة بين الأم وابنها وبين الذكر والأنثى في تلك الفترات الزمنية[32].

وفي السياق، يبدو الدافع الذي يريد وينتر تفسيره واضحاً لنا وإذا استخدمنا مفرداتنا نجد أنه ذلك الدافع الذكوري لقهر باقي أفراد البشر والهيمنة عليهم. وبعد أن أظهر وينتر أن احتقار دون جوان للنساء يشكل ظاهرة لهذا

الدافع السلطوي، قام بوضع جدول لتكرر قصص مثل قصص دون جوان في أدب الأمم خلال فترات التوسع الإمبريالي والحروب. وقد أظهرت النتائج التي توصل إليها أن بإمكاننا التنبؤ باستخدام نموذج التغيير بين النظام التشاركي ونظام الهيمنة، إذ أن وتيرة هذه القصص حول هيمنة مثل هذه الشخصيات الذكورية الشهيرة على النساء تتصاعد قبل وبعد الفترات التي تشهد تصاعداً في العمليات التوسعية والغزوات والحروب[33].

ويؤكد وينتر أن مفردات الهيمنة الذكورية في الأنظمة ترتبط بشكل لا يقبل القطع مع العنف الذكوري خلال الحروب، كما يؤكد على ظاهرة التغير بين الأنظمة التشاركية والأنظمة المهيمنة والتي لاحظها في فترة سابقة بعض العلماء من الرواد في الحركة النسائية من أمثال كيت ميليت وثيودور روزاك، وهي أن عودة النظرة المثالية إلى الهيمنة الذكورية تشكل مؤشراً نحو الانتقال إلى قيم وسلوكيات كانت عبر التاريخ تتسبب في إشعال العنف الذي ينتج عن تراجعات في أنظمة الهيمنة[34].

شكلت دراسة ميليت الرائعة حول السياسة الجنسية، خطوة رائدة وطليعية في رؤيتها الفطرية لأهم عامل في تاريخنا السياسي وهو الهيمنة الذكورية[35]. وعلى الرغم من أن روزاك كان معروفاً أكثر لتحاليله التقليدية التي تتمحور حول الذكر في المجتمع، إلا أن مقالته «القاسي والناعم - قوة الأنثوية في الأزمنة الحديثة» تعتبر عملاً رائداً في تحليل التاريخ من منظور الفرضية النامية والمتعلقة بالتغيرات بين الأنظمة التشاركية والمهيمنة[36].

وفي نظرته بين السطور ووراء سطح مئات الدراسات التي تسعى إلى تفهم العنف المتصاعد والتسلط العسكري الذي بلغ ذروته في مجازر الحرب العالمية الأولى الرهيبة، اكتشف روزاك ما أسماه الأزمة التاريخية للهيمنة الذكورية[37]. وذكر في اكتشافه أن الحركة النسائية في القرن التاسع عشر لم تتحدّ القوالب

الجنسية التقليدية حول الهيمنة الذكورية والإذعان الأنثوي فحسب ولكنها شكلت تحدياً رئيسياً وملموساً للنظام السائد وصولاً إلى جوهر عقيدته.

عادةً، لا يتم تدوين مثل هذه التحديات التي ظهرت في القرن التاسع عشر في قصص تاريخنا التقليدي، ولكنها شكلت موضوعاً يدور حوله نقاش حار وحاد حول حركة تحرير المرأة في زمننا الحاضر، إذ إنه تحدى القيم الأكثر أساسية في نظامنا والتي تعتبر الرقة والرحمة والروح المسالمة طباعاً أنثوية لا تتلاءم أبداً مع الذكورية الحقيقية ولا مع الحاكمية الاجتماعية[38].

لقد جاء رد النظام المهيمن على هذا التحدي تأكيداً عنيفاً للقوالب الذكورية بجميع مظاهرها. وقد كتب روزاك عن فترتي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين اللتين سبقتا الحرب العالمية الأولى، يقول: كانت الذكورية الإجبارية تغطي الأسلوب السياسي المتبع في تلك المرحلة فقد تكلم ثيودور روزفلت في الولايات المتحدة عن سرطان التراخي المعزول والسلم وعن فضائل القيم الذكورية وروح المغامرة. وفي إيرلندا أعلن الشاعر الثوري باتريك بيرس أن إسالة الدماء هي عملية تنطوي على تطهير وتضحية، وأن الأمة التي تنظر إليها وكأنها رعب نهائي هي أمة فقدت رجولتها. أما في إيطاليا فقد نادى فيليبو مارينيتي بأننا منطلقون لتمجيد الحرب لأنها - أي الحرب - هي التي تعيد الصحة إلى هذا العالم، إنها العسكرية والوطنية والتدمير: أسلحة الفوضويين التي تحتقر النساء[39].

ومثلها مثل تلك القصة التي تمجد دون جوان، فإن هذا الازدراء الوحشي للنساء ولكل شيء أنثوي كان يشكل إشارة أو رسالة اخترقت الكتابات التي جسّرت جميع العوائق الوطنية والإيديولوجية بأن أي نقلة نحو عالم لا حربي ولا رجولي ولا يحكمه نظام ذكوري (نصل السكين) هو عالم لن يلقى تسامحاً أو تحملاً.

ومن خلال بحثه في عمق الاختلافات الوطنية والفكرية، بيّن روزاك وجود قواسم مشتركة بين الرجال الذين قاموا في مطلع هذا القرن وعبر التاريخ بإغراق العالم في الحروب. وهذا القاسم المشترك هو معادلة الذكورية مع العنف التي تتطلبها المحافظة على أي نظام قائم على مراتب القوة. كذلك أكد روزاك وبشكل جذري الحركة التي لاحظها وينتر في دراسته وهي أن إعادة النظر المثالية للقوالب الذكورية تشكل مؤشراً ليس على تراجع في القيم فحسب بل على انتقال من حالة السلم إلى حالة الحرب.

ويمكننا ملاحظة تأييد لافت للنظر لهذه التحركات الاجتماعية التي تعرضت للتجاهل، في أبحاث عالِم النفس دافيد ماكليلاند. ففي كتابه «القوة — التجربة الداخلية» يذكر ماكليلاند كيف أنه شرع ليرى كيف يمكن للمرء التنبؤ بفترات الحرب أو بفترات السلم من خلال النظر في المؤشرات الكتابية والتصريحات التي تسبق تلك الفترات[40]. وتؤكد النتائج التي توصل إليها أن بإمكاننا التنبؤ بجدولة التغيرات التاريخية عبر استخدام نموذجي التشاركية والهيمنة في التاريخ.

وقد درس ماكليلاند مواداً تاريخية وأدبية تعود للتاريخ الأميركي ووجد أن الفترات التي شهدت تعاظماً في قوة ما سماه «دافع الارتباط» ، (وما نسميه نحن بالقيم الأنثوية المسالمة والرحيمة) كانت تعقبها فترات سلام. على سبيل المثال، وجد ماكليلاند أن دافع الارتباط قد نما قبل سني السلام 1800-1810 و1920-1930[41]. وعلى العكس من ذلك وجد أن الكتابات أظهرت نقلة باتجاه دافع القوة الإمبريالية (أو ما نسميه نحن بدافع الهيمنة الذكورية) قبيل فترات وصلت في ذروتها إلى الحرب. وقد برزت هذه الظاهرة أيضاً في التاريخ الإنجليزي، حيث سبق الأحداث التاريخية العنيفة مزيج من دافع إمبريالي عالٍ نحو استخدام القوة ودافع ارتباط متدين كما حدث في الأعوام 1550، 1650،

1750[42]. من ناحية أخرى كانت فترات السلام في التاريخ الإنجليزي مسبوقة بفترات تصاعدت فيها دوافع الارتباط وانخفضت دوافع القوة.

ومثله مثل تايلور، يؤكد ماكليلاند صحة نقطة هامة أخرى وهي أن القيم الأكثر لطافة أو أنثوية والتي تميز النموذج التشاركي للمجتمع تشكل جزءاً من تصور اجتماعي وإيديولوجي يركز على الخلق بدلاً من التدمير. وكما رأينا في العصر الحجري الحديث وفي القصور والحدائق الغنّاء لكريت القديمة، وكذلك في الفترات التي يُطلق عليها تايلور فترة الانتساب إلى الأم مثل العصر الإليزابيثي في إنجلترا، فإن هذه الفترات التشاركية تتميز بكونها فترات إبداع ثقافي هائل.

ويذكر ماكليلاند بمفرداته الخاصة أن ما كان ملموساً في العصر الإليزابيثي هو أن جميع مؤشرات الدوافع تقودنا إلى المصادقة على القول بأن ذلك العصر كان عصراً جيداً للحياة تماماً مثلما بيّن المؤرخون. فقد ازدادت الحاجة للارتباط وتراجعت القوة قليلاً مما يرمز إلى أن الفترة كانت فترة سلام وازدهار نسبي[43]. ولكن بعد ذلك جاءت النقلة المألوفة. فخلال صراعات الفرسان وذوي الرؤوس المستديرة وخلال الحرب الأهلية التي تلت، عادت القوة لتبرز مرة أخرى وتراجعت الحاجة إلى الارتباط تراجعاً حاداً مما يدل على أن تلك الفترة كانت فترة عنف وقسوة شديدين[44]. وقد كانت كذلك. وإذا وضعنا هذا التحليل في مفرداتنا نقول إن الحركة باتجاه مستويات أعلى من التطور الحضاري قد وصلت إلى هذا الحد وتوقفت نتيجة سيادة نظام الهيمنة الذكورية الذي أغرق الوضع في تيارات العنف عبر محاولاته الحفاظ على النظام السائد، وتسبب في إحداث تراجع حضاري.

كذلك عمل تحليل ماكليلاند على إتمام وصف التصور الذي وضعناه سابقاً للأنظمة الذكورية المهيمنة، حين أكد على تعاظم الدكتاتورية خلال

الفترات التي سادت فيها هذه الأنظمة، فقد كتب يقول: ترافق عصر تراجع الارتباط وبروز القوة مع ظهور الأنظمة الدكتاتورية التي تتصف بالقسوة، وقمع الحريات والعنف المحلي والدولي[45].

كذلك ركزت الدراسات العلمية الأنثوية على القوة بطرق أكثر استنارة، فالأعمال الاستثنائية لعالِمة الاجتماع المعروفة جيسي برنارد وعالِمة النفس في جامعة هارفارد كارول غيليغان والطبيبة النفسية جين بيكر ميللر توثق كيف أن الارتباط في المجتمعات التي يهيمن عليها الذكور يترافق مع الأنثوية بينما تترافق القوة بمعناها التقليدي في السيطرة على الآخرين، مع الذكورية[46].

وتكشف هذه الأعمال أيضاً شيئاً آخر ذا أهمية كبيرة. فتصور القيم الذي يطلق عليه ماكليلاند اسم الارتباط، ويسميه تايلور الانتساب إلى الأم وندعوه نحن بالتشاركية بين الأنثى والذكر، يكون في المجتمعات التي يهيمن عليها الذكور مقتصراً على ذلك العالم الخاضع أو الملحق بالعالم الأوسع، وهو عالم النساء. هنا يمكننا رؤية تعريف القوة لدى الفكر التشاركي الذي يعني التمكين وليس التسلط. وكما تذكر ميللر، ما تزال طريقة تعريف النساء لمسألة القوة ترتبط بمسؤولية الأم عن مساعدة أطفالها وبالأخص أبناءها على تطوير مواهبهم وقدراتهم[47]. هنا يكمن التعريف الذي تطلق عليه برنارد الأخلاقية الأنثوية في الحب والواجب، وهي أخلاقية تظل نموذجاً للحركة والفكر ولكن فقط عند النساء[48]. وهنا أيضاً التعريف الذي تطلق عليه غيليغان اسم الأخلاقية الأنثوية في الرعاية أو الواجب الإيجابي الذي يدعو إلى معاملة الآخرين كما ترغب أنت في أن يعاملوك[49]. ولكن يبقى هذا النموذج أيضاً مقتصراً على النساء.

وإذا أخذنا في الاعتبار هذه الدراسات الجديدة حول ذلك النصف من البشرية الذي يتعرض للتجاهل من قِبَل الأنظمة التقليدية، فإننا نبدأ برؤية كيف

أن فترات الحرب والقمع يمكن التنبؤ بها عبر ملاحظة ضعف القيم التشاركية والارتباطية واستقواء قيم الهيمنة والعدوان والتصنيف القائم على القوة. كذلك يمكننا أن نلمح كيف أنه تحت هذه النقلات التي لا تجد تفسيراً في تاريخنا المدوّن، توجد مقاومة أساسية تعمل ضد تطورنا الحضاري: أي نظام اجتماعي يهيمن على النصف النسائي من البشرية ويقمعه.

النساء كقوة في التاريخ

ولكن لماذا لم تحظَ هذه التغيرات بين التشاركية والهيمنة إلا بالقليل من الدراسة الرسمية رغم وضوح حركتها؟ وعلى وجه التأكيد، لماذا لم تحظَ سلوكيات ونشاطات وأفكار النساء على القليل من الدراسات المستدامة أمام حقيقة كون النساء يشكلن نصف البشرية؟ هنا أيضاً نواجه ذلك الإغفال الذي سيظل العلماء والمؤرخون يرتكبونه لعصور قادمة.

إن الباب لولوج مثل هذه الدراسة الشاملة للمجتمع البشري هو الآن مفتوح جزئياً. فقد تم فتح شق فيه عندما بدأ المؤرخون، على حد قول لين وايت بإدراك أن تدوين التاريخ كان عملاً انتقائياً، اتصف بكونه خاضعاً لمصلحة الجماعات المهيمنة[50]. ولكن الآن والآن فقط، بدأنا بأخذ ذلك النصف المهمل من البشرية بعين الاعتبار وبشكل جدي وأخذنا نطور نظرية جديدة للتاريخ وللتطور الحضاري الذي يأخذ في اعتباره المجتمع البشري بمجموعه.

لا يكاد يدهشنا أن في تاريخنا التقليدي إغفالاً منهجياً لأي شيء يتعلق بالنساء أو بالأنثوية، عندما نعلم أنه ولفترة قصيرة من الزمن الماضي لم تكن أية جامعة أميركية تضع برنامجاً حول الدراسات النسائية. ولم تزل هذه الدراسات غائبة عن الأغلبية العظمى من المدارس الثانوية والابتدائية. وحتى في الوقت الحالي، وحيثما وجدت مثل هذه الدراسات، فإننا نجد أنها لا تحظى إلا

بموازنات ضئيلة واهتمام قليل وأولوية أقل في ترتيب المناهج الدراسية في الكليات والجامعات. توجد فقط بعض الأماكن التي تعد على أصابع اليد والتي تعتبر فيها مساقات الدراسات النسائية متطلباً للتخرج. كذلك لا يجب أن ندهش حين نجد أن معظم المثقفين ما زالوا يجدون صعوبة في تصديق وجود امرأة لها أهمية في التاريخ أو أن أي شيء هامشي مثل القيم الأنثوية يمكن أن يشكل قوة مركزية، ليس في الماضي فقط ولكن في تصورنا لمستقبل أفضل.

ويعتبر كتاب ماري بيرد «النساء كقوة في التاريخ»[51] أحد أوائل أعمال القرن العشرين، التي تحاول إصلاح هذا الإغفال المَرَضي للنساء في كتب التاريخ التقليدية. وتظهر ماري بيرد في الكتاب كيف أن النساء في الحقيقة، ورغم الهيمنة الذكورية لعبن دوراً هاماً في تشكيل التاريخ الغربي. وقد عادت هذه المؤرخة الطليعية بالتاريخ إلى مرحلة ما قبل التاريخ باعتباره مصدراً لإرث إنساني مفقود. واهتمت بتوثيق أمر قد يثير حفيظة المؤرخين التقليديين أكثر مما فعل وينتر وماكليللاند في ربطهما بين القيم الأنثوية والذَكورية وبين البدائل التاريخية الأساسية. وهذا الأمر هو أن الفترات التي شهدت تحسناً في مركز امرأة كانت هي فترات النهوض الحضاري.

لا عجب، إذا نظرنا من خلال منظور فرضية التحول الحضاري التي نعمل على تطويرها، أن نجد ارتباطاً بين مركز المرأة في المجتمع وبين كون هذا المجتمع سلمياً أم حربياً، أو كونه مهتماً بمصالح الناس أو متجاهلاً للمساواة الاجتماعية أو كونه مجتمعاً هرمياً أو مجتمع مساواة. لأننا قد رأينا من خلال هذا الكتاب، كيفية قيام المجتمع ببناء العلاقات بين نصفي البشرية وما يحمله هذا البناء من مضامين تنظيمية عميقة وعالية التوقع. إلا أن ما يثير الدهشة هو أن بيرد استطاعت دون استخدام هذا الإطار النظري في كتابها الذي صدر مع بداية

القرن العشرين أن تكتشف هذه الأنماط وتعلّق عليها بطريقة تعتبر واحدة من المحاولات القليلة لجدولة نشاطات المرأة في التاريخ الغربي.

ففي كتابها «النساء كقوة في التاريخ» ، تعلق بيرد على النشاطات الواسعة والمؤثرة للنساء الإيطاليات في تعزيز دروس العلوم الإنسانية خلال عصر النهضة وتذكر أن المرأة في ذلك العصر، إضافة إلى القيم الأنثوية المتمثلة بالتعبيرات والدراسات الفنية، كانت قد بدأت تحرر نفسها من سيطرة كنيسة العصور الوسطى. وتوثّق بيرد أنه خلال حركة التنوير الفلسفية الفرنسية التي انطلقت في القرنين السابع عشر والثامن عشر، لعبت المرأة كذلك أدواراً هامة. وكما سنرى لاحقاً، على وجه التأكيد فإن هذه الثورة العلمانية ضد ما أسمتها بيرد بربرية وإساءات النظام القديم، كانت تشن من خلال الصالونات النسائية مثل صالون مدام رامبوليه، ونينون دولينكلو ومدام غوفرين، وهي صالونات انبثقت منها الأفكار والإيديولوجيات الأنثوية الحديثة التي تعتبر أكثر إنسانية[52].

ولكن هذا لا يعني أن المرأة لم تساعد على إبقاء القيم الذكورية وكذلك إبقاء الرجال في السلطة. فرغم بروز وجوه نسائية عظيمة هنا وهناك، إلا أن دور النساء المدوّن في تاريخنا السابق ظل وبالضرورة يوصف بكونه مساعداً لدور الرجال. كما أن بيرد تردد دائماً في ملاحظاتها بأنه وعلى الرغم من أن النساء ساعدن الرجال على شن الحروب بل وقاتلن معهم في بعض لأحيان، إلا أن دورهن كان مختلفاً. فكونهن غير مدربات اجتماعياً ليكنّ قاسيات وعدوانيات وميّالات للحروب، استطعن لعب أدوار أكثر طراوة وليونة في حياتهن وأعمالهن وأفكارهن، أي بمعنى آخر أدواراً تعاطفية وراعية ولا عنفية. وتذكر بيرد على سبيل المثال أن من أوائل وربما أول من وقف ضد أناشيد الحرب المفعمة بروح الكراهية والانتقام التي خلّدها هوميروس، كانت أشعار امرأة من شعب أموليا تدعى صفا ولكنها عُرفت لاحقاً أكثر باسم صافو[53].

ومثل هذه النظرة نجدها أيضاً في عمل آخر يركز على دور المرأة في التاريخ. وهذا العمل هو كتاب «الجنس الأول»[54] لإليزابيث غولد ديفيس، وهو كتاب، مثله مثل الكتب الأخرى عن النساء يحاول إصلاح تاريخ النساء دون أي دعم من أية مؤسسات أو أي زملاء متعلمين. وقد تعرض كتاب ديفيس للانتقاد بسبب ميله للغرابة، إن لم نقل لشطحات خيالية لا يفهمها إلا القلائل من الناس. ولكن على الرغم من هذه الأخطاء وكون هذه الأخطاء لا تنسجم مع التقاليد الثقافية المقبولة، إلا أن مثل هذه الكتب تعتبر نذيراً لدراسة التاريخ بطريقة تظهر مركز المرأة وتظهر مدى مركزية القيم الأنثوية.

ومثله مثل كتاب بيرد، يعيد كتاب ديفيس وضع المرأة في الأماكن التي تم إغفالها ومحوها من قِبَل المؤرخين الذكوريين. كما يقدم معلومات تتيح المجال لرؤية العلاقة بين قمع النساء وبين قمع القيم النسائية في مفترقات ومفاصل تاريخية حاسمة. على سبيل المثال تقارن ديفيس بين العصر الإليزابيثي وعصر التطهيريين الذي تلاه والذي تميز بإجراءاته القاسية لقمع النساء بما فيها إحراق الساحرات.

ولكن المعلومات الرئيسة التي قد نحتاجها لتطوير نظرية شمولية حول التغيرات والتبدلات بين المجتمعات التشاركية والمهيمنة، أو الذكورية والأنثوية، يمكن العثور عليها بشكل أساسي في أعمال المؤرخين والعلماء الاجتماعيين المناصرين لقضايا المرأة. وتشمل هذه الأعمال، كتابات نساء مثل ريناتي برايدنثال، وغيردا ليرنر، ودوروثي دينرشتاين، وإليانور ليكوك، وجوان ماكنمارا، ودونا هاراواي، ونانسي كوت، وإليزابيث بليك وكارول سميث - روزنبرغ وسوزان ويمبل وجون كيلي وكلوديا كونز، وكارولين ميرشنت، وماريلين فرنش، وفرانسواز دوبورن، وسوزان براونميلر، وآنيت إيرليخ وجين جاكيت، ولورد آريزب، وإيتسو تاكامور، ورايينا راب، وكاثلين نيولاند،وغلوريا أورنشتاين، وبيتنيا أبشيكر وكارول جاكلين، ولا فرانسيس رودجرز - روز،

بالإضافة إلى أعمال رجال مثل: كارل ديغلر، وب. ستيفن سانغرين، وليستر كيركندال، وراندولف ترومباخ، الذين يسعون جاهدين، وعبر استخدام مصادر غامضة يصعب الوصول إليها مثل مذكرات النساء وسجلات مغفلة، أن يعيدوا إصلاح نصف التاريخ مما تم إهماله بشكل لا يصدق[55]. وفي سياق هذه العملية يقومون ببناء اللبنات الناقصة التي يتطلبها إنشاء نموذج تاريخي يمكن من خلاله فهم التغيرات التاريخية المدونة وتجاوزها خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الوراء. لأننا من خلال هذا العلم النسائي الجديد، يمكننا أن نبدأ برؤية المنطق الذي يقف وراء حديث الفيلسوف الفرنسي شارلز فورير، الذي قال قبل قرن من اليوم: إن درجة تحرير النساء هي مؤشر على درجة تحرير المجتمع[56].

الأخلاقيات الأنثوية

تمكنا حتى الآن من رؤية كيف أنه في فترات السيطرة الذكورية القاسية، ظلت القيم الأنثوية الأكثر نعومة ولطافة محصورة في عالم النساء الثانوي الذي شكل جزءاً من العالم الخاص والمحكوم من قِبَل الرجال. وعلى النقيض من ذلك، رأينا كيف أن هذه القيم الأنثوية التشاركية قد شهدت صعوداً علنياً وجماهيرياً بعيداً عن عالم الرجل الخاص، تاركة بذلك تأثيراً على درجة التقدم الاجتماعي.

وقد استطاعت المكتشفات الجديدة في العالم الأنثوي أن ترفع من إمكانية توثيق أن هذه الأمور قد حدثت ليس نتيجة مبدأ قدري روحاني، دوري، لا يعرف الرحمة (مثل وضع العذراء إلى جانب آدم ونظرية الدينامو) ولكنها حدثت لسبب بسيط وعملي، كان يمكن للمؤرخين أن يدركوه لو أدخلوا النساء في التاريخ الذي درسوه. ففي الأزمنة التي لم تكن فيها النساء يعتبرن ملكيات ضمن العالم الخاص بالرجال، وكنّ يتحركن بحرية أكبر في العلن وبين الناس، باعتبارهن ناقلات وموزعات للأخلاقيات الأنثوية، كان بإمكانهن إدخال النظرة التشاركية في المسار العام للمجتمعات.

وكما رأينا في بلاد اليونان القديمة، وفي عهد يسوع المسيح، كان للنساء في حقيقة الأمر تأثير كبير على تحسين المجتمع. ولكن المثل الأكثر لفتاً للنظر بالنسبة لهذه الحقيقة يأتينا من الحركة الاجتماعية الإنسانية التي تشهدها أزمنتنا المعاصرة والتي يتم تجاهلها إلا من قبل المصادر النسائية. وهذا المثل يتعلق بالحركة النسائية التي انبثقت متوهجة في القرن التاسع عشر، وازداد نورها توجهاً في القرن العشرين.

ورغم إغفال هذه الحركة بشكل عام في كتب التاريخ التقليدية، إلا أن الأعمال المجهولة أو التي تم تجاهلها لمئات من أنصار الحركة النسائية في القرن التاسع عشر من أمثال لوسي ستون ومارغريت فولر وماري ليون، وإليزابيث كادي ستانتون وسوزان. ب. أنثوني، قد حسنت كثيراً وبشكل واضح من وضع النصف النسائي من البشرية. منزلياً، استطاعت تلك الأمهات الرائدات في الحركة النسائية المعاصرة تحرير المرأة من القوانين التي كانت تحلل ضرب الزوجات. ومن الناحية الاقتصادية ساعدت أولئك النسوة الرائدات على تحرير المرأة من قوانين كانت تعطي الرجال حق السيطرة على ممتلكات زوجاتهن. وفتحن أمام النسوة أبواباً لممارسة مهن كالقانون والطب وأتحن لهن المجال للوصول إلى التعليم العالي بحيث يستطعن تحسين معيشتهن وإغناء عائلاتهن[57].

وعبر تحرير المرأة من أشكال القمع الذكوري الصارخ، ساعدت الحركة النسائية في القرن التاسع عشر على تحريك اندفاع الحركة التشاركية في زمننا الحالي بطريقة لا تظهر بوضوح إلا إذا نظرنا خارج كتب التاريخ التقليدية. فعبر تمكن الحركة من إتاحة المجال للنساء بتثبيت خطواتهن خارج المنازل، استطاعت الحركة أن تعطي بُعداً إنسانياً هائلاً للمجتمع ككل. لأنه وعبر تأثير الأخلاقيات الأنثوية التي تجسدت في نساء مثل فلورنس نايتنجيل وجين آدامز وسوجورنر تروث، ودوروثيا ديكس، اللواتي أصبحن اليوم وجوهاً تاريخية جماهيرية علنية،

انبثقت المهن الجديدة مثل العمل التمريضي المنظم والعمل الاجتماعي، كما تجذرت حركة تحرير العبيد وتلقت دعماً كبيراً وأصبحت مسألة معالجة المرضى النفسيين والمعاقين ذهنياً تأخذ أبعاداً أكثر إنسانية[58].

كذلك، انتشرت هذه النظرة الأنثوية التشاركية للعلاقات الإنسانية والتي تقوم على الارتباط وليس على العنف والمراتب، داخل التيار الرئيسي للمجتمعات عبر الحركة النسائية في القرن العشرين. ومثلها مثل حركة القرن التاسع عشر، استطاعت إدخال تحسينات هائلة على أوضاع المرأة. ففي الوقت الذي أخذت فيه النقلة التقنية تدفع بالنساء بشكل متزايد بعيداً عن أدوار الخنوع والإذعان في المنازل إلى أدوار خانعة ومذعنة وأكثر خدمية في القوى العاملة، ضغطت الحركة النسائية نحو إصدار قوانين جديدة تحمي النساء داخل وخارج المنازل. ولكن، مرة أخرى استطاعت الموجة الثانية من الحركة النسائية المعاصرة تحسين وضع كل من المرأة والرجل من خلال حقن أفكار أكثر تشاركية في مجالات الأنشطة التي كانت يوماً ما حكراً لسيطرة الذكر.

ومثلما كان الحال في القرن التاسع عشر، فقد لعبت النساء دوراً رئيسياً في حركة تحرير العبيد السود وقدمن دعماً شعبياً في القرن العشرين وصل إلى درجة الموت في سبيل تعزيز الحقوق المدنية للسود. وكذلك الأمر، تقوم اليوم مؤسسات ومنظمات تعد بالمئات في العالم الغربي، سواء كانت كبيرة أم صغيرة، بمحاولة إقامة نظام اجتماعي أكثر عدلاً وسلاماً وأكثر انسجاماً مع البيئة. وهذه الحركات تتشكل في معظمها من النساء[59].

ولكن الواضح أن النساء، لسن كلهن من دعاة إدخال القيم التشاركية في الحياة العلنية. على سبيل المثال، هناك نساء وحيدات من أمثال أنديرا غاندي ومارجريت تاتشر ممن استطعن أحياناً الوصول إلى قمة الهرم الذكوري، يفعلن ذلك لأنهن يحاولن دائماً إثبات أنهن لسن «رقيقات» كثيراً أو «أنثويات» كثيراً.

كما نجد العديد من الرجال ممن يعملون لمصلحة تحسين وضع المجتمعات ونشر السلام تماماً كما كانوا يفعلون أيام النهضة التشاركية، ولكن أحد الأسباب التي تدفعهم لعمل ذلك هو أن تلك الأزمنة تشهد أو كانت تشهد تحريراً للقيم الأنثوية عن عالم ملكية الرجال الخاصة إلى حدٍ ما.

إن التطورات التي شهدتها أواخر الستينات وأوائل السبعينات من القرن العشرين، عندما رفض كثير من الأميركيون التفكير «الذكوري» القائل بأن حرب فيتنام هي حرب «نبيلة» و«وطنية» توضح تماماً هذه النقطة. فقد شهدت تلك الفترة بالإضافة إلى رفض العديد من النساء حصرهن في عالم المنزل الزوجي الخاص بالرجل، رفض العديد من الرجال للقوالب الذكورية التي كانت تشدد على الذكورية الفظة وتدعي بأن الرجال الحقيقيين ليسوا لطفاء ولا مسالمين ولا رحماء.

هذا لا يعني القول بوجود علاقة سببية تأثيرية مستقيمة ومبسطة بين التغييرات التي تطرأ على وضع النساء وبين نهوض القيم «الأنثوية» فمن المؤكد أنه في الوقت الذي تستطيع فيه أعداد ملموسة من النساء فرض أو تحقيق مكاسب ومطالب، تكون هناك ردّة ذكورية قادمة على الطريق.

خلال الحركة المضادة للثقافة السائدة والتي اندلعت في الستينات والسبعينات من القرن العشرين، كان الشباب، على سبيل المثال، يرفضون الحرب ويندون بكونها «بطولية» و«رجولية» ، وأخذوا يتحولون إلى أساليب أكثر أنثوية في لباسهم وفي تسريحات شعورهم فيما حققت النساء مكاسب هامة على صعيد المساواة. ولكن في الوقت نفسه الذي كانت فيه القوالب الجنسية القديمة تواجه تحدياً قوياً كانت قوى الردة والقوى التي يطلق عليها صفة المحافظة، تحشد قواها ضمن مجموعات يمينية مضادة وتحت الشعارات الأخلاقية كافة. وقد حصل الأمر نفسه خلال عصر النهضة والعصر الإليزابيثي. فبينما

كانت القوى التشاركية تنطلق في نهضتها، كانت هناك إشارات لمقاومة ذكورية متزامنة. فمن ناحية يمكن ملاحظة اتجاه نحو المساواة في التعليم بين الرجل والمرأة في الطبقات الحاكمة إلى جانب بدايات أدبية نسائية معاصرة تجلت في أعمال الكاتبة كريستين دو بيسان في كتاب: «كتاب مدينة السيدات»[60]. ومن ناحية أخرى اشتدت عمليات إذلال النساء وصدرت قوانين جديدة تُحدّ من سلطاتهن السياسية والاقتصادية كما صدرت مجموعات أدبية كان جلّ اهتمامها إظهار النساء في أدوارهن الأنثوية الخانعة.

كل هذا يقودنا إلى النقطة النهائية والأساسية. فبالرغم من بعض الصحوات الدورية في البنية التحتية الذكورية المهيمنة خلال فترات النهوض الأنثوي التشاركي وحتى أزمنتنا الحديثة، ظلت منزلة الخنوع بالنسبة للمرأة دون تغيير، وكذلك الأمر بالنسبة للقيم المتعلقة بها مثل الارتباط والرعاية واللاعنف والصور النمطية.

نهاية الخط

كما رأينا، فقد ظل خط الدفاع الأول بالنسبة للنظام الذكوري عبر التاريخ المدون يعمل دائماً على إعادة تثبيت السيطرة الذكورية. وبشكل أدق رأينا كيف كان الارتداد نحو المزيد من القمع ضد النساء مؤشراً مبكراً لاقتراب فترة قمع دموية من التاريخ. وكما توثق الأبحاث التي قام بها كل من ماكليلاند وروزاك ووينتر بشكل واضح فإن ما تقودنا إليه هذه الدلالة هي تلك المحصلة المفجعة بأنه ما لم تتم معالجة العلاقة التنظيمية بين إذلال النساء وقمع قيم الارتباط والرعاية بشكل نهائي فإنها ستتحرك بشكل حتمي نحو مرحلة أخرى وفترة أخرى من سفك الدماء عبر الحروب.

ويظهر البحث الذي قامت به ماكليلاند كيف أن تصاعد مواضيع العنف في الأدب والفن يشكل نبوءة بتصاعد الحروب وأعمال القمع. كذلك تظهر أبحاث وينتر حول مغتصب النساء دون جوان كيف أن موضوع إذلال النساء هو

منبع أكثر خصوصية لفترات العنف والحروب. واليوم نشهد تصاعداً محموماً في العنف ضد النساء عبر العالم، ليس فقط في ضروب الخيال بل في الواقع.

إيديولوجياً، يمر عالمنا بحالات ارتداد نحو عقائد حاقدة على النساء تتمثل في المتشددين المسيحيين والإسلاميين على السواء. فالأدبيات والأفلام تعج بالعنف غير المسبوق ضد النساء وبصور القتل والاغتصاب التي تعتبر أمامها قصص دون جوان وقصة ترويض المرأة المتسلطة لشيكسبير تافهة. كذلك تعتبر هذه الموجة غير المسبوقة من أفلام الرذيلة وانتشارها ضمن صناعة وصلت مبيعاتها إلى مئات البلايين من الدولارات ودخلت إلى البيوت عبر الكتب والمجلات والأفلام السينمائية والتلفزيون وجميعها تشير إلى اللذة الجنسية عبر العنف وعبر اضطهاد وإذلال واستعباد وتعذيب وتحقير وتشويه الجنس عند المرأة[61].

وكما يلاحظ ثيودور روزاك فقد تميزت المعارضة ضد الحركة النسائية في القرن التاسع عشر بتصاعد سجلات الجرائم وكسر العظام وضرب النساء في المنازل وإحراق الزوجات واقتلاع أعينهن[62]. ولأن العنف ضد النساء ظل يمثل خلال التاريخ المدوّن رد النظام الذكوري المهيمن على أي تهديد أساسي بالتغيير فقد طالعنا القرن العشرين بتصاعد العنف ضد النساء رداً على حركات تحرير امرأة. وتجلت هذه الردود في إحراق النساء في الهند وإعدامهن علنياً في إيران وتعذيبهن واعتقالهن في أميركا اللاتينية وانتشار ضرب الزوجات في العالم ووقوع حالات إرهاب عبر الاغتصاب عالمياً والتي يقدر العلماء حدوثها في الولايات المتحدة بنسبة حادثة كل ثلاث عشرة ثانية[63].

وليس من الصعب ملاحظة هذا العمل المنهجي في العنف الوحشي ضد الناس، إذا ما نظرنا عبر مفهوم نظرية التحول الحضاري. فإذا ما أريد لنظام الهيمنة الذكوري أن يستمر، فإن قمع النساء يصبح أمراً إلزامياً تحت أي طائل، وإذا ما لاحظنا هذا التصاعد في العنف والتحريض على العنف ضد النساء عبر

إحياء الافتراءات الدينية ضد النساء ومعادلة اللذة الجنسية من خلال اغتصاب وتعذيب النساء، فإن السبب يعود إلى أن نظام الهيمنة الذكورية لم يواجه تحدياً بهذا العنفوان من قبل مدعوماً بحركات تحرير المرأة لتحرير الإنسان[64].

لم يشهد العالم من قبل مثل هذا الانتشار السريع للمنظمات الحكومية وغير الحكومية التي جمعت ملايين الأعضاء من جميع الفئات، بهدف تحسين وضع المرأة ومنزلتها، وتراوحت هذه الفئات من المنظمة الفيدرالية الرسمية لنساء الصين إلى المؤسسة الوطنية للدراسات النسائية والمنظمة الوطنية للنساء وعصبة النساء الكبار السن في الولايات المتحدة ... وغيرها. كذلك لم يشهد العالم من قبل عقد مؤتمرات دولية جذبت إليها آلاف النساء من كل زوايا العالم لمعالجة المشاكل النابعة من الهيمنة الذكورية. ولم يسبق أن دوّن التاريخ من قبل تضافر النساء من كل أمة على وجه الأرض للعمل معاً من أجل المساواة في الجنس، والتنمية والسلام. وهي الأهداف الثلاثة التي وضعتها الأمم المتحدة في أول عقد يخصص للنساء[65].

إن الإدراك المتنامي من قِبَل النساء والرجال لهذه الأهداف الثلاثة يرتبط في جذوره بالمنظور الفطري للتحرك الذي كنا نبحثه في هذا الكتاب. فللمرة الأولى تتم رؤية دور العنف الذكوري ضد النساء ولم يعد من الصعب رؤية كيف أن الرجال الذين تعلموا بأنهم المهيمنون على نصف البشرية الأضعف منهم جسدياً، يعتقدون أيضاً بأن واجبهم «الرجولي» يقتضي منهم قهر الرجال الضعفاء والأمم الضعيفة.

ولكن الحرب أو التحضير للحرب الذي يتم باسم الدفاع الوطني كما هو الحال في الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي أو باسم الله كما هو الحال في العالم الإسلامي، لا يعمل فقط على تعزيز الهيمنة الذكورية والعنف الذكوري فحسب، بل وكما بدا واضحاً في أمثلة ألمانيا هتلر وروسيا ستالين ، يعزز أيضاً

من سلطة العنصر الرئيسي الثالث في الأنظمة المهيمنة وهو الدكتاتورية. فأزمنة الحروب توفر التبرير لقيادة الرجل القوي. كما تبرر تعليق الحقوق والحريات المدنية كما ظهر لنا في التعتيم على الأخبار خلال غزو الولايات المتحدة لغرانادا عام 1983 وفي فرض قانون الأحكام العرفية المزمنة في الدول التي تستعد لخوض الحرب، دولة بعد دولة في إفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية.

كان بندول الساعة في الماضي يتأرجح دائماً من السلم إلى الحرب. وكلما كانت القيم الأنثوية تتعاظم لفترة من الزمن مهددة بتغيير النظام، كان الرد الذكوري المستثار يأتي مرعباً. ولكن هل ينبغي للبندول الحالي أن يعيدنا حتمياً إلى المزيد والمزيد من العنف المحلي والدولي ومعهما المزيد والمزيد من قمع الحقوق والحريات المدنية؟

ألا توجد طريقة أخرى تبعدنا في الحقيقة عن خوض حرب نووية؟ هل ستكون هذه نهاية التطور الحضاري الذي بدأ بآمال كبيرة في عهد الإلهات عندما كانت الكأس المقدسة التي تهب الحياة هي الحاكم الأعلى؟ أو هل اقتربنا الآن من نيل حرياتنا وتجنب مثل هذه النهاية؟

الفصل 11

التحــرر

التحول الذي لم ينته

كان من المقرر أن يكون عصرنا عصراً حديثاً، أو عصر المنطق، الذي يحل فيه التنوير مكان الخرافة وتحل فيه الإنسانية مكان البربرية والمعرفة التجريبية مكان النفاق والعقائد. ولكن ربما لم يسبق أن نسبت مثل هذه القوى السحرية للكلمة. لأنه عبر الكلمات، أي عبر تلك المادة التي تجعل التفكير الإنساني المنطقي والواعي ممكناً، نستطيع معالجة جميع اللامنطقيات وجميع الأخطاء والأمراض الإنسانية، إذا لم يسبق أن وصلت الكلمات، وخاصة تلك المكتوبة منها إلى هذا الحد وذاك الامتداد.

أحد الأسباب هي أنه لم يسبق أن كان لدينا مثل هذا العدد من الناس الذين يعرفون القراءة والكتابة، ولم يسبق أن كان لدينا مثل هذا العدد الهائل من وسائل الاتصال المنتشرة بين العديد من سكان الكرة الأرضية. لقد جاءت النقلة التي يطلق عليها الفيلسوف المؤرخ هنري إيكن عصر الإيديولوجيا[1] إلى جانب نقلة اجتماعية تقنية رئيسة، كانت هذه هي النقلة التي دعاها آلفن توفلر بالموجة الثانية في مقارنة نسبية مع الموجة الأولى التي شهدت الثورة الزراعية قبل عدة ألفيات من الزمن[2]. ورغم أن الثورة الصناعية ما تزال مقتصرة بشكل رئيسي على الغرب، إلا أنها جلبت معها خزانات واسعة من التقنيات الجديدة، كان

من بينها آلة الطباعة التي أتاحت المجال لأول توزيع واسع المدى للكتب والمجلات والصحف، تلا ذلك الإعلام السمعي كالتلغراف والهاتف والراديو وبعده الإعلام الجماهيري المنظور كالسينما والتلفزيون، الذي عمل إلى جانب الانتشار الواسع للكتب والمجلات والصحف على إغراق كل زاوية وصدع في كرتنا الأرضية بالكلمات.

ولكن، كان في الغرب على وجه الخصوص سبب لهذا الانفجار الإيديولوجي. فمع تراجع وضعف العقائد الدينية إبان صحوة التصنيع المتقدم، شهد الغرب تعطشاً شديداً ويائساً تقريباً نحو طرق جديدة للتبصر والتنظيم وتقييم الحقائق، أي بكلمات أخرى، نحو إيديولوجيات جديدة.

وسرعان ما بدأت الأصوات العلمانية للفلاسفة والعلماء، تُسمع نفسها عبر العالم الغربي، ووصلت هذه الأصوات مع حلول القرن التاسع عشر إلى كل مكان، تفسر وتعيد تنظيم الحقائق وتقيّمها وفقاً للرسل المعاصرين مثل كانت وهيجل وكوبرنيكس وغاليليو وداروين ولافوازيير وميل وروسو وماركس وإنجلز، وهؤلاء بعض الأسماء القليلة من بين عدد كبير من أنبياء العالم العلماني.

فشل المنطق

كان هؤلاء يشكلون أنبياء التحول الحضاري. فمع تحرر العقل الإنساني بالمنطق، أي ظهور «الإنسان العقلاني» ، الذي جاء نتيجة حركة التنوير في القرن الثامن عشر، وضع الإنسان بربرية الماضي خلف ظهره.

وعبر الثورة الصناعية، أخذ تطورنا التقني يتصاعد محققاً قفزات وقفزات. وسرعان ما تبعه التطور الحضاري. فبالطريقة نفسها التي أخذت فيها التقنيات المادية كالآلات والأدوية تحقق ما بدا أنها تغييرات عجائبية، أخذت التقنيات الاجتماعية مثل الطرق الأفضل لتنظيم وتوجيه سلوكيات الإنسان تسارع من تحقيق

الإمكانيات والطموحات الإنسانية الأعلى والأسمى. وبدا وكأن الكفاح الإنساني الطويل عبر العصور من أجل العدالة والحقيقة والجمال قد بدأ بوضع المثاليات موضع الحقيقة.

ولكن هذا الأمل الكبير بدأ تدريجياً بالأفول. فعبر القرن التاسع عشر والقرن العشرين استمر «الإنسان العقلاني» في الظلم والقتل والاستغلال وإذلال البشر الآخرين من أخوته وأخواته. واستمر الاستعباد الاقتصادي للأعراق الأدنى مرتبة، مبرراً أفعاله هذه المرة بالعقائد العلمية الجديدة مثل نظرية داروين الاجتماعية التي ظهرت في القرن التاسع عشر. وبدلاً من أن تشن الحروب لتخليص الوثنيين أو لتحقيق مجد الله والملك وسطوته، راحت الحروب الاستعمارية تُشن لتحقيق أهداف اقتصادية «عقلانية» مثل تعزيز «التجارة الحرة» واحتواء القوى الاقتصادية والسياسية المنافسة. وحين لم تعد سيطرة الرجال على النساء تلقى تبريرها على أسس لا عقلانية مثل عصيان حواء للرب، أصبحت الآن تبرر على أسس عقلانية وعلمية وعقائد تدعي أن هيمنة الرجل تتبع قوانين بيولوجية أو اجتماعية.

أخذ «الرجل العقلاني» يتحدث الآن عن «السيطرة» على الطبيعة و«إخضاع» عناصرها والتقدم العظيم للقرن العشرين بغزو الفضاء، أخذ يتحدث عن اضطراره لخوض الحروب من أجل تحقيق السلام والحرية والمساواة، وعن اضطراره لقتل الأطفال والنساء والرجال عبر نشاطات إرهابية من أجل جلب الكرامة والتحرر للمظلومين. وكعضو في النخب الحاكمة في كل من الدول الشيوعية والرأسمالية، استمر في تكديس الثروات والامتيازات. وبدأ بتسميم بيئته الطبيعية من أجل تحقيق المزيد من الأرباح أو الحصول على المزيد من المخصصات مهدداً بذلك كائنات أخرى بالفناء ومتسبباً بمعاناة شديدة للكبار وتشوهات للمواليد. وكان في كل حين يفسر ما يفعله على أساس أنه شأن وطني أو مثالي أو قبل كل شيء عقلاني.

وأخيراً وبعد أحداث أوشفيتز وهيروشيما، بدأ وعد العقل يوضع موضع تساؤل: من هو هذا الإنسان الذي يستخدم عقلانيته وفعاليته ليصنع من شحم البشر صابوناً؟ أو ليستخدم الدوش الصحي الفعال في صنع الغاز السام؟ كيف يمكن للإنسان أن يفسر التجارب العسكرية المدروسة جيداً حول تأثير القنابل النووية والإشعاعات على الكائنات الحية التي لا حول لها ولا قوة؟ هل يمكن تسمية هذا التدمير الشامل العظيم الفعالية تقدماً إنسانياً؟

هل يمكن اعتبار هذا التوسع المفرط في صناعة المتفجرات، وإخضاع مجتمعات بأكملها لتصطف مثل خطوط التجميع، وتحويل الأفراد عبر الحواسيب إلى أعداد، خطوة إلى الأمام بالنسبة لجنسنا البشري؟ أم هل إن هذه التطورات المعاصرة المصاحبة لازدياد تلوث الأرض والبر والهواء إشارات على تراجع حضاري بدلاً من كونها مؤشرات للتقدم؟ وبما أن «الرجل العقلاني» قد دأب على تدمير وتدنيس كوكبنا الأرضي، أليس من الأفضل العودة إلى «الرجل المتدين» أو إلى الزمن الذي سبق قيام التقدم العلمي الذي أغرقنا في عصر التقنية العلمانية؟

مع حلول الربع الأخير من القرن العشرين أصبح الفلاسفة وعلماء الاجتماع لا يتساءلون فقط عن العقل بل عن جميع الإيديولوجيات التقدمية المعاصرة. فلا الرأسمالية ولا الشيوعية استطاعتا تحقيق وعدهما. وأخذ الحديث يدور في كل مكان عن نهاية الليبرالية فيما أخذ الواقعيون يؤكدون أن الوصول إلى مجتمع متساوٍ ليس أكثر من حلم مثالي. وبعد تحررهم من الوهم، نتيجة الفشل الظاهري للإيديولوجيات التقدمية العلمانية، أخذ الناس في جميع أنحاء العالم بالعودة إلى التعاليم الأساسية للمسيحية والإسلام وغيرهما من الأديان. وأدى الخوف من تزايد مؤشرات حدوث فوضى عالمية وشيكة إلى عودة جموع كبيرة من الناس إلى الأفكار المهيمنة القديمة التي تقول بأن الحياة على الأرض

ليست مهمة في الحقيقة بقدر ما هو مهم أننا إذا خالفنا تعاليم الله وأوامر المتحدثين باسمه على الأرض فإننا سنعاقب بشدة وإلى الأبد.

وأمام جدية التهديد بزوال الأرض نتيجة القنابل النووية، من المنظور العالمي الذي لا يقدم أية بدائل حقيقية للنظام السائد، تظهر هناك طرق ثلاث للرد على ما يبدو أنه أزمات دولية متزايدة لا حل لها. إحدى هذه الطرق هي العودة إلى النظرة الدينية القديمة التي تقول إن الطريق الوحيد للخروج هو في العالم الآخر حيث يقوم الله كما يؤمن المسيحيون المولودون من جديد أو المسلمون الشيعة بمكافأة الذين أطاعوا أوامره ومعاقبة الذين لم يفعلوا. أما الطريقة الثانية فتتم عبر أشكال أكثر فورية في الهرب مثل نظرية العدمية التي تقول إن الوجود لا معنى له وإن القيم لا أساس لها من الصحة، وفقدان الإحساس واليأس الذي يشعل الغضب واللجوء إلى المخدرات التي تشل الإحساس أو الخمر أو الجنس الآلي الذي لا روح فيه ولا عاطفة أو الانحطاط الناتج عن التعلق المفرط بالماديات أو قتل الإحساس بالرحمة عبر صناعة التسلية الشبيهة بالرياضات الدموية التي انتشرت في أواخر أيام الإمبراطورية الرومانية. والطريقة الثالثة تكمن في محاولة إعادة توجيه المجتمع نحو ماضٍ متخيل وأفضل. أي إلى الأيام السعيدة التي سبقت قيام النساء والرجال الأدنى مستوى بالتساؤل عن موقعهم المناسب في «النظام الطبيعي».

ولكن، من خلال المنظور الذي نقوم بتطويره بناءً على إعادة فحص دقيق لحاضرنا وماضينا، لا يوجد أساس لهذا اليأس لكي ينمو ويترعرع. إذ لا يوجد مكان لليأس إذا أدركنا أن ما يدفعنا بعناد نحو حرب نووية في عصرنا التقني المتقدم لا يكمن في الطبيعة الإنسانية ولكن في النظام المهيمن الذي يسود المجتمع. كذلك لا شيء يبدو بلا معنى إذا أدركنا أن هذا النظام، وليس ثمة قانون إلهي أو طبيعي متصلب، هو الذي يريد استخدام الإنجازات التقنية من

أجل تحقيق طرق أفضل للتدمير والهيمنة؛ حتى ولو أدى هذا بنا إلى الإفلاس الدولي وفي النهاية إلى حرب نووية. باختصار إذا نظرنا إلى حاضرنا اليوم من منظور فرضية التطور الحضاري، يتضح لنا وجود بدائل لهذا النظام المبني على هيمنة نصف البشر على النصف الآخر. كما يتضح لنا أيضاً أن التغيير الكبير الذي طرأ على المجتمع الغربي مع بداية حركة التنوير في القرن الثامن عشر لم يفشل ولكنه لم يكتمل بعد.

تحدي المسلمات الذكورية

تعتبر الأفكار التي أطلقتها حركة التنوير في القرن الثامن عشر، في حقيقة الأمر جديدة في بعض أجزائها. فهي أفكار تشاركية متجذرة في الماضي السحيق، كما رأينا في الفصول الأولى من الكتاب، تلائم التنظيم الاجتماعي التشاركي أكثر مما تلائم التنظيم المهيمن. وهي أفكار عادت لتظهر في عصر التنوير بأشكال أكثر عصرية ولاقت انطلاقة جديدة في الصالونات الثقافية النسائية مثل صالون مدام شاتيليه ومدام غوفرين. في البداية لم تكن هذه الأفكار التي انبثقت بعد قرون من سوء الاستخدام أو الإهمال سوى نوع من البدع التي شكلت تسلية ثقافية للنخبة المتعلمة القليلة العدد. ولكنها بعد ذلك وعبر ظهور تقنيات أفضل للاتصال الجماهيري مثل المطبعة وما تلاها من التعليم الجماهيري العام، أخذت تجد ما يشبهها في كل مكان.

وكانت واحدة من أوائل هذه الأفكار وأكثرها أهمية هي فكرة التقدم. لأنه إذا لم يكن الكون كما صورته العقائد الدينية كياناً غير قابل للتغيير ومحكوماً من آلهة جبارة، وإذا لم يكن الإنسان مخلوقاً على شاكلة الإله، فإن التحسينات التي يمكن إحداثها في الطبيعة والمجتمع والإنسان تصبح إمكانية حقيقية. وهذه النقطة تلقى تركيزاً بالعادة من قبل هؤلاء الذين يجادلون بأن الانفراج الكبير في الحضارة الغربية حصل نتيجة تبديل الأفكار الدينية بالأفكار العلمانية. ولكن

النقطة التي يتم تجاهلها هنا هي أن ما تم رفضه وإنكاره لم يكن الدين بحد ذاته بل كان المبدأ المهيمن القائل بأن التنظيم الاجتماعي الهرمي الذي لا يتغير هو من إرادة الله[3].

وعندما كتب آبي دو سانت - بيير عام 1737 «ملاحظاته حول التقدم المتواصل للعقل الإنساني» ، عبّر ولأول مرة في مثل هذه النصوص المحددة عن الفكرة القائلة بأن أمام الإنسان يوجد أفق لحياة طويلة حافلة بالتقدم[4]. وقد شكلت هذه الفكرة بوجود فرص هائلة لتحسين الحياة الاجتماعية والفردية على الأرض رفضاً صارخاً للأفكار المسيحية القائلة بأن هذه الأرض هي مكان للتجربة يتم فيها تدريب الإنسان وتنظيمه ضمن خطة إلهية من أجل الانطلاق إلى وجهته النهائية التي ليست في حياته على الأرض بل في حياته بعد الموت. وهكذا لم تعد هذه الفكرة تدعم الوضع الدكتاتوري السلطوي الحالي بل أصبحت تدعم طموحات وأفكاراً مثالية إنسانية متواصلة، بحيث أصبحت جزءاً أساسياً من التقدم الاقتصادي والاجتماعي والقانوني الذي حدث في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

كذلك مثلت الفكرتان المرتبطتان بهذه الفكرة، وهما الحرية والمساواة، انفصالاً جوهرياً عن إيديولوجية الهيمنة. وقد كتب توماس هوبز في كتابه «العملاق» أن الطبيعة جعلت الناس متساوين في وظائفهم الجسدية والعقلية بحيث أنك إذا نظرنا إليهم جميعاً لن نجد فرقاً ملموساً بين إنسان وإنسان، لذلك لا يستطيع أي إنسان أن يدعي لنفسه ميزات لا توجد في غيره أو لا يستطيع غيره أن يدّعيها أيضاً[5].

وفي القرن التالي ذلك كتب جان جاك روسو في فرنسا يقول إن الناس لم يولدوا أحراراً ومتساوين فحسب بل إن هذا من حقهم الطبيعي أيضاً الذي يخوّلهم كسر قيودهم وأغلالهم[6]. وشكلت هذه النظرة إلى الحقيقة فكرة مركزية في

الثورتين الأميركية والفرنسية. وفي القرن نفسه أكدت ماري وولستونكرافت في بريطانيا أن هذا الحق الطبيعي ينطبق على الرجال كما ينطبق على النساء أيضاً، وقد أصبحت هذه النظرة فكرة مركزية في الثورة النسائية المتواصلة حتى اليوم[7].

وفي القرن التاسع عشر كتب أوغست كومتي عن النظرة الإيجابية وعن قانون التطور الإنساني، كما كتب جون ستيورات ميل عن الحكومة الممثلة كأكثر نموذج ملائم للصفات الأخلاقية والمثقفة. كما كان كارل ماركس متأثراً في جزء من كتاباته بالاستكشافات الأولى التي ظهرت عن فترة ما قبل نظام الهيمنة حيث كتب عن المجتمع اللاطبقي الذي يشكل فيه التطور الحر للفرد شرطاً للتطور الحر لجميع الناس[8].

وطغت على جميع الاختلافات بين هؤلاء الفلاسفة العلمانيين العصريين، فرضية مشتركة ومضادة للهيمنة، تنادي بأن الناس الذين يعيشون ضمن نظم اجتماعية صحيحة، يمكنهم أن يعيشوا ولسوف يعيشون في حرية ومساواة. بكلمة أخرى ورغم عدم صياغتها بهذا الشكل، إن ما تصوره هؤلاء من رجال ونساء هو إمكانية وجود مجتمع تشاركي بدلاً من مجتمع هيمنة.

في ذلك الوقت كانت كلمة الإنسان تترافق مع كلمة «رجال» أو «بني الإنسان» لذلك كان الالتزام بحقوق الإنسان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يعتبر مطبقاً على الرجال فقط، وكان هذا الالتزام في بداياته يخص الرجال البيض الأحرار الذي لديهم ممتلكات. ورغم ذلك فقد رافقت هذه الانفصالات الإيديولوجية الجوهرية عن الماضي، تغييرات أساسية في الحقائق الاجتماعية أثرت بعمق على حياة الرجال والنساء جميعاً.

أولاً في الثورة الأميركية .ومن ثم في الثورة الفرنسية واجهت مؤسسة القرابة التي شكلت لقرون طويلة حجر الزاوية في التنظيم الاجتماعي المهيمن، تحدياً قوياً. فقد أخذت مفردات مثل المساواة والحرية والتقدم تحل محل مفردات

أخرى مثل الولاء والنظام والطاعة في عقول أعداد أكثر وأكثر من الناس. وأخذت الجمهوريات تحل محل الأنظمة الملكية في معظم العالم الغربي، وكذلك حلت المدارس العلمانية مكان المدارس الدينية. وأخذت العائلات الأقل سلطوية تحل محل النظام العائلي المسيطَر عليه بشدة من قِبَل الرجل، والذي كانت فيه كلمة الأب أو الزوج تعتبر مثل كلام الملوك، قانوناً مطلقاً.

إلا أن هذا الضعف المتواصل في السيطرة الذكورية داخل العائلة، يعرض اليوم من قبل الكثيرين على أنه جزء من التراجع الخطر في العائلة. ولكن هذا التراجع في السلطة المطلقة للأب وللزوج كان يشكل متطلباً أساسياً لهذه الحركة العصرية الشاملة نحو مجتمع أكثر عدلاً ومساواة. وكما يكتب عالِم الاجتماع رونالد فلتشر، وهو أحد القليلين الأوائل الذين ركزوا على هذه النقطة الجوهرية، في كتابه «العائلة ومستقبلها» : الحقيقة هي أن العائلة المعاصرة قد أوجدت لتشكل جزءاً أساسياً من هذه العملية الكبرى التي تعمل على التقرب إلى الأفكار المركزية للعدالة الاجتماعية ضمن عملية إعادة تأسيس المجتمع[9].

وهناك عمل حديث يلقي الضوء على هذه التحركات التاريخية النفسية الهامة، رغم تعرضه للتجاهل بشكل عام. وهذا العمل هو كتاب راندولف ترومباخ «نهضة العائلة المتساوية»[10] الذي يبين فيه ترومباخ حقيقة أن ظهور العائلة المتساوية المعاصرة في بريطانيا قبل ظهورها في سائر أنحاء القارة الأوروبية شكل عاملاً هاماً في عدم حدوث انتفاضات عنيفة ضد الملكية مثلما حدث في فرنسا وروسيا وألمانيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وقد أظهرت أبحاثه كيف أن تنامي قوة النساء في عائلات الطبقات البريطانية الحاكمة قد أحدث تغييرات هامة في الرجال الذين حكموا بريطانيا، وقد جعلتهم هذه التغييرات أكثر استعداداً لتقبل الإصلاحات الاجتماعية مثل الانتقال إلى الحكومة البرلمانية والحفاظ على الملكية كحكم فخري فقط على النقيض تماماً من الحكم الاستبدادي الذي استمر عليه ملوك فرنسا وروسيا وألمانيا.

الإيديولوجيات العلمانية

إذا تابعنا تحليل التاريخ المعاصر من منظور النزاع الكامن بين نظام الهيمنة ونظام التشاركية كطريقين مختلفين لتطورنا الحضاري، نجد أن انبثاق الإيديولوجيات العلمانية التقدمية المعاصرة يكتسب معنىً جديداً وأكثر أملاً. وباستخدام أدوات التحليل التي توفرها لنا نظرية التغيير الحضاري، يمكننا رؤية كيف أن نسخ أفكار مثل الحرية والمساواة أدى تدريجياً إلى تشكيل طرق جديدة للنظر إلى العالم.. وخلال عملها «كجاذبة» ، كونت هذه الأفكار التشاركية نواة الأنظمة الجديدة للفكر أو للإيديولوجيات التي انتشرت تدريجياً عبر النظام الاجتماعي، وحلت جزئياً على الأقل محل النموذج المهيمن. وشيئاً فشيئاً، تحدت هذه الإيديولوجيات عالماً هرمياً محكوماً من رأس قمته من قِبَل إله ذكر مع وجود الرجال ثم النساء ثم الأطفال وأخيراً باقي الطبيعة ضمن نظام تنازلي مهيمن.

ومن المفارقات أن تكون إحدى أوائل الإيديولوجيات التقدمية هي الأكثر تعرضاً للانتقاد اليوم من قِبَل التقدميين أنفسهم، وهذه الإيديولوجية هي إيديولوجية النظام الرأسمالي الذي وجد طريقه ممهدة في القرن السابع عشر إثر حركة الإصلاح البروتستانتي. فعبر تركيزها على المنافع التجارية للصناعة والتحصيل الفردي والثروة وعلى نقيض ذلك من الكسل والفشل الفردي والفقر، شكلت الأخلاقية البروتستانتية متطلباً سابقاً لنهوض الرأسمالية[11]. ولكن الأخيرة نفسها لم تبرز بإيديولوجيتها العلمانية إلا مع حلول القرن الثامن عشر. وضمن كل الاعتبارات، كان مؤلفها الرئيسي هو الأول من بين الذين أُطلق عليهم فيما بعد اسم الفلاسفة الدنيويين، وهو آدم سميث[12] أول اقتصادي مجّد السوق الحر كحجر زاوية لمجتمع حر مزدهر.

وعبر ابتعادها الجذري عن النظرة القديمة التي كانت تعتبر أن المركز الاجتماعي للرجل وثروته يعتمدان أساساً على مولده كأحد النبلاء أو أحد

الحرفيين أو أحد الخدم، تكون الرأسمالية في حقيقة الأمر قد تحركت نحو مجتمع أكثر تحرراً. فقد تحدّت الرأسمالية في الأساس الهرميات الصارمة التي صنعها التنظيم الاجتماعي الأول والمؤيد للهيمنة والذي يمتلك فيه الأقوى والأكثر وحشية وبأساً من الرجال والمحاربين الغزاة وسلالتهم من الملوك والنبلاء، سلطات تعسفية ومبررة من قبل الإيديولوجيات الدينية على أنها أوامر إلهية.

وهكذا شكّلت الرأسمالية كأول إيديولوجية معاصرة تقوم بالأساس على قاعدة اقتصادية أو مادية، خطوة هامة في الانتقال من نظام مهيمن إلى مجتمع تشاركي، إضافة إلى أنها قدمت الدافع الأكبر نحو أشكال سياسية جديدة أكثر تحملاً للمسؤولية الاجتماعية مثل الملكيات والجمهوريات الدستورية. ومن المؤكد أن الاقتصاديات الرأسمالية كانت أفضل من الاقتصاديات الإقطاعية التي تأسست أصلاً على العنف وعلى النهب والقتل الذي لا ينتهي من قبل الأسياد والملوك في سعيهم الجشع نحو المزيد من الأراضي كقاعدة لقوتهم، ولكنها في تركيزها على الملكية الفردية وعلى التنافسية والجشع (الدافع الربحي) وعلى الهرمية (التركيب الطبقي) وعلى الاعتماد المتواصل على العنف (مثل الحروب الاستعمارية) بقيت الرأسمالية في أساسها نظاماً ذكورياً مهيمناً.

والانتقاد الأكبر، كما يضعه منظرو الإيديولوجية الرأسمالية المعاصرة من أمثال جورج غيلدر ويصرحون به علناً، هو أن الرأسمالية كما نعرفها تقوم على السيادة الذكورية. وفي كتابه «الثروة والفقر» الذي أيّده رونالد ريغان كأحد أعظم الأعمال حول الرأسمالية منذ كتاب آدم سميث «ثروة الأمم» ، يمجد غيلدر بشكل خاص ما يسميه العدوانية الذكورية العليا على أنها أعظم القيم الاجتماعية والاقتصادية[13].

تلا ذلك ظهور الإيديولوجيتين الرئيستين الاشتراكية والشيوعية. وقد نبذ منظروهما الأوائل العديد من المبادئ الذكورية المهيمنة التي ناصرتها الرأسمالية

وشكلت أعمال الاشتراكيين الطوباويين من أمثال تشارلز فورييه، وأعمال «الاشتراكية العلمية» لماركس وإنجلز عوامل قوية في تعزيز مثال المساواة الذي ينطوي على إقامة تنظيم اجتماعي يعتمد على الترابط والوصل بدلاً من المرتبية[14] والهيمنة. ورغم أن موضوع المرأة شكل جانباً عرضياً في كتاباتهم الغزيرة إلا أن ماركس وإنجلز اعترفا بوضوح بأهمية مسألة قمع النساء من قِبَل الرجال وهي ما يطلق عليها انجلز اسم «قمع من الدرجة الأولى» أو «أول هزيمة تاريخية لجنس النساء»[15].

وفي حين أن الأفكار الاشتراكية في أجزاء كثيرة من العالم، مثل التعليم العام المجاني وضريبة الدخل المتدرجة ساعدت في أنحاء كثيرة من العالم على تحقيق مساواة اجتماعية أكبر، وأراحت ملايين الفلاحين والعُمّال الصناعيين من الفقر المدقع، إلا أن الاشتراكية والشيوعية حافظتا في الوقت نفسه على عناصر ذكورية هامة. ولعل جزءاً من المشكلة يكمن في النظرية الشيوعية. فالماركسية التي تطورت إلى واحدة من أكثر الإيديولوجيات تأثيراً في العصور الحديثة، لم تهجر المبادئ الذكورية التي تقول بأن السلطة تأتي من خلال العنف، كما يشهد قولها المأثور: «الغاية تبرر الوسيلة» . كما يكمن جزء آخر من المشكلة في كيفية تطبيق الماركسية في الدولة الأولى التي تبنت الشيوعية كإيديولوجية رسمية لها وهي الاتحاد السوفياتي. فقد أدرك ماركس وإنجلز حدوث تغييرات عميقة في العلاقات بين الرجال والنساء خلال عصور ما قبل التاريخ، ضمن المجتمع الطبقي الذي نبذوه. وبالتالي، بذلت في السنوات الأولى للثورة الروسية بذل بعض الجهود من أجل مساواة المرأة ولكن في نهاية الأمر بقيت قيم الرجال هي المسيطرة بشكل رئيسي[16].

ومن المؤكد أن أحد أهم الدروس والعبر التي يمكن استقاؤها من التاريخ الحديث هي كيف أن التراجع الهائل باتجاه العنف والدكتاتورية الذي ساد عهد

ستالين ترافق مع انقلاب في السياسات الأولى الداعية إلى استبدال العلاقات العائلية الأبوية بعلاقات قائمة على المساواة بين الرجال والنساء. وكما بيّن تروتسكي (ولكن بعد سقوطه من السلطة إلى المنفى) يرجع فشل الثورة الشيوعية في تحقيق أهدافها في جزء كبير منه إلى فشل قيادتها في تحقيق تغيير في العلاقات الأبوية داخل العائلة[17]. أو كما يقال في نصوصنا، إلى الفشل في إحداث أية تغييرات جذرية في العلاقات بين نصفي الإنسانية، مما أبقى على نظام المرتبية بدلاً من نظام الوصل والترابط.

خلال القرن التاسع عشر، ودخولاً إلى القرن العشرين، ظهرت إيديولوجيات إنسانية معاصرة أخرى مثل الإيديولوجية الإلغائية، والسلمية، والفوضوية، والمعادية للاستعمار، والإيديولوجية البيئية وغيرها. ولكن كما يقول الرجال العميان في وصف الفيل في المثل الشهير الذي وصف فيه كل منهم أشكالاً مختلفة من هذا الوحش الذكوري ضمن المشكلة برّمتها، ولكنهم في نفس الوقت فشلوا في تناول حقيقة وجود ذكر مهيمن في جوهره وقلبه، وهو نموذج للذكر المهيمن على الأنثى في الجنس البشري.

أما الإيديولوجية الوحيدة التي تحدت وواجهت هذا النموذج في العلاقات الإنسانية، إضافة إلى مبدأ المرتبية القائم على العنف فكانت بالطبع الإيديولوجية الأنثوية. ولهذا السبب تحتل هذه الإيديولوجية موقعاً فريداً في كل من التاريخ المعاصر وتاريخ تطورنا الحضاري.

وإذا نظرنا إليها من منظور التطور الحضاري الذي أوردنا تفاصيله في الفصول السابقة، يبدو من الواضح أن الأنثوية ليست إيديولوجية جديدة. ففي حين أن فكرة الترابط أو التواصل مع آخرين من الجنس البشري اقتصرت على الكلام في الأنظمة الذكورية لزمن طويل من التطور الحضاري، إلا أن الفكرة وجدت تعبيراً عملياً في المجتمعات الأكثر سلماً ومساواة. وعبر التاريخ المدون،

في بلاد الإغريق القديمة وروما، وخلال عصري التروبادور وإليزابيث، وعصر النهضة والتنوير، ظلت المسألة النسائية، كما يقول ماركس وإنجلز، موضوعاً يعود ويتردد.

ولكن الأنثوية، كإيديولوجية معاصرة لم تظهر حتى منتصف القرن التاسع عشر. ورغم أن العديد من الأسس الفلسفية للأنثوية قد ترددت سابقاً على ألسنة نساء مثل ماري وولستونكرافت، وفرانسيس رايت وآرنستين روز وجورج ساند، وسارة وإنجيلينا غريمكي ومارغريت فولر، إلا أن ولادتها الرسمية تعتبر يوم التاسع عشر من يوليو/ تموز عام 1848 في سينيكا فولز في نيويورك[18]. فهنا، وخلال المؤتمر الأول الذي يعقد خلال التاريخ المدون بهدف التعبير عن انطلاقة الكفاح النسائي الجماعي ضد الإخضاع والإذلال، أطلقت إليزابيث كادي ستانتون كلمتها الطليعية حيث قالت: من بين العديد من المسائل الهامة التي أطلقت للعلن، لا توجد مسألة أكثر أهمية في تأثيرها على العائلة البشرية أكثر من تلك التي نسميها بشكل فني «حقوق المرأة»[19].

وعلى الرغم من أن التعبير المتصاعد لهذه الكلمة يتحدى الآن نظامنا القائم بقوة وثبات أكبر من ذي قبل، إلا أن الأنثوية ما تزال لدى العديد من الناس تعتبر «مسألة نسائية فقط» وبالتالي، وبسبب الاستمرار في فصل الأنثوية عن التيار الإيديولوجي الرئيسي، تستمر الإيديولوجيات القديمة الأخرى في مواجهة اختراقات داخلية مليئة بالتناقضات الداخلية الهائلة.

وعلى النقيض من ذلك، لا نجد مثل هذه الصعوبة في الفئة الرابعة من الإيديولوجيات المعاصرة، ولا توجد أي مشكلة تنطوي على شد متناقض نحو الأمام أو إلى الخلف. وهذه الإيديولوجيات هي تلك التي بدأت في الظهور في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عبر أعمال لرجال مثل إدموند بروك، وآرثر شوبنهاور وفريدريك نيتشه الذين كانوا ذكوريين بصراحة وبدون خجل[20].

فنيتشه الذي أعادت فلسفته مثالية الذكورية البدائية وناصرتها، ما زال يلقى من يُعجب به ويردد مقولاته. وقد أعلن نيتشه بكل صراحة وبدون أي تردد أنه كما ينبغي على الرجال أن يحكموا النساء، كذلك ينبغي لرجال أنقياء اجتماعياً ومختارين بالطبيعة، أن يحكموا سائر البشرية. بالنسبة له، كان الدين يشكل نوعاً من الخرافة الدنيئة والحقيرة، وقد أسس معارضته لمثل تلك الأفكار الأنثوية الهابطة مثل المساواة، والديمقراطية والاشتراكية وتحرير المرأة والإنسانية، على أسس «عقلانية» ولا دينية[21].

وقد سبقت فلسفة نيتشه التي تنادي بحق النبلاء والأقوياء بالتصرف تجاه الأشخاص الأدنى مرتبة، كما يحلو لهم، ظهور الفاشية المعاصرة. وبالعودة إلى الأساطير الهندية الأوروبية القديمة، نجد أن نيتشه قد أظهر احتقاره للتقاليد اليهودية المسيحية واصفاً إياها بأنها ليست ذكورية بما يكفي لأنها تضم أفكاراً «أنثوية» و«أخلاقيات لا تصلح إلا للعبيد» ، مثل إنكار الذات، والإحسان، والمعروف ومحبة الجار. وكما هو الحال في الأيام العتيدة للمحاربين الآريين أو الهنود الأوروبيين، كان النظام الأخلاقي المثالي بالنسبة لنيتشه هو ذلك العالم الذي يقرر فيه الحكام والحكام فقط، ما هو الصالح، وهو عالم يخوض فيه أبطال ورجال متميزون حروباً مجيدة، وعالم يحكمه رجال يقولون: «أنا أحب ذلك وسآخذه لي، ورجال يعرفون تماماً كيف يمتلكون امرأة وكيف يعاقبون ويسقطون السفهاء، رجال يذعن لهم الضعفاء بمحض إرادتهم وبشكل طبيعي» . باختصار هو عالم يشبه ذلك العالم الذي تصورته وثيقة هتلر الذكورية التي ظهرت في القرن العشرين: «كفاحي»[22].

نموذج الهيمنة في العلاقات الإنسانية

قوبل الصعود الحديث للفاشية وغيرها من الإيديولوجيات اليمينية بتفجع وأسىً من هؤلاء الذين ما زالوا يخفون في داخلهم أملاً بإمكانية استمرار تطورنا

الحضاري. وقد لاحظ هؤلاء بحذر واحتراس أن الإيديولوجيا اليمينية ستقوم بإعادة فرض الدكتاتورية وإعادة عجلة الزمن إلى أيام ساد فيها الظلم وعدم المساواة، وربما بشكل أشد من قبل. وقد جاء الإنذار بشكل خاص من قِبَل العسكريتاريا اليمينية والمناصرة لها التي تعتبر مثالها العنف وسفك الدماء والحروب، كما أدرك هؤلاء مدى الخطر الذي تمثله مثل هذه الطريقة في التفكير على أمننا وبقائنا. إلا أن هناك ناحية ثالثة من نواحي التفكير الإيديولوجي، نادراً ما تتم ملاحظتها، هي أن اليمينيين وعلى طول الطريق منذ عهد اليمينيين الأميركيين الذين ظهروا في أواخر القرن العشرين وحتى مجموعات العمل الفرنسية Action Francaise الذين ظهروا في بداية القرن، لا يقبلون فحسب أنظمة العلاقات بين الهيمنة الذكورية والحروب والدكتاتورية[23]، بل يعترفون بها علناً.

وإذا تفحصنا بموضوعية الأنظمة السياسية الموجودة في الأزمنة الحديثة، فسنرى أنه ليس من قبيل الصدفة أن تكون الهيمنة الذكورية المتشددة ومعها هيمنة القيم الذكورية قد ميّزت بعض أكثر الأنظمة المعاصرة عنفاً وقمعاً. فقد كان هذا هو الحال مع نظام ألمانيا هتلر، ونظام إسبانيا فرانكو ونظام إيطاليا موسوليني. كما أن أنظمة قمعية مثل نظام عيدي أمين في إفريقيا وضياء الحق في باكستان وتروهيليو في جزر الهند الغربية وتشاوشيسكو في رومانيا، كلها توضح هذه النقطة[24].

ولعل أكثر الأمثلة دلالة وجدية يظهر في إدارة الولايات المتحدة نفسها «مهد الديمقراطية الحديثة» التي تنأى بنفسها فوق القانون وتخوض الحروب الخفية وتضرب بعرض الحائط المصالح العامة عبر إنفاقها أضخم ميزانية عسكرية في التاريخ الأميركي، ومعارضتها للتعديل الدستوري الذي يمنح المرأة مساواة قانونية، ودعمها بدل ذلك تعديلاً يحرم المرأة من حرية اختيار تناسلها. كذلك إذا نظرنا عن كثب إلى أكثر الإيديولوجيات الدينية البارزة مناصرةً

للذكورية، مثل الواعظ الأميركي المتشدد جيري فالويل (وهو صديق حميم ومستشار روحي للرئيس رونالد ريغان) ومثل آية الله الخيمني في إيران فسنجد ترابطاً واضحاً في العنف المؤسسي، وقمع النساء وتقييد الحريات.

ويقوم جيري فالويل في الولايات المتحدة بالوعظ موجهاً حديثه لملايين المشاهدين على شاشات التلفزيون، قائلاً إن الله يقف ضد التعديل المتعلق بالمساواة في الحقوق. وتشكل مواقفه ضد حرية التعبير وحريةِ اختيار التناسل، وحرية العبادة أو عدم العبادة وفقاً لضمير الشخص، تهديداً للحريات. كما أن دعمه لفكرة أن تصبح أميركا أكثر عسكرة وقوة، ولحكومة القمع الوحشي التي حكمت جنوب إفريقيا سابقاً وغيرها من الأنظمة التي قتلت وعذبت شعوبها بأسلحة مقدمة من «زعماء أميركا الذين يخافون الله»، يضع ختم إرادة الله على العنف. وبهذه الطريقة يكشف أمثال فالويل من أنصار المسيحية الذكورية عن اعترافهم الواقعي بالارتباط القائم بين الهيمنة الذكورية والدكتاتورية والعنف الذكوري.

وظهر اعتراف مشابه بهذه الارتباطات لدى آية الله الخميني عندما أعلن أن اللباس النسائي الطويل الذي يغطي جسد المرأة بأكمله، والذي يُطلب من المرأة المسلمة التقليدية أن ترتديه، هو رمز لعودة إيران إلى حكم الذكور المتدينين من أمثال الخميني ورجال الدين التابعين له[25]. ومن المؤكد أننا إذا نظرنا من خلال مفهوم نظرية التطور الحضاري فإن هذه الصحوة الإسلامية تمثل في الحقيقة صحوة النظام الذكوري الذي يقاوم بشدة أي دفع أنثوي معاصر.

وقد كان آية الله الخميني قد طرد أصلاً من إيران بعد أن قاد اضطرابات على مدى يومين احتجاجاً على إعطاء النساء مزيداً من حقوق المعاملة المتساوية. وكان أول مرسوم سنّه بعد عودته هو تعليق قانون حماية العائلة الصادر عام 1967 والذي أعطى المرأة حقوقاً أكثر مساواة في مسائل الطلاق

والزواج والميراث. ثم قام بحضّ أتباعه على إعادة فرض الحجاب[26]. وفي الوقت نفسه أصدر قوانين صارمة بخصوص فصل الذكور عن الإناث في المدارس والمسابح وتخفيض سن الزواج للفتيات إلى عمر ثلاث عشرة سنة. وقد تم فرض هذه القوانين بسرعة كبيرة[27].

وفي نظام الخميني «الأخلاقي» الجديد الذي تغاضى عن الاحتجاز العنيف للدبلوماسيين الأميركيين كرهائن، والذي أقحم إيران في حرب مقدسة ضد العراق، كان أي عصيان يبرز ضد رجال السلطة يعتبر جريمة ضد الإسلام، تعرض مرتكبها لعقوبة السجن، والتعذيب وربما الموت، ولم يكن هناك تسامح مع حرية التعبير أو حرية الصحافة واعتبرت أية محاولة لإنشاء حزب منافس نوعاً من الهرطقة[28]. وفي عقابه لجريمة اعتناق مذهب يشجع المساواة بين النساء والرجال، وتنظيم النساء، قام في عام 1983 بإعدام عشر نساء ينتمين إلى المذهب البهائي علناً، وكان من بينهن أول عالِمة فيزياء إيرانية، وعازفة بيانو وممرضة وثلاث مراهقات من طالبات الجامعات.

باختصار، نجد أن هؤلاء الذين يريدون فرض حكم الرجال الأقوياء على كل من النساء والرجال ينظرون إلى قضايا المرأة مثل حرية اختيار التناسل والحقوق المتساوية في القانون، كقضايا أساسية، ومن المؤكد أننا لو نظرنا إلى تحركات اليمنيين من اليمين الأميركي الجديد وحتى شركائهم المتدينين في كل من الشرق والغرب، فإننا نجد ضمن قمة أولوياتهم، إعادة النساء إلى منزلتهم التقليدية الخاضعة والمتذللة[30].

ومن المفارقات بالنسبة لأغلبية الملتزمين بمُثل مِثل التقدمية والمساواة والسلام أن الربط بين القضايا النسائية وتحقيق الأهداف التقدمية يبقى أمراً غير منظور. فبالنسبة لليبراليين والاشتراكيين والشيوعيين وغيرهم من فئات الوسط وحتى اليسار، تعتبر قضية تحرير النساء أمراً ثانوياً أو هامشياً ينبغي تناوله، فيما لو حصل ذلك، بعد معالجة القضايا الأكثر أهمية التي تواجه عالمنا.

معظم الفوضى الإيديولوجية إضافة إلى الحركة الثقافية العصرية التي تشهد خطوة إلى الأمام وخطوتين إلى الوراء، يمكن تتبعها إلى فشل هؤلاء العاملين من أجل التقدم في رؤية الاستحالة العقلانية لإيجاد مجتمع عادل ومتساوٍ طالما بقي نظام الهيمنة في العلاقات الإنسانية قائماً. وإلى الحد الذي ما زلنا فيه نتقاعس عن رؤية التناقض بين مجتمع متساوٍ وبين عدم المساواة بين نصفي البشرية، يبدو وكأن المنطق قد أفشلنا أيضاً. ويذكرنا هذا بقصة هانز كريستيان أندرسون عن الإمبراطور الذي لا يرتدي ثياباً ولا يرى عريه إلا طفل صغير لم يتلقن درسه. وأمام تلقن الدروس ضمن رؤية الحقائق التي يتطلبها الحفاظ على النظام القائم، يصبح من الصعب حتى على أكثر القوى منطقية وعقلانية أن تجد دلالة للربط بين نظام الهيمنة في العلاقات البشرية وبين مجتمع قائم على نظام الهيمنة.

إن الجنسين البشريين الأساسيين هما الذكر والأنثى، كما أن الطريقة التي تبنى فيها العلاقة بين الرجال والنساء تعتبر نموذجاً أساسياً للعلاقات الإنسانية. وبالتالي فإن طريقة المهيمِن والمهيمَن عليه في العلاقة بين الآدميين تدخل في صلب حياة كل طفل يعيش ضمن عائلة تقليدية أبوية، منذ ولادته[31].

وفي حالة التمييز العرقي، يتم تعميم هذا النموذج في العلاقات الإنسانية من أفراد يختلفون في الجنس إلى أفراد يختلفون في العرق. وفي ظاهرة الاستعمار ذات الصلة بهذا الموضوع، تخطو العلاقة عامة خطوة إلى الأمام لتصل إلى أفراد يختلفون في الجنسية أو في الدولة (وعادةً في العرق أيضاً). وهذا النموذج فرض نفسه عبر عقلنة جميع الأشكال الممكنة للاستغلال الاجتماعي والاقتصادي.

إلى الأمام أم إلى الخلف؟

حالما نتجاوز العلاقات الإيديولوجية القديمة مثل: التحرر مقابل المحافظة، والتدين مقابل العلمانية، واليسار مقابل اليمين، يصبح التاريخ المعاصر في العديد من نواحيه الأساسية أكثر وضوحاً، ويمكن رؤية الإيديولوجيات التقدمية العصرية كجزء من ثورة متصاعدة ومستمرة ضد النظام الذكوري المهيمن.

وهذه الثورات التي بدأت أولاً بالعُمّال والفلاحين (كتابات ماركس حول البورجوازية والبروليتاريا). ثم قام بها العبيد السود، وأبناء المستعمرات والنساء تمثل جزءاً من هذه الحركة التي يتواصل انبثاقها من أجل إبدال النظام الذكوري المهيمن بنظام تشاركي، لأن جميع هذه الانتفاضات الجماهيرية كانت وما تزال موجهة في الأساس ضد نظام يعتبر المرتبية والطبقية مبدأ أساسياً في تنظيمه الاجتماعي.

ولكن هذا التحدي الإيديولوجي للنظام الذكوري ما زال حتى اليوم مجزءاً. فبينما نجد الإيديولوجية اليمينية والإيديولوجية المناصرة لنظام الهيمنة تقدم رؤية شاملة ومتماسكة لكل من الحياة الشخصية والعامة، نرى أنه ليس بين الإيديولوجيات التقدمية، سوى إيديولوجية الحركة النسوية التي تتجنب أي تفكك داخلي وتحافظ على تماسكها من خلال تطبيقها لمبادئ مثل المساواة والحرية على جميع أبناء البشر وليس على النصف الذكوري فقط. والأنثوية وحدها هي التي تطرح رؤية لإعادة تنظيم معظم المؤسسات الاجتماعية الأساسية مثل العائلة، كما أن الأنثوية وحدها هي التي تربط بشكل جلي بين الأنظمة المختلفة، مثلاً بين العنف الذكوري المتمثل في الاغتصاب وضرب الزوجات، وبين العنف الذكوري المتمثل في الحروب[32].

بالنسبة لنظامنا الإيديولوجي المعاصر، يمكننا رؤية الأنثوية كجاذب قوي. فرغم كونها عاشت على هامش الأنظمة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، إلا أنها استطاعت أن تعمل كجاذب دوري، واستطاعت توجيه الحركة الثقافية نحو رؤية عالمية لا يتم فيها إنقاص قيمة المرأة والأنثوية المرتبطة بها. ولكن في زمننا الذي يتزايد فيها عدم توازن الأنظمة، فإن الأنثوية تستطيع أن تكون نواة لإيديولوجية تشاركية جديدة ومتكاملة. وإذا ما أدخلنا فيها العناصر الإنسانية في كل من الإيديولوجيتين الدينية والعلمانية فإن هذه النظرة التشاركية المعاصرة

يمكنها في نهاية المطاف أن تقدم إيديولوجية متماسكة داخلياً تستطيع أن تبدل نظام الهيمنة بنظام تشاركي.

ويوجد حالياً بالفعل تحرك باتجاه مثل هذه الإيديولوجية. على سبيل المثال في منتدى النماذج الحديثة الذي عقد عام 1985 والذي رعاه معهد إيلموود التابع لفريجتوف كابرا، وُضع وصف خاص لنموذج جديد في التفكير أطلق عليه اسم «ما بعد الأبوية» . وينظر إلى هذا التفسير الجديد على أنه يمثل نقلة من الهيمنة والسيطرة على الطبيعة إلى التعاون واللاعنف[33]. ويدرك العلماء الباحثون في مستقبل الذكور، من أمثال روبرت يانج وديفيد لوي وجون بلات الرابطة بين المساواة للنساء وبين السلام[34]. وقد جاء في بيان عام 1985 لبيت العدالة البهائي العالمي، الموجه إلى رؤساء دول العالم أنه يعترف بوضوح أن «تحقيق المساواة الكاملة بين الجنسين» هو شرط مسبق لتحقيق السلام العالمي[35].

لقد تنادى فلاسفة ونشطاء الحركة النسوية من جميع أنحاء العالم لوضع أخلاقيات جديدة لكل من الرجال والنساء مبنية على القيم الأنثوية مثل الرعاية واللاعنف ونذكر منهن نساءً مثل ويلما سكوت هايدي، وهيلين كالديكوت، وبيتي فريدان، وألفا ميردال، وأليس بولدنغ، وفران هوسكن، وهيلكا بييتيلا، وشارلين سبريتناك، وسيلينا غارسيا، وغلوريا ستاينم، وديم نيتا بارو، وباتريشيا إلزبيرغ، وباتريشيا ميشي، وبربارا ديمنغ، ومارا كيلر، وبيللا أبزوغ، وبام ماكألستر، وألي هيكسون، وإليزابيث دوستون – غراي. وغيرهن من الفنانات والكاتبات وعالمات اللاهوت والعالِمات النسويات ممن يطرحن نظريات وتصورات جديدة ملائمة لعالم تشاركي بدل عالم الهيمنة، ونذكر منهن: جيسي برنارد، وكارول كرايست، وعابدة خانم، وسوزان غريفين، وكارين ساكس، وجوديث بلاسكو، وجون برندل، وغيتا سن، وروزماري رادفورد روثر، وديل سبندر، ونوال السعداوي، وجين أوبار، وبيتي ريردون، وستارهوك، وبولا جن

ألين، وكارول غيلليغان، وشارلوت بانش، وجودي شيكاغو، ومايومي أودا، وأليس وولكر، ومارغريت أتوود، وجورجيا أوكيف، وبيغي ساندي، وهولي نير، وأورسولا لوغوين، وإي. إم. برونر، ومارج بيرسي، وإيلين ماري شن، وأليكس كيتس شولمان، وتلك النسوة قليل من كثير[37].

كذلك تبذل محاولات لتأسيس ما يمكن أن تكون في الأساس تحركات تشاركية مبنية على الترابط بدلاً من المرتبية. على سبيل المثال، استطاعت رؤية بترا كيللي حول بناء حزب بيئي أنثوي سليم أن تقدم دفعاً قوياً لأحزاب الخضر الغربية[38]. كذلك عرض منتدى حزب المواطن لسونيا جونسون لانتخابات الرئاسة عام 1985 بوضوح مدى مركزية النسوية في أي تغيير اجتماعي واقتصادي وسياسي ملموس.

جميع هذه الخطوات تتجه نحو إعادة رؤية الحقيقة بشكل مندمج ومتماسك وهي عملية ضرورية من أجل البناء الفعال للمجتمع التشاركي. ورغم أننا ننظر عادةً إلى الحقائق بهذه الطريقة، إلا أن معظم الحقائق الاجتماعية كالمدارس والمستشفيات والأسواق المالية والأحزاب السياسية والكنائس، هي تحقيق لأفكار سبق ووجدت في أذهان القلائل من الرجال والنساء. والأمر يصح كذلك في حالة إلغاء الرق واستبدال الملكية بالجمهورية وغيرها من الخطوات التقدمية التي خطوناها في القرون القليلة الأخيرة(39). وحتى الحقائق المادية مثل الطاولات والكتب والقدور المعدنية والطائرات وآلات العزف، تعتبر تحقيقاً لأفكار إنسانية. أما بالنسبة للأفكار الجديدة التي ينبغي ترجمتها إلى حقائق جديدة، فإن الأمر يتطلب ليس فقط وضوحاً في الرؤيا ولكن فرصاً لتغيير الحقائق القديمة.

إن تفاعل عصرنا الحديث كزمن غير مسبوق في التغيير التقني، يتيح فرصة للتغيير الاجتماعي، وإمكانية لتغيير اجتماعي جوهري. وها نحن نرى حين

ت حولنا، التغيير التقني والسريع وهو يؤدي إلى عدم استقرار اجتما
ما تظهر نظرية التحول، عندما تكون الدول في حالة عم استقرار، ي
ل متاحاً للانتقال من نظام إلى آخر.

إن الثورات الحديثة من قِبَل النساء والرجال على السواء ضد
منة ترافق التقدم التقني الهائل. كما أن كل تغيير تقني رئيسي، أعطى قو
حركة النسوية من خلال فرض التغييرات في أدوار الرجال والنساء. و
بيعة الآن وكأنها تثور ضد نظام الهيمنة من خلال تعرية التربة، ون
ارد، والمطر الحامضي والتلوث البيئي، ولكن ثورة الطبيعة هذه، ليست
دل البعض أحياناً ثورة ضد التقنية، بل هي ثورة ضد الاستخدامات الم
لاستغلالية للتقنية والتي تسخَّر في خدمة نظام الهيمنة الذي يستمر فيه الر
حقيق الانتصارات سواء على الطبيعة أم على النساء أم على رجال آخرين

وقد قيل إن التقنية المعاصرة تشكل خطراً ليس على تطورنا الحض
سب بل أيضاً على تطورنا البيولوجي. وإلى الحد الذي تبقى فيه أنظمة الم
منة، تظل التقنية المتقدمة تشكل خطراً رئيساً على بقائنا. إلا أن هذا ا
لي دفعاً أيضاً لتغيير جوهري في الأنظمة.

بناءً على هذا المستوى الأساسي، يمكن النظر إلى الدفع التشاركي المع
ى أنه طريقة للتكيف يفرضها حس البقاء على جنسنا البشري. وكما س
الفصل الذي يلي، فإن الدلائل تتصاعد من كل جانب حول اقتراب ا
سائد وبسرعة من نهايته التطورية المنطقية، وهي نهاية الخط لخمسة آلاف
التحول نحو الهيمنة الذكورية. أما ما ينتظرنا في المستقبل فهو حمام
خير لهذا النظام المحتضر في جهوده العنيفة للحفاظ على بقائه، إلا أن
حتضار التي يعاني منها نظام الهيمنة قد تكون هي نفسها تقلصات المخ
لادة التشاركية وفتح الباب أمام مستقبل جديد.

الفصل 12

توقف التطور

مستقبل نظام الهيمنة

ما كان يعتبر في السابق مجرد سيناريو خيال علمي للمستقبل أصبح اليوم إمكانية جدية. وهذا السيناريو الخيالي يصور البشرية وقد مسحت عن وجه الأرض إثر حرب نووية واستولت الصراصير المعروفة بمناعتها ضد الأشعة على الكرة الأرضية. إذا حصل مثل هذا السيناريو فسيكون نهاية مناسبة لنظام الهيمنة، ولكنه مزاح تطوري مروّع بالنسبة لنا. وهذا يعني أن مثل هذا النظام الذي قزّم نموّنا الحضاري قد نجح أخيراً في إنتاج تلك المخلوقات التي تلائمه تماماً: أي الحشرات بدلاً من الإنسان.

ويشير نوربرت واينر في أحد أعماله الرائدة: «استخدام الإنسان لبني الإنسان» ، إلى أن التنظيم الهرمي الصارم للحشرات الاجتماعية كالنمل والنحل يناسب تماماً هذه الأشكال الأقل تطوراً من الحياة[1]. كما يلاحظ واينر أن الحشرات تملك أجساداً محبوسة داخل هياكل خارجية صلبة أو أصداف، كما أن عقولها محشورة داخل أدمغة ضيقة لا تتسع فيها المساحة لتخزين الذكريات أو لمعالجة المعلومات المعقدة التي تشكل أساس التعلم. لذلك فإن النظام الاجتماعي الذي يلعب فيه الفرد دوراً ضيقاً ومحدداً له، ويتخصص فيه كل جنس تخصصاً تاماً بعمله، هو تنظيم ملائم للحشرات الاجتماعية كالنمل والنحل. فالوظيفة

الوحيدة للملكة هنا هي البيض، كما أن الوظيفة الوحيدة لذكر النحل هي التلقيح. أما العاملات من النحل والنمل كما توحي أسماؤهن فلا وظيفة لهن سوى القيام بالأعمال غير المنتجة مثل الحفاظ على إطعام الخلية وترتيبها.

على النقيض من ذلك، يعتبر البشر أشكالاً حياتية مرنة وأقل تخصصاً في بنيتها المادية. فكل من الرجال والنساء يملكون قامة منتصبة تحرر أيديهم لاستخدام الأدوات وكل منهما يملك عقلاً متطوراً يمكنه تخزين كمية هائلة من الذكريات وله قدرة استثنائية على معالجة المعلومات مما يجعل منا مخلوقات مرنة وطليقة الحركة أي بشر كما نحن عليه[2].

لذلك، ورغم أن وجود نظام اجتماعي هرمي صارم مثل نظام الهيمنة الذي يحبس نصفي البشر في أدوار جامدة ومرسومة، يعتبر ملائماً لأجناس ذات قدرة محدودة مثل الحشرات الاجتماعية، إلا أنه لا يصلح أبداً للبشر[3]. وعند هذا المفترق في تطورنا التقني، يمكن لهذا النظام أن يكون قاتلاً.

المشاكل التي ليس لها حلول

شكل كتاب واينر حول العمليات المتشابكة سابقة قبل أوانه لطريقة التحرك الجديد من أجل فهم هذا العالم الذي أصبح اليوم متقدماً في علومه الطبيعية. فقد شدد واينر في كتابه على أن ما يعطي جنسنا مداه التطوري هو قدرته الهائلة والمتفوقة على تغيير تصرفاته وفقاً لما سماه «التغذية الراجعة» ، وتعني تغيير المعلومات حول فعالية أو عدم فعالية التصرف السابق وجلب معلومات جديدة حول الأوضاع الحالية[4].

إضافة إلى ذلك، كما يذكر واينر، نحن نملك أيضاً ميزة تطورية أخرى هي أننا نستطيع أن نغير تصرفنا بسرعة. وتوجد أجناس غيرنا تستطيع تطوير أنماط جديدة من التصرف رداً على تغير الأوضاع، وإذا لم تفعل ذلك فإنها تموت. إلا

أن هذا التطور بالنسبة لمعظم الأجناس يأتي في سياق تطورها البيولوجي ويشمل تغييرات في بنيتها الجسدية والذهنية. أما نحن، فعلى النقيض من ذلك، نستطيع إذا اقتضت الضرورة تغيير أنماط سلوكياتنا بسرعة كبيرة، وربما فورية عبر استخدام أدمغتنا المتفوقة والهائلة.

ولكن، لكي نفعل ذلك بنجاح، يتطلب الأمر ثلاثة أشياء هي: أن ننظر في التغذية الراجعة، ونفسرها بشكل صحيح، ومن ثم نستخدمها من أجل التغيير.

ويلخص بعض المتنبئين بالمستقبل، التغذية الراجعة التي تصلنا في الظروف الحالية لكوكبنا في عبارة واحدة هي: العالم يواجه مشاكل[5]. فبناءً على التحليلات المعلوماتية عبر الحاسوب مثل تلك التي تقدمها لنا التقارير الأولى والثانية لنادي روما، والتقارير الحكومية مثل «العالم 2000» وحشد من الدراسات الدولية التي تقوم بها الأمم المتحدة وغيرها، يتوقع معظم العلماء بأنه إذا استمرت التوجهات الحالية على هذه الوتيرة فإننا نتحرك نحو زمن أكثر فوضى، سوف يشهد فيه العالم اضطرابات سياسية واقتصادية وبيئية[6].

ونحن نشهد بالفعل ظواهر خطيرة من انعدام التوازنات البيئية، ودماراً بيئياً خطيراً يتمثل في تأثيرات الأمطار الحمضية وارتفاع مستوى الإشعاعات، والمخلفات السامة وغيرها من أشكال التلوث الصناعي والعسكري. ويخشى العلماء تزايد تراكيز المواد الكيمياوية التي تستنفد الأوزون والتي يمكنها أن تغير مناخ الأرض. كما أن التدمير السريع للغابات المطرية يشكل تهديداً خطيراً يوجب إيلاءه الاهتمام الشديد. وهناك العديد من الأجناس الآخذة في الانقراض، وتشير التوقعات إلى أنه مع حلول العام 2000، فإن مئات الآلاف من الكائنات أي ما قد يصل إلى 20٪ من الأجناس سوف تفقد بلا رجعة[7].

هناك مشكلة خطيرة أخرى تتعلق بخسارة الأراضي الزراعية، وخاصة في إفريقيا التي يمزقها الجوع. فكل سنة تتحول رقع من الأراضي الزراعية والعشبية

تُقدَّر مساحتها بمساحة ولاية مين إلى أراضٍ قاحلة لا تصلح لشيء. وتشير التنبؤات إلى تسارع انتشار الظروف المؤدية إلى التصحر[8].

لقد وصل الجوع والفقر بالفعل إلى حدود كارثية، فقد سجل العام 1983 وفاة 11 مليون طفل قبل أن يكملوا سنتهم الأولى. إضافة إلى وجود بليوني إنسان يعتاشون على مداخيل تقل عن الخمسمائة دولار في السنة، كذلك عانى أربعمائة وخمسون مليون إنسان من الجوع ومن سوء تغذية شديدة، ولم يحصل بليونا إنسان على مصدر آمن ومعتمد لمياه الشرب[9]. وحتى في الولايات المتحدة التي تعتبر من أغنى دول العالم، وصل معدل الفقر إلى أعلى نسبة منذ سبعة عشر عاماً مع وجود 34 مليون إنسان أي ما يعادل خمس السكان مصنفين رسمياً تحت خط الفقر[10].

وبناءً على الاتجاهات الحالية، تتجه التوقعات نحو الأسوأ ونحو عدم التحسن في الظروف. فالهوة بين الأغنياء والفقراء وبين الدول الفقيرة والدول الغنية ستستمر في التوسع. ورغم الإنتاج المادي المتعاظم، إلا أن التزايد في النمو السكاني سيجعل من حياة فقراء العالم الذين يتزايد عددهم في السنوات القادمة أسوأ مما هي عليه اليوم[11].

باختصار، نحن نتلقى إشارات الخطر من كل ما حولنا. وتقول التغذية الراجعة إن نظام كوكبنا آخذ في الانهيار. ولعل الأكثر إلحاحاً من بين هذه المؤشرات ما يطلق عليه المتنبئون «الانفجار السكاني» . فمع تزايد أعداد المواليد، وأعداد الناس يتزايد السكان بمعدلات هائلة[12]. وفي الحقيقة أنه إذا استمر معدل النمو السكاني كما هو عليه اليوم، فمن المتوقع أن تضاف إلى كوكبنا في سنة واحدة أعداد من السكان حتى منتصف القرن الواحد والعشرين أكثر مما أضيف خلال كل الألف والخمسمائة سنة التي تلت وفاة المسيح[13].

وتعتبر الأزمة السكانية، التي فشلت السياسات الحالية في إبطاء معدلات نموها، في قلب المشاكل المعقدة التي لا تبدو بلا حل والتي يطلق عليها المتنبئون اسم «مشاكل العالم» . لأن خلف ما يجري من تعرية للتربة وتصحر وتلوث للماء والهواء وغير ذلك من الضغوطات البيئية والاجتماعية والسياسية في زمننا الحالي، توجد ضغوطات لأعداد أكثر وأكثر من الناس على الأرض وعلى الموارد الأخرى المحدودة، وضغوطات لأعداد متزايدة من المصانع والسيارات والشاحنات وغيرها من مصادر التلوث المطلوبة لتزويد هذه الأعداد المتزايدة من الناس بالبضائع، والتوترات الأسوأ من الضغوطات التي تشعلها احتياجاتهم وطموحاتهم[14]. إن ما يجعلنا نرى بوضوح كيف ولماذا أصبحت مشاكلنا التي تسير من سيئ إلى أسوأ غير قابلة للحل تحت حكم النظام الذكوري، هو ارتباط هذه المشاكل بالانفجار السكاني.

القضايا الإنسانية وقضايا المرأة

حين نظرنا إلى ماضينا، رأينا كيف أن النموذج السائد استطاع أن يعمي عيون العلماء بحيث أنهم لم يروا في صور الإلهة الأم ما قبل التاريخ سوى فينوس السمينة والأعضاء الجنسية السمينة للرجال. كذلك الأمر حين ننظر إلى المستقبل عبر هذه الحالة الذهنية ذاتها فنرى المشاكل التي تطرأ عل كرتنا الأرضية بطريقة مشوهة تماماً.

تبدأ المشكلة بحقيقة أن المعلومات التاريخية التي يتم تجميعها من قبل معظم الخبراء تستثني النساء. وهكذا يعمل معظم صانعي السياسات بنصف قاعدة المعلومات فقط. ولكن حتى ولو كانت المعلومات أمام أعينهم، فإن صناع السياسة هؤلاء لن يتمكنوا من القيام بالتحرك المناسب إذا استمر النظام الحالي على ما هو عليه. على سبيل المثال نجد في العديد من الدول الإسلامية المتخلفة اقتصادياً والتي تعاني من فائض في عدد السكان، معدلات ولادة عالية لا تعتبر

بالنسبة لهم مشكلة. فقادة من طراز آية الله الخميني، وضياء الحق يبدون وكأنهم لا يربطون بين الفقر الهائل الذي يبتلي شعوبهم وبين حقيقة النظرة إلى المرأة في تلك الثقافات على أنها أداة للإنجاب مسيطر عليها من الرجل. كلك الأمر في مؤتمر السكان الذي عُقد في مكسيكو سيتي عام 1984، (وهي المدينة الأكثر والأسوأ ازدحاماً في السكان بين مدن العالم، وعاصمة البلاد التي يفرّ منها إلى الشمال مليون مهاجر غير شرعي كل عام، هروباً من الفقر المدقع الذي يتسبب به تعاظم أعداد السكان) حين أعلن ممثلو إدارة ريغان بصراحة عن عدم وجود مشكلة سكانية[15].

إن ما نستنتجه من الإصدارات الصحفية العالمية ومن معظم الدراسات التي يقوم بها العلماء أن مثل هذه اللحظات تظهر افتقاراً إلى الذكاء وإلى الوعي من قِبَل الحكومات ذات الشأن. إلا أن هذا الانطباع قد يكون مضللاً إلى درجة خطرة، لأنها في الواقع تعكس وعياً حاداً لما هو مطلوب للحفاظ على النظام الذكوري عبر العالم.

ومن المفارقات في هذا الزمان الذي يشهد تراجعاً هائلاً في النظام الذكوري، أن نجد مثلاً مثيراً يأتينا من دولة كانت في أحد الأيام مثالاً ذا نوعية مختلفة في كفاحها من أجل العقائد النسوية التشاركية في العدالة والمساواة والبرامج الاجتماعية. وهذه الدولة هي الولايات المتحدة التي تملك نفوذاً غير متناسب على سياسات الدول المزدحمة بالسكان بينما هي تستهلك نسبة مئوية غير متناسبة من موارد العالم، ونراها اليوم قد تراجعت في سياستها نحو زيادة أعداد المواليد بدلاً من تخفيفها. فلم تكتف حكومة ريغان بقطع التمويل جذرياً عن برامج التخطيط الأسري في العالم الثالث في الوقت نفسه الذي أخذت فيه حالات الجوع والفقر تتزايد في الولايات المتحدة نفسها، بل عملت أيضاً على الضغط من أجل تعديل دستوري يعتبر الإجهاض جريمة يعاقب عليها القانون.

وفي تحرك محسوب ينكر على النساء المساواة والإنصاف في الحصول على خيارات في الحياة لا تتضمن وجود ولادات، عارضت حكومة ريغان وبشدة التعديل الدستوري المقترح المتعلق بالمساواة في الحقوق وتجاهلت لا بل ألغت من الناحية الفعلية القوانين السابقة التي كانت قد وضعت لمساواة النساء في فرص التوظيف والتعليم.

في كل مكان في العالم تقريباً باستثناء دول مثل الصين وإندونيسيا وتايوان وحديثاً كينيا وزمبابوي، نادراً ما يعتبر التخطيط الأسري في قمة الأولويات. على العكس من ذلك نجد أن نيكولاي تشاوشسكو، رئيس رومانيا التي تعد من أفقر دول الكتلة الشرقية في أوروبا، يصرح بأن من الواجب الوطني للنساء إنجاب أربعة أطفال ويطلب منهن إجراء فحوص شهرية للحبل وتقديم تفسيرات طبية في حالة تواصل عدم حملهن[17]. وفي العديد من الدول المزدحمة بالسكان والأمم الأكثر فقراً بين الدول النامية يتم حرمان النساء من الحصول على وسائل تنظيم الحمل[18].

وفي حدث يعتبر الأول من نوعه في التاريخ، أعلن المؤتمر الدولي للسكان عام 1984 أن تحسين منزلة المرأة عالمياً هو هدف هام سواء لمصلحته أو بسبب أهميته في تخفيض الخصوبة[19]، إلا أن السياسات التي اتبعت لخلق الفرص والدوافع أمام النساء من أجل تحديد الولادات بقيت تقريباً في معظم مناطق العالم تحظى بأولوية متدنية[20]. واستمر الحال على هذا المنوال، رغم الرسائل الواضحة التي أطلقها خبراء السكان في جميع أنحاء العالم بأنه إذا كان للتخطيط السكاني أن ينجح، فلابد من إيجاد مكافئات للنساء مرضية تؤهلن للعب أدوار اجتماعية غير أدوار الزوجات والأمهات وأن هذه المكافئات تحمل أهمية أكبر حتى في توفير ثقافة لتنظيم الحمل[21].

منطقياً، توجد بدائل سهلة. فقد كانت الوسائل التقليدية السابقة التي تمنع النمو السكاني تتكون من الأمراض والمجاعات والحروب. ولعل إعطاء الأولوية العليا لحرية التناسل والمساواة للنساء هو الطريق الوحيدة الأخرى لإيقاف الانفجار السكاني. ولكن إعطاء الأولوية لمثل هذه القضايا النسائية يعني نهاية النظام الحالي. كما يعني الانتقال من مجتمع الهيمنة إلى مجتمع التشاركية. وبالنسبة للذهنية الذكورية، وهي الذهنية التي يحملها معظم زعماء العالم اليوم – لا يعتبر هذا شيئاً محتملاً.

وهكذا يجد هؤلاء الرجال «مراكز أبحاث» ويمولونها لكي تخبرهم ما يرغبون في سماعه. ومن بين هذه المؤسسات التي تموّل من قبل المصالح المحافظة، مؤسسة هيريتاج التي تموّل بدورها دراسات يقوم بها متنبؤون معروفون مثل هيرمان كاهن، واقتصاديون مثل جوليان سايمون وغيرهم ممن يجادلون بأنه لا توجد مشكلة سكان عالمية[22]. في جوهر الأمر، يتصور هؤلاء أن انتشار المجاعة على نطاق واسع على المدى القصير سوف يساعد على تخفيف الزيادة في عدد السكان، وعلى المدى الطويل فإن الرجال الذين يسيّرون الإمبراطوريات الاقتصادية في العالم سوف يتمكنون من خلال المنافسة العدوانية والمحمومة أن ينتجوا ما يكفي من الثروة لإطعام البلايين القادمة من السكان[23].

هؤلاء الوريثون العصريون للرجال الذين أوقفوا الحقيقة على رأسها ما قبل التاريخ يستخدمون اليوم المقاربة نفسها لمشكلة «حلول» الجوع والفقر. وكخطوة أولى، يقومون بإنكار وجود المجاعة والفقر في العالم ويحاولون التخفيف منها[24]. وحين يواجهون بأدلة لا يمكن إنكارها مثل حقيقة أنه في كل دقيقة يموت ثلاثون طفلاً بسبب الحاجة إلى الطعام أو إلى المطعومات الرخيصة[25]، يردّون بأن هذا الوضع التعيس مؤقت وبأن الفقر والجوع سيزولان مع سيطرة التجارة الحرة[26].

وحتى هؤلاء الذين يبدون أقل قسوة بالنسبة للمعاناة الإنسانية، وهم في الحقيقة قلقون بشدة منها، نجدهم يقعون غالباً في الأفخاخ التقليدية التي تشوه الحقيقة أو تحجبها. وهم يواصلون الحديث عن الجوع والفقر بعبارات عامة، عندما تظهر الأدلة بوضوح أنه مع البقاء ضمن نظام المراتب الذكوري المهيمن، فإن قضايا الجوع والفقر تبقى في حقيقة الأمر قضايا نسائية في أساسها.

واستناداً لإحصائيات الحكومة الأميركية، فإن العائلات التي ترأسها النساء هي الأشد فقراً في أميركا، بمعدل ثلاثة أضعاف العائلات الأخرى، كما أن اثنين من بين كل ثلاثة من كبار السن الأميركيين الذين يعيشون في الفقر هما من النساء[28]. في العالم النامي تبدو هذه الحقائق أكثر تجهماً[29]. ففي داخل وخارج مخيمات اللاجئين في إفريقيا حيث يجوع الآلاف، نجد أن أفقر الفقراء وأشد الناس جوعاً هم النساء وأطفالهن[30]. وكما يظهر تقرير الأمم المتحدة حول وضع العالم عام 1985، إضافة إلى تقارير أخرى رسمية وغير رسمية فإن الوضع مشابه لذلك في آسيا وأميركا اللاتينية[31].

مرة أخرى، يملي علينا المنطق أن تقوم السياسات الدولية والوطنية بوضع برامج للتعامل مع الفقر والجوع لدى النساء على أساس كونهما في قمة الأولويات، ولكن ما هو الرد على مثل هذه الحقائق؟

في الولايات المتحدة، ورغم البطالة الواسعة في صفوف النساء، نجد أن برامج الحد من البطالة التي وضعت في أعوام السبعينات والثمانينات من القرن العشرين قد تميزت بإيجاد جزء بسيط فقط من الوظائف خارج المهن المسيطر عليها من الرجال مثل النساء وإصلاح الطرق. وفي إفريقيا، وعلى الرغم من المجاعات، ومن حقيقة أن النساء يقمن بستين إلى ثمانين بالمئة من الأعمال المتعلقة بإنتاج الغذاء، نجد أن المساعدة التقنية الزراعية والقروض ومنح الأراضي والإعانات المالية تذهب جميعها إلى الرجال. أما في آسيا وأميركا

اللاتينية وعلى الرغم من حقيقة أن النساء قد ابتلين بعدم المساواة في التعليم والتدريب وبأقل المهن أجوراً، نجد أن التطور الاقتصادي وبرامج المساعدات الخارجية تقتصر في معظمها على الرجال[32].

ويظهر المنطق الذكوري أن الرجال الذين هم أرباب البيوت، هم الذين يعتنون بالنساء والأطفال، ولكن هذا المنطق مبني على نموذج من الواقع يتجاهل أكواماً من المعلومات، لأن هناك كميات واسعة من المعلومات التي تبين أن السبب الرئيسي لكون النساء والأطفال على مدى الكرة الأرضية، يعيشون في بؤس مدقع، هو أن في كل من العائلات «السليمة» و«المفككة»، لا يوفر الرجال لنسائهم وأطفالهم ما يكفي من الإعالة.

والمشكلة لا تكمن فقط في دول صناعية مثل الولايات المتحدة حيث يفشل أكثر من نصف الآباء المطلقين بإطاعة أوامر المحكمة في دفع نفقة مطلقاتهم وأطفالهم[33]. ولا تكمن أيضاً في تدفق العدي- من الرجال في إفريقيا وآسيا إلى المدن تاركين خلفهم نساءهم وأطفالهم ليعيلوا أنفسهم كما يستطيعون ولا يعودون إلى قراهم إلا في المناسبات فقط لينجبوا أطفالاً آخرين[34].

المشكلة تكمن في أن الفقر والجوع اللذين تعاني منهن النساء متجذران بعمق في المجتمعات التي يهيمن عليها الذكور، والأمر ليس مقصوراً فقط على العائلات التي ترأسها النساء، بل هو عائد إلى تنظيم عائلي يملك فيه الذكر الذي هو ربّ العائلة السلطة المصادق عليها اجتماعياً من أجل تحديد كيف يجب توزيع الموارد أو الأموال وكيف ينبغي استخدامها.

على سبيل المثال، نجد في تاريخنا الغربي، سواء ذلك المتعلق بالعمال المستعبدين في الإقطاعيات الروسية، أم عُمّال المناجم في إيرلندا أم العمال الأميركيين في المصانع والبناء، أن العديد من الرجال يعتبرون قيامهم بتسليم أجورهم لزوجاتهم لكي يبتاعوا طعاماً للعائلة، بمثابة إهانة لذكوريتهم، وبدلاً

من ذلك نجد العديد من الرجال الغربيين حتى اليوم ينفقون أموالهم على شرب الخمر أو على القمار ويعودون إلى المنزل ليضربوا زوجاتهم إذا احتجّين أو اعترضن على ذلك لأنهن يتحدين بهذا سلطتهم الذكورية. مثل هذا الأمر ما زال يعتبر نمطاً شائعاً في العديد من بلدان أميركا اللاتينية وفي مناطق واسعة من إفريقيا.

إضافة إلى ذلك، نجد في العديد من الدول النامية، أن النساء اللواتي يجهزن الطعام وغالباً ما ينتجنه، لعائلاتهم لا يتناولنه حتى ينتهي الرجال من تناوله ويملأون بطونهم منه[35]. مرة أخرى، هناك منطق لمثل هذا التمييز في أنماط تناول الطعام بين الجنسين، إذ غالباً ما يدوّر النقاش في المناطق التي تعمل فيها النساء أعمالاً تقصم الظهر من الفجر إلى الغسق، بأن الرجال يحتاجون إلى كميات أكبر من الطعام أو أن التقاليد العرقية تفترض ذلك، ولا ينبغي على الغرباء الغربيين أن يعبثوا بها. كذلك نجد منطقاً آخر يحرّم على النساء، وخاصة الحوامل منهن، تناول بعض الأطعمة التي هنّ في أشد الحاجة إليها للحفاظ على سلامتهن. نتيجة لذلك، تظهر دراسات منظمة الصحة العالمية أن فقر الدم الناتج عن التغذية يصيب نصف نساء العالم الثالث تقريباً في عمر الإنجاب و 60٪ من النساء الحوامل[36].

ولكن مثل هذه الأنماط المستخدمة في التفرقة ضد النساء بالنسبة لتوزيع الموارد لا تشكل تأثيراً خطيراً عليهن فحسب، بل تترك تداعيات مريعة على الرجال أنفسهم وعلى التطور البشري. فمن المعروف جيداً أن الأمهات اللواتي يعانين من سوء التغذية ينزعن إلى إنجاب مواليد أكثر عرضة للإعاقة والمرض. وهذا يؤثر بوضوح على كل من الأطفال الذكور والإناث الذين يولدون جسدياً تحت المعدل أو يصابون بإعاقات عقلية أو في أفضل الحالات يكونون أدنى ذكاءً وموهبة مما لو كانت أمهاتهم يتناولن غذاءً سليماً وكافياً.

وهكذا، ولأن عالمنا يتجاهل بشكل منهجي مثل هذه القضايا الإنسانية التي يسمونها قضايا نسائية، نجد أن الملايين من البشر من الجنسين يعيشون محرومين من حقوق الولادة مثل فرصة العيش السليم والمنتج الذي يعود عليهم بالثواب. ولأن حقوق النساء لا تعتبر حقوقاً إنسانية، فإننا لن نواجه معوقات في تطورنا الحضاري فحسب بل في تطورنا البيولوجي أيضاً، دون أن تكون هناك ضرورة لكل هذا.

كما قد يبدو الأمر منطقياً أن نتخذ إجراءات فورية لتغيير هذه الأنماط التي تفرق بين الجنسين في توزيع الغذاء، ولكن كما هو الحال في السياسات السكانية وسياسات التطوير، هناك قيود على مثل هذه الخطوة تفرضها الأنظمة الذكورية المهيمنة.

المشكلة الأساسية تكمن في أن المجتمعات التي يهيمن عليها الذكور تواجه عقبتين رئيسيتين في صياغة وتنفيذ أنواع السياسات التي يمكنها معالجة مشاكل العالم المتفاقمة بشكل فعال. العقبة الأولى تكمن في أن النماذج الواقعية المطلوبة للحفاظ على الهيمنة الذكورية تستدعي تجاهل أو تسفيه أمور ترتبط بنصف البشر. إن مثل هذا الاستثناء الهائل للمعلومات، وحذفها بمثل هذا المقدار يعتبر في نظر العلماء، وفي أي سياق آخر خطأً منهجياً فادحاً. ولكن حتى لو تمكنا من التغلب على هذه العقبة الأولى ومن تزويد صناع السياسة بمعلومات كاملة غير متحيزة، فإن العقبة الأساسية الثانية تبقى بدون حل، وهي أن الأولوية العليا في سياسة النظام الذكوري المهيمن هي الاستمرار في المحافظة على الهيمنة الذكورية.

لهذا نجد من الصعب تطبيق أية سياسة من شأنها إضعاف الهيمنة الذكورية، أو أية سياسات تحمل في طياتها أملاً لمستقبل البشرية. وحتى لو تمت صياغة مثل هذه السياسات، فإنها ستوضع على الرف وتهمل أو تمنح تمويلاً غير كافٍ أو تتحول إلى سياسات غير فعالة.

الحل الاستبدادي

عندما يفشل زعماؤهم المنتخبون في حل المشاكل الاقتصادية والسياسية، ينظر الناس إلى غيرهم من أجل إيجاد الحلول. ووسط هذه الذهنية الذكورية في التفكير التي تثمن المراتب والمناصب قبل كل شيء والتي تكيفت على ربط الحق بالقوة، تميل الحلول لأن تصبح مرتبطة أو مترافقة مع العنف ومع الحكم القوي.

لذلك، ليس من المستغرب أن نجد في السيناريوهات الموضوعة للمستقبل، إلى جانب انهيار الأنظمة التقدمية أو الرعب النووي، سيناريو الحكم الاستبدادي العالمي. لقد شكل هذا السيناريو مادة ضخمة للعديد من أفلام الخيال العلمي من تنبؤات أورويل في كتاب «1984» إلى أفلام مثل «رولر بول» و«فهرنهايت 451». كذلك خضع مثل هذا السيناريو لدراسات علمية حول المستقبل مثل تلك التنبؤات التي وضعها جاك إيلول عن عالم مجرد من الإنسانية ومحكوم من تكنوقراطيين لا إنسانيين[37]. وحتى السيناريو المتفائل للتنبؤات التي وضعها معهد هيرمان خان في معهد هدسون حول عالم مزدهر بشكل لا يصدقه العقل نتيجة سياق الأعمال التي تقوم بها الشركات العملاقة والعسكر، يظل سيناريو لعالم تحكمه «الإمبراطورية الأوغسطينية»، حسب ما يسميها خان[38].

دائماً، كان المقترح القائل بأن المناشدة النفسية الكبرى لتقبل نظام استبدادي، هي الوعد بوجود زعيم قوي، يعمل، مثله مثل الأب القوي للأطفال على رعاية الأمور مقابل الولاء والطاعة. وبالتأكيد، إن أية ذهنية تكيفت مع الخضوع للسلطة الذكورية سوف تنزع دائماً لهذه الطريقة في الحماية في أوقات الأزمات. ولكن هناك سبباً آخر لهذه المناشدة القوية، وهناك خطر آخر يتمثل في هذا الاستبدادية العصري.

إن النظرة التقليدية إلى الاستبداد تتمثل في أنه ابتلاء عصري، أو رعب ناتج عن هذا العصر العلمي العلماني[39]. صحيح أن الفعالية التقنية لمعسكرات

الإبادة الجماهيرية الألمانية شكلت حدثاً غير مسبوق، ولكن وكما تبين لنا أحداث التاريخ وأحداث ما قبل التاريخ، وبوضوح أن محاولات إبادة مجتمعات بأكملها لم تكن أمراً غير عادي، وكذلك الأمر بالنسبة لحكم الرعب الذي ميّز الأنظمة الاستبدادية العصرية.

ما يمكننا رؤيته اليوم من خلال إعادة امتلاكنا لماضينا المفقود بكل بنيته الأساسية ووسائل السيطرة المتبعة خلاله، أن الاستبداد العصري هو الذروة المنطقية التي وصل إليها تطورنا الحضاري المبني على النموذج الاجتماعي لنظام الهيمنة. ففي مسار فعاليته للسيطرة عبر نشر الرعب، يصل هذا النظام في تقدمه النهائي إلى مثل هذا النوع من المجتمع. ولعله في جوهر الأمر يمثل نسخة تقنية متقدمة للدول - المدن التي كانت تحكم بصرامة من قبل أنظمة الهيمنة الذكورية في عصور ما قبل التاريخ.

إن الدولة الاستبدادية في القرن العشرين هي الوريث العصري للدولة - المدنية التي كان يحكمها الكهنة في العصور القديمة، والتي كتب عنها المؤرخ الحضاري لويس ممفورد أن الناس فيها كانوا عبارة عن عجلات تدور داخل ماكنات اجتماعية ضخمة، وليس أكثر[40]. كما أن النخب الفاشية والشيوعية للحكومات الهرمية الاستبدادية هي في جوهرها وريثة النظام المهيمن القديم للكهنة والمحاربين. فكلاهما يزعم امتلاكه لخط مباشر واستثنائي على «الكلمة» سواء كانت هذه الكلمة كلمة الله، أو كلمة ماركس أو كلمة الفوهرر (هتلر) أو كلمة ستالين أو ماو... كما أن كلا النظامين يدعي امتلاكه لحق استثنائي بتفسير هذه «الكلمة» عبر القانون وفرضها بالقوة أو بالتهديد باستخدام القوة.

وكما هو الحال لدى أنظمة الحكم الدينية الذكورية، التي لا تفصل بين الكنيسة والحكم، فإن الرجال الذين يحكمون المجتمعات الفاشية والشيوعية يستخدمون قوة دنيوية وروحية. ومثلها مثل الأنظمة الذكورية المهيمنة، لا

تتحمل الفاشية أو الشيوعية أي انحراف عن الإيمان الصحيح. وعلى غرار الأديان الذكورية، ولكن خلافاً لإيديولوجياتنا السياسية العصرية، يقدم النظامان نظرة شاملة للعالم تتضمن معظم نواحي الحياة العائلية والاجتماعية والسياسية إن لم يكن كلها. وما زال اليمينيون المتطرفون مستمرين في الاستشهاد بالكتاب المقدس كمرجع للسلطة لدى العائلات التي يهيمن عليها الذكور. ففي ألمانيا النازية لم يكتف الفوهرر بإعلان أن النساء بطبيعتهن أدنى مستوى من عرقه الجديد المكون من الرجال الخارقين بل أضاف إلى هذه اللائحة الضعفاء والمخنثين من الرجال واليهود أيضاً. ونجد في الاتحاد السوفياتي تكراراً لا نهاية له للنموذج الرسمي للعائلة الذي يصور النساء وهن يقدمن الطعام لرجالهن تماماً مثلما هو الأمر في الدعاية النازية[41].

وكما هو الأمر في الكتاب المقدس عند المسيحيين والقرآن عند المسلمين، والكتب المقدسة التقليدية الأخرى، نجد أن القيم العليا في الأنظمة الفاشية والشيوعية هي الطاعة والانسجام، وأن العنف ليس مسموحاً به فحسب بل هو أمر يجب أن ينفذ إذا جاء في خدمة الإيديولوجية المقبولة رسمياً سواء كان ذلك العنف على شكل الإرهاب الذي اتبعته كنيسة العصور الوسطى من خلال حرقها للكتب والناس أم من خلال تقنيات أكثر فعالية مثل تلك التي تتبعها الأنظمة الاستبدادية في غسل الأدمغة والتعذيب.

إن القدرة الخارقة على جذب الجماهير أو القدرة على تنويمهم أو تخديرهم، والتي يتمتع بها الزعيم الذي يدفع بأنصاره بنجاح نحو تدمير الخصم، تعتبر ظاهرة أساسية في كل من الأنظمة الاستبدادية العصرية والتقليدية. ففي أوروبا العصور الوسطى، على سبيل المثال، استطاع الحماس والجشع بنجاح أن يستحثا همم الناس عبر تلك المهرجانات الحماسية المسرحية الضخمة التي كان يقيمها البابا إيربان الثاني وبرنارد من دوكليرفو، وأن يقذف بأوروبا وآسيا الصغرى

نحو قرون من حمامات الدماء خلال الغزوات الصليبية[42]. وفي ألمانيا النازية، وعلى المنوال نفسه المتبع في الخطب الحماسية الحاشدة، تمكنت كلمات هتلر النارية من قذف العالم الحديث في أتون الحرب العالمية الثانية. وحديثاً أيضاً، استطاع الإعلام الذي خدَّر الناس عبر شاشات التلفزيون في ملايين المنازل أن يوجد جيلاً جديداً من الخطباء الدهماويين الجذابين الذين حثوا الأميركيين على الانطلاق لمحاربة الوثنيين والإنسانيين غير الأخلاقيين ودعاة مناصرة الأنثى، والشيوعيين الذين ألقوا عليهم اللوم بأنهم سبب ويلات هذا العالم.

ويتطلب كل من النظامين الاستبداديين التقليدي والعصري، دراسة مستمرة للكتب المقدسة أو المسموحة رسمياً سواء كانت تلك الكتب، إنجيلاً أم قرآناً أم كتاب «كفاحي» لهتلر أو مقتطفات من ماو تسي تونغ. فهذه الكتب جميعها تقدم جميع الأجوبة المتعلقة بالحقيقة النهائية، وتخدم الهدف نفسه مثل الرقابة الدينية الصارمة التي ظهرت في عهود الهيمنة الذكورية ما قبل التاريخ وفي العصور التاريخية التي تلتها. كما أن الإعلام الجماهيري يخضع لرقابة وسيطرة صارمة من قِبَل الأنظمة الاستبدادية العصرية.

وفي الحقيقة، وعلى الرغم من كونها جاءت في حجم أصغر من ذلك الذي كان سائداً في مجتمعات الهيمنة الذكورية التي سادت ما قبل التاريخ، إلا أن أكثر ما يلفت النظر في المجتمعات الاستبدادية العصرية (كما ورد في كتاب أورويل 1984) هو أن إحدى أبرز صناعاتها كانت صناعة الأساطير. ففي ألمانيا النازية، تم تحويل أدولف هتلر وهو رجل أسود الشعر لا يجذب أحداً، بنجاح إلى أسطورة الفوهرر (القائد القوي للعرق النقي) الأشقر والأزرق العينين والجميل الخارق القوي. وفي روسيا تم تبديل الله الأب ونائبه القيصر المستبد أو الأب الصغير أولاً بلينين، أب الثورة الذي تم تحنيط جسده وأصبح موضوعاً لنوع من التقديس المذهبي، وبعده جاء ستالين الذي قتل بدم بارد الملايين من أبناء شعبه.

في كل من الأساطير الشيوعية والفاشية، نجد العمليات نفسها التي كانت تستخدم خلال السيطرة الذكورية الأولى من أجل إيقاف الحقيقة على رأسها. إذ لم يتم إيجاد أساطير جديدة فحسب، بل تم إيجاد رموز جديدة، منها على سبيل المثال شعار الصليب المعقوف، وشعار المطرقة والمنجل التي ضاهت قوتها في القرن العشرين قوة المسيح على الصليب في حشد الرجال لشن الحروب والغزوات. وحلت مكان الاحتفالات الدينية القديمة والطقوس احتفالات وطقوس جديدة مثل المسيرات الجماهيرية، ومسيرات المشاعل، والاستعراضات العسكرية المنتظمة والعبارات الرعدية والنارية للزعماء، وهي تحث المتنورين على التقدم نحو نشر الحقيقة بالعنف والقوة.

حقائق جديدة وأساطير قديمة

إذا عدنا لدراسة الأساطير النازية من منظور فرضية التحول الحضاري، نجد أنه ليس من قبيل الصدفة أنها تشكل عودة إلى الأساطير التي رافقت غزوات الشعوب الهندية الأوروبية والآرية. فقد كانت ألمانيا النازية تشكل عودة إلى عهود الكيرغان، ليس في أساطيرها فقط بل في حقائقها.

وعبر قيامهم بذبح اليهود الذين صودرت منازلهم وأعمالهم ومقتنياتهم الشخصية وحتى أسنان الذهب في أفواههم، واستخدمت في تكديس ثروات المسؤولين ومكافأة الأتباع المخلصين، كان النازيون يكررون الطريقة التي استخدمها الكرجان في جني الثروات، فقد كان هؤلاء مثلهم يقتلون وينهبون ويسرقون.

كانت نظرة النازيين إلى المرأة على أنها ملكاً مسيطَراً عليه من الرجل تشبه النظرة السابقة في أعراف الكيرغان. وكانت النساء وفقاً لكلمات نيتشه الموجهة إلى العرق الآري الخارق الجديد في ألمانيا، يشبهن بعض الحيوانات المسلية، ويُستخدمن من قِبَل الرجال للإمتاع الجنسي والخدمة الشخصية والتسلية والإنجاب[43]. بل وتجاوز الأمر ذلك في خطط هتلر لمكافأة الجنود بحق استملاك

أكثر من زوجة واحدة، فقد كانت المرأة بالنسبة للنازيين، تماماً مثلما كانت بالنسبة للكيرغان غنيمة من غنائم الحرب[44].

وقد جاء حكم الفوهرر الزعيم الأقوى ليشكل نسخة عن حكم زعيم الكيرغان المستبد والقوي. وبالطريقة نفسها، كانت النخب النازية مثل الغستابو ورجال المخابرات تشكل نسخاً عن الطبقة الاجتماعية المحاربة لدى الكيرغان التي كان رجالها يمثلون القيم الذكورية ويسعون لنيل المجد والشرف والقوة من خلال إطلاق العنان للإرهاب والتدمير.

وفي تكرارها الأمين للهيمنة الذكورية الصارمة، وللاستبداد والعنف الذكوري المؤسسي العالي الوتيرة، شكلت ألمانيا النازية إحدى أكثر ردات الفعل عنفاً ضد الاندفاع التشاركي الأنثوي. إضافة إلى كونها إحدى أول التراجعات العصرية نحو شكل مبكر وأكثر وحشية للهيمنة الذكورية السابقة، ونذيراً لعهد جديد من الاستبداد المستقبلي.

وسواء كانت يمينية أو يسارية، مسيحية أم مسلمة، فإن الحل الاستبدادي لا يشكل أكثر من إعادة تحديث للحل الذكوري المهيمن. فمبادئها الأساسية تحمل ازدراءً للمقاربات السلمية أو الأنثوية، وقناعة راسخة بأن إطاعة الأوامر سواء كانت أوامر إلهية أم دنيوية هي جوهر القيم. وهي مذهب يقسم البشرية بدءاً من الرجال والنساء إلى جماعات داخلية وجماعات خارجية يتوجب عليها أن تبقى إلى الأبد في حالة حرب مع بعضها البعض.

ولعل قبول هذا الحل في السابق وفي الحاضر من قِبَل معظم الناس ليس بسبب لأنه يقدم أي جواب قابل للتطبيق على المشاكل المتفاقمة لعالمنا، ولكن جاذبيته تكمن في القوة المتخندقة في الأذهان للأساطير والرموز الذكورية المهيمنة القديمة والحديثة، لأن هذه الصور كانت مغروسة وما زالت تنغرس في عقولنا

الباطنية على شكل خوف حتى من التفكير بأي انحراف عن مبادئها وحلولها لئلا نتعرض للعقاب الشديد ليس في هذه الحياة فحسب بل فيما بعد الحياة.

إن الدرس الهام الذي يجب أن نتعلمه من تصاعد الاستبداد العصري هو أن أي تبخيس في تقدير قوة الأسطورة قد يشكل خطأً قاتلاً. فالنفس الإنسانية تبدو وكأنها تحمل في داخلها حاجة إلى نظام من القصص والرموز التي تفصح لنا عن نظام الكون وتخبرنا عن موقعنا فيه. إنه نوع من التعطش إلى المعنى والسبب اللذين يبدوان أقوى من أن يوفرهما لنا أي نظام عقلي أو منطقي.

ويُظهر لنا التاريخ الحديث أن الطريقة لإيقاف هذا الرعب الذي عانت البشرية كثيراً تحت وطأة أساطيره الذكورية، لا تكمن في قمع كل شيء لا يمكن تبخيسه ليجاري المنطق الذكوري، ولا بمحاولة منع الوظائف الفطرية، غير المنطقية وغير المستقيمة التي استطاعت العقيدة الذكورية أن تربطها في أذهاننا مع الأفكار الأنثوية[45]. لأن المشكلة لا تكمن في كون الرموز والأساطير في مستوى أدنى، وأقل قبولاً من المنطق أو العقلانية، ولكن المشكلة هي في أنواع الأساطير والرموز التي يجب أن تملأ عقولنا وترشدها: أهي رموز وأساطير إنسانية أم غير إنسانية، ذكورية مهيمنة أم أنثوية وتشاركية.

تماماً، مثلما بترت غزوات الكيرغان تطور حضارتنا الأولية، يستمر الاستبداديون ومن سيصبحون مثلهم بعرقلة تطورنا الحضاري في كل مفترق زمني نمر به اليوم، تساعدهم في ذلك الأساطير الذكورية القديمة والحديثة. وفي القرون القليلة الأخيرة، تمكن التحول الجزئي الذي حدث من نظام المجتمع الذكوري المهيمن إلى النظام التشاركي من تحرير الإنسانية ولو جزئياً، متيحاً المجال لبعض التحرك باتجاه مجتمعات أكثر عدلاً ومساواة. ولكن في الوقت نفسه شهد العالم تحركاً مضاداً قوياً، يساراً ويميناً نحو تخندق أعمق للمجتمع المهيمن بشكله الاستبدادي المعاصر.

وأمام هذا الشد القوي والثابت للمؤسسة الذكورية الفكرية والاجتماعية، وأمام التقنيات الجديدة للسيطرة على العقل والجسد، التي تتمثل في الدعاية والإعلام والمخدرات وغازات الأعصاب وحتى التجارب التي يجري من أجل السيطرة النفسية، نجد أن هناك احتمالاً حقيقياً بالدخول في مستقبل استبدادي. ولكن مثل هذا النظام العالمي لن يستمر طويلاً على الأرجح.

وسواء كان نظاماً دينياً أم علمانياً، حديثاً أم قديماً، شرقياً أم غربياً، فإن العامل المشترك الأساسي بين جميع الزعماء الاستبداديين أو من سيصبح مثلهم، هو إيمانهم بقوة حد السكين القاتلة كأداة لتنفيذ القرارات. لذلك فإن مستقبل مجتمع الهيمنة لن يؤدي بالتأكيد إلا إلى حرب كونية نووية لا تنتهي بها مشاكل الإنسانية فحسب بل طموحاتها أيضاً.

الفصل 13

اختراق في التطور

نحو مستقبل تشاركي

تمتلئ رؤى كُتّاب قصص الخيال العلمي للمستقبل باختراعات تقنية لا تُصدّق، ولكن عالم هؤلاء الكُتّاب على العموم يخلو من أي اختراعات اجتماعية جديدة، بحيث يهيأ لنا أحياناً أنهم يعودون بنا إلى الماضي بدلاً من الولوج إلى عالم زمني متقدم. وسواء كانت القصة هي: «Dune»[1] أو «الكثيب» للكاتب فرانك هربرت أو فيلم «حرب النجوم» لجورج لوكاس فإن ما يظهر لنا غالباً في حقيقة الأمر هو نظام اجتماعي شبيه بإمبراطوريات الإقطاع وملكيات العصور الوسطى تم نقله إلى المستقبل على شكل حروب فضائية عالية التقنية.

من المؤكد أنه بعد خمسة آلاف سنة من العيش في كنف مجتمع الهيمنة، يصبح من الصعب تخيل عالم آخر. لقد حاولت شارلوت بيركنز غيلمان أن تفعل ذلك في كتابها «هيرلاند»[2] الذي صدر عام 1915 وكان عبارة عن حكاية اجتماعية طوباوية (مثالية) تدور حول مجتمع مسالم وخلاّق جداً في قمة أولوياته الاجتماعية تنمية أطفاله من جميع نواحيهم الجسدية والذهنية والروحية، وقد اعتبر هذا العمل الأكثر قيمةً وثواباً. إلا أن ما يلفت النظر في هذا الكتاب هو أنه يدور في عالم انقرض فيه الرجال بسبب انخراطهم في حرب أنهت وجودهم تماماً. واستطاعت مجموعة من النسوة ممن بقين أحياء أن يدخلن في

تغير بيولوجي مدهش أدى إلى استمرارهن في البقاء والحياة عبر تعلمهن التناسل الذاتي.

لكن كما رأينا سابقاً، فإن المشكلة لا تكمن في الرجال كجنس ولكن في تكيّف الرجال والنساء وسط هذا النظام المهيمن. لقد كان هناك رجال ونساء في العصر الحجري الحديث وفي جزيرة كريت. ويوجد اليوم رجال ونساء في المجتمعات المسالمة لقبائل كونغ وبامبوتي. وحتى في عالمنا الذي يهيمن عليه الذكور، نجد أن النساء لَسْنَ بمعظمهن مسالمات ولطيفات بينما يوجد العديد من الرجال المسالمين واللطيفين.

من الواضح أن كلاً من النساء والرجال يملكان الإمكانية البيولوجية للتصرف بمختلف أنواع الطرق. ولكن مثل الدروع أو الأصداف الخارجية التي تغلّف الحشرات وغيرها من الحيوانات المفصلية، نجد أن التنظيم الاجتماعي الذكوري يغلف كلاً من نصفي البشرية في أدوار صارمة هرمية تعيق تطورهما. وإذا نظرنا إلى تطورنا من منظور الذكورية والنسوية كونهما احتمالين للتنظيم البشري الاجتماعي، نجد أنه ليس من قبيل الصدفة أن نرى العلماء في علم الأحياء الاجتماعي يحاولون اليوم إعادة إحياء العقيدة الذكورية عبر ضخها بالداروينية الاجتماعية التابعة للقرن التاسع عشر، بحيث يدعمون نظرياتهم بأمثلة عن مجتمعات الحشرات. كذلك، ليس من قبيل الصدفة أن تعمل كتاباتهم على تعزيز النظرة القائلة بأن نموذج المراتب الاجتماعية الهرمية الصارمة، أي النموذج الذكوري المهيمن والنسوي المهيمَن للعلاقات الإنسانية، هو نموذج مبرمج مسبقاً داخل جيناتنا[3].

وكما أشار العديد من العلماء، فإن التطور ليس شأناً معدّاً مسبقاً[4]، بل على النقيض من ذلك، لقد كنا نحن شركاء نشطين في تطورنا منذ البداية. وقد كتب شيروود واشبيرن على سبيل المثال، أن اختراعنا للأدوات شكّل سبباً

وتأثيراً في حركة سيرنا على قدمين وفي انتصاب جسمنا بحيث تحررت أيدينا وتمكنا من صناعة تقنيات أكثر تعقيداً[5]. ومع تزايد التعقيدات في كل من التقنية والمجتمع، أصبحت استمرارية جنسنا تعتمد بشكل متزايد على اتجاه تطورنا الحضاري وليس تطورنا البيولوجي.

إن التطور البشري يقف اليوم على مفترق طرق. فبعد أن تمت تعريته حتى من أسسه، أصبحت مهمته المركزية اليوم هي كيفية تنظيم مجتمعه لتعزيز بقاء جنسنا البشري وتطوير إمكانياتنا الفريدة المتميزة. في سياق هذا الكتاب، رأينا كيف أن الذكورية المهيمنة لا يمكنها أن تفي بهذا المتطلب بسبب تركيزها الداخلي المبني على تقنيات التدمير وبسبب اعتمادها على العنف من أجل فرض السيطرة الاجتماعية وبسبب التوترات التاريخية التي تولدت نتيجة النموذج التي بنيت علاقاتها الإنسانية عليه من ناحية المهيمِن - والمهيمَن عليه. كذلك رأينا كيف أن المجتمع النسوي أو التشاركي، الذي نرمز إليه بكأس الحياة المقدسة بدلاً من حد السكين القاتل يقدم لنا بديلاً قابلاً للتطبيق.

والسؤال هنا هو: كيف ننتقل من هنا على هناك؟

نظرة جديدة إلى الحقيقة

يخبرنا علماء مثل إيليا بريغوغين ونايلز إيلدريدج أن التفرعات التطورية في الأنظمة البيولوجية والكيماوية تتضمن نسبة كبيرة من عوامل الصدفة[6]. ولكن وكما يشير أحد أصحاب نظريات التطور إيروين لازلو، فإن التفرعات التطورية في الأنظمة الاجتماعية البشرية تتضمن أيضاً عوامل واسعة من الاختيار. فالبشر كما يشير لازلو، يملكون القدرة على التصرف بوعي وبشكل جماعي، وعلى استخدام البصيرة لاختيار طريقهم التطوري. ويضيف أننا في «عهدنا الحاسم»، لا نستطيع ترك اختيار الخطوة التالية في تطور مجتمعنا البشري وحضارتنا

للصدف. بل يتوجب علينا التخطيط لها بوعي وإدراك[7]. كذلك يذكر عالِم الأحياء جوناس سالك أن أكثر حاجاتنا إلحاحاً وضرورة هي تزويد العقل البشري، تلك الآلية المدهشة، بالصورة الضرورية والكافية لإيجاد عالم أفضل[8].

في البداية، قد يبدو هذا الأمر مهمة صعبة ومستحيلة، ولكن وكما رأينا سابقاً فإن نظرتنا إلى الحقائق، ولما هو ممكن منها أو مرغوب، تأتينا من التاريخ. ولعل أفضل برهان على أن أفكارنا ورموزنا وأساطيرنا وسلوكياتنا يمكن تغييرها، يأتي من الأدلة التي تبين أن مثل هذه التغييرات حقيقة قد حصلت في فترة ما قبل التاريخ.

لقد رأينا كيف أن صورة المرأة كانت مبجلة ومحترمة في معظم فترات العالم القديم وكيف أن صورتها كمجرد أداة جنسية ينبغي امتلاكها والهيمنة عليها أصبحت هي الصورة السائدة فقط بعد فترة الفتوحات التي قامت بها الأنظمة الذكورية المهيمنة. كذلك رأينا كيف أن معاني الرموز مثل شجرة المعرفة والأفعى التي تلقي جلدها وتجدده دورياً قد تم عكسها بعد التفرع الجوهري الذي جرى لتطورنا الحضاري بحيث أصبحت مرتبطة بشدة الآن مع العقاب الرهيب المترتب عن المساءلة والتشكيك بالهيمنة الذكورية وحكمها الاستبدادي. إن مثل هذه الرموز قبل فترة طويلة من زمن تطورنا، لم يكن يُنظر إليها على أنها مظاهر للتعطش البشري نحو الحرية من خلال درجة من المعرفة أعلى وأكثر روحية.

لقد رأينا كيف أنه وبعد فرض الحكم الذكوري، تغيرت معاني أهم رموزنا بشكل جذري عبر تأثير الانبعاث الأنثوي أو التراجع الذكوري. ويعتبر الصليب هنا مثالاً صارخاً على ذلك. فالمعنى الأصليَ للصلبان كما ظهرت في نقوشات صور وتماثيل ما قبل التاريخ التي شملت الإلهات وغيرها من الأدوات الدينية، يبدو كأنه يرتبط بتعريفِ ولادة ونمو النبات والحيوان، وحياة الإنسان. وقد ظل هذا المعنى سائداً في اللغة المصرية الهيروغليفية حيث كان الصليب يعني

الحياة والعيش، ويشكل جزءاً من مفردات تعني الصحة والسعادة[9]. ولاحقاً بعد أن أصبح تعليق الناس على الخوازيق والأوتاد طريقة شائعة لإعدامهم (كما ظهر في الفن الآشوري والروماني وغيرهما من الفنون الذكورية) أصبح الصليب يرمز إلى الموت. وفي فترات لاحقة أيضاً حاول بعض أتباع المسيح من التشاركيين الأنثويين أن يحولوا الصليب الذي أعدم عليه إلى رمز للولادة من جديد - وهو رمز ارتبط بالحركة الاجتماعية التي دعت إلى ممارسة المساواة بين البشر وإلى اعتناق الأفكار النسوية كالرحمة والعطف والسلام[10].

أما في زمننا هذا، وبعد مضي قرون على تغيير قيادات هذه الحركة من قِبَل النظام الذكوري المهيمن، ظلت الطريقة التي نفسر بها الرموز والأساطير تلعب دوراً هاماً في كيفية صيغة كل من حاضرنا ومستقبلنا. ففي الوقت نفسه الذي يحاول فيه بعض زعمائنا الدينيين والسياسيين حملنا على الاعتقاد بأن حرباً نووية ضروساً قد تكون في الحقيقة هي إرادة الله[11]، نشهد في المقابل حركة باتجاه إعادة تأكيد واسعة على الرغبة في الحياة، وليس الموت، بشكل متسارع وغير مسبوق، وهي حركة تعمل على إعادة المعاني الأنثوية الأصلية للرموز والأساطير[12].

ونجد على سبيل المثال، فنانين مثل إيموجين كننجهام وجودي شيكاغو، يستخدمون لأول مرة في تاريخنا المدوّن تصورات جنسية أنثوية تذكرنا بشدة برموز الولادة وإعادة الولادة والتحول التي كانت تستخدم في العصرين الحجريين الأول والحديث وفي حضارة كريت أيضاً. كذلك ولأول مرة في تاريخنا المدوّن، تُستخدم صور من الطبيعة مثل حيوانات الفقمة والطيور والدولفينات والغابات الخضراء والأعشاب (وهي صور كانت ترمز في السابق إلى وحدة الحياة تحت السلطة المقدسة للإلهة) من قِبَل الحركات البيئية لإعادة إيقاظ الوعي فينا حول الرابطة الجوهرية بيننا وبين الطبيعة حولنا[14].

وغالباً من غير أن نعي، نجد أن عملية حل خيوط نسيجنا الأسطوري وإعادة حياكته ضمن أنماط أنثوية وتشاركية تختفي عنها القيم الذكورية المتمثلة في قهر الطبيعة كمُثل عليا، هي في الحقيقة عملية آخذة بالسير بشكل دؤوب[15]، لا ينقصها إلا الحجم الأساسي للصور والأساطير الجديدة الذي يتطلبه أمر تحقيقها وتفعيلها من قِبَل عدد كافٍ من الناس.

ولعل الأهم من كل ذلك هو تزايد تساؤل الرجال والنساء على السواء حول الفرضية الأساسية التي تقف وراء المجتمع الذكوري وهي الفرضية التي تنادي بحتمية الهيمنة الذكورية وحتمية الحروب الذكورية. ومن بين الدراسات التي يقوم بها علماء علم الإنسان حول هذه النقطة نجد دراسة عبر الحضارات أجراها كل من «شيرلي وجو مالكوناهي»، وقد وجدا فيها ارتباطاً ملموساً بين القوالب الجنسية الجامدة التي تتطلبها المحافظة على الهيمنة الذكورية وبين وقوع أحداث مثل الحروب، وضرب النساء والأطفال والاغتصاب[16]. وكما سيرد تفصيله في كتاب آخر يشمل تقاريرنا، فإن هذه الارتباطات بين الأنظمة تلقى مصادقة وإثباتاً في عدد متزايد من الدراسات الحديثة التي تجري بناءً على مبادرة العديد من العلماء في العديد من الحقول بالمساءلة حول النماذج السائدة من الحقائق[17]. كذلك الأمر، ومن خلال دراستهم لنصفي البشرية على السواء، استطاع العلماء من خلال اختراقاتهم التي حققوها بالطرق كافة أن يوسعوا معرفتنا حول إمكانيات المجتمع البشري، إضافة إلى تطور الوعي الإنساني[18].

ومن المؤكد أنه من خلال منظور التحول الحضاري، يمكننا رؤية الكثير مما كُتب حول ثورة الوعي المعاصرة. وهذه الكتابات تشكل مؤشراً هاماً على أن هناك تحولاً، وأن الرجال والنساء قد بدأوا ولأول مرة في تاريخنا المدون بتحدي ومواجهة الأساطير المدمرة مثل «البطل القاتل»[20]. لقد أصبحوا يعوا تماماً ما هي الدروس التي تحاول تلك القصص التي تمتد من ثيسيوس وحتى رامبو

وجيمس بوند أن تعلمنا في حقيقة الأمر، وصاروا يطالبون بأن يتعلم أطفالنا من كلا الجنسين قيم الرعاية والتراحم بدلاً من قيم الغزو والهيمنة[21]. وقد تم سن قوانين في السويد تلغي بيع ألعاب الحرب للأطفال والتي ظلت تقليدياً تعمل على تعليم الأولاد عدم الرحمة وعدم التسامح إضافة إلى مواقف وسلوكيات تتطلب قتل بشر آخرين[22]. ولعل في مسيرات الملايين من الناس التي تنطلق في أرجاء العالم داعيةً للسلام دليلاً كافياً على تجدد الوعي لعلاقتنا وارتباطنا بجميع البشر.

ولأول مرة في التاريخ، يتحدى الرجال والنساء في أنحاء العالم وبمثل هذه الأعداد الهائلة، وجهاً لوجه نموذج الهيمنة في العلاقات بين الرجل والمرأة الذي يشكل أساساً لنظرة الهيمنة في العالم[23]. وفي الوقت نفسه الذي تعرض فيه فكرة «صراع الأجناس» كنتيجة لهذا النموذج، يتم تحدي ما ينتج عن هذا العرض من رؤية الآخرين كأعداء[24]. والأهم من هذا كله، هو تنامي الوعي بانبثاق درجة أعلى من الإدراك بأن نظام التشاركية بين سكان هذا العالم يرتبط بشكل أساسي بإعادة فحص وتغيير الأدوار التي يلعبها كل من الرجال والنساء[25].

وكما تذكر الطبيبة النفسية جين بيكر ميلر فإن المجتمع الحالي يعتبر النساء فقط حاملات للضروريات الأساسية لدى طائفة البشر[26] وأنهن يقيِّمن علاقاتهن بغيرهن أكثر مما يقيمنها مع أنفسهن. وعلى النقيض من الرجال الذين يسعون لتحقيق أهدافهم ولو حتى في حساب الآخرين، فإن النساء قد تكيفن على رؤية أنفسهن مسؤولات عن مصلحة ومعيشة الآخرين حتى ولو كان هذا على حساب مصلحتهن[27].

هذه الثنائية أو الانقسام في التجربة الإنسانية، كما تذكر ميلر في وثائقها بشكل موسّع تخلق اضطرابات نسبية لدى كل من النساء والرجال. فالنساء يصبحن مغاليات في تعريف أنفسهن بالآخرين بحيث تشكل أي خسارة أو تمزق في أي علاقة بالنسبة لهن وكأنها خسارة شاملة لأنفسهن. بينما ينزع الرجال من

ناحية أخرى إلى رؤية احتياجاتهم الإنسانية للعلاقات وكأنها تشكل نوعاً من المعوقات أو نوعاً من الخطر، لذلك فهم ينظرون إلى خدمتهم للآخرين، ليس كأمر مركزي أو أساسي بل كأمر ثانوي بالنسبة لصورتهم الذاتية، أي أمر يمكن للرجل أن يرغبه أو أن يفعله بعد أن يكون قد لبّى المتطلبات الأساسية في رجولته[28].

إن هذه الآراء المتعلقة بأدوار كل جنس وبالحقائق حولنا، كما رأينا، تعتبر أساسية في مجتمع الهيمنة الذكوري. ولكن وكما تكتب ميللر: إن في غاية الأهمية أن ندرك أن هذه النزعة نحو بناء العلاقة أو الارتباط، التي تشعر بها النساء، ليست أمراً خاطئاً أو رجعياً.. إن ما لم ندركه هنا هو أن نقطة البداية النفسية هذه تتضمن احتمالات لبناء مقاربة مختلفة تماماً حول عيشنا وحول مهماتنا في الحياة، وتختلف أيضاً عن ثقافة الهيمنة المفروضة علينا.. فهي تسمح بانبثاق الحقيقة، وهي حقيقة أن في حال كل من الرجل والمرأة، لا يتطور الفرد إلا من خلال الارتباط[29]. وتعمل هذه الطرق الجديدة في تصور الحقائق بالنسبة للرجال والنساء على إيجاد نماذج جديدة من النفسيات البشرية. فالنموذج الفرويدي القديم كان يرى البشر أساساً من خلال الدوافع الأساسية مثل الحاجة إلى الطعام والجنس والأمان. أما النموذج الجديد الذي اقترحه أبراهام ماسلو وغيره من علماء النفس الإنسانية، فيأخذ باعتباره هذه الاحتياجات الأساسية الدفاعية، ولكنه يعترف أيضاً بأن للإنسان مستويات أعلى من النمو أو تحقيق الحاجات تميزه عن سائر الحيوانات[30].

مثل هذه النقلة من الحاجات الدفاعية إلى الحاجات الإنجازية الواقعية تعتبر مفتاحاً هاماً في التحول من مجتمع مهيمن إلى مجتمع تشاركي. فالهرميات التي تحافظ على نفسها بالقوة أو بالتهديد باستخدام القوة تتطلب وجود عادات دفاعية في عقليتها. وفي مجتمعنا الحالي تبدأ عملية إيجاد عدو بالنسبة للرجل مع

توأمه البشري الآخر أي المرأة التي يوجه إليها اللوم في عقيدتنا السائدة الحالية ليس لأقل من التسبب في إخراجنا من الجنة. كما أنه بالنسبة لكل من الرجال أو النساء، فإن رفع مرتبة نصف البشرية على النصف الآخر، كما يذكر ألفرد أدلر، يسمم جميع العلاقات البشرية[31].

وتحمل ملاحظات فرويد في طياتها أن النفسية الذكورية بالتأكيد كتلة من التناقضات والتوترات والمخاوف الداخلية[32]. ولكن فيما نحن نتحرك نحو التشاركية وبعيداً عن الذكورية المهيمنة، يبدأ عدد أكبر وأكبر منا بالتحرك من الدفاع إلى النمو. وكما يذكر ماسلو في دراسته للناس الخلاقين المنجزين، فإن في سياق حدوث مثل هذا الأمر ينعكس تحول الناس، فبدلاً من أن يصبحوا أنانيين، تتحول أعداد أكثر وأكثر منهم نحو حقيقة مختلفة هي: ذروة تجربة الوعي حول ارتباطنا الأساسي بجميع البشر[33].

علم جديد وروحانية جديدة

تطلق جيسي برنارد على هذا الموضوع المتعلق بارتباطنا ببعضنا البعض اسم «أخلاقية الأنثى في الحب والواجب» ، فيما تدعوه جين بيكر ميللر الارتباط أو الاندماج. وكان المسيح وغاندي وزعماء روحيون آخرون قد أطلقوا عليه ببساطة اسم «الحب» . وقد أصبح هذا الموضوع اليوم موضوعاً علمياً. وهذا الموضوع العلمي الجديد الذي يتطور اليوم والذي تعتبر نظرية الفوضى والثقافة الأنثوية أجزاء أساسية منه، أخذ يركز ولأول مرة في التاريخ على العلاقات بدلاً من الهرميات.

وكما يذكر عالِم الفيزياء فريتجوف كابرا، فإن هذه المقاربة الأكثر شمولية تعتبر ابتعاداً جذرياً عن العديد من العلوم الغربية التي تميزت بمقاربات هرمية، مفرطة في التجزئة وميكانيكية في أغلب الأحيان[34]. ولعلها في العديد من

نواحيها مقاربة أكثر أنثوية حيث أن النساء معروفات أكثر بتفكيرهن الفطري المائل إلى وضع الاستنتاجات بناءً على شمولية في الانطباعات المتزامنة بدلاً من التفكير المنطقي التدرجي[35].

وكتب سالك عن علم جديد في التقمص العاطفي، يستخدم كلاً من المنطق والفطرة من أجل إحداث التغيير في العقل الجماعي الذي يؤثر بشكل بنّاء على مسيرة الإنسان نحو المستقبل[36]. وهذه المقاربة نحو العلم - وهو تعريف يستخدم بنجاح من قِبَل عالِمة الجينات باربرا ماكلينتوك الحائزة على جائزة نوبل عام 1983 سوف تركز على المجتمع البشري كنظام حي، نُعتبر جميعاً جزءاً منه[37]. وكما تقول آشلي مونتاغيو، فإن هذا العلم سوف يتماشى مع المعنى الحقيقي والأصيل للثقافة: أي أنه سيعمل قدماً وسيتسبب بنمو الإمكانيات الفطرية للإنسان[38]. وفوق كل هذا، كما تكتب هيلاري روز، في كتابها «اليد والعقل القلب» ، إنه عبارة عن نظرية معرفة للعلوم الطبيعية. فهو لم يعد علماً موجهاً نحو الهيمنة على الطبيعة أو على الإنسانية كجزء من أجزاء الطبيعة[39].

وتشير إيفلين فوكس كيلر، وكارول كرايست وريتا أرديتي وعلماء آخرون كيف أن العلم وتحت حماية غطاء الموضوعية واستقلالية الحقل، أنكر أي اهتمامات تتعلق بالرعاية أو ينظر إليها تقليدياً بأنها اهتمامات أنثوية، باعتبارها غير علمية وغير موضوعية[40]. وهكذا ظل العلم حتى تاريخنا هذا يستثني النساء من اعتبارهن عالِمات ويركز في دراساته بشكل كامل تقريباً على الرجال. كما أنه استثنى أيضاً ما يمكن أن نطلق عليه «معرفة الرعاية» وهي المعرفة التي، بحسب سالك، تعتبر أشد ما نحتاجها اليوم لاختيار الأشكال الإنسانية التي تتعاون مع التطور بدلاً من تلك التي تقف ضد بقائنا وضد تطورنا[4].

إن هذا العلم الجديد يعتبر أيضاً خطوة هامة نحو جَسْر الهوة المعاصرة بين العلم والروحانية والتي جاءت في قسمها الأكبر من نظرة إلى العالم تنفي التقمص العاطفي للنساء وللرجال ذوي النزعات التشاركية الأنثوية. وقد بدأ العلماء يدركون أن علينا مراجعة نظرتنا للنزاعات سواء كانت تلك النزاعات المصطنعة بين الروح والطبيعة وبين المرأة والرجل وبين الأعراق والديانات والفئات الإثنية المختلفة، وهي نزاعات فرضتها علينا العقلية المهيمنة السائدة.

وكما تكتب ميللر، في تركيزها لبحثها على الإنجاز الواقعي بدلاً من الدفاع، فإن السؤال ليس كيف نزيل النزاعات لأن هذا أمر مستحيل بسبب كون النزاع حتمياً عبر احتكاك الأفراد الذين يحملون احتياجات ورغبات ومصالح مختلفة مع بعضهم البعض. بل إن السؤال الذي يتعلق مباشرة بموضوع تحويل عالمنا من التعايش النزاعي إلى التعايش السلمي هو كيف نجعل من النزاع أمراً منتجاً بدلاً من أن يكون أمراً مدّمراً[42].

وكنتيجة لما تسميه نزاعاً مثمراً، تظهر ميللر كيف يمكن للأفراد والمنظمات والدول أن تنمو وتتغير. فعندما تقترب الأطراف من بعضها البعض، كل يحمل مصالح وأهدافاً مختلفة، يضطر كل طرف إلى إعادة فحص أهدافه وأفعاله إضافة إلى مراجعة أهداف وأفعال الطرف الآخر. وهكذا تصبح النتيجة لكل طرف تغييراً مثمراً بدلاً من أن تراوح مكانها بشكل غير منتج. مقابل هذا نجد أن النزاع المدمر يتضمن معادلة تحتاج في نزاعها إلى استخدام العنف من أجل المحافظة على الهرميات المهيمنة.

في ظل النظام السائد، تشير ميللر، إلى أن النزاع يظهر وكأنه دائماً في صورة الخطر العظيم، ولكن الخطر في الحقيقة يكمن في عدم إدراك الحاجة للنزاع وعدم رؤية الأشكال المناسبة له. إن الشكل المدمر هو الذي يبعث على الخوف وليس النزاع نفسه، بل ربما على العكس من ذلك، إنه يأتي نتيجة لمحاولة تجنب النزاع أو قمعه[43].

ورغم أن التوجه المهيمن نحو القمع في حل النزاعات يبقى التوجه السائد، إلا أن نجاح التوجهات السلمية أو الأنثوية الأقل عنفاً نحو حل النزاعات يقدم أملاً كبيراً بالتغيير. وهذه المقاربات أو التوجهات تحمل جذوراً قديمة إذ استخدمها سقراط واستخدمها يسوع المسيح في تاريخنا المدوَّن وتجسدت في عصرنا الحديث في أشخاص مثل غاندي ومارتن لوثر كنغ الابن، الذين تعاملت معهم الذكورية الحاكمة بالقتل أو بالتمجيد بعد الوفاة. إلا أن النساء كنّ أكثر من استخدم هذه المقاربة ويظهر لنا هذا في أمثلة الأحداث التي وقعت في القرنين التاسع وعشر والعشرين حيث كافحت النساء سلمياً ضد قوانين غير عادلة، وعرّضن أنفسهن للاعتقال وللإضراب عن الطعام بدلاً من استخدمن العنف لتحقيق أهداف تمثلت في الوصول إلى معلومات حول تنظيم الأسرة، وتقنيات تنظيم الحمل وضبطه والحق في التصويت وغيرها[44].

إن هذا الاستخدام للنزاعات اللاعنفية كوسيلة لتحقيق التغيير الاجتماعي ليس مجرد مقاومة سلمية أو لاعنفية. فمن خلال رفض التعاون مع العنف والظلم عبر استخدام وسائل عنيفة وظالمة، أوجد أشخاص مثل غاندي طاقة تحويلية إيجابية أطلق عليها اسم ساتياغراها أو «قوة الحقيقة» . وكما يقول غاندي، فقد كان الهدف هو تحويل النزاع بدلاً من قمعه وتركه ينفجر إلى أحداث عنف[45].

ولعل ما يعتبر جوهرياً في إعادة رسم مسار تطورنا الحضاري، هو المراجعة الحالية التي تتم بطريقة تعريفنا للسلطة. ففي كتاباتها حول النظرة السائدة للقوة، تبين ميللر كيف أن ما نسميه الحاجة للسيطرة والهيمنة على الآخرين، هي عامل لا يرتبط بالشعور بالقوة بل بالشعور بالضعف. وعلينا أن نميز بين السلطة الذاتية والسلطة على الآخرين، فقوة الشخص الآخر أو الآخرين يُنظر إليها بشكل عام على أنها خطرة، إذ كان عليك إما أن تسيطر عليهم أو يسيطرون

عليك. ولكن في عالم تطور الإنسان، لا تصلح مثل هذه الصيغة بل على العكس من ذلك، نجد أن في المعنى الأساسي، كلما تطور الإنسان كلما أصبح أكثر قدرة وأكثر تأثيراً وأقل حاجة إلى تقييد الآخرين وضبطهم[46].

لقد كان الموضوع المركزي في الأدبيات النسائية في القرن العشرين هو البحث ليس عن علاقات القوة الموجودة فحسب بل عن طرق بديلة للنظر إلى القوة واستخدامها. مثل طريقة الارتباط أو الاندماج. وقد تم استكشاف هذا الموضوع من قبل كل من روبن مورغان، وكيت ميلليت، وإليزابيث جانوي، وبيريت آس، وبيغي أنتروبوس، وماري لويز جانسن - جوريه، وتاتيانا مامانوفا، وكاثلين باري، وديفاكي جين، وكارولين بيرد، وبيرغيت بروك - أوتني، وديانا راسل، وبيرديتا هيوستن، وأندريا دواركن، وأدريان ريتش، من بين أخريات[47]. وباستخدام عبارات مثل: «الأخوات قويات» أصبحت هذه النظرة غير التدميرية للسلطة، تتزايد لدى النساء في تحركهن وسط عالم الرجال من موقعهن كنساء. ففي مضمونها النفسي، تحمل هذه النظرة مفهوماً للقوة يعتمد على نتيجة وجود رابحين وليس رابح وخاسر، كما أنها وسيلة يستطيع الفرد فيها تطوير نفسه دون أن يحتاج في الوقت نفسه إلى تقييد تطور الآخرين.

وفي التعبير المرئي أو الرمزي، يشكل هذا التمثيل للقوة شيئاً يربط بين الناس. وكان يرمز إليه منذ القدم بدائرة أو بشكل بيضاوي - أي بالبيضة الكونية للإلهة أو الدائرة الكبرى بدلاً من الخطوط المسننة للشكل الهرمي الذي يرمز إلى وجود الآلهة أو الزعماء الحاكمين في قمة الهرم. ومع امتداد مدة قمعه من قِبَل الإيديولوجية الذكورية المهيمنة، كان سر التغيير الذي تعبر عنه الكأس المقدسة منذ القدم يعتبر وعياً للوحدة أو الربط بين الناس بعضها ببعض وبينها وبين سائر مخلوقات هذا العالم. وقد استمر عظماء العرّافين والصوفيين بالتعبير عن هذه الرؤيا عبر وصفها بقوة التغيير التي ظل أوائل المسيحيين يطلقون عليها

اسم «القوة المدهشة» . إنها تلك الرابطة الأساسية بين الناس المسماة الحب الأخوي والتي كانت ضمن الصفات التي شوّهتها الأفكار الذكورية. إنها نوع من الحب الذي يتعدى الذات مثل حب الأم لأطفالها، وقد عبّرت عنها الأساطير بأنها الحب الإلهي الذي تكنّه الأم العظمى لأطفالها من البشر.

ضمن هذا المعنى، تأتي إعادة ارتباطنا بالتقاليد الروحية الأولية لعبادة الآلهة وعلاقة هذا الارتباط بالنموذج التشاركي للمجتمع لتشكلا أكثر من إعادة تأكيد على كرامة وقيمة نصف المجتمع البشري. وهو أمر ليس بعيداً عن كونه طريقة أكثر راحة وتطميناً في تصورنا للقوى التي تحكم هذا العالم من حيث أنه يقدم بديلاً إيجابياً للأساطير والصور التي زيفت بوقاحة أكثر مبادئ العلاقات الإنسانية جوهرية من خلال تثمينها للقتل والاستغلال بدلاً من الولادة والرعاية.

في الفصول الأولى لهذا الكتاب، رأينا كيف أن المبدأ الأنثوي المتمثل في الآلهة كان يشكل في مستهل تطورنا الحضاري صورة، ليس فقط لانبعاث الحياة من الموت بل تنويراً للوعي الإنساني عبر الإلهام الإلهي. وكما يذكر المحلل النفسي إيريك نيومان، وهو من مدرسة العالِم يانج، فقد كانت الإلهة تمثل في الطقوس الروحانية القديمة قوة التحول المادي للرأس الإلهي كعجلة الحياة الدوّارة في مجمل توليدها للحياة وجلبها للموت. ولكن هذه الإلهة كانت أيضاً رمزاً للتحول الروحي أي قوة المركز التي تمر عبر تلك الدائرة باتجاه الوعي والمعرفة والتحول والتنوير وهي الأهداف العليا للإنسانية منذ قِدَم الزمان[48].

سياسة جديدة واقتصاد جديد

قيل وكُتب الكثير في زمننا الحالي حول التغيير. فنحن نجد بعض المتنبئين بالمستقبل من أمثال ألفين توفلر، يكتبون عن التحولات التقنية الهائلة منذ الموجة

الأولى (الزراعية) وحتى الموجة الثانية (الصناعية) والآن إلى الموجة الثالثة أو مجتمع ما بعد الصناعة[49]. من المؤكد أننا رأينا في تاريخنا المدوَّن تحولات حضارية رئيسية، ولكن هذه التحولات التي توصف بالرئيسية بالنسبة للحضارة مثل التحول من العهود التقليدية إلى عهد المسيحية ولاحقاً إلى العصر العلمي أو العلماني، لا تشكل في منظور فرضية التحول الحضاري التي نقوم بتطويرها سوى تغييرات داخل النظام الذكوري أي تغييرات في أنواع الأنظمة المهيمنة فقط.

كانت هناك نقاط تفرع أخرى، وقد نجد هناك نقاطاً لعدم توازن اجتماعي حدث نتيجة تغيير رئيسي في الأنظمة، وظهرت خلاله بين الحين والآخر أنماط أكثر تشاركية في وظيفتها. ولكن هذه الأنماط لم تجتز عتبة النواة لكي نعتبرها مؤشراً على حدوث نقلة من الذكورية المهيمنة إلى الأنثوية التشاركية. وحتى نستخدم استعارة مألوفة نقول إن النظام الذكوري بقي حتى الآن مثل ربطة مطاطية، تمددت كثيراً خلال فترات بروز التشاركية بقوة، كزمن المسيح مثلاً، ولكنها ظلت تعود إلى شكلها الطبيعي عندما تصل إلى حدود الذكورية. هكذا كان الأمر في الماضي أما الآن، فلأول مرة في تاريخنا المدون، نجدها وقد اقتربت من حد الكسر بدلاً من أن تتمكن إلى العودة لشكلها السابق. فقد استطاعت عملية تطورنا الحضاري أن تتجاوز القيود التي ظلت تردّها عبر ألفيات من الزمن.

ضمن المستوى الذي وصله تطورنا التقني، ما هي المدلولات السياسية والاقتصادية التي يمكن أن يحملها حدوث تغيير شامل من مجتمع مهيمن إلى مجتمع تشاركي؟ فنحن نملك الآن التقنيات التي تستطيع ضمن عالم لا يحكمه حد السكين أن تسارع في تطورنا الحضاري. وكما تذكر روث سيفارد في تقريرها السنوي حول الإنفاق العسكري والاجتماعي في العالم، فإن كلفة تطوير صاروخ واحد عابر للقارات يمكنها أن تطعم 50 مليون طفل وأن تبني 160

ألف مدرسة وتفتح 340 ألف عيادة صحية. وحتى كلفة بناء غواصة فردية نووية جديدة، وهي كلفة تساوي ميزانية تعليم سنوية لثلاث وعشرين دولة نامية في العالم يفتقر فيها 120 مليون طفل إلى وجود مدارس، ويموت فيها 11 مليون طفل قبل أن يبلغوا عامهم الأول، يمكنها أن تفتح فرصاً جديدة لملايين البشر الذين قُدِّر لهم اليوم أن يعيشوا في الفقر والجهل[50].

إن ما نفتقر إليه في الحقيقة، كما تؤكد كتابات المتنبئين بالمستقبل مراراً وتكراراً هو وجود نظام إرشاد اجتماعي وقيم حاكمة يمكنها أن تعيد توجيه حصص الموارد بما فيها المعرفة التقنية المتقدمة ودفعها لتحقيق أهداف أسمى.

يكتب ويليس هارمان، وكان يعمل مديراً للدراسات المستقبلية الرئيسية في معهد ستانفورد للأبحاث، أن ما نحتاجه، وما يظهر الآن، هو تحول في المبادئ الحضارية الأساسية وفي جميع نواحي الأدوار والمؤسسات الاجتماعية. ويصف هذا التحول بأنه وعي جديد تتوازن فيه المنافسة مع التعاون، والفردية مع المحبة، وأنه سيكون وعياً عالمياً، ووعياً أسمى يربط بين المصلحة الذاتية ومصلحة الآخرين ومصالح الأجيال المقبلة كما لن ينطوي على شيء أقل من تحول جذري وذي حجم هائل وحقيقي[51].

ونقرأ ما يشبه هذا الموضوع في التقرير الثاني لنادي روما، حيث يرد أنه «من أجل تجنب وقوع كارثة إقليمية وبالتالي عالمية كبرى، ينبغي علينا تطوير نظام عالمي جديد يرتبط ببعضه البعض عبر روح من التعاون الدولي الصادق المتمثل في شكل شراكة حرة»[52]. مثل هذا النظام العالمي يجب أن يحكم بأخلاقيات عالمية جديدة مبنية على وعي أكبر للمستقبل وتطابق معه ومع الأجيال الحالية، كما يتطلب أن يصبح التعاون مع الطبيعة لا مواجهتها، والانسجام معها لا قهرها، جزءاً من مثالياتنا وأعرافنا[53].

إحدى النواحي الملفتة للنظر في هذه التوقعات، تكمن في أن هؤلاء المتنبئين لا ينظرون إلى التقنية والاقتصاد باعتبارهما ضمن المحددات الرئيسية لمستقبلنا، بل يدركون بدلاً من ذلك أن طرقنا نحو المستقبل سوف تبنيها القيم الإنسانية والترتيبات الاجتماعية، أي بكلمة أخرى، أن مستقبلنا سيتحدد من من خلال الطريقة التي نرى فيها نحن البشر إمكانياتنا وقدراتنا ومضامينا. وكما يقول المتنبئ جون ماكهيل: «إن تخطيطاتنا العقلية هي برامج تحركنا الأساسي»[54].

ولكن أكثر ما يلفت النظر هو أن العديد من المتنبئين والباحثين في المستقبل أخذوا يدعون في الحقيقة وبكلمات عملية عديدة أن علينا أن نترك خلفنا تلك القيم القاسية الموجهة نحو الغزو والتي ترتبط تقليدياً بالذكورية لأنه: أليست الحاجة إلى روحية حقيقية من التعادل الدولي، موضوعة في شكل تشاركية حرة، وإلى توازن بين الفردية والمحبة وإلى الوصول لهدف يضع الانسجام مع الطبيعة بدل قهرها، قانوناً وعُرفاً، هي بمثابة إعادة تثبيت لأخلاقيات أكثر نسوية؟ وإلى أين تهدف التغييرات الجذرية في الأعراف أو تغيير المبادئ الحضارية الأساسية وجميع نواحي المؤسسات الاجتماعية، إذا لم يكن ذلك الهدف استبدال المجتمع المهيمن بمجتمع تشاركي؟

إن التحول من مجتمع مهيمن إلى مجتمع تشاركي سيجلب معه تغيراً في توجهنا التقني: من استخدام التقنية المتقدمة بهدف التدمير والهيمنة إلى استخدامها لتعزيز الحياة الإنسانية والمحافظة عليها. وفي الوقت نفسه سوف تبدأ تلك المظاهر المرتبطة بالتبذير والإفراط في الاستهلاك والتي تسلب اليوم المحتاجين والمحرومين، بالذوبان. وكما لاحظ العديد من المعلّقين الاجتماعيين فإن في صلب عقيدتنا الغربية بالاستهلاك المفرط والإسراف في الإنفاق تكمن حقيقة أننا نعاني من هوس حضاري بالامتلاك والشراء والبناء والتبديد، يعتبر بديلاً لوجود علاقات عاطفية مرضية أنكرتها علينا طرقنا الحالية في تربية أطفالنا وقيمنا التي يحملها الكبار ضمن نظامنا الحالي[55].

وفوق كل شيء، فإن هذه النقلة من الذكورية إلى الأنثوية التشاركية سوف تبدأ بإنهاء سياسات الهيمنة واقتصاديات الاستغلال التي ما زالت في عالمنا هذا تسير يداً بيد. وكما أشار جون ستيوارت ميل قبل قرن من الآن في كتابه البالغ الأهمية «مبادئ الاقتصاد السياسي» ، فإن الطريقة التي يتم فيها توزيع الموارد الاقتصادية لا تعتمد على بعض القوانين الاقتصادية التي لا تعرف الرحمة ولكنها تعتمد على خيارات سياسية إنسانية[56].

ويدرك العديد من الناس اليوم أن كلاً من الرأسمالية أو الشيوعية في شكلهما الحالي لا يقدمان طريقاً لحل أزماتنا الاقتصادية والسياسية المتصاعدة. وإلى الحد الذي تراوح فيه الهيمنة الذكورية مكانها، يستحيل إنشاء نظام سياسي واقتصادي عادل ومثلما هو الحال في الدول الغربية كالولايات المتحدة، حيث تموَّل قوائم المرشحين للانتخابات من قبل المصالح الخاصة المتنفذة، وحيث لم نصل بعد إلى الديمقراطية السياسية، كذلك نرى أن دولاً مثل الاتحاد السوفياتي، التي تحكم من قِبَل طبقة متسلطة ذكورية وذات امتيازات خاصة، ما تزال بعيدة كل البُعد عن الديمقراطية الاقتصادية.

إن سياسات الهيمنة واقتصاديات الاستغلال، على وجه الخصوص تتمثل في جميع الأنظمة الذكورية عبر الاقتصاد الثنائي الذي يتم فيه استغلال النساء بشكل منهجي في نشاطات إنتاجية قليلة الرواتب أو غير مدفوعة. وكما تشير نشرة الأمم المتحدة حول حالة النساء في العالم عام 1985، فإن النساء اللواتي يشكلن نصف المجتمع يمارسن ثلثي أعمال العالم من ناحية ساعات العمل ولا يتقاضين إلا عشر ما يتقاضاه الرجال ولا يملكن إلا واحداً بالمئة من الممتلكات التي تخص الرجال[57]. كذلك الأمر بالنسبة للجهد غير المدفوع الذي تبذله النساء، كإفريقيا مثلاً حيث تقوم النساء بمعظم عمليات إنتاج الغذاء ويقدمن خدمات صحية مجانية أكثر مما تقدمه جميع قطاعات الرعاية الصحية مجتمعة. ومع

ذلك يتم شطب هذا الجهد من حسابات الإنتاجية الوطنية[58]، وتكون النتيجة كما تشير المتنبئة المستقبلية هازل هندرسون وضع توقعات اقتصادية عالمية مبنية على إحصائيات وهمية[59].

وفي كتابه «سياسات العصر الشمسي» يصف هندرسون مستقبلاً اقتصادياً إيجابياً تتوازن فيه أدوار الرجال والنساء بشكل أساسي، وينطوي على مواجهة حقيقة أن عسكريتنا الذكورية هي أكثر نشاط هادر للطاقة بالنسبة للبشر، لأنها تحول الطاقة المخزونة مباشرة إلى هدر وتدمير دون أن تفي بالحاجات الإنسانية الضرورية. ويتنبأ هندرسون أنه بعد الفترة الحالية التي تشهد انهيار الأنظمة الأبوية، لن تكون الوقائع الاقتصادية ولا البيئية محكومة من قِبَل قيم ذكورية مرتبطة مع الهوية الذكورية[60].

وفي السياق نفسه، يجري الكاتب البريطاني جيمس روبرتسون في كتابه «البديل العاقل» مقارنة بين المستقبل الذكوري أو «التوسع المفرط» ويبين المستقبل النسوي العاقل والإنساني وصديق البيئة. كذلك يصف جوزيف هوبر البروفيسور الألماني السيناريو الاقتصادي السلبي الذي يضعه للمستقبل كنظام أبوي، ومقابل ذلك يضع سيناريو إيجابياً يقف فيه الجنسان الذكر والأنثى على قدم المساواة. فهما يتشاركان في المناصب المدفوعة الأجر، إضافة إلى الأعباء المنزلية وتربية الأطفال وغيرها من النشاطات الاجتماعية[62].

ولكن الموضوع المركزي الذي يوحِّد بين هذه التحليلات الاقتصادية وبين غيرها، وعلى الرغم من أهميته بالنسبة لمستقبلنا، هو أنه ما يزال بعيداً عن التعبير به. وهو أن هذه الأنظمة الاقتصادية التقليدية، سواء كانت رأسمالية أم شيوعية، مبنية على ما يمكن أن نطلق عليه، استعارة من تحليلات ماركس، «تغريباً للجهد الرعوي»[63]. فنحن لن نشهد أي تحول اقتصادي أو سياسي ما لم يتم إدخال هذا الجهد الرعوي المتمثل في عمليات المحافظة على الحياة كالتغذية

والتربية والمساعدة ومحبة الآخرين ودمجه بالكامل ضمن التيار الاقتصادي الرئيسي العام[64].

تدريجياً، حين يتم دمج نصف البشرية من النساء والقيم والأهداف التي يعتبرها النظام الذكوري نسوية في طابعها، تماماً ضمن آليات الإرشاد والتوجيه في المجتمع، فإننا سنشهد انبثاق نظام سياسي واقتصادي صحي ومتوازن، ولاحقاً حين يتم توحيد هذا الدمج ضمن رؤية عالمية للعائلة مبنية على النظرة النسوية للسلام والبيئة والإمكانيات البشرية وغيرها من التحركات التشاركية، فإن جنسنا البشري سوف يبدأ بتحسس تجربة الإمكانيات الشاملة لتطوره.

التحول

إن التحرك نحو عالم جديد يشتمل على عودة ولادة نفسية واجتماعية ينطوي على تغييرات لا يمكننا التنبؤ بها بعد، أو حتى تصورها. إذ من المؤكد أن العديد من حالات الفشل التي أعقبت آمالاً مبكرة للتحسن الاجتماعي وتوقعات بمستقبل إيجابي قد أثارت حالة من التشاؤم. إلا أننا نعرف أن التغييرات في البنية تنطوي على تغييرات في المهمات. تماماً مثلما لا يمكن للمرء أن يجلس في زاوية غرفة مستديرة، فإن عملية انتقالنا من مجتمع مهيمن إلى مجتمع تشاركي ستشهد تغييراً تدريجياً في طرق التفكير والمشاعر والتصرفات القديمة.

منذ ألفيات زمنية من تاريخنا المدون، والروح الإنسانية عالقة في أغلال الذكورية التي قزّمت أدمغتنا وخدّرت قلوبنا، ومع ذلك لم تستطع أن تطفئ جذوة كفاحنا من أجل الحقيقة والجمال والعدالة. وفيما نحن اليوم نكسر هذه القيود، نجد أن عقولنا وقلوبنا وأيدينا قد بدأت تتحرر وكذلك مخيلتنا الخلاقة.

بالنسبة لي، أنا أجد أكثر الصور إثارة في التعبير عن هذا التحول من الذكورية المهيمنة إلى النسوية التشاركية، صورة اليرقة وهي تتحول إلى فراشة.

فهذه الصورة تبدو لي على الأخص متناسبة مع صورة التعبير عن رؤية الإنسانية وهي تحلق إلى أعلى ما تستطيع الوصول، كما أن الفراشة ظلت تشكل منذ القدم رمزاً للتجديد أو الانبعاث، وعيداً لظهور القوى التغييرية المنسوبة إلى الإلهة.

هناك كتابان آخران هما «التحرر» و «الانبثاق» ، سوف يستكشفان مثل هذا التحول في العمق. وسوف يضعان طابعاً جديداً للإنجاز الاجتماعي ليس للمثالية Utopia التي تعني باليونانية «لا يوجد مكان» بل للـ: pragmatopia وهي سيناريو للتشاركية المستقبلية قابل للإدراك أو التحقيق. ورغم أن صفحات قليلة لن تكون كافية حتى للبدء بتغطية ما سوف يتم تطويره في هذين الكتابين إلا أنني أرغب في اختتام هذا الفصل برسم موجز لبعض التغييرات التي أستطيع تصورها فيما نحن نستعيد السير في تطوير حضارتنا بعد أن تمت مقاطعتها[65].

إن أكثر التغييرات جذرية، في انتقالنا من عالم مهيمن إلى عالم تشاركي ستكون أننا نحن وأطفالنا وأحفادنا سوف نعرف مرة أخرى ماذا يعني أن نعيش بحرية لا يوجد فيها خوف من الحروب. وفي عالم استطاع التخلص من الانتداب الذي يضع الهيمنة شرطاً أمام الذكورية، إضافة إلى تنامي مركز المرأة وازدياد الأولويات الاجتماعية النسوية، فإن خطر الإبادة النووية سوف يتقلص تدريجياً، وفي الوقت نفسه، وفيما تحقق النساء مكاسب وفرصاً اجتماعية واقتصادية بحيث تتوازن معدلات الولادة مع مواردنا، تضعف الضرورة «المالثوسية» (وهي النظرية القائلة بأن عدد السكان يتزايد بنسبة تفوق الموارد الغذائية وأن علينا تنظيم النسل من أجل البقاء) المتمثلة بالجوع والمرض والحرب شيئاً شيئاً[66].

كذلك ستبدأ مشاكلنا المتعلقة بتلوث البيئة واستنزاف الموارد والانحطاط الخلقي بالتراجع خلال سني التغيير بعد أن ارتبطت إلى حد كبير بارتفاع أعداد السكان وبقهر الطبيعة وبحقيقة أن الرعاية البيئية بالمنازل لم تكن ضمن أولويات

المجتمع الذكوري المهيمن. كذلك ستضمحل نتائج هذه المشاكل مثل النقص في الطاقة وغيرها من الموارد الطبيعية والمشاكل الصحية المتعلقة بالتلوث الكيماوي[67].

وبما أن النساء لم يعدن مستثنيات من المساعدة المادية ومنح الأراضي والتدريب العصري، فستصبح برامج التطوير الاقتصادي لتحسين التعليم والتقنية ورفع مستويات المعيشة في العالم الثالث أكثر وأكثر فعالية كما ستقل اللافعالية الاقتصادية، وبالتالي المعاناة التي ينوء تحت ثقلها الملايين من الناس في الدول النامية والدول المتقدمة على السواء. لأنه مع زوال سوء المعاملة للنساء واعتبارهن حيوانات ولودة، ووحوشاً ثقيلة، ومع تمكنهن من الحصول على رعاية صحية أفضل وتعليم ومشاركة سياسية، فإن المنفعة لن تقتصر على نصف المجتمع البشري فقط بل على البشرية بأكملها[68].

وإلى جانب الإجراءات الأكثر عقلانية والهادفة إلى إنجاح عملية تخفيف الفقر والجوع بين جموع الفقراء في العالم، من النساء والأطفال، فإن الإدراك المتنامي للرابطة التي تجمعنا كبشر سوف تُضيِّق تدريجياً حجم الهوة بين الدول الغنية والفقيرة. ومن المؤكد أنه مع إعادة تحويل بلايين الدولارات وساعات العمل فإن الفقر والجوع الإنساني سوف يصبحان ذكريات قديمة لماضٍ ذكوري وحشي[69].

كما أن التغيير الذي سيحصل في العلاقات بين الرجل والمرأة، من الدرجة الحالية العالية الشكوك والاتهامات إلى درجة من الانفتاح والثقة سوف ينعكس على العائلات والمجتمعات. كما ستكون هناك مضاعفات إيجابية في سياساتنا الوطنية والدولية. وتدريجياً سوف نشهد تراجعاً في تلك السلسلة التي تبدو وكأن لا نهاية لها، من المشاكل، وهي مشاكل سببت لنا العديد من الكوارث كالتخلف العقلي والانتحار والطلاق وضرب الأطفال وتخريب الممتلكات والجريمة والإرهاب الدولي وغيرها. وكما سيُظهر البحث المفصل في الكتاب الثاني

لتقريرنا، فإن هذه الأنواع من المشاكل تنبثق في جزئها الأكبر من وجود درجة عالية من التوترات الشخصية الكامنة في التنظيم الاجتماعي الذكوري المهيمن وفي طريقة تربية الأطفال المبنية بشدة على القوة. لذا ومع التحرك باتجاه علاقات أكثر توازناً ومساواة بين الرجال والنساء، وإعادة تطبيق سلوكيات رعوية أكثر إنسانية ورحمة مع الأطفال من كلا الجنسين، سوف نتوقع في الحقيقة تغييرات جذرية في النفسية، وهي تغييرات ستعمل في وقت قصير نسبياً على تسريع وتيرة التغيير أضعافاً مضاعفة.

في العالم الذي سيعيش فيه الرجال والنساء في تشاركية تامة، ستكون هناك بالطبع عائلات ومدارس وحكومات ومؤسسات اجتماعية، ولكن هذه المؤسسات مثلها مثل مؤسسات العائلات المتساوية وشبكات العمل الاجتماعي، ستحمل بنية اجتماعية مستقبلية مبنية على الترابط أكثر منها على المرتبية. وبدلاً من الطلب من الأفراد أن يتلاءموا مع البنى الهرمية، فإن هذه المؤسسات ستكون لا مرتبية مما يسمح لمزيد من التنوع والمرونة في صنع القرارات وفي التحرك. وبالتالي ستصبح أدوار كل من النساء والرجال أقل صرامة مما يسمح لكامل المجتمع البشري مرونة قصوى في تطوره[70].

ومع المحافظة على التوجهات الحالية، ستصبح العديد من مؤسساتنا الجديدة أكثر عالمية في أفقها، متجاوزة بذلك الحدود القومية. ومع ثبات الإدراك لارتباطنا ببعضنا البعض وارتباطنا ببيئتنا، يصبح بإمكاننا توقع رؤية الدولة القومية القديمة ككيان سياسي منطوٍ على نفسه، وقد أخذت تذوي وتضمحل. ولكن بدلاً من حصول انسجام وانتظام أكثر، وهو التوقع المنطقي من وجهة النظر الذكورية المهيمنة، ستكون هناك فردية أكثر وتعددية أكثر، إذ أن الوحدات الاجتماعية الأصغر سترتبط ضمن شبكات أو قوالب من أجل تحقيق أهداف مشتركة ومتنوعة، تتراوح على طول المدى من الزراعة التعاونية وحصاد

المحيطات واستكشاف الفضاء إلى المشاركة في المعرفة والتقدم في الفنون[71]. كذلك ستكون هناك مشاريع عالمية لا يمكن التنبؤ بها من أجل تطوير طرق أكثر مساواة وفعالية في استخدام الموارد البشرية والطبيعية، إضافة إلى اختراعات مادية واجتماعية جديدة لا يمكننا توقعها عند هذه النقطة من مراحل تطورنا.

وسيحمل التحول العالمي نحو مجتمع تشاركي معه اختراقات تقنية عدة، وسيكون هناك تكييف للتقنيات الموجودة مع المتطلبات الاجتماعية، وبعض هذه المتطلبات، كما توقع شوماشر وغيره ستكون أفضل وأكثر كثافة من ناحية العمالة في ميادين الحرف. على سبيل المثال ستكون هناك عودة إلى الكبرياء الخلاقة والفردية في الحياكة، وأعمال النجارة والخزف وغيرها من الفنون التطبيقية. ولكن في الوقت نفسه، وبما أن الهدف هو تحرير الإنسانية من الكدح الذي يشبه كدح الحشرات، فإن هذا لن يعني العودة إلى تقنيات أكثف عمالة في جميع الميادين. بل على العكس من ذلك، إذ أنه مع إتاحة الوقت والطاقة الكافيين لتحقيق إمكانياتنا الخلاّقة، يمكننا توقع أن تلعب الميكنة والتقنية الأوتوماتيكية دوراً أكبر في دعم الحياة على الأرض، وسيتم تسخير كل من وسائل الإنتاج الصغيرة والكبيرة بطرق تشجع وتتطلب بالتأكيد مشاركة عُمالية بدلاً من تحويل العُمّال أنفسهم إلى آلات أو ماكنات تعمل أوتوماتيكياً.

كذلك، سيكون تطوير وسائل ضبط الحمل أكثر أمناً وفعالية في قمة أولويات التطوير التقني. وسوف نشهد عدداً أكبر من الأبحاث حول تفهم عملية تقدم العمر وإبطائها وهي عملية تتراوح في تركيباتها من تبديل قطع الجسد التالفة إلى وسائل لإعادة إحياء خلايا الجسم، وربما نرى خلقاً كاملاً للحياة في المختبرات، ولكن بدلاً من استبدال النساء أو تحويلهن إلى حاضنات للخلايا المطورة صناعياً، سيتم تقييم هذه التقنيات التوليدية بحذر من قِبَل الرجال والنساء على السواء من أجل ضمان تحقيق كامل إمكانية الجنسين[72].

وحيث أن تقنيات التدمير لن تعود لتستهلك وتدمر جزءاً واسعاً من مواردنا البشرية والطبيعية، فإن مشاريعنا الاقتصادية ستحمل جدوى كبيرة بشكل لا نحلم به الآن وربما لم نحلم به من قبل، وستكون النتيجة اقتصاداً مزدهراً بشكل عام مبشراً به من قِبَل مراحل تطورنا التشاركية ما قبل التاريخ. ولن تكون هناك مشاركة متساوية في الثروة المادية فحسب، بل سيشكل هذا نظاماً اقتصادياً يتم فيه تجميع أكبر وأكبر للثروة كوسيلة لحماية النفس وضبط ما يمكن أن يراه الآخرون نوعاً من المرض أو الضلال أو الانحراف.

وفي كل هذا، سيكون هناك عدد من المراحل الاقتصادية، وأولى هذه المراحل التي تشهد انبثاقها حالياً، هي ما نسميه بالاقتصاد المختلط الذي يجمع بين أفضل عناصر الرأسمالية والشيوعية، والفوضوية بمعنى تشكيل تنوع في الوحدات التعاونية غير المركزية العاملة في الإنتاج والتوزيع[73]. وسيكون المفهوم الاشتراكي القائل بأن جميع أبناء البشر يملكون حقوقاً سياسية واقتصادية، في صلب الاقتصاد التشاركي القائم على الرعاية بدل الهيمنة. كما ستتوقع ظهور مخترعات ومبادرات اقتصادية جديدة مع تحول المجتمع من الهيمنة إلى التشاركية.

وفي قلب هذا النظام الاقتصادي الجديد، سيحصل استبدال للاقتصاد الثنائي الفاشل حالياً والذي يتم فيه مكافأة القطاع الاقتصادي بالمال والمنصب والسلطة، والذي يعمل هذا النظام في مراحله الصناعية، كما يوثق هندرسون، على التهام النظم البيئية والاجتماعية وتدميرها. بدلاً من ذلك، يمكننا توقع ظهور نظام اقتصادي غير رسمي وغير قائم على النقود، أي نظام يعتمد الإنتاج العائلي والرعاية والتربية والعمل الاجتماعي التطوعي وجميع النشاطات التعاونية التي تسمح للنشاطات التنافسية التي تكافأ اليوم بإسراف من أجل أن تبدو ناجحة، بأن تقيم وتكافأ بشكل صحيح[74]، مما سيوفر الأسس التي نفتقدها اليوم لإقامة نظام اقتصادي لا تكون فيه الرعاية المقدَّمة إلى الآخرين مجرد كلمات شفهية بل تعطي النشاطات الإنسانية أعلى القيم والمكافآت.

أما الممارسات المتمثلة في إفساد النساء جنسياً والتمثيل بهنّ وضرب الزوجات وجميع الطرق الوحشية الأخرى التي استخدمتها الأنظمة الذكورية لإبقاء النساء في مكانهن، فسوف تظهر ليس كتقاليد مبجلة أو مقدسة ولكن كجرائم ناتجة عن المعاملة غير الإنسانية من قِبَل الرجل للمرأة[75]. وكذلك الأمر بالنسبة لوحشية الرجل ضد الرجل حيث لن يعود العنف الذكوري شيئاً مخلداً من قِبَل القصص والأساطير البطولية وسيُنظر إلى ما يسمى بالقيم الذكورية كالهيمنة والغزو كما هي في حقيقتها: انحرافات وحشية وبربرية لجنس انقلب على نفسه.

وعبر إعادة تأكيد الروحانيات المتغيرة التي ترمز إليها الكأس المقدسة والاحتفال بها، ستعود أساطير جديدة، لتستيقظ فينا بعد أن فقدت معنى الإقرار بفضل الحياة وتمجيدها، وهي أمور كانت بارزة في الفنون التي بقيت لدينا من العصر الحجري الحديث ومن كريت المنيونية. وهكذا مع إعادة ارتباطنا بجذورنا النفسية الأكثر براءة، قبل ظهور الحروب والهرمية والمرتبية وقبل أن تصبح الهيمنة الذكورية هي القوانين التي تحكمنا، فإن هذه الميثولوجيا لن تعيدنا إلى الوراء نفسياً أي إلى عالم الطفولة التقنية لجنسنا البشري، بل على العكس من ذلك، فإنها عبر ربط إرثنا التشاركي القديم برموزه وأساطيره النسوية مع أفكارنا المعاصرة سوف تدفع بنا إلى الأمام نحو عالم أكثر عقلانية بكل ما للكلمة من معنى، عالم يحيا ويوجَّه من قِبَل إدراكنا بأننا مرتبطون ارتباطاً بيئياً واجتماعياً لا مفك منه ببعضها البعض وببيئتنا.

وإلى جانب الاحتفال بالحياة سيأتي الاحتفال بالحب الذي يشمل الحب الجنسي بين النساء والرجال. فالارتباط الجنسي عبر أي شكل نطلق عليه اليوم اسم الزواج، سوف يستمر ولكن الهدف الرئيسي لهذا الارتباط سيكون العشرة المتبادلة، واللغة الجنسية والحب، ولن تعود مسألة إنجاب الأطفال مرتبطة بنقل

أسماء الذكور وملكياتهم. وسوف تظهر علاقات رعوية أخرى معترف بها وليس فقط العلاقات بين الجنسين[76].

كذلك ستضع جميع المؤسسات، وليس فقط تلك المبنية من أجل تأهيل الأطفال اجتماعياً، من ضمن أهدافها تحقيق إمكانياتنا الإنسانية العظيمة إذ لا يمكن تحقيق مثل هذه الأهداف إلا في عالم يضع نوعية حياة الإنسان قبل كميتها في حسابه بحيث يصبح الأطفال كما تنبأت مارغريت ميد شيئاً نادراً وبالتالي عالي القيمة[77].

وستشكل نشأة الأطفال اهتماماً لكل من النساء والرجال. وسيحمل العديد من البالغين مسؤوليتهم في تربية هذه المنتجات الاجتماعية الثمينة (الأطفال) وليس فقط الآباء البيولوجيين. كذلك سوف يُنظر إلى التغذية السليمة وإلى التمارين الذهنية والجسدية مثل الأنواع المتقدمة من اليوغا والتأمل كمتطلبات مسبقة وأساسية للجسم السليم والعقل السليم. وبدلاً من أن يتم توجيه الطفل ليتكيف مع موقعه في العالم ضمن التنظيمات المرتبية، فإن التعليم سيصبح وكما بدأنا نراه اليوم، عملية حياتية طويلة تنشد أقصى المرونة والقدرة على الإبداع في جميع مراحل الحياة.

في هذا العالم الذي يقود إنجاز إمكانياتنا التطورية العليا، أي حريتنا الكبرى المبنية على الحكمة والمعرفة، ويوجه سياستنا الاجتماعية، سوف يصبح تركيز البحث على منع الأمراض الشخصية والاجتماعية لكل من الجسد والذهن. كذلك سيتم إخضاع قوانا العقلية التي لم تُطلق بعد رغم إدراكنا المتزايد لوجودها، لبحث مستفيض واستثمارها لتصل في النتيجة إلى استكشاف وتطوير إمكانيات ذهنية وجسدية لم نكن نحلم بها[78].

لأنه وفوق كل شيء، فإن هذا العالم التشاركي سيكون عالماً لا تُقيَّد فيه أذهان الأطفال ذكوراً وإناثاً، ولا يعود فيه الخوف ولا القيد يُلَّقن لنا بشكل

منهجي عبر الأساطير التي تخبرنا عن حتمية الشر والانحراف فينا. إنه عالم لا يتعلم فيه الأطفال قصصاً عن رجال كرِّموا لكونهم عنيفين وقساة ولا قصصاً خيالية عن أطفال ضاعوا في الغابات التي تسكنها ساحرات شريرات بل سيتعلمون أساطير وقصصاً جديدة عن الخير في الناس والسلام لدى الرجال وقوة الخلق والحب التي ترمز إليها الكأس المقدسة، والتي سيكون وعاؤها المقدس للحياة هو مبدأنا الحاكم. لأن هذا العالم التشاركي يشهد تحرر مسيرتنا نحو العدالة والمساواة والحرية، وعطشنا للمعرفة والتنور الروحي وعشقنا للمحبة والجمال. وبعد هذه الاستدارة الدموية التي حرَّفت تطورنا عبر التاريخ الذكوري المهيمن سيعود الرجال والنساء في نهاية المطاف ليكتشفوا ما هو معنى أن تكون إنساناً.

خاتمة خاصة

بالطبعة الخامسة والعشرين

من أجل هذه الطبعة الخاصة لكتاب الكأس المقدسة وحد السكين، والتي تحمل الرقم الخامس والعشرين، طلب المحررون من ريان إيسلر أن تعلق بإيجاز على كيفية رؤيتها للتوتر المستمر عبر العالم بين النماذج المهيمنة والنماذج التشاركية.

منذ الإصدار الأول لكتاب الكأس المقدسة وحد السكين عام 1987، وقعت أحداث كثيرة في العالم الأوسع حولي وفي عالمي القريب. على مستوى العالم، استمر التحرك في التصاعد ضد الهيمنة بجميع أشكالها، فيما تصاعدت في الوقت نفسه مقاومة نظام الهيمنة لهذا التغيير الجذري عبر استخدامه لأنماط من العنف والسلطوية التي ظلت مثبتة منذ زمن طويل في ممارساته والتي اتخذت أحياناً أشكالاً وحشية وشديدة الرد.

من بين التطورات المثيرة التي شهدها العالم، كان ما حدث في الاتحاد السوفياتي، فقد أتاحت سياسات ميخائيل غورباتشوف في الجلاسنوت والبروسترايكا الفرصة لحدوث تمرد مفتوح ضد الهرميات الصارمة من القمة إلى القاعدة وضد الحكم المركزي، لا بل شجعت على ذلك بشدة. وكان لمشاركته الشخصية مع زوجته رايسا، ومنظوره بضرورة إحداث نقلة جوهرية في القيم وقيامه بتخفيض الأنظمة العسكرية السوفيتية من طرف واحد، إضافة إلى رغبته الصادقة في قيام عالم أكثر عدالة وسلاماً ومساواة، كلها حملت آمالاً هائلة لهذا

العالم، إذ أنها لم تضع حداً مرئياً لسباق التسلح الأميركي السوفياتي فحسب، بل ألهمت الناس في كل مكان من الصين إلى الولايات المتحدة رؤيةً لمستقبل أفضل.

ولكن الناس العارفين بحقائق الاتحاد السوفياتي كانوا أقل تفاؤلاً. فقد ظهرت تقارير عن وجود تخريب اقتصادي من خلف الكواليس، إضافة إلى خلق حالات من نقص المواد الضرورية عن عمد من قِبَل بعض أعضاء النخبة السوفياتية الحاكمة وخاصة في الأقاليم والمقاطعات عبر بذل أقصى الجهود للحفاظ على السيطرة ومن خلال وضع عراقيل كبيرة وإثارة حالة من عدم الاستقرار. ولدى إضافة هذه الأمور إلى حالة الفساد وعدم الفعالية التي كانت موجودة في قلب النظام والاضطرابات الحتمية التي كانت سترافق أي انتقال من اقتصاد مسيطر عليه من الدولة إلى اقتصاد السوق الحر، نجد أن هذا كله شكل تهديداً بانهيار اقتصادي شامل. وفوق هذا كله، مع تراجع الخوف من حدوث انتفاضات وحشية، بدأ ذلك الكيان الذي كان يعرف بالاتحاد السوفياتي بالتصدع لينقسم إلى أجزاء، وفي نهاية المطاف، تمت إزاحة غورباتشيف نفسه من السلطة.

خلال الفترة التي كان فيها غورباتشوف ويلتسين يتنازعان على السلطة، دُعيتُ للمشاركة في لقاء مع مجموعة من السياسيين والمثقفين السوفييت. وكان من السياسيين الذين حضروا اللقاء زميل ليلتسين يتبوأ منصباً رفيعاً، كما كان هناك أحد الاقتصاديين ومنتج تلفزيوني وبعض أعضاء الأكاديمية السوفياتية للعلوم. كان اللقاء رائعاً، فتّح عينيّ على وهم لافت للنظر يحمله معظم المشاركين السوفيات وهو أنهم إذا استطاعوا استبدال الشيوعية بالرأسمالية فإن كل شيء سيكون بخير.

بالطبع، برهنت الأحداث اللاحقة على خطأ هذه النظرة، فبدلاً من دمج العناصر الجيدة في كل من الاشتراكية والرأسمالية إضافة إلى استكشاف مكثف لنهج اقتصادي مختلف وجديد، اختار المخططون للاقتصاد السوفياتي الوصفة

الرأسمالية نفسها لإعادة بناء الاقتصاد، وهي وصفة كانت قد سببت العديد من المصاعب في مناطق كثيرة من العالم النامي وخاصة بالنسبة للنساء والأطفال وكبار السن. وبدلاً من التحرك نحو إنشاء ديمقراطية عائلية حقيقية، تصاعدت أعمال الإساءة والعنف ضد النساء، إضافة إلى أشكال أخرى من جرائم العنف. وفي عام 1993، أعطى الروس أعلى الأصوات في الانتخابات لشخص فاشي وقومي متعصب ومعادٍ للسامية، ظل يتبجح لاحقاً بأنه إذا انتُخب رئيساً لروسيا فسوف يوجِد هيروشيما ونكازاكي جديدتين ولن يتردد في استخدام الأسلحة النووية.

في سياق هذا الكتاب، بيّنت أن الكفاح من أجل مستقبلنا، ليس بين الرأسمالية والشيوعية بل بين نظام فكري واجتماعي (سواء كان شرقياً أو غربياً، شمالياً أم جنوبياً) موجَّه بشكل رئيسي نحو نموذج تشاركي أو نظام مهيمن. وإذا نظرنا إلى التطورات الجديدة التي شهدتها روسيا ضمن هذا المفهوم، نلاحظ أن هذه الأحداث قد تولدت نتيجة عدد من التحركات الأساسية، ونرى أن المشاكل التي تواجه الديمقراطية في روسيا هي مشاكل ليست متجذرة في الشيوعية نفسها ولكن في السمات التي تميز المجتمعات الأكثر قرباً من النموذج المهيمن. ففي حقيقة الأمر، عاش الروس قبل ظهور دكتاتورية البروليتاريا في ظل أنظمة قيصرية أو إقطاعية تميزت ببنى سلطوية وهرمية دكتاتورية. وعلى نحو مماثل، يمكن رؤية المساعي الناجحة التي بذلها الشيوعيون للتخريب على محاولات غورباتشوف لقيادة دفة الحكم نحو المزيد من التشاركية، ضمن الآليات التي استخدمها النظام المهيمن لخلق حالات مصطنعة من شح الغذاء والمواد، لأن هذه الطريقة شكلت إحدى الطرق التي استخدمتها النخبة من أجل الإبقاء على سيطرتها، كما أوضحنا خلال فترة ردة الهيمنة السابقة في الولايات المتحدة حيث عملت سياسات ريغان الاقتصادية على تحويل الأموال من دعم البرامج الاجتماعية إلى دعم التسليح، وعلى تخفيض الضرائب على

الأغنياء، مما وسّع الهوة بين الأغنياء والفقراء وأبرز إلى الواجهة، تماماً كما حصل في الاتحاد السوفياتي، عداوات وانقسامات متعددة بين مختلف الفئات العرقية والإثنية والدينية.

كذلك، ورغم الدخول الواسع للنساء في سوق العمل وفي الدرجات الدنيا والمتوسطة للحكومة، فقد لاحظت منذ البداية عندما قمت بزيارة الاتحاد السوفياتي عام 1984، أن المجتمع الروسي يتركز حول هيمنة الذكر ولديه إيمان راسخ مدعوم بتقاليد طويلة في ضرب الزوجات، وأن دور المرأة في العائلة هو خدمة الرجل والإذعان له. للأسف، لم تتغير هذه الإيديولوجية الذكورية المتعالية حتى خلال سني حكم غورباتشوف التي خفّ فيها اعتبار الحركات النسائية كحركات مضادة للثورة. وقد كان هذا واضحاً في قيام التلفزيون السوفياتي بحذف جزء من مقابلة أجرتها محطة أميركية مع غورباتشوف، وتحدث فيها حول شراكته الزوجية مع رايسا.

وأمام هذه الاستمرارية في اتباع مثل هذا الموقف المهيمن المتشدد من القضية النسوية كان من المتوقع أن تبرز إلى السطح مرة أخرى كبديل للعداوة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، عداوات مبنية على الاختلافات العرقية الإثنية والدينية. لأنه وكما رأينا فإن نموذج الفئة العليا مقابل الفئة الدنيا لدى البشر (كما في أسطورة حواء) ونموذج الأنثى الخطرة والأدنى مستوى، يشكل عاملاً رئيسياً في خلق فكرة العدو وهي فكرة أساسية في الحفاظ على الأنظمة المهيمنة.

ويمكننا التنبؤ أيضاً، وخاصة في تلك الثقافات وأفرع الثقافات التي تعتبر أكثر صرامة في هيمنتها الذكورية من ناحية تعريفها المتواصل للرجولة كصفة للهيمنة والغزو، بأن العنف سوف يشتد خصوصاً في فترات النهوض الاقتصادي. وسيتم تبرير بعض هذا العنف على أساس الاختلافات العرقية والإثنية ولكن

معظمه سيتم باسم القومية، تماماً كما حدث في يوغوسلافيا وكشمير وسري لانكا. أيضاً، وبعضه سيتم باسم الدين كما يحدث في عدد كبير من أصقاع العالم الإسلامي. أحياناً قد يقوم العنف على إيديولوجية الثورة الشيوعية كما يحدث في البيرو وغواتيمالا والسلفادور وحديثاً في المكسيك. ولكن في نهاية المطاف، وبدلاً من أن تكون النتيجة ديمقراطية اقتصادية أو سياسية، لا يجلب هذا العنف بين الشباب الغاضب وبين القوى التقليدية التي تساويهم غضباً، بوجه عام إلا تغييراً للحرس، مثلما ظهر وللأسف في عدد من مناطق العالم التي لم تفعل الثورات فيها سوى استبدال الجيوش الاستعمارية بجيوش محلية تحمي أنظمة مستبدة ومستغلة. وما هذا العنف المشترك بين أمراء الحرب في الصومال، والدماء التي تُزهق في الشرق الأوسط، والاعتداءات ضد الأجانب في ألمانيا وعصابات الشوارع المتنازعة في الولايات المتحدة إلا تعبير عن النظرية الذكورية التي تساوي بين الرجولة الحقيقية وبين العنف والهيمنة، وتُلعب هذه اللعبة بطرق وسياقات مختلفة.

ومن المؤكد أن استمرار وجود القوالب الجنسوية المهيمنة والتي تجد دعمها اليوم من خزان ضخم للدعاية الإعلامية الممجدة للعنف، لا يكفي لأن يشكل العامل الوحيد في تحليلنا لأسوأ أحداث العنف التي تقع في العالم اليوم إذا ما استخدمنا معايير النموذجين التشاركي والمهيمن، لأن العنف يستخدم من قِبَل النظام المهيمن، في نهاية المطاف للحفاظ على إبقاء مرتبة الرجل أعلى من المرأة أو الرجل أعلى من الرجل أو أمة أعلى من أمة أخرى.

هناك عامل يتعلق بهذا الأمر وهو تركيز مثل هذا النظام المهيمن على تقنيات التدمير التي أدت في السنين الأخيرة إلى توسع هائل في التسلح مع مواصلة تبديل الأسلحة القديمة بأسلحة أكثر فتكاً. ويظهر هذا الأمر بشكل أساسي في استخدام صدام حسين خلال حرب الخليج لترسانة الأسلحة التي

قدّمتها له الولايات المتحدة إلى حد كبير، حيث قامت الولايات المتحدة خلال هذه الحرب بتجربة بعض أسلحتها الجيدة التي أفادت بعض التقارير بأنها قتلت مئاتِ الآلاف من العراقيين.

والعامل الآخر الذي يسهم في هذا العنف هو انتشار البرامج والدعايات عبر وسائل الإعلام الإلكترونية المتزايدة القوة التي تمجّد طريقة الحياة الاستهلاكية المفرطة مادياً والمدمرة بيئياً عبر الإعلام الإلكتروني الجبار، في الوقت نفسه الذي عملت فيه اقتصاديات الهيمنة في معظم أنحاء العالم على توسيع الهوّة بين الدول الغنية والفقيرة وبين الأغنياء والفقراء في تلك الدول. إن استمرار التحول في العالم الصناعي من التصنيع كأساس في توفير العمالة والوظائف نتيجة تصدير الوظائف إلى مناطق تدفع أجوراً أقل، ونتيجة التغييرات التقنية التي تبدل العمالة الإنسانية بالآلة، دون إيلاء اهتمام كافٍ بما ينتج عن مثل هذا الأمر من مشاكل (خاصة بالنسبة للأعراق ذات الجلد الغامق وبالنسبة للأطفال والنساء من جميع الأعراق) قد أدى إلى أن يصبح الوضع أكثر سوءاً. ولعل الأسوأ من هذا، ما قام به البنك الدولي وغيره من المؤسسات المالية الدولية من فرض سياسات تعديل للبنى في الدول المقترضة، وما رافق ذلك من غياب المساعدة المالية لقطاعات الإنتاج التي تشكل مورداً للرزق، خاصة للنساء العاملات في إفريقيا، وأدى في النهاية إلى جعل الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية أكثر سوءاً.

ولكن في الوقت نفسه الذي جلبت فيه السنوات السبع الأخيرة مزيداً من إراقة الدماء، إضافة إلى المزيد من المشاكل الاقتصادية والبيئية التي تجذرت في سيطرة الأفكار والمؤسسات المهيمنة، كانت هناك تطورات هامة على الجانب التشاركي. وما تشير إليه هذه التطورات هو أن الاندفاع التشاركي سوف يتعاظم على المدى الطويل رغم المقاومة الشديدة التي تبديها عناصر الهيمنة.

وهكذا، فإن التحركات ضد الأنظمة الاستبدادية التي تواصل الحكم عن طريق القوة والخوف آخذة في التزايد على مستوى العالم، بعضها يعبر عن نفسه بالعنف والإرهاب والثورات المسلحة، ولكن الأشكال اللاعنفية منها آخذة في التزايد أيضاً. وقد ظهر هذا بوضوح في التظاهرات الطلابية السلمية التي جرت في ساحة تيانامن في الصين عام 1989 والتي استخدم فيها رمز إلهة الديمقراطية. ورغم أنها تعرضت لقمع شديد، إلا أن هناك أمثلة أخرى أقل إثارة تتمثل في الحركة الديمقراطية في بورما (ميانامار) التي قادتها وألهمتها دو أونغ سان سوكيي الحائزة على جائزة نوبل للسلام عام 1991.

يشكل اشمئزاز الرأي العام العالمي من القمع العنيف علامة أخرى في الاتجاه التشاركي. وكذلك الأمر بالنسبة للجهود الوليدة التي تبذلها الأمم المتحدة لإنشاء مفوضية تُعنى بجرائم الحرب بعد المذابح التي ارتكبت في البوسنة. وإذا ما استطاعت مثل هذه المفوضية أن تبدأ عملها بشكل حقيقي، فإن هذا سيعزز من تنامي التحول ضد الحرب نفسها باعتبارها أداة وحشية وشريرة لحل النزاعات.

وهناك علامة أخرى على التغيرات الهامة في الإدراك تتمثل في زيادة الاهتمام العالمي بانتشار العنف ضد النساء، وهو أمر ظل معرضاً للتجاهل منذ مدة طويلة، ويشمل هذا العنف ضرب الزوجات والاغتصاب والإذلال الجنسي وقتل المواليد الإناث أو تجويعهن. ويعتبر تزايد هذا الإدراك مؤشراً على مقاربة جدية في مواجهة العنف.

وعلى وجه مشابه، تبين من خلال مؤتمر الأمم المتحدة الذي عقد عام 1989 حول حقوق الطفل، وتخصيص الأمم المتحدة لعام 1994 كعام العائلة، أن هناك تزايداً في إدانة ما كان يعتبر في السابق عنفاً مسموحاً به اجتماعياً ضد

الأطفال. وهناك المزيد من الإدراك بأن إساءة معاملة الأطفال والعنف ضدهم يلعبان دوراً رئيسياً في استمرارية المؤسسات الاجتماعية القمعية وغير العادلة.

باختصار، هناك نوع من الإدراك الآخذ في الظهور بأن ما نطلق عليها قطاعات عامة وخاصة هي قطاعات مرتبطة ببعضها البعض بشكل لا مفر منه. ببساطة، فإن معظم الناس في هذا العالم أصبحوا أكثر وعياً بأنه لا يوجد تغيير مستدام بدون تغيير في أسس العلاقات بين النساء والرجال والأهل والأطفال.

ويقودنا موضوع الاستدامة هذا إلى مؤشر آخر حول تغير الوعي وهو نمو الحركة البيئية المساندة للطبيعة بكل تركيزها على مشاركة الطبيعة وليس على قهرها. ولعل من دواعي الأسف أن العديد من هذا الكلام لم يتعدّ مجرد كونه كلاماً، وخاصة بالنسبة للشركات المتعددة الجنسيات التي تستمر في تلويث الهواء والماء رغم مناصرتها العلنية لقضايا البيئة. ومع ذلك، توجد مؤشرات بأن بعض هذا الوعي قد بدأ يؤثر على السياسات الحكومية، ويظهر هذا جلياً في الالتزام الشديد بالسياسات البيئية الصحيحة كالتي عبّر عنها نائب رئيس الولايات المتحدة آل غور في كتابه: «الأرض في الميزان» وفي إدخال الشروط المتعلقة بحماية البيئة في الاتفاقيات والمعاهدات الدولية.

وتحمل بعض التغيرات في الوعي أهمية خاصة، كتلك المتعلقة بالانفجار السكاني في العالم. ومما يؤكد على هذا الأمر، تغير مسار النقاش الدائر منذ عقد المؤتمر الدولي الأول حول السكان، في بوخارست عام 1974 وحتى اليوم، إذ أن هناك تزايداً في إدراك أن أي أمل في استقرار عدد سكان العالم يرتبط بالقضايا النسائية، وهو لا يعني تمكين النساء من الوصول المجاني إلى أدوات التخطيط العائلي فحسب، بل إلى منحهن المساواة في فرص التعليم والوظائف بحيث لا تعود منزلتهن وسلامتهن تعتمدان بشدة على إنجاب الأولاد.

ومن المؤكد أن إدراك مدى مركزية القضايا النسائية بالنسبة لنجاح الخطط السكانية والتطوير الاقتصادي والاجتماعي، قد أخذ يجد طريقه إلى البرامج الدولية. على سبيل المثال، أشار لورنس سمرز، كبير الخبراء الاقتصاديين السابق في البنك الدولي، حديثاً إلى أن أكثر الاستثمارات فعالية في التطوير هي الاستثمارات في تعليم النساء وخاصة لدى تلك الأمم من العالم النامي التي تصل فيها نسبة التعليم بين الرجال والنساء إلى 1:2 .

وهذا الاهتمام بالنصف الأنثوي من البشر، والذي يعني في العديد من المناطق اهتماماً بالأطفال، حيث أن النساء هن اللواتي يرعين الأطفال ويحافظن عليهم، قد بدأ ينعكس في المساعدات المقدمة للتطوير من قبل القطاع الخاص والمنظمات غير الحكومية. على سبيل المثال، قامت مؤسسة كاتليسيس للشراكة في التطوير بين الشمال والجنوب والمتمركزة في كاليفورنيا بعد أن اتخذت مشروع بنك غرامين في بنغلاديش كنموذج لها، بمنح قروض صغيرة إلى النساء القرويات في أميركا الوسطى محققة نتائج واعدة. وعلى الوتيرة نفسها قام الصندوق العالمي للنساء الذي يتخذ من كاليفورنيا مركزاً له بدعم العديد من المشاريع الشعبية النسائية في سائر أنحاء العالم.

كل هذا يعكس توجهاً تشاركياً آخر هو الدخول المتزايد للنساء في مناصب اتخاذ القرار في كل من المؤسسات الحكومية وغير الحكومية (كما يظهر جلياً في سجلات التصويت للنساء المنتخبات لمجلسي الشيوخ والنواب في الولايات المتحدة لعام 1992). وإلى جانب هذا، يتزايد الاهتمام بالأولويات الاجتماعية النسوية كالصحة، والعيش الكريم والتعليم. وتبرز نسبة التمثيل السياسي للنساء كأعلى نسبة في الدول الاسكندنافية. وقد استطاعت النساء تحقيق مكاسب حديثة جيدة في دول غربية أخرى رغم الهجمة المعاكسة التي تجلت في صحوة الردة الذكورية حالياً في الاتحاد السوفياتي وغيره من دول المعسكر الشرقي السابق.

ومع ذلك، فإن هذه الردة نفسها، أخذت تشير إلى انبعاث حركات نسائية في دول الاتحاد السوفياتي السابق ودول أوروبا الشرقية، مع إحراز بعض المرشحات من الجانب النسائي نجاحاً في الانتخابات الروسية التي جرت عام 1993. وفي الولايات المتحدة شكلت النقلة الرئاسية من بوش إلى كلينتون نقطة تحول للحركة النسائية الأميركية التي بدأت الآن تنتقل من المواقع الدفاعية باتجاه مواقع أكثر نشاطاً في تحقيق أهدافها. ولعل العلاقة بين الرئيس كلينتون وزوجته هيلاري رودهام كلينتون تمثل نموذجاً هاماً جداً في هذا الاتجاه. كما أن وزارة كلينتون تضم عدداً غير مسبوق من النساء، وقد أخذت بعض القوانين التي كانت متوقفة في السابق والتي تتعلق بأمور مثل إجازة الأمومة والعنف ضد النساء، وغيرها من الأولويات الاجتماعية النسائية كالرعاية الصحية، تجد طريقها نحو التفعيل.

وتطور هام آخر على هذا الصعيد، هو الاهتمام الذي بدأ يظهر بالتكاليف الإنسانية والاقتصادية لتجارة السلاح الدولية. فقد بدأت تتخذ إجراءات ضد انتشار الأسلحة في الولايات المتحدة بناءً على اقتراح جانيت رينو التي عينها الرئيس كلينتون وزيرة للعدل. وفي الوقت نفسه ضغطت رينو باتجاه تقليص استخدام ألعاب الفيديو وأفلام التلفزيون التي تركز على العنف. والحد من ظهورها على الشاشات في محاولة لمعالجة مسألة تمجيد العنف وتصوير آثار المعاناة التي يسببها كشيء تافه.

وحتى في الشركات التي سارت على نمط نظام الهيمنة التقليدي أو النموذج العسكري المبني على أوامر مشددة من القمة على القاعدة، توجد مؤشرات على التحرك باتجاه التشاركية. ورغم أن هذا الأمر لا يجري في كل مكان إلا أن هناك زيادة في البصيرة حول كون البنى الصارمة التي تنطلق من القمة إلى القاعدة سواء كانت بيروقراطيات اشتراكية مركزية التخطيط أو شركات رأسمالية، هي بنى غير فعالة في عصر التطور التقني السريع والتغيير الاقتصادي. ورغم أن

الأمر لا يتعدى كونه فكرة متأخرة إلا أن حقيقة كون هذه البنى تدميرية للإمكانيات الإنسانية قد وجدت طريقها إلى المناقشة أيضاً.

وتبقى لدينا رؤية ما إذا كان هذا سيؤدي إلى إحداث تغييرات بنيوية حقيقية أو أنه لن يتعدى حدود إصدار الكتب والاستشارات التي تمجد قيم العمل الجماعي والإدارة النسوية الأكثر رعوية في نموذجها. ومع ذلك فهناك بعض الشركات المتعددة الجنسيات والتي تسيطر على جزء رئيسي من الثروات العالمية، قد أخذت تتحدث عن إجراء تغييرات في ثقافتها، وهذا وحده يعد تطوراً ملموساً.

كما تجلت هذه الحقيقة في الحضور السنوي القوي الذي شهده مؤتمر حقوق الإنسان في فيينا عام 1993، وفي تراجع فكرة النسبية الثقافية المتخفية تحت اسم التفكير العصري اللاحق، والتي تستخدم كتبرير لانتهاكات حقوق الإنسان، تراجعاً كبيراً. كما كانت هناك مؤشرات على ظهور إدراك أولي لمدى سخافة فكرة فصل حقوق المرأة والطفل عن حقوق الإنسان.

ينبغي عليّ أن أذكر هنا أنه وعلى العموم لم يكن التحرك نحو التشاركية على معظم هذه الأصعدة المختلفة، يعزى إلى رؤساء الحكومات بل إلى الضغط المتواصل على الحكومات وعلى المنظمات الدولية من قِبَل عدد هائل من الفئات الشعبية غير الحكومية، وهي فئات آخذة بالازدياد بشكل هائل في جميع أنحاء العالم. ومن المؤكد أن هذا التحرك الذي تقوم به القواعد الشعبية باتجاه التشاركية، هو باعتقادي التطور الأكثر أهمية على المدى الطويل في عالمنا اليوم. لأنه هنا وفي هذه القواعد الشعبية تشهد السياسات في مفهومها التقليدي إعادة تعريف من أجل التركيز على عدم التوازنات في القوى ليس على رأس الهرم المهيمن في علاقاته السياسية والاقتصادية المحصورة تقليدياً بين الذكور فحسب، بل في معظم العلاقات الأساسية الموجودة بيننا مثل علاقة الأهل بالطفل وعلاقة

الرجل بالمرأة وهي علاقات ظلت تدرَّس في المجتمعات المهيمنة ضمن سياق أن الانتهاكات التي تقع على حقوق الآخرين هي أمر طبيعي لأن الأمور عادةً تجري على هذا المنوال.

ولكن ها نحن الآن نتحرك إلى داخل موضوع الكتاب الذي انتهيت منه للتو، والذي تغير من «التحرر» إلى «المتعة المقدسة» ، لأنه وخلال السنوات الثماني الأخيرة، ازداد تركيزي على العلاقات الحميمية، وخاصة العلاقات بين الجنس والروحانية والسياسة والاقتصاد، وتجاوزت أبعد من ذلك في تركيزي على كيفية اختلاف البنية الاجتماعية للألم والمتعة في المجتمعات التي تتجه نحو التشاركية بشكل رئيسي عنها في المجتمعات المهيمنة.

أما بالنسبة لكتاب «الكأس المقدسة وحد السكين»، فقد عززت أبحاثه وكتاباته حياتي بشكل كبير، ولم توسع آفاقي الثقافية فحسب بل وسعّت كذلك إحساسي الشخصي بالهدف والمكان، وقد فعلت ذلك بعمق عاطفي وروحاني لم أكن أتوقعه.

على هذا الصعيد الأكثر شخصية، أرغب في إنهاء هذه الخاتمة. فقد كنت محظوظة بشكل مدهش خلال العقدين الزمنيين الماضيين لامتلاكي الفرصة كي أقدم عملاً انخرطت فيه بحرارة شديدة كما كنت محظوظة أيضاً لأني عبر كتاب «الكأس المقدسة وحد السكين»، تشرفت بلقاء بعض أروع الناس الذين قابلتهم في حياتي.

تلقيت رسائل من آلاف النساء والرجال يخبروني بأن كتاب «الكأس المقدسة وحد السكين» قد غيّر حياتهم، وذكر العديد منهم أن الكتاب كان أداة مفيدة في عملهم باتجاه التغيير الاجتماعي والفكري. وفي ردي على بعض هذه الطلبات وعلى تبني كتاب «الكأس المقدسة وحد السكين» من قِبَل أساتذة جامعات ومدرِّسي مدارس ثانوية لتدريسه في صفوفهم، قمت أنا وزوجي

وشريكي ديفيد لوي عالِم النفس الاجتماعي، بتأليف كتاب «الطريقة التشاركية: أدوات جديدة للعيش والتعلم» (إصدار هاربر سان فرنسيسكو) ليكون رفيقاً عملياً لكتاب «الكأس المقدسة وحد السكين».

كذلك وبسبب الردود التي جاءتني من القواعد الشعبية، قمت بإنشاء مركز للدراسات التشاركية، وأعقب هذا إنشاء شبكة مكونة من أكثر من عشرين مركزاً لتعليم التشاركية في الولايات المتحدة إضافة إلى مجموعات ذاتية التنظيم والإدارة والتمويل تعمل على تشجيع تطبيق مبادئ التشاركية في مجتمعاتها. وقد تشكلت في السنتين الأخيرتين مراكز في أماكن مختلفة مثل ألمانيا والفليبين والأرجنتين.

وقد تمت ترجمة كتاب «الكأس المقدسة وحد السكين» إلى اللغات الفرنسية والإسبانية والألمانية والبرتغالية واليونانية والدنمركية والفنلندية واليابانية والروسية والصينية. كما ظهرت نسخة بريطانية تم توزيعها في أستراليا والهند إضافة إلى ترجمة الكتاب حالياً إلى اللغة النرويجية.

في أكتوبر/ تشرين الأول من عام 1992، رأيت حلماً يتحقق. فقد عقد أول مؤتمر دولي للتشاركية في كريت، حضره أكثر من خمسمائة شخص قدموا من أربعين بلداً. وفي أكتوبر/ تشرين الأول عام 1993 شاركت في ترؤس مؤتمر للفت النظر إلى أهمية التركيز على الحقوق الإنسانية للنصف الأنثوي من المجتمع البشري. وقد حضر المؤتمر ما يقارب الألف شخص، قدموا من مناطق عدة في الولايات المتحدة، وتم تنظيم المؤتمر من قِبَل لجنة من المتطوعين، بينهم العديد من الرجال الذين عملوا وفقاً للمبادئ التشاركية. وفي عام 1993 تكونت في بكين مجموعة بحث صينية حول التشاركية بعد إصدار «كتاب الكأس المقدسة وحد السكين» من قِبَل الأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية. وحتى تاريخ اليوم تم

استخدام النموذج التشاركي الذي ورد في «كتاب الكأس المقدسة وحد السكين» من قِبَل خمسين كتاباً آخر من بينهم كتاب «من القوة إلى التشاركية» لألفونسو مونتيوري وإيزابيلا كونتي وهو كتاب مبني على مقابلات مع شخصيات معروفة، وكتاب آخر يدعى «الجنس والموت والشاب الغاضب» وهو كتاب يحتوي على مقابلات معي ومع ديفيد أجراها رائد موسيقى الروك في سان فراسيسكو ماثيو كالاهان.

لقد أمضيت جزءاً كبيراً من وقتي وأنا أسعى لإسداء النصح لطلاب الدكتوراه الذين يبنون مواضيعهم على نظرية التحول الحضاري، وكنت أقضي جزءاً لا بأس به من السنة في السفر لأحاضر في الجامعات والشركات والمؤتمرات حول موضوع البديل التشاركي، مكرّسة نفسي لتعزيز الحركة التشاركية عبر العالم. وفي عام 1993، عندما صدرت نسخة الغلاف الورقي لكتاب «الكأس المقدسة وحد السكين» لمؤسسة غولدمان في ألمانيا بتقدمة من دانييل غودوفيرت الرئيس السابق لمجلس إدارة شركة سيارات فولكس فاجن، سافرت مرتين إلى ألمانيا لأتحدث هناك. وكانت المرة الثانية ذات معنى خاص بالنسبة لي حيث دعيت إلى بون لحفلة قدمتني فيها البروفيسورة ريتا سوسموث رئيسة البوند ستاغ الألماني. ومن المؤكد أن وجود مثل هذه المسؤولة الرفيعة في الحكومة الألمانية لم يكن دليلاً على الاهتمام الشديد بعملي فحسب بل شكّل الترحيب الحار الذي لقيته وزوجي، تجربة شافية لي خاصة أنني كدت أُقتل عندما كنت طفلة عندما كانت تلك الحكومة في أيدي النازيين. وخلال هذه المرحلة نفسها، وبينما كنت أقف أمام جدار برلين السابق، لم أستطع منع نفسي من التفكير في سخرية الوضع، فقد كان البائعون المتجولون الروس يبيعون التذكارات للسواح بما فيها أوسمة الحرب السوفياتية على بوابة براندنبرغ بدلاً من الحراس الشيوعيين المدججين بالسلاح. كذلك الأمر عندما وقفت أمام

الريخستاغ، لم أستطع منع نفسي من التفكير كيف كانت ستختلف حياتي ومسيرة التاريخ الدولي لو وجد هناك في عقدي الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين أشخاص من الرجال والنساء، من أمثال البروفيسورة سوسموث، يمتلكون شجاعة كافية ليقفوا موقفاً قوياً.

في عام 1994، سنحت لي فرصة للتعبير عن امتناني لبلد وقف مثل هذه الوقفة القوية. فقد صدرت في تلك السنة نسخة باللغة الدنمركية من كتاب «الكأس المقدسة وحد السكين»، والدنمارك هي البلد الأوروبي الوحيد الذي انضم أهله إلى المقاومة السلمية لأوامر هتلر حيث رفض شعبه بدءاً من الملك كريستان التعاون مع النازيين في إبادة من تصادف أن وُلدوا مثلي من أبوين يهوديين.

تلك النسخة الدنمركية، التي كتبت فيها خاتمة خاصة تكرِّم شجاعة الدنمركيين، كانت تحمل معنىً خاصاً بالنسبة لي. فقد ذكرتني بأنه إذا وقف عدد كافٍ منا معاً، فإن بإمكاننا إيقاف الردة نحو الهيمنة. وإذا صمدنا في موقفنا، فإن بإمكاننا تفعيل رؤيتنا لإقامة عالم تشاركي.

وفي وقت تركز فيه الأخبار التي تعرضها علينا وسائل الإعلام على الأنباء السيئة وعلى العنف والقمع والتمرد، نجد أنفسنا بحاجة لمثل هذا التذكير حتى لا ننسى أن كلاً منا يمكنه أن يغير في الأمور، والخيار في نهاية المطاف يظل بيد كل واحد منا حول نوع هذا العالم الذي نريد أن نعيش فيه.

اغسطس/ آب 1994


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

ملاحظات

Introduction: The Chalice and the Blade ***(pp.*** **xiii—xxiii)**

1. See, e.g., Fritjof Capra, *The Turning Point: Science, Society, and the Rising Culture* (New York: Simon & Schuster, 1982); Marilyn Ferguson, *The Aquarian Conspiracy: Personal and Social Transformation in the 1980s* (Los Angeles: Tarcher, 1980); George Leonard, *The Transformation: A Guide to the Inevitable Changes in Humankind* (New York: Delta, 1972).
2. The first paper to advance the theory that Minoan civilization was destroyed by earthquakes and tidal waves was Spyridon Marinatos, "The Volcanic Destruction of Minoan Crete," *Antiquity* 13 (1939): 425—39. Since then, it appears more likely that these natural disasters so weakened Crete as to make possible the takeover by Achaean (Mycenaean) overlords, as there is no evidence that this takeover was through a full-scale armed invasion.
3. James Mellaart, *The Neolithic of the Near East* (New York: Scribner, 1975).
4. p. Steven Sangren, "Female Gender in Chinese Religious Symbols: Kuan Yin, Ma Tsu, and the "Eternal Mother,' " *Signs* 9 (Autumn 1983): 6.
5. In connection with the dominator model, an important distinction should be made between domination and actualization hierarchies. The term *domination hierarchies* describes hierarchies based on force or the express or implied threat of force, which are characteristic of the human rank orderings in male-dominant societies. Such hierarchies are very different from the types of hierarchies found in progressions from lower to higher orderings of functioning—such as the progression from cells to organs in living organisms, for example. These types of hierarchies may be characterized by the term *actualization hierarchies* because their function is to maximize the organism's potentials. By contrast, as evidenced by both sociological and psychological studies, human hierarchies based on force or the threat of force not only inhibit personal creativity but also result in social systems in which the lowest (basest) human qualities are reinforced and humanity's higher aspirations (traits such as compassion and empathy as well as the striving for truth and justice) are systematically suppressed.
6. A fascinating analysis of the transformation of Aztec culture toward rigid male dommance, and with it, male violence, is found in June Nash, "The Aztecs and the Ideology of Male Dominance," *Signs* 4 (Winter 1978): 349—62. As noted in the text, some of the most ancient myths of many cultures refer to a more peaceful and just time when women had high status. For example, the Chinese *Tao Te Ching,* as R. B. Blakney notes, refers to a time before the imposition of male dominance (see, e.g., R. B. Blakney, ed. and trans., *The Way of Lifr: Tao Te Ching* [New York: Mentor, 19551). Similarly, Joseph Needham tells of the Taoist doctrine of "regressive evolution" (in other words, cultural regression from an earlier and more civilized time). He also notes that some of the best-known statements of the earlier Taoist period of The Great Togetherness or *Ta Thung* occur in the second century B.C.E. *Hua Nan Tsu* and the later Confucian *Li Chi* (Joseph Needham, "Time and Knowledge in China and the West," in Julius T. Fraser, ed., *The Voices of Time* [New York: Braziller, 1966]).
7. Marija Gimbutas, "The First Wave of Eurasian Steppe Pastoralists into Copper Age Europe," *The Journal of Indo-European Studies* 5 (Winter 1977): 281.

8. For some works on human behavior not being genetically preprogrammed but the product of a complex interaction between biological and social/environmental factors, see, e.g., R. A. Hinde, *Biological Bases of Human Social Behavior* (New York: McGraw-Hill, 1974); Ruth Hubbard and Marian Lowe, eds., *Genes and Gender II* (New York:
   Gordian Press, 1979); Helen Lambert, "Biology and Equality: A Perspective on Sex Differences," *Signs* 4 (Autumn 1978): 97—117; Riane Eisler and Vilmos Csanyi, "Human Biology and Social Structure" (work in progress); Ethel Tobach and Betty Rosoff, eds., *Genes and Gender: I* (New York: Gordian Press, 1978); Ruth Bleier, *Science and Gender* (Elmsford, NY: Pergamon Press, 1984); Ashton Barfield, "Biological Influences on Sex Differences in Behavior," in M. Teitelbaum, ed., *Sex Differences: Social and Biological Perspectives* (New York: Doubleday Anchor, 1976); Linda Marie Fedigan, *Primate Paradigms: Sex Roles and Social Bonds* (Montreal: Eden Press, 1982); R. C. Lewontin, Steven Rose, and Leon Kamin, *Not in Our Genes* (New York: Pantheon, 1984). An excellent overview of aggressive behavior (and a very effective refutation of the current sociobiological revival of nineteenth-century social Darwinism) may be found in Ashley Montagu, *The Nature of Human Aggression* (New York: Oxford University Press, 1976).
   Even the question of instincts in animals is not as clear-cut as was once believed. For instance, new research indicates that even in birds learning or experience must take place if a capacity is to become an ability. See, e.g., Gilbert Gottlieb, *Development of Species Identification in Birds: An Inquiry into the Determinants of Prenatal Perception* (Chicago: University of Chicago Press, 1971); Daniel Lehrman, "A Critique of Konrad Lorenz's Theory of Instinctive Behavior,"Quarterly *Review of Biology* 28 (1953): 337—63; John Crook, ed., *Social Behavior in Birds and Mammals* (New York: Academic Press, 1970); Peter Klopfer, *On Behavior: Instinct Is a Cheshire Cat* (Philadelphia: Lippincott, 1973).
9. These systems configurations are examined in detail in a second book (Riane Eisler and David Loye, *Breaking Free,* work in progress). See also Riane Eisler and David Loye, "Peace and Feminist Thought: New Directions," in *The World Encyclopedia of Peace* (London: Pergamon Press, 1986); Riane Eisler, "Violence and Male Dominance:
   The Ticking Time Bomb," *Humanities in Society* 7 (Winter-Spring 1984): 3—18; Riane Eisler and David Loye, "The Failure of Liberalism: A Reassessment of Ideology from a New Feminine-Masculine Perspective," *Political Psychology* 4 (1983): 375-91.
10. See note 9. For more detailed anthropological data, see, e.g., Cohn Turnbull, *The Forest People: A Study of the Pygmies of the Congo* (New York: Simon & Schuster, 1961); Pat Draper, "!Kung Women: Contrasts in Sexual Egalitarianism in Foraging and Sedentary Contexts," in *Toward an Anthropology of Women,* Raya Reiter, ed. (New York:
    Monthly Review Press, 1975). See also Richard Leakey and Roger Lewin, *People of the Lake* (New York: Doubleday Anchor, 1978). Please also note that in this book *equalitarian* is used instead of the more conventional *egalitarian.* The reason is that egalitarian has traditionally only described equality between men and men (as the works of Locke, Rousseau, and other "rights of man" philosophers, as well as modern history, evidence). Equalitanan describes social relations in a partnership society where women and men (and "masculine" and "feminine") are accorded equal value. This is why this usage is increasing among feminists.
11. See Riane Eisler, "The Blade and the Chalice: Technology at the Turning Point," paper presented at the General Assembly, World Futures Society, Washington, D.C., 1984; Riane Eisler, "Cultural Evolution: Social Shifts and Phase Changes," in Ervin Laszlo, ed., *The New Evolutionary Paradigm* (Boston: New Science Library, 1987); Riane Eisler, "Women, Men, and the Evolution of Social Structure," *World Futures* 23 (Spring 1987).
12. See, e.g., Alfred Marrow, *The Practical Theorist* (New York: Basic Books, 1969); Chris Argyris, *Action Science* (San Francisco: Jossey-Bass, 1985).

13. This approach to cultural evolution is based on the assumption, articulated in the nineteenth century by men such as Auguste Comte and Lewis Henry Morgan, that society must pass through a fixed and limited number of stages in a given sequence.
    For Morgan these stages were savagery, barbarism, and civilization, and this was the evolutionary progression later also adopted by Marx and Engels (see, e.g., Frederick Engels, *The Origins of the Family, Private Property, and the State* [New York: International Publishers, 1972]). Herbert Spencer saw a social progression from small groups to large, from the homogeneous to the heterogeneous *(The Study of Sociology* [New York: Appleton, 1873], 471). See also Emile Durkheim, *The Division of Labor in Society* (Glencoe, IL: The Free Press, 1933), for an influential work that posited a two-stage social evolution progressing from the small and less specialized society to the larger and more specialized one in a scheme roughly paralleling the stages of *Gemeinschaft* (community) and *Gesellschaft* (corporate) types of societies earlier proposed by the German sociologist Ferdinand Tonnies. An interesting variation of this approach are the so-called cyclical theories of social evolution, such as Pitirim Sorokin's theory of the "ideational," "sensate," and "idealistic" phases of culture. In these theories, the stages may happen repeatedly, but each cycle invariably follows the earlier one in a given sequence (Pitirim Sorokin, *Social and Cultural Dynamics* [Boston: Sargent, 1957]).
14. Probably the best-known modern work based on technological stages of evolution is Alvin Toffler's *The Third Wave* (New York: Bantam, 1980). A number of anthropologists, such as Leslie White and William Ogburn, also base their theories of social evolution on technological stages, although they do not argue that each society necessarily goes through all of them (see, e.g., Leslie White, *The Science of Culture* [New York: Farrar, Strauss, 1949]; William Ogburn, *Social Change with Respect to Culture and Original Nature* [New York: Viking, 1950]). For a good recent work on technological evolution, see Bela Banathy, "Systems Inquiring and the Science of Complexity: Conceptual Bases" (ISI Monograph 84—2, Far West Laboratory, San Francisco, 1984).
15. These regressions lasted many hundreds of years. The Greek Dark Age spanned over three hundred years, from ca. 1100 to 800 B.C.E. and the Middle Ages in Europe lasted for almost a whole millennium.
16. See, e.g., Ilya Prigogine and Isabel Stengers, *Order Out of Chaos* (New York: Bantam, 1984); Ralph Abraham and Christopher Shaw, *Dynamics: The Geometry of Behavior* (Santa Crux, CA: Aerial Press, 1984); Humberto Maturana and Francisco Varela, *Autopoeisis and Cognition: The Realization of the Living* (Boston: Reidel, 1980).
17. Fntjof Capra, *The Tao of Physics* (Boston: Shambhala New Science Library, 1975); *The Turning Point* (see n. 1).
18. Niles Eldredge and Stephen J. Gould, "Punctuated Equilibria: An Alternative to Phyletic Gradualism," in *Models of Paleobiology,* T. J. Schropf, ed. (San Francisco: Freeman, Cooper, 1972); Vilmos Csanyi, *General Theory of Evolution,* (Budapest: Akademiai Kiado, 1982); Ervin Laszlo, *Evolution: The Grand Synthesis* (Boston: New Science Library, 1987); Erich Jantsch, *The Self-Organizing Universe* (New York: Pergamon Press, 1980); David Loye and Riane Eisler, "Chaos and Transformation: Implications of Non-equilibrium Theory for Social Science and Society," *Behavioral Science* 32 (1987), 53—65.
19. These correspondences in findings across fields are in keeping with the earlier conclusions of general systems theorists, for instance, Ludwig von Bertahanffy, in *General Systems Theory* (New York: Brazihler, 1968), and Ervin Laszlo, in *Introduction to Systems Philosophy* (New York: Gordon & Breach, 1972).
20. Niles Eldredge, *Time Frames* (New York: Simon & Schuster, 1985); Eldredge and Gould, "Punctuated Equilibria."

21. See, e.g., Jessie Bernard, *The Female World* (New York: Free Press, 1981); Ester Bose-cup, *Woman's Role in Economic Development* (London: Allen & Unwin, 1970); Dale Spender, *Feminist Theorists: Three Centuries of Key Women Thinkers* (New York: Pantheon, 1983); Gita Sen with Caren Grown, *Development, Crisis, and Alternative Visions: Third World Women's Perspectives* (New Delhi: Dawn, 1985); Mary Daly, *Gyn/Ecology: The Metaethics of Radical Feminism* (Boston: Beacon Press, 1978); Carol Gilligan, *In a Different Voice* (Cambridge: Harvard University Press, 1982); Catherine MacKinnon, "Feminism, Marxism, Method, and the State: An Agenda for Theory," *Signs 7:* 517— 4-4; Wilma Scott Heide, *Feminism for the Health of It* (Buffalo: Margaretdaughters Press, 1985); Jean Baker Miller, *Toward a New Psychology of Women* (Boston: Beacon, 1976); Carol Christ and Judith Plaskow, *Womanspirit Rising: A Feminist Reader in Religion* (San Francisco: Harper & Row, 1979); Charlene Spretnak, ed., *The Politics of Women's Spirituality* (New York: Doubleday Anchor, 1982). I have tried in the course of this book to give recognition to many important feminist scholars. However, it is such a burgeoning list that many have of necessity not been mentioned.
22. Spender, *Feminist Theorists.* Feminism as a modern phenomenon dates to the eighteenth century. But there are much earlier instances of women scholars questioning the established knowledge of their time, for example, Christine de Pisan, who between 1390 and 1429 wrote twenty-eight books, some of them, like her *Cite des dames (Book of the City of Ladies)* questioning the misogynism of the scholarly men of her day.

CHAPTER 1: Journey into a Lost World (pp. 1—15)

1. Edwin Oliver James, *Prehistoric Religion* (New York: Barnes & Noble, 1957), 146. James was one of the earlier religious historians to criticize this view. For a more recent and excellent critique of the astonishing blindness of many scholars to the mythic significance of the Paleolithic female imagery, see Marija Gimbutas, "The Image of Woman in Prehistoric Art," *The Quarterly Review of Archaeology,* December 1981, 6—9. It should be noted that to avoid unnecessary complexity the terms *Paleolithic* and *Upper Paleolithic* are sometimes used interchangeably. This practice has been followed here, although most of the discussion pertains to the Upper Paleolithic: the period from ca. 30,000 to 10,000 B.C.E. It is to this period that most of the extraordinary cave paintings of animals and the carved statues and reliefs of figures described in the text date. The Paleolithic, or Stone Age, probably goes back to ca. 65,000 B.C.E., but very little is known about the earlier part of this era.
2. Edwin Oliver James, *The Cult of the Mother Goddess* (London: Thames & Hudson,1959), 19.
3. Ibid., p. 16; James, *Prehistoric Religion,* 148.
4. James, *Cult of the Mother Goddess,* 16.
5. See note 10, Introduction.
6. See, e.g., Elizabeth Fisher, *Woman's Creation* (New York: McGraw-Hill, 1979), 140.
7. John Pfeiffer, *The Emergence of Man* (New York: Harper & Row, 1972), pp. 251—65. For a new model of human evolution that seems more consistent with the best available data, see Nancy Tanner, *On Becoming Human* (Boston: Cambridge University Press, 1981). Similar models characterize the work of Adrienne Zihlman, Jane Lancaster, and other feminist scholars, whose new scholarship is no longer constrained by the evolutionary model of "man the hunter." See, e.g., Adrienne Zihlman, "Women in Evolution, Part II: Subsistence and Social Organization among Early Hominids," *Signs* 4 (Autumn 1978): 4—20; Jane Lancaster, "Carrying and Sharing in Human Evolution," *Human Nature* 1 (February 1978): 82—89. See also chapter 5.

8. Gimbutas, "Image of Woman."
9. See, e.g., Gertrude Rachel Levy, *Religious Conceptions of the Stone Age* (New York: Harper & Row, 1963), first published as *The Gate of the Horn* (London: Faber & Faber, 1948). Levy notes that the cave itself was probably a symbol of the womb of the Goddess (the Creatrix, the Mother, the Earth), and that the rituals performed there were manifestations of the wish to partake in—and also influence—her creative acts. These would include giving birth to the animals that came out of her womb (which provided sustenance for the people of the Paleohithic). Thus animals would often be depicted on the cave walls.
   Another, more recent, female scholar is Z. A. Abramova, who published the official anthology of Upper PaLeohithic engraving and sculpture in the territory of the USSR. Like the Soviet archaeologist A. P. Okladnikov, Abramova believes that "the two different aspects of the woman's image during the Paleolithic . . . do not contradict, but rather complement each other." She was depicted as "mistress of the home and hearth, protectress of the domestic fire... and woman as... the sovereign mistress of animals and especially of game animals" \Z. A. Abramova, "Paleohithic Art in the USSR," *Arctic Anthropology* 4 (1967): 1—179, ed. Chester S. Chard and trans. Catharine Page, quoted in Alexander Marshack, *The Roots of Civilization* [New York: McGraw-Hill, 1967], 338—39.
   A forthcoming book, Elinor Gadon, *The Once and Future Goddess: A Symbol for Our Time* (San Francisco: Harper & Row, 1988), provides cross-cultural evidence for the centrality of the Goddess in human intuitions of the sacred and in ritual practice since remote antiquity.
10. Marshack, *Roots of Civilization,* 219.
11. Peter Ucko and Andrée Rosenfeld, *Paleolithic Art* (New York: McGraw-Hill, 1%7), 100, 174-95, 229.
12. Marshack, *Roots of Civilization,* 173, 219. Marshack also recognizes the importance of female figurines in Paleolithic art. Indeed, his *Roots of Civilization* is a ground-breaking and fascinating attempt to explore new models for the interpretation of Paleolithic art. His highly original analysis of Paleolithic time-sequenced notations provides an impressive data base for the exploration of time-sequenced stories involving cyclic phenomena (such as women's menstruation and the seasons and lunar and solar cycles) that, like women's nine-month pregnancy, our ancestors obviously observed and tried to explain (and probably also control) through seasonal and calendric myths and rites.
13. André Leroi-Gourhan, *Prehistoire de l'Art Occidental* (Paris: Edition D'Art Lucien Mazenod, 1971), 120.
14. Ibid. For a brief summary of his findings, see André Leroi-Gourhan, "The Evolution of Paleolithic Art," *Scientific American,* February 1968, 61.
15. James, *Prehistoric Religion,* 147—49. For a more recent and comprehensive analysis of this religious evolution and the culture it reflected, see Marija Gimbutas, *Evolution of Old Europe and Its Indo-Europeanization: The Prehistory of East Central Europe* (unpublished manuscript).
   As used in this book, the term *Goddess* refers to the ancient conceptualization of the powers governing the universe in female form. Hence, Goddess and terms such as Great Mother and Creatrix are capitalized.
16. James Mellaart, *Catal Huyuk* (New York: McGraw-Hill, 1967), 24.
17. Ibid., 23. Terms like "backward societies" to describe Australian aborigines and "fertility cults" to describe Goddess-centered religion are unfortunately ubiquitous in the literature and reflect cultural biases that demean and devalue tribal people and women.
18. Ibid., 23-24.
19. Merlin Stone, *When God Was a Woman* (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1976), 15.

20. James Mellaart, *The Neolithic of the Near East* (New York: Scribner, 1975), 152, 52, 53.
21. James, *Prehistoric Religion,* 157.
22. Ibid., 70—71; James, *Cult of the Mother Goddess.*
23. Mellaart, *Catal Huyuk,* 11.
24. Mellaart, *Neolithic of the Near East,* 275.
25. Ibid., 10.
26. Marija Gimbutas, *The Goddesses and Gods of Old Europe, 7000-3500 B.C.* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1982), 17. In its broader sense "Old Europe" covers all Europe west of the Pontic steppe before the incursions of the steppe (or Kurgan) pastoralists. See Marija Gimbutas, *The Language of the Goddess: Images and Symbols of Old Europe* (New York: Van der Marck, 1987). In a narrower sense, "Old Europe" applies to Europe's first civilization, which was focused in southeastern Europe. (See map in illustrations.)
27. Ibid., 18.
28. Ibid., 17.
29. Marija Gimbutas, *The Early Civilization of Europe* (Monograph for Indo-European Studies 131, University of California at Los Angeles, 1980), chap. 2, 17.
30. Mellaart, *Catal Huyuk,* 53.
31. Gimbutas, *Early Civilization of Europe,* chap. 2, 32—33.
32. Ibid., chap. 2, 33-34.
33. Ibid., chap. 2, 35-36.
34. Gimbutas, *Goddesses and Gods of Old Europe,* 11—12.

CHAPTER 2: Messages from the Past (pp. 16—28)

1. Marija Gimbutas, *Goddesses and Gods of Old Europe, 7000—3500 B.C.* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1982), 37—38.
2. See illustrations in James Mellaart, *Catal Huyuk* (New York: McGraw-Hill, 1967); Gimbutas, *Goddesses and Gods of Old Europe.*
3. *Goddesses and Gods of Old Europe,* plate 17 and text figure 148.
4. Nicolas Platon, *Crete* (Geneva: Nagel Publishers, 1966), 148.
5. For examples, see illustrations in Erich Neumann, *The Great Mother* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1955); Mellaart, *Catal Huyuk;* Gimbutas, *Goddesses and Gods of Old Europe.*
6. Gimbutas, *Goddesses and Gods of Old Europe,* examples (in order) from plates 58, 59, 105-7, 140, 144; plate 53, text figures 50—58 on pp. 95-103; 114, 181, 173, 108, 136.
7. Ibid., 66; plates 132, 341, 24, 25; pp. 101—7.
8. Mellaart, *Catal Huyuk,* 77—203.
9. In Gimbutas, *Goddesses and Gods of Old Europe,* see, e.g., plates 179—81 for bee Goddess, plates 183—85 for Goddess with animal mask, p. 146 for Minoan snake Goddess with a bird's beak.
10. The absence of these images is also striking in the art of Minoan Crete. See, e.g., Jacquetta Hawkes, *Dawn of the Gods: Minoan and Mycenaean Origins of Greece* (New York: Random House, 1968), 75-76. The double ax of the Minoan Goddess is reminiscent of the hoe axes used to clear farmland and was, according to Gimbutas, also a symbol of the butterfly, part of the Goddess's epiphany. As Gimbutas notes, the image of the Goddess as a butterfly continued to be engraved on double axes (Gimbutas, *Goddesses and Gods of Old Europe,* 78, 186).
11. Joseph Campbell, "Classical Mysteries of the Goddess" (workshop at Esalen Institute,

California, May 11—13, 1979). The cultural historian Elinor Gadon also stresses this aspect of the prehistoric worship of the Goddess but takes it one important step further. Gadon writes that the reemergence of the Goddess in our time is a key to "the radical pluralism so urgently needed to counteract the prevailing ethnocentrism and cultural imperialism" (prospectus for Elinor Gadon, *The Once and Future Goddess: A Symbol for Our Time* [San Francisco: Harper & Row, 1988]; and private communications with Gadon, 1986).

12. Ibid.
13. See, e.g., Joseph Campbell, *The Mythic Image* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1974), 157, 77.
14. Gimbutas, *Goddesses and Gods of Old Europe,* 112—50, 112, 145; figs. 87, 88, 105, 106, 107; p. 149.
15. Mellaart, *Neolithic of the Near East* (New York: Scribner, 1975), 279.
16. Gimbutas, *Goddesses and Gods of Old Europe,* 238.
17. Mellaart, *Catal Huyuk.* See, e.g., 108-9.
18. Ibid., 113.
19. See, e.g., Neumann, *The Great Mother.*
20. Mellaart, *Catal Huyuk, 77.*
21. Gimbutas, *Goddesses and Gods of Old Europe,* 80.
22. See, e.g., Jane Harrison, *Prolegomena to the Study of Greek Religion* (London: Merlin Press, 1903, 1962), 260—63.
23. Mellaart, *Catal Huyuk,* 225.
24. Mellaart, *Neolithic of the Near East,* 100; Mellaart, *Catal Huyuk,* chap. 6.
25. Mellaart, *Catal Huyuk,* chap. 9.
26. Ibid., 201.
27. Harrison, *Prolegomena to the Study of Greek Religion,* 262.
28. Mellaart, *Catal Huyuk,* 60.
29. Ibid., 202, 208.
30. Gimbutas, *Goddess and Gods of Old Europe,* 232, fig. 248. See also figs. 84—91 in Mellaart, *Catal Huyuk,* for examples of male figurines.
31. Gimbutas, *Goddesses and Gods of Old Europe,* 217, where Gimbutas notes that seventh and sixth millennium B.C.E. Goddess figurines often had long, cylindrical necks reminiscent of a phallus, that there were also phallic representations in the form of simple clay cylinders that sometimes had female breasts, and that the combining of female and male characteristics in one figure did not completely die out after the sixth millennium B.C.E.
32. Edwin Oliver James, *The Cult of the Mother Goddess* (London: Thames & Hudson, 1959), 87.
33. Mellaart, *Catal Huyuk,* 184.
34. Gimbutas, *Goddesses and Gods of Old Europe,* 237.
35. See, e.g., "the caveat that such a social order need not imply the domination of one sex, which the term 'matriarchy' would by its semantic analogue to patriarchy infer," in Kate Millett, *Sexual Politics* (New York: Doubleday, 1970), 28, n. 9; or Adrienne Rich's comment that "the terms 'matriarchy,' 'mother-right,' or 'gynocracy' tend to be used imprecisely, often interchangeably," in *Of Woman Born* (New York: Bantam, 1976), 42—43. Rich also notes that "Robert Briffault goes to some pains to show that matriarchy in primitive societies was not simply patriarchy with a different sex in authority" (p. 43). For a discussion of how the term *gylany* avoids this semantic confusion, see chapter 8.
36. Abraham Maslow, *Toward a Psychology of Being,* 2d ed. (New York: Van Nostrand-Reinhold, 1968).
37. Mellaart, *Catal Huyuk,* 184.
38. This distinction will be discussed at length in Riane Eisler and David Loye, *Breaking Free*

(forthcoming). It is a distinction that is central to the new feminist ethic now being developed by many thinkers. See, e.g., Jean Baker Miller, *Toward a New Psychology of Women* (Boston: Beacon, 1976); Carol Gilligan, *In a Different Voice* (Cambridge: Harvard University Press, 1982); Wilma Scott Heide, *Feminism for the Health of It* (Buffalo: Margaretdaughters Press, 1985). Of particular interest in this context is Anne Barstow, "The Uses of Archaeology for Women's History: James Mellaart's Work on the Neolithic Goddess at Catal Huyuk," *Feminist Studies* 4 (October 1978): 7—18, who independently arrived at a similar conclusion about the way power was probably conceptualized in the societies that worshiped the Goddess (see p. 9).

CHAPTER 3: The Essential Difference: Crete (pp. 29—41)

1. Walter Emery, quoted in Merlin Stone, *When God Was a Woman* (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1976), xxii.
2. Ibid. The androcentric bias Stone noted in archaeology has its counterpart in most other fields. But it is important to note that there are also male scholars who have made important contributions to knowledge about women and so-called women's issues. A notable contemporary example is Ashley Montagu, who in *The Natural Superiority of Women* (New York: Macmillan, 1968) and other works dispels many popular misogynist misconceptions about the female half of humanity and "the inevitability of patriarchy." Another is Fritjof Capra, who in *The Turning Point: Science, Society and the Rising Culture* (New York: Simon & Schuster, 1982) and other works recognizes the centrality of feminism to the movement for a more peaceful and humane future.
3. Nicolas Platon, *Crete* (Geneva: Nagel Publishers, 1966), 15.
4. Ibid., 16, 25.
5. Ibid., 26-47.
6. Jacquetta Hawkes, *Dawn of the Gods: Minoan and Mycenaean Origins of Greece* (New York: Random House, 1968), 153.
7. Ibid., 109.
8. Platon, *Crete,* 148, 143.
9. Hawkes, *Dawn of the Gods,* 45, 73; Platon, *Crete,* 148, 161.
10. Hans Gunther Buchholtz and Vassos Karageorghis, *Prehistoric Greece and Cyprus: An Archaeological Handbook* (London: Phaidon, 1973), 20; Platon, *Crete,* 148. See also Hawkes, *Dawn of the Gods,* 186.
11. Woolley, quoted in Hawkes, *Dawn of the Gods,* 73.
12. Ibid., 73-74.
13. Platon, *Crete,* 178.
14. Ibid., 147, 163.
15. Ibid., 148, 161—62.
16. Ibid., 161, 165.
17. Hawkes, *Dawn of the Gods,* 90.
18. Ibid., 58.
19. Ibid., 50; Platon, *Crete,* 181.
20. Platon, *Crete,* 179.
21. Ibid., 181—82.
22. Reynold Higgins, *An Archaeology of Minoan Crete* (London: The Bodley Head, 1973), 21.
23. Hawkes, *Dawn of the Gods,* 124, 125.
24. As is still the practice for most world religions, these Minoan rites were often in the form of ritpal offerings, such as flowers, fruit, wine, or grains. By contrast with later Mesopotamian

-and Egyptian finds of massive and seemingly routine human sacrifices (e.g., the interment with a pharaoh of retinues of courtiers and slaves), the only find of a Cretan ritual sacrifice (excavated in a shrine at the foot of a mountain called the birthplace of Zeus) seems to have represented, in Joseph Alsop's words, "a desperate measure to stave off what must have looked Like the end of the world." Indeed, for the protagonists of the drama recently unearthed by archaeologists, it was. The temblors of a massive earthquake brought down the roof (interrupting what seems to have been a priest stabbing a young man) and killing them both (Joseph Alsop, "A Historical Perspective," *National Geographic* 159 [February 1981]: 223-24). See also note 67, chap. 5.

25. Platon, *Crete*, 148.
26. Hawkes, *Dawn of the Gods*, 75—76
27. Ibid., 75-76. Platon also stresses that the change from Minoan to Mycenaean times was a shift from a "love of life" to a mounting concern with death, and that the Mycenaeans were responsible for the "newly introduced worship of heroes" (Platon, *Crete*, 68).
28. Ruby Rohrlich-Leavitt, "Women in Transition: Crete and Sumer," in *Becoming Visible*, Renate Bridenthal and Claudia Koonz, eds. (Boston: Houghton Mifflin, 1977), 49, 46.
29. Platon, *Crete*, 167, 147, 178.
30. Rohrlich-Leavitt, "Women in Transition," 49.
31. In fact, Rohrlich-Leavitt argues that the status of women became even higher than it had been during the Neolithic (ibid., 42).
32. See, e.g., William Masters and Virginia Johnson, *The Pleasure Bond: A New Look at Sexuality and Commitment* (Boston: Little, Brown, 1975).
33. Hawkes, *Dawn of the Gods*, 156.
34. Arnold Hauser, quoted in ibid., 73. Or as Platon writes, "a fine artistic sense, a delight in beauty, grace and movement, enjoyment of Life and closeness to nature, these were the qualities that distinguish the Minoans from all the other great civilizations of their time" *(Crete*, 143).
35. Charles Darwin, *The Descent of Man*, one-volume ed. (New York: Appleton, 1879), 168. The footnote is to J. C. Nott and George R. GLiddon, *Types of Mankind* (Philadelphia: Lippincott, Grambo, 1854).
36. This tendency persisted among Egyptologists until the U.S. civil rights movement of the 1960s forced a change of scholarly perception. See, e.g., John Hope Franklin, *From Slavery to Freedom* (New York: Knopf, 1967), or David Loye, *The Healing of a Nation* (New York: Norton, 1971), for information on the black leadership strain in ancient Egypt.
37. Arthur Evans, quoted in Higgins, *An Archaeology of Minoan Crete*, 40.
38. Buchholtz and Karageorghis, *Prehistoric Greece and Cyprus*, 22.
39. Platon, *Crete*, 161, 177.

CHAPTER 4: Dark Order Out of Chaos (pp. 42—58)

1. James Mellaart, *Catal Huyuk* (New York: McGraw-Hill, 1967), 67.
2. Ibid., 225: "The population of Catal Huyuk appears to have been of two different races."
3. Thus, in sharp contrast to the later priestly quarters around monumental temples, in Catal Huyuk the shrines (where the priestesses and priests also lived) were interspersed among the people's dwellings and, although sometimes larger, of the same plan as other living quarters (ibid., chap. 6). Similarly, in Crete there are no monumental temples to harsh and punitive gods of thunder and war administered by a male priesthood in the service of all-powerful male rulers.
4. A later book will explore this question, as well as various theories on the beginnings of male

dominance.

5. James Mellaart, *The Neolithic of the Middle East,* 280.
6. Ibid., 275—76.
7. Marija Gimbutas, "The First Wave of Eurasian Steppe Pastoralists into Copper Age Europe," *Journal of Indo-European Studies* 5 (Winter 1977): *277.* Dates for Kurgan Wave One revised in accordance with private communication with Gimbutas in 1986.
8. Modern scholarship no longer uses the term *Indo-European* as racial identity. IndoEuropean refers to a group of languages with common roots that are found from the British Isles to the Bay of Bengal. The more recent field research of physical anthropologists demonstrates that the so-called Indo-Europeans were of different racial stocks. The original use of the term by western European scholars in the late eighteenth and nineteenth centuries to refer to both race and language was part of a commonly held ideology that sought to classify the world by race, placing great value on racial purity, which they saw affirmed by the Hindu caste system. See Louis Fisher, *The Life of Mahatma Gandhi* (New York: Harper & Brothers, 1950), 138—41, for an interesting discussion of the earlier culture.
9. See, e.g., James Mellaart, *The Chalcolithic and Early Bronze Ages in the Near East and Anatolia* (Beirut: Khayats, 1966).
10. See, e.g., Cyrus Gordon, *Common Background of Greek and Hebrew Civilization* (New York: Norton, 1965); Merlin Stone, *When God was a Woman* (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1976).
11. Frederick Engels, *The Origins of the Family, Private Property, and the State* (New York: International Publishers, 1972).
12. The film *2001* and Robert Ardrey, *African Genesis* (New York: Atheneum, 1961), are examples of popular works that present the dawn of human consciousness as the discovery of how to use tools to kill. For a very different view, see, e.g., Richard Leakey and Roger Lewin, *People of the Lake* (New York: Doubleday Anchor, 1978), largely based on the Leakey family's famous discoveries and careful analysis of our earliest ancestor's fossil remains in the African Rift Valley.
13. See Marija Gimbutas, "The Beginning of the Bronze Age in Europe and the IndoEuropeans: 3500-2500 s.c.," *Journal of Indo-European Studies* 1 (1973): 166.
14. Ibid., 168.
15. Engels, *Origins of the Family.*
16. Gimbutas, "Beginning of the Bronze Age," 174-75.
17. Ibid. See also Gimbutas, "First Wave of Eurasian Steppe Pastoralists."
18. Gimbutas, "Beginning of the Bronze Age," 166.
19. Relative rapidity in evolutionary time may seem a long time when measured by our customary standards. However, the main point is that change is not necessarily gradual, nor is it necessarily a unidirectional movement from lower to higher stages.
20. See, e.g., Gimbutas, "First Wave of Eurasian Steppe Pastoralists," 281.
21. Ibid.
22. Gimbutas, "Beginning of the Bronze Age," 201.
23. Ibid., 202.
24. Ibid., 202—3.
25. Gimbutas, "First Wave of Eurasian Steppe Pastoralists," 297.
26. Ibid., 302.
27. Ibid., 294, 302.
28. Ibid., 302, 293, 285.
29. Ibid., 304—05.
30. Ibid., 284-85.

31. Ibid., 297.
32. Ibid., 281.
33. Ibid., 285. Gimbutas, "Beginning of the Bronze Age," 177.
34. V. Gordon Childe, *The Dawn of European Civilization,"* sixth edition (New York: Alfred Knopf, 1958), 109.
35. Ibid., 119.
36. Ibid., 119, 123.
37. Gimbutas, "First Wave of Eurasian Steppe Pastoralists," 289.
38. Ibid., 288, 290.
39. Ibid., 292.
40. Ibid., 294.
41. Jacquetta Hawkes, *Dawn of the Gods: Minoan and Mycenaean Origins of Greece* (New York: Random House, 1968), 186.
42. See, e.g., Nicolas Platon, *Crete* (Geneva: Nagel Publishers, 1966), 198-203, for a discussion of some of the scholarly controversy about how Minoan civilization came to an end, as well as about the general decline in cultural and artistic levels during the Mycenaean phase.
43. Hawkes, *Dawn of the Gods,* 233.
44. Ibid., 235.
45. Ibid., 236.
46. Ibid., 241.
47. Ibid.
48. Platon, *Crete,* 202.
49. Homer, *The Odyssey.*
50. Clearly, movement toward greater technological and social complexity is not the same as movement toward a technology and society that will enhance the human condition. A second book, Riane Eisler and David Loye, *Breaking Free,* will examine the relationship between social, technological, and cultural evolution in detail.
51. The Dartmouth Bible, annotated by Roy Chamberlain and Herman Feldman, with the counsel of an advisory board of biblical scholars (Boston: Houghton Mifflixi, 1950), 78-79.
52. Judges 3:2; Joshua 23:13; Exodus 23:29. See also the commentary by biblical scholars in The Dartmouth Bible, 187—88.

CHAPTER 5: Memories of a Lost Age (pp. 59-77)

1. Hesiod, *Works and Days,* quoted in John MansLey Robinson, *An Introduction to Early Greek Philosophy* (Boston: Houghton Mifflin, 1968), 12—13.
2. Ibid., 13-14.
3. Ibid., 14.
4. Ibid., 15.
5. Ibid., 16.
6. Ibid., 15-16.
7. J. V. Luce, *The End of Atlantis* (London: Thames & Hudson, 1968), 137, 20.
8. Nicolas Platon, *Crete* (Geneva: Nagel Publishers, 1966), 69. Platon stresses that to explain the "Greek miracle" we must look to pre-Hellenic tradition. Another scholar who makes this point is Jacquetta Hawkes *(Dawn of the Gods: Minoan and Mycenaean Origins of Greece* lNew York: Random House, 1968]).
9. See, e.g., Spyridon Marinatos, "The Volcanic Destruction of Minoan Crete," *Antiquity* 13 (1939): 425-39, one of the earliest scientific papers on this subject, as well as Luce, *End of Atlantis,* for a good, and more recent, overview.

10. Luce, *End of Atlantis,* 158. For some of the conflicting views about just how, when and why Cretan civilization came to an end, see, e.g., Arthur Evans, *The Palace of Minos,* vols. 1—4 (London: Macmillan, 1921—35); Leonard Palmer, *Mycenaeans and Mi-noons* (London: Faber & Faber, 1961); Platon, *Crete.*
11. Marinatos, "Volcanic Destruction of Minoan Crete"; Luce, *End of Atlantis;* Platon, *Crete,* p. 69.
12. Merlin Stone, *When God was a Woman* (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1976), 82. In the introduction, Stone recounts that, in traveling from museum to museum and from library to library, gathering her material about early female deities, many of her sources were only to be found on the back shelves, and how exasperating it was that so much of the relevant "ancient writing and statuary must have been intentionally destroyed." On top of that she had to "confront the fact that even the material there is has been almost completely ignored in popular literature and general education" (pp. xvi—xvii).
13. Ibid., 219.
14. Ibid., 42—43.
15. H. W. F. Saggs, quoted in ibid., 39. See also Walter Hinz, quoted in ibid., 41.
16. Ruby Rohrlich-Leavitt, "Women in Transition: Crete and Sumer," in *Becoming Visible,* Renate Bridenthal and Claudia Koonz, eds. (Boston: Houghton Mifflin, 1977), 53.
17. See, e.g., Leonard Woolley, *The Sumerians* (New York: Norton, 1965), 66; George Thompson, *The Prehistoric Aegean* (New York: Citadel, 1965), 161.
18. Stone, *When God Was a Woman,* 41.
19. Ibid. See also Rohrlich-Leavitt, "Women in Transition," 55.
20. Stone, *When God Was a Woman,* 82.
21. Ibid.
22. Ibid., 3.
23. Ibid., 84.
24. See, e.g., Jacquetta Hawkes and Leonard Woolley, *Prehistory and the Beginning of Civilization* (New York: Harper & Row, 1963), 265, who write, "It is generally accepted that owing to her ancient role as the gatherer of vegetable foods, woman was responsible for the invention and development of agriculture." See also Ester Boserup, *Woman's Role in Economic Development* (London: Allen & Unwin, 1970); and Stone, *When God Was a Woman,* 36, citing Diodorus.
25. See, e.g., James Mellaart, *Catal Huyuk* (New York: McGraw-Hill, 1967), particularly chaps. 4 (architecture), 5 (the town plan), 6 (shrines and reliefs), 7 (wall paintings), 8 (sculpture), 10 (crafts and trade), 11 (the people and the economy). But as Mellaart writes in *The Neolithic of the Near East* (New York: Scribner, 1975), "Although archaeological research has made great progress in the last quarter of a century, interpretation has not kept up with discoveries and much of the theory of cultural development seems sadly out of date" (p. 276).
26. See, e.g., Mellaart, *Catal Huyuk,* chap. 10, where Mellaart notes, "Prospecting and trade formed a most important item of the city's economy and undoubtedly contributed appreciably to its wealth and prosperity" (p. 213).
27. See, e.g., Jane Harrison, *Prolegomena to the Study of Greek Religion* (London: Merlin Press, 1903, 1962), 261, quoting Aeschysus's prayer-poem to "before all other gods. . . the primaeval prophetess."
28. See, e.g., Stone, *When God Was a Woman,* esp. intro, and chaps. 2, 3.
29. For some earlier scholars who alluded to the major contribution of women to our principal physical and spiritual inventions, see Robert Briffault, *The Mothers* (New York: Johnson Reprint, 1969); and Erich Neumann, *The Great Mother* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1955).

30. Nancy Tanner, *On Becoming Human* (Boston: Cambridge University Press, 1981); Jane Lancaster, "Carrying and Sharing in Human Evolution," *Human Nature* 1 (February 1978): 82—89; Lila Leibowitz, *Females, Males, Families: A Biosocial Approach* (North Sdtuate, Mass.: Duxbury Press, 1978); Adrienne Zihlman, "Motherhood in Transition:
From Ape to Human," in *The First Child and Family Formation,* Warren Miller and Lucille Newman, eds. (Chapel Hill, NC: Carolina Population Center, 1978). For a good summary of various theories of our hominid origins (as well as fascinating data about female primates), see Linda Marie Fedigan, *Primate Paradigms: Sex Roles and Social Bonds* (Montreal: Eden Press, 1982). See also Ashley Montagu, *The Nature of Human Aggression* (New York: Oxford University Press, 1976) for an excellent marshalling of evidence debunking the idea that, as Robert Ardrey wrote, "Man had emerged from the anthropoid background for one reason only: because he was a killer." Robert Ardrey, *African Genesis* (New York: Atheneum, 1961), 29.
31. See note 30. See also Richard Leakey and Roger Lewin, *People of the Lake* (New York: Doubleday Anchor, 1978).
32. Tanner, *On Becoming Human,* 190.
33. Ibid., chaps. 10 and 11. See particularly pp. 258—62 on tool use, expanded cranial capacity, and dental reduction.
34. Ibid., 268.
35. Ibid., 146, 268.
36. See note 25.
37. Ester Boserup, *Woman's Role in Economic Development* (London: Allen & Unwin, 1970); *The State of the World's Women 1985* (compiled for the United Nations by New Internationalist Publications, Oxford, U.K.); Barbara Rogers, *The Domestication of Women: Discrimination in Developing Societies* (New York: St. Martin's, 1979).
38. See, e.g., Stone, *When God Was a Woman,* 36, citing Diodorus about Isis; 3, on Ninlil.
39. See, e.g., Neumann, *The Great Mother;* Mara Keller, "The Mysteries of Demeter and Persephone, Ancient Greek Goddesses of Fertility, Sexuality, and Rebirth" *Journal of Feminist Studies in Religion,* Spring 1988, Vol.4, ;nsl. Keller's in-depth study of the Eleusinian mysteries is a very important contribution to the understanding of the system of rituals involved in the ancient worship of the Goddess. It also traces the degeneration to practices involving both blood sacrifice and commercialization of these rites by classical Greek times.
40. Briffault, *The Mothers,* 1:473-74; Neumann, *The Great Mother,* 134-36, emphasis in original.
41. Stone, *When God Was a Woman,* 4.
42. Neumann, *The Great Mother,* 178.
43. Stone, *When God Was a Woman,* 200.
44. Ibid., p. 201—2. See also Barbara G. Walker, *The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets* (San Francisco: Harper & Row, 1983).
45. Harrison, *Prolegomena to the Study of Greek Religion,* 261.
46. Diodorus Siculus, quoted in Stone, *When God Was a Woman,* 36.
47. Harrison, *Prolegomena,* 343.
48. Stone, *When God Was a Woman,* 199, 3.
49. Marija Gimbutas, *The Early Civilization of Europe* (Monograph for Indo-European Studies 131, University of California at Los Angeles, 1980), chap. 2, 17.
50. Marija Gimbutas, *The Goddesses and Gods of Old Europe, 7000—3500 B.C.* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1982), 22—23, citing Professor Vasic.
51. Ibid., 22—25.
52. Ibid.

53. Ibid.
54. Gimbutas, *Early Civilization of Europe,* chap. 2, 72.
55. Ibid., chap. 2, 78.
56. Ibid., chap. 2, 75—77.
57. Ibid., chap. 2, 78.
58. See also Hawkes, *Dawn of the Gods,* 68.
59. See note 24.
60. There is much controversy about whether ritual sacrifice was practiced in connection with the worship of the Goddess. The mass human sacrifices found in tombs of Egyptian and Babylonian times only appear later, and seem to be elaborations on the theme of sacrificing a man's wives, concubines, and/or servants introduced into Europe and India by the Indo-Europeans. But there are also some archaeological data that seem to indicate instances of ritual sacrifice in the Neolithic. See, e.g., Gimbutas, *Goddesses and Gods of Old Europe,* 74. Most of the data, however, are mythical: see, e.g., Sir James Frazer, *The Golden Bough* (New York: Macmillan, 1922). Frazer was a leading nineteenth-century exponent of the theory that kings were regularly sacrificed in what he called matriarchal societies. It may be that ritual sacrifice was a regular practice, as Frazer believed. Or it may have been an emergency measure designed to avert impending disaster. As previously noted, in the one find of Minoan ritual sacrifice, it was most probably the latter. Here a priest was interrupted in the sacrifice of a young man by an earthquake that killed both (Yannis Sakellarakis and Sapouna Sakellarakis, "Drama of Death in a Minoan Temple," *National Geographic* 159 (February 1981): 205—22). This, as well as the fact that no other evidence of Minoan ritual sacrifice has ever been found, leads to the inference, as Joseph Alsop writes, that human sacrifice was not a regular Minoan practice. Rather, like similar instances in later classical Greek times, it appears that "this was a desperate measure to stave off what must have looked like the end of the world" (Joseph Alsop, "A Historical Perspective," *National Geographic* 159 (February 1981): 223-24). We do know that as late as the fifth century B.C.E. the ancient Greeks occasionally sacrificed a *pharmakos,* or "scapegoat" (usually a condemned criminal), as an act of ritual purification (see e.g., Harrison, *Prolegomena,* 102—5). However, on the question of whether such sacrifices were regularly practiced opinion is very divided. Some scholars, such as Elinor Gadon, though not asserting that this was a universal, or even common, practice, point to evidence that in the Indian Harappan culture that flourished from ca. 3000 to 1800 a.c.s., ritual human sacrifice was practiced (private communications with Gadon, 1986). Other scholars, such as Nancy Jay and Mara Keller, argue that even blood sacrifices of animals were not practiced by the agrarian peoples who worshiped the Goddess. For example, in the familiar biblical story of Cain and Abel, Cain (representing the farming people of Canaan) offers Jehovah fruits and grains. This offering is, however, rejected by Jehovah, who does accept the blood sacrifice of Abel (representing the pastoral invaders). (For an early reexamination of this myth, see E. Cecil Curwen, *Plough and Pasture* [London: Cobbett Press, 1946].) There are also indications that in Catal Huyuk there were no blood sacrifices of any kind. The worship of Demeter, which dates from before the Indo-European invasions, also originally involved only offerings of fruits and grains (Mara Keller, "The Mysteries of Demeter and Persephone, Ancient Greek Goddesses of Fertility, Sexuality, and Rebirth").
61. In the formulation of this definition of rational and irrational, I am indebted to the philospher Herbert Marcuse's discussion of reason in *One-Dimensional Man* (Boston: Beacon Press, 1964), 236-37.
62. Julian Jaynes, *The Origin of Consciousness in the Breakdown of the Bicameral Mind* (Boston: Houghton Mifflin, 1977).
63. See, e.g., C. A. Newham, *The Astronomical Significance of Stonehenge* (Leeds: John

Blackburn, 1972). Similarly, Mellaart describes Catal Huyuk as possessing "advanced technology in the crafts of weaving, woodwork, and metallurgy" and "advanced practices in agriculture and stock breeding" *(Catal Huyuk,* ii).

64. J. E. Lovelock, *Gaia* (New York: Oxford University Press, 1979).
65. James Mellaart, *Excavations at Hacilar* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1970), 2:iv.
66. Ibid., vi.
67. Ibid., 249.

CHAPTER 6: Reality Stood on Its Head, Part I (pp. 78—89)

1. Aeschylus, *Oresteia* (Chicago: University of Chicago Press, 1953), 158.
2. Ibid.
3. Ibid., 161.
4. Ibid., 163.
5. See, e.g., Hugh Lloyd-Jones, Introduction to *Agamemnon, The Libation Bearers, The Eumenides* (Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall, 1970).
6. Joan Rockwell, *Fact in Fiction: The Use of Literature in the Systematic Study of Society* (London: Routledge & Kegan Paul, 1974), chap. 5.
7. George Thompson, *The Prehistoric Aegean* (New York: Citadel, 1975); H. D. F. Kitto, *The Greeks* (Baltimore: Penguin Books, 1951), 19.
8. Rockwell, *Fact in Fiction,* 163.
9. Ibid., 162.
10. Ibid.
11. Aeschylus, *Oresleia,* 167.
12. Rockwell, *Fact in Fiction,* 150.
13. Aeschylus, *Oresteia,* 164.
14. For an excellent analysis of Spencer and other androcentric nineteenth-century theorists, see Martha Vicinus, ed., *Suffer and Be Still: Women in the Victorian Age* (Bloomington, IN: Indiana University Press, 1972), esp. 126—45.
15. See, e.g., Numbers 32, 1 Chronicles 5.
16. See David Loye and Riane Eisler, "Chaos and Transformation: Implications of Non-equilibrium Theory for Social Science and Society," in *Behavioral Science,* 32 (1987), 53—65.
17. See, e.g., Humberto Maturana, "The Organization of the Living: A Theory of the Living Organization," in *Journal of Man-Machine Studies 7* (1975): 313-32; and Vilmos Csanyi, *General Theory of Evolution* (Budapest: Akademiai Kiado, 1982).
18. See, e.g., Vilmos Csanyi and Georgy Kampis, "Autogenesis: The Evolution of Replicative Systems," in *Journal of Theoretical Biology* 114 (1985): 303-21.
19. See, e.g., 2 Kings 18:4; Numbers 31; 2 Chronicles 33.
20. George Orwell, *1984* (New York: New American Library, 1971); originally published under the title *Nineteen Eighty Four* (London: Gollancz, 1949).
21. See Mary Daly, *GynlEcology: The Metaethics of Radical Feminism* (Boston: Beacon Press, 1978), for this important insight.
22. See *The Dartmouth Bible* (Boston: Houghton Mifflin, 1950) for an account of how scholars have now been able to reconstruct how the Bible was put together over several hundred years by various "schools" of rabbis and priests. See esp. 5—11.
23. Ibid., 9.
24. Ibid., 10.
25. Ibid., 10.

26. Ibid.
27. Ibid.
28. Marija Gimbutas, *The Goddesses and Gods of Old Europe, 7000—3500 B.C.* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1982), 93.
29. Ibid., 149. See, e.g., plate 59, Erich Neumann, *The Great Mother* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1955).
30. For an overview of the unbiquity of serpent images associated with the Goddess, in Near Eastern, European, Asiatic, and even American cultures, see plates in Neumann, *The Great Mother.*
31. See, e.g., Joseph Campbell, *The Mythic Image* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1974), 295.
32. See, e.g., ibid., 296. See also Jane Harrison, *Prolegomena to the Study of Greek Religion* (London: Merlin Press, 1903, 1962), for an overview of the origins of the serpent in Greek mythology.
33. Gimbutas, *The Goddesses and Gods of Old Europe,* 149.
34. Merlin Stone, *When God Was a Woman* (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1976), 67.
35. *The Dartmou~/i Bible,* 146, 2 Kings 18:4.
36. Campbell, *T'he Mythic Image,* 294.
37. 2 Kings 18:4.
38. For a discussion of Eve's origins, see, e.g., Robert Graves and Raphael Patai, *Hebrew Myths* (New York: McGraw-Hill, 1963), 69.
39. Genesis 3:16. The passage "unto the woman he said, I will greatly multiply thy sorrow and thy conception; in sorrow thou shalt bring forth child, and thy desire shall be to thy husband, and he shall rule over thee" makes eminent sense when the fall from paradise story is seen as an androcratic fable about how the equalitarian farming (or gardening) people who worshiped the Goddess were conquered by male-dominated, warlike pastoralists and how this marked the end of both sexual and reproductive freedom for women. The passage "I will greatly multiply thy sorrow a~d thy conception" strongly suggests that at that time women not only lost the right to choose who they would have sex with but also the right to use birth control technologies. That the use of contraceptives goes back to antiquity is verified by ancient Egyptian papyri describing the use of spermicides. See Norman Himes, *Medical History of Contraception* (New York: Schocken, 1970), 64.
40. For an extraordinary nineteenth-century work challenging not only the conventional scholarship of its time, but the Bible itself, see Elizabeth Cady Stanton, *The Woman's Bible* (reprinted in *The Original Feminist Attack on the Bible,* intro, by Barbara Welter [New York: Arno Press, 1974]). First published in 1895 over the objections of many other feminists, who saw it as either horribly sacrilegious or no longer relevant in a secular or enlightened age, *The Woman's Bible* is the work of a number of feminist scholars. Though some of them sought to reconcile the Bible with feminist aspirations, Elizabeth Cady Stanton, who is probably the most remarkable of the nineteenth-century feminists, went directly to the heart of the matter, identifying and objecting to the many passages in which women are supposed to be divinely decreed as lesser creatures. Since then, particularly during the 1970s and 1980s, many women have reexamined the Bible, making important contributions to religious scholarship. For some overviews on this new research, see Gail Graham Yates, "Spirituality and the American Feminist Experience," *Signs* 9 (Autumn 1983): 59—72; Anne Barstow Driver, "Review Essay: Religion," *Signs* 2 (Winter 1976): 434—42; Rosemary Ruether, "Feminist Theology in the Academy," *Christianity and Crisis* 45 (1985): 55—62; Also see Carol P. Christ and Judith Plaskow, eds. *Womanspirit Rising* (New York: Harper & Row, 1979); Nancy Auer Falk and Rita Gross, eds., *Unspoken Worlds* (New York: Harper & Row, 1980): Charlene Spretnak,

ed., *The Politics of Women's Spirituality* (New York: Doubleday Anchor, 1982); Elisabeth Schussler Fiorenza, *In Memory of Her* (New York: Crossroad, 1983); Rosemary Radford Ruether, ed., *Religion and Sexism: Images of Women in Jewish and Christian Traditions* (New York: Simon & Schuster, 1974); Mary Daly, *Beyond God the Father* (Boston: Beacon, 1973); Susarmah Herschel, ed., *On Being a Jewish Feminist* (New York: Schocken Books, 1982). A recent and excellent short paper is Carol P. Christ, "Toward a Paradigm Shift in the Academy and in Religious Studies," in *Transforming the Consciousness of the Academy,* Christy Farham, ed. (Bloomington, IN: Indiana University Press, 1987). For a fascinating reinterpretation of the biblical story of Sarah, see Savina J. Teubal, *Sarah the Priestess: The First Matriarch of Genesis* (Chicago: Swallow Press, 1984).

CHAPTER 7: Reality Stood on Its Head, Part II (pp. 90—103)

1. Marija Gimbutas, "The First Wave of Eurasian Steppe Pastoralists into Copper Age Europe," *Journal of Indo-European Studies,* 5 (Winter 1977): 297.
2. Numbers 31, Joshua 6, 7, 8, 10, 11.
3. In modern times greater technological and social complexity is also creating new roles, and one of the major contemporary issues is whether the more lucrative and prestigious ones should again go mainly to men. *Breaking Free,* the sequel to this book, examines this issue. For an interesting discussion dealing with this question of technology and social organization in prehistory from a male-centered perspective, see Lewis Mumford, *The Myth of the Machine: Technics and Human Development* (New York: Harcourt, Brace & World, 1966).
4. See chapter 3 for a discussion of how greater social and technological complexity does not necessarily lead to male dominance, and how in Crete women retained their positions of power and status as long as a partnership model of social organization prevailed.
5. Edwin Oliver James, *The Cult of the Mother Goddess* (London: Thames & Hudson, 1959), 89. In *When God Was a Woman,* (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1976), Merlin Stone specifically notes in this connection how important it is to distinguish between the forms Goddess worship took *before* and *after* the imposition of male dominance. But unfortunately in much of this otherwise excellent work, Stone does not clearly separate the two. As a result, we often find female deities worshiped in male-dominant times discussed in the same context as those representing the earlier Goddess, with no distinction between Athene, Ishtar, or Cybele (all deities associated with war) and the Goddess of prehistory, such as the pregnant "Venus" figures of the Paleolithic and the Great Mother Goddess of Catal Huyuk, who are primarily identified with the regeneration of life.
6. Rohrlich-Leavitt, "Woman in Transition: Crete and Sumer," in *Becoming Visible,* Renate Bridenthal and Claudia Koonz, eds. (Boston: Houghton Mifflin, 1977), 55. For an excellent collection of scholarly essays relating to the broader question of how later religions have reflected and perpetuated the degradation and subjugation of women, see Rosemary Radford Ruether, *Religion and Sexism: Images of Women in Jewish and Christian Traditions* (New York: Simon & Schuster, 1974). Some more recent works are Carol Christ and Judith Plaskow, *Womanspirit Rising: A Feminist Reader in Religion* (San Francisco: Harper & Row, 1979); Charlene Spretnack, ed., *The Politics of Women's Spirituality* (New York: Doubleday Anchor, 1982); and Mary Daly, *GynlEcology: The Metaethics of Radical Feminism* (Boston: Beacon Press, 1978). See also Riane Eisler, "Our Lost Heritage: New Facts on How God Became A Man," *The Humanist* 45 (May/June 1985): 26-28.
7. Raphael Patai, *The Hebrew Goddess,* (New York: Avon, 1978), 12—13. Even in the Bible we read that Solomon's temple was also used to worship gods, and goddesses, other than Jehovah.

8. Ibid., 48-50. Despite all the data this work reports of our gynocentric religious heritage, Patai's interpretation is generally within the dominator paradigm. For a different approach from a feminist perspective, see Carol P. Christ, "Heretics and Outsiders: The Struggle over Female Power in Western Religion," *Soundings* 61 (Fall 1978): 260-80.
9. See, e.g., Jeremiah 44:17. Stone, *When God Was a Woman*, contains an excellent discussion of this point. See also Elizabeth Gould Davis, *The First Sex* (New York: Penguin Books, 1971), which contains interesting documentation of the enormous strength of Goddess worship, not only among women, but also men, well into medieval times. For example, Davis cites Cyril's letters, where we read that in the fifth century CE., when they were informed that henceforth the Church was willing to allow them to "worship the Virgin Mary as the Mother of God," the people of Ephesus danced in the streets (p. 246).
10. For an interesting analysis of the etymology of the Hebrew word for deity, *Elohim*, see S. L. MacGregor Mathers, *The Kabbalah Unveiled* (London: Routledge & Kegan Paul, 1957), discussed in June Singer, *Androgyny* (New York: Anchor Books, 1977), 84. Mathers not only points out that *Elohim* is the feminine noun for deity with a masculine ending, but that the Hebrew word *ruach* (Holy Spirit) is feminine, as is, of course, the word *hochma* (Wisdom), all ancient appellations of the Goddess.
11. For a very powerful analysis of how earlier myths and symbols have "been stolen and reversed, contorted and distorted" (p. 75), see Daly, *GynlEcology*, esp. chap. 2. A fascinating aspect of this and other analyses of this subject is how through independent routes many scholars are today arriving at the same basic insight: so successful was the job of dominator remything that Orwell's "prophecies" in *1984* "are descriptions of what already happened." For it is not only that our true prehistory— and with it the Goddess—has been erased; the crippling of thinking wrought by the expurgation of sexually equalitarian words from our language has made it impossible "to follow heretical thought further than the perception that it *was* heretical." As in *1984*, the necessary words no longer exist (Daly, *GynlEcology*, 330-31; Orwell, *1984*, 252). For some earlier, nonfeminist attempts to untangle religious and classical myths that, in distorted form, date back to pre-dominator times, see, e.g., Robert Briffault, *The Mothers* (New York: Johnson Reprint, 1969); Jane Harrison, *Prolegomena to the Study of Greek Religion* (London: Merlin Press, 1903, 1962); M. Esther Harding, *Woman's Mysteries* (New York: Putnam, 1971); Erich Neumann, *The Great Mother* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1955); Robert Graves, *The White Goddess* (New York: Vintage Books, 1958); Helen Diner, *Mothers and Amazons* (New York: Julian Press, 1971); Frazer, *The Golden Bough* (New York: Macmillan, 1922); J. J. Bachofen, *Myth, Religion and Mother Right*, trans. Ralph Manheim (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1861, 1967). The term *mother-right*, although sometimes used in a different way, means simply a system of matrilineal rather than patrilineal succession, in other words, descent traced through the mother rather than, as in our time, through the father.
12. See, e.g., Joshua 6:21; Deuteronomy 12:2—3. Because Jews have in Christian tradition often been blamed for the killing of the Son of God and for other "abominations" that for much of European history served to rationalize persecuting and killing them, it is imperative to stress that such practices were not Hebrew inventions but characteristic of dominator societies. For two important articles frontally dealing with mistaken allegations (or implications) that the Jews are to blame for patriarchy, see Judith Plaskow, "Blaming Jews for Inventing Patriarchy," and Annette Daum, "Blaming Jews for the Death of the Goddess," both in *Lilith*, 1980, no. 7:11—13.
13. *The Dartmouth Bible* (Boston: Houghton Mifflin, 1950), 146. Like most conventional sources, *The Dartmouth Bible* calls the first part of the Judeo-Christian Bible the Old Testament, even though Jewish scholars point out that for Jews there is only one holy book

and therefore the terms *Hebrew Scriptures* or *Hebrew Bible* would be more appropriate than *Old Testament.* In this book I would have preferred using the term *Hebrew Bible.* But it soon became evident that this would cause a good deal of confusion, as most people I queried assumed that it meant the Apocryphal Writings or even newly found Hebrew scrolls (like the Dead Sea Scrolls), rather than the first part of the Bible.

14. See, e.g., Numbers 31:18.
15. Exodus 12:7.
16. Numbers 31:9, 17, 18.
17. Judges 19:24. That readers, including biblical scholars, have for so long been able to placidly ignore what such passages say about man's inhumanity to woman is a horrifying testimony to the power of the prevailing paradigm. That today a new wave of biblical analysts are independently reassessing such passages and independently coming to the same conclusions (see, e.g., Mary Daly, *Beyond God the Father* [Boston: Beacon, 1973]), is a heartening testimony of the power of the contemporary resurgence of a partnership worldview—a subject we will return to.
18. Judges 19:25-28.
19. Genesis 19.
20. Leviticus 12:6-7.
21. Neuman, *The Great Mother,* 313.
22. Ibid., 312.
23. *New Catholic Encyclopedia,* vols. 2, 5: *Hastings Encyclopedia of Religion and Ethics,* vol. 1.
24. See, e.g., Joseph Campbell, *The Mythic Image* (Princeton: Princeton University Press, 1974), 59—64.
25. Daly, *Gyn/Ecology,* 17—18, 39. Daly, a theologian, angrily writes, not only has the tree of life been replaced by "the necrophilic symbol of a dead body hanging on dead wood," but also "partriarchy" is "itself the prevailing religion of the entire planet, and its essential message is necrophilia."

CHAPTER 8: The Other Half of History, Part I (pp. 104—119)

1. The preferred pronunciation for gylany is *gi-lan-ee.* The *g* is hard, as in *gift.* The accent is on the first syllable. The word *gylany* as a whole has the same syllabic emphasis and rhythm as the word *progeny.*
2. Jane Harrison, *Prolegomena to the Study of Greek Religion* (London: Merlin Press, 1903, 1962), 646.
3. Jacquetta Hawkes, *Dawn of the Gods: Minoan and Mycenaean Origins of Greece* (New York: Random House, 1968), 261.
4. Later Greek plays such as Aeschylus's *Oresteia* confirm this, as here queens like Clytemnestra are clearly in charge and their husbands are referred to as consorts.
5. Hesiod, *Works and Days,* quoted in John Mansley Robinson, *An Introduction to Early Greek Philosophy* (Boston: Houghton Mifflin, 1968), 4.
6. Heraclitus, quoted in Edward Hussey, *The Pre-Socratics* (New York: Scribner, 1972), 49.
7. Hesiod, quoted in Robinson, *Early Greek Philosophy,* 5.
8. J. V. Luce, *The End of Atlantis* (London: Thames & Hudson, 1968), 158.
9. Ibid., 159.
10. Ibid.
11. For example, Anaximander (born ca. 612 B.C.E.) in some rudimentary respects foreshadowed Darwin's theory of evolution. He said of the origins of human life that the prototypes of human beings were originally produced as fishlike creatures that upon reaching maturity left

the water for land and shed their fishlike exterior, emerging in human form. These ideas suggest Anaximander may have known something of the development of the human embryo (Hussey, *The Pre-Socratics,* 26; Robinson *Early Greek Philosophy,* 33-34).

12. Robinson, *Early Greek Philosophy,* 46.
13. Hussey, *The Pre-Socratics,* 14.
14. Ibid., 13.
15. Ibid.
16. As already noted, scholars such as Nicolas Platon and Jacquetta Hawkes have written of the Cretan roots of Greek civilization. As Platon wrote, "A brilliant civilization produced by such dynamic people could not vanish without leaving any traces" (Nicolas Platon, *Crete* [Geneva: Nagel Publishers, 1966], 69). It is also significant that leading pre-Socratic philosopher-scientists like Xenophanes of Calophon, Pythagoras of Samos, and Thales, Anaximander, and Anaximenes of Miletus lived in islands in the eastern Mediterranear~ and cities on the southern Anatolian coast, sites of millennia of Goddess-worshipping cultures, which were not destroyed until the Dorian onslaught that ushered in the Greek Dark Age.
17. The idea of a unified, interrelated universe (earlier symbolized by the Goddess as the Mother and Giver of All) in which everything is interconnected or linked rather than, as in androcratic theological and scientific theories, ranked, is expressed in some of Anaxagoras's statements. "In everything," he wrote, "the things in the one world-order are not separated from one another, or cut off with an axe—neither the hot from the cold nor the cold from the hot" (quoted in Robinson, *Early Greek Philosophy,* 177-81).
18. Hussey, *The Pre-Socratics,* 17.
19. Ibid., 19.
20. See, e.g., Robinson, *Early Greek Philosophy,* 34, 35, 89, 94, 137, 168.
21. Marija Gimbutas, *The Goddesses and Gods of Old Europe, 7000—3500 B.C.* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1982), 102, 196.
22. Ibid., 198.
23. Erich Neumann, *The Great Mother* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1955), 275.
24. Hussey, *The Pre-Socratics,* 14.
25. Robinson, *Early Greek Philosophy,* 70.
26. Ibid., 80.
27. Harrison cites Aristoxenus as the source of the information that Pythagoras was taught ethics by Themistocleia *(Prolegomena,* 646). Hawkes writes that as a reformer of Orphism, Pythagoras adopted "a strong feminism." *(Dawn of the Gods,* 283.)
28. Harrison, *Prolegomena,* 646.
29. Ibid.; Hawkes, *Dawn of the Gods,* 284.
30. Harrison, *Prolegomena,* 647.
31. Plato, *Republic,* book 4.
32. See also illustrations on a cinerary urn showing initiation ceremonies in which Demeter is enthroned and her great snake, coiled about her, is caressed by the initiate. To Demeter's left stands another female figure, her daughter and twin Goddess, Persephone. (Harrison, *Prolegomena,* 546). For a new, and fascinating, study of the Eleusinian Mysteries, see Keller, "The Mysteries of Demeter and Persephone, Ancient Greek Goddesses of Fertility, Sexuality, and Rebirth" (unpublished manuscript). As Keller points out, the Eleusinian Mysteries preserved many of the elements of the ancient worship of the Goddess. She writes: "The rites of Demeter and Persephone speak to the experiences of life remaining through all times the most mysterious—birth, sexuality, death; and the greatest mystery of all, enduring love. In this Mystery religion, people of the ancient Mediterranean world expressed their joy in the beauty and abundance of nature, including the provident harvest of their crops; in personal

love, sexuality and procreation; and in the rebirth of the human spirit, even through suffering and death. Cicero wrote of these rites: 'We have been given a reason not only to live in joy, but also to die with better hope.'"

33. Augustine, quoted in Harrison, *Prolegomena*, 261.
34. Hawkes, *Dawn of the Gods*, 286.
35. Elise Boulding, *The Underside of History* (Boulder, CO: Westview Press, 1976), 260—62. As the feminist philosopher Mara Keller notes, it is significant that Aspasia appears to have come from Anatolia, where the Goddess was still primary and women were still to a large degree independent (private communication with Mara Keller, 1986). Aspasia, who arrived in Athens ca. 450 B.C.E., opened a school for women and also lectured widely. Her lectures were attended by Socrates, Pericles, and other famous men (Will Durant, *The Life of Greece* (New York: Simon & Schuster, 1939), 253.
36. Harrison, *Prolegomena*, 646.
37. Mary Beard, *Woman as a Force in History* (New York: McMillan, 1946), 326.
38. *Sappho: Lyrics in the Original Greek*, trans. by Willis Barnstone (New York: Anchor, 1965). Most of Sappho's works were burned by Christian zealots, along with other "pagan" writings. But as Keller asks, why was Homer (who extolled war) spared and the works of women like Sappho (who extolled love) destroyed? For discussions of Sappho, whom Plato spoke of as the tenth muse, see, e.g., Hawkes, *Dawn of the Gods*, 286; Boulding, *Underside of History*, 260—62.
39. Boulding, *Underside of History*, 262—63.
40. Examples are Aristophanes' *The Women at Demeter's Festivals* and *The Women in Politics*.
41. Robinson, *Early Greek Philosophy*, 269—70.
42. Ibid., 286, 285.
43. Thucydides, *History of the Peloponnesian War*, 267.
44. Robinson, *Early Greek Philosophy*, 287.
45. Aristotle, *Politics*.
46. Genesis 1—3.
47. Fritjof Capra, *The Turning Point: Science, Society, and the Rising Culture* (New York: Simon & Schuster, 1982), 282.

CHAPTER 9: The Other Half of History, Part II (pp. 120-134)

1. Leonard Swidler, "Jesus was a Feminist," *The Catholic World*, January 1971, 177—83.
2. See, e.g., John 20:1—18.
3. Interview with Professor S. Scott Bartchy, in "Tracing the Roots of Christianity," *The UCLA Monthly* 11 (November-December 1980): 5.
4. See, e.g., Elisabeth Schussler Fiorenza, "Women in the Early Christian Movement," in Carol Christ and Judith Plaskow, eds. *Womanspirit Rising: A Feminist Reader in Religion* (San Francisco: Harper & Row, 1979), 91—92; Elise Boulding, *The Underside of History* (Boulder, CO: Westview Press, 1976), 359—60. Fiorertza's *in Memory of Her* (New York: Crossroad, 1983) is a major work of New Testament scholarship from a feminist perspective.
5. James Robinson, ed., *The Nag Hammadi Library* (New York: Harper & Row, 1977). This is by no means to say that these ancient Christian gospels are not androcratic documents. It is difficult to judge to what extent this is the function of the various translations they underwent. For instance, the last translation, from Coptic to English, was the work of the Coptic Gnostic Library Project of the Institute for Antiquity and Christianity. But the prevailing imagery of the language clearly shows that these are documents written in a time when men and masculine conceptualizations of deity were already dominant. However, there is also no

question that one of the major heresies of these gospels is that a number of them contain a return to the preandrocratic conception of the powers that rule the universe in feminine form, with references to the creative powers and wisdom of the Mother. (See, e.g., *Gospel of Thomas*, 129; *Gospel of Philip*, 136—42; *The Hypostasis of the Archons, The Sophia of Jesus Christ*, 206; *The Thunder, Perfect Mind*, 271; *The Second Treatise of the Great Seth*, 330). Perhaps the salient heresy that runs through all these rather diverse gospels (which draw from a variety of philosophical and religious traditions) is that they challenge the tenet that ranking is divinely ordained. Even beyond such gylanic motifs as the symbolization of divine power as female and references to Mary Magdalene as Jesus' most beloved and trusted companion is the fact that we here find the outright rejection of the notion that *gnosis*, or knowledge, can only be obtained through the church hierarchy—through the popes, bishops, and priests—which became, and still is, the hallmark of orthodox Christianity.

6. Elaine Pagels, *The Gnostic Gospels* (New York: Random House, 1979), xix.
7. Ibid., xix. Note that Constantine's Edict of Milan was in 313 CE. marking the beginning of the alliance of the Christian Church and the Roman ruling classes.
8. Helmut Koester, "Introduction to the Gospel of Thomas," *The Nag Hammadi Library*, 117.
9. Mark 16:9—20; Robinson, ed., *Nag Hammadi Library*, 471—74; Pagels, *The Gnostic Gospels*, 11.
10. Robinson, ed., *Nag Hammadi Library*, 43, 138. For an excellent analysis of these passages, see Pagels, *The Gnostic Gospels*, chap. 1.
11. See Pagels, *The Gnostic Gospels*, 11—14.
12. Ibid., 14. Some of the official Christian scriptures still contain traces of this gylanic message. See, e.g., John 8:32: "and ye shall know the truth, and the truth shall make you free."
13. Ibid., chap. 3.
14. Ibid., xvii, 41.
15. Ibid., 41—42, emphasis in original.
16. Ibid., 42—43.
17. Ibid., 42.
18. Ibid., 54.
19. Robinson, ed., *Nag Hammadi Library*, 461—62.
20. Pagels, *The Gnostic Gospels*, 52.
21. Ibid., 56-57.
22. Ibid., 52—53.
23. Ibid., 49.
24. Ibid., chap. 3; see esp. p. 50 and what follows.
25. Ibid., 52—53.
26. Interview with Prof. S. Scott Bartchy, in "Tracing the Roots of Christianity," 5.
27. Ilya Prigogine and Isabel Stengers, *Order Out of Chaos* (New York: Bantam, 1984), esp. chaps. 5, 6.
28. Constance Parvey, "The Theology and Leadership of Women in the New Testament," in Rosemary Radford Ruether, ed., *Religion and Sexism: Images of Women in Jewish and Christian Traditions* (New York: Simon & Schuster, 1974), 118
29. Pagels, *The Gnostic Gospels*, 62—63.
30. Abba Eban, *My People: The Story of the Jews* (New York: Random House, 1968).
31. Pagels, *The Gnostic Gospels*, 63.
32. Ibid., p. 49.
33. Ibid., xviii.
34. See, e.g., *New Columbia Encyclopedia* (New York: Columbia University Press, 1975), 634; H. G. Wells, *The Outline of History* (New York: Garden City Publishing, 1920), 520;

Elizabeth Gould Davis, *The First Sex* (New York: Penguin Books, 1971), 234, 237; Hendrik Van Loon, *The Story of Mankind* (New York: Boni & Livertght, 1921), 135.
35. See, e.g., Wells, *Outline of History,* 522—26; Davis, *The First Sex,* chap. 14; G. Rattray Taylor, *Sex in History* (New York: Ballantine, 1954).
36. Pagels, *The Gnostic Gospels,* 69.
37. Ibid., 57, emphasis added.
38. See, e.g., *New Columbia Encyclopedia,* 61; Davis, *The First Sex,* 420.
39. *New Columbia Encylopedia,* 705, 1302; Davis, *The First Sex,* 420.
40. Pagels, *The Gnostic Gospels,* 68.
41. Will Durant and Ariel Durant, *The History of Civilization* (New York: Simon & Schuster), vol. 4, *The Age of Faith,* 843.

CHAPTER 10: The Patterns of the Past (pp. 135—155)

1. Ilya Prigogine and Isabel Stengers, *Order out of Chaos* (New York: Bantam, 1984); Edward Lorenz, "Irregularity: A Fundamental Property of the Atmosphere," *Tellus,* 1984, no. 36A: 98-110; Ralph Abraham and Christopher Shaw, *Dynamics: The Geometry of Behavior* (Santa Cruz, CA: Aerial Press, 1984).
2. Prigogine and Stengers, *Order out of Chaos,* 169—70.
3. Abraham and Shaw, *Dynamics: The Geometry of Behavior.*
4. Ibid.
5. Prigogine and Stengers, *Order out of Chaos,* 189—90.
6. Ibid., Quotations (in order) from 187, 176—177.
7. For cyclic theories of history and economics, see, e.g., Walter Kaufman, *Hegel: A Reinterpretation* (Garden City, NY: Doubleday, 1965); Oswald Spengler, *The Decline of the West* (New York: Knopf, 1926-1928); Pitirim Sorokin, *The Crisis of Our Time* (New York: Dutton, 1941); R. Hamil, "Is the Wave of the Future a Kondratieff?" *The Futurist,* October 1979; Arthur Schlesinger, Sr., *The Tides of Politics* (Boston: Houghton Mifflin, 1964); David Loye, *The Leadership Passion* (San Francisco: Jossey-Bass, 1977).
8. Henry Adams, *The Education of Henry Adams* (New York: Houghton Mifflin, 1918), 441—42.
9. Ibid., 388. For an interesting interpretation stressing Adams's high valuing of the "feminine," see Lewis Mumford, "Apology to Henry Adams," in *Interpretation and Forecasts: 1922—1972* (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1973), 363—65.
10. G. Rattray Taylor, *Sex in History* (New York: Ballantine, 1954).
11. See, e.g., Wilhelm Reich, *The Mass Psychology of Fascism* (New York: Farrar, Straus, Giroux, 1980).
12. Taylor, *Sex iivHistory,* chap. 5.
13. Ibid. See particularly the Patrist/Matrist Comparison table on p. 81.
14. For an excellent biography (and history of her time), see Marion Meade, *Eleanor of Aquitaine* (New York: Hawthorn Books, 1977). See also Robert Briffault, *The Troubadors* (Bloomington, IN: Indiana University Press, 1965).
15. Taylor, *Sex in History,* 84.
16. Ibid., 91.
17. Ibid., 85.
18. Heinrich Kramer and James Sprenger, *Malleus Maleficarum,* trans. Montague Summers (London: Pushkin Press, 1928), originally published in 1490 with the pope's blessings as the handbook for Inquisitors in hunting witches.
19. Gregory Zilboorg, quoted in Barbara Ehrenreich and Deirdre English, *Witches, Midwives, and*

Nurses: A History of Women Healers (Old Westbury, NY: Feminist Press, 1973), 7.

20. Ibid.
21. Ibid., 10. For an excellent treatment of this subject, see also Wendy Faulkner, "Medical Technology and the Right to Heal," in Wendy Faulkner and Erik Arnold, eds., *Smothered by Invention: Technology in Women's Lives* (London: Pluto Press, 1985). This well-documented piece reports research showing that as the Church went into the business of training doctors in universities sanctioned by the Church (which excluded women) the traditional healers (wisewomen or "witches" now accused of having "magical powers") had to be first discredited and then eliminated. It was also decreed that at these "witch trials" doctors should be brought in to adjudicate whether a person's state of health (good or bad) was the result of natural causes or sorcery. Not only was the Church successful in squeezing out women (both the literate ones and the peasant healers), it also succeeded in discrediting many of these women's age-old remedies—fresh air and baths, for example, which the new Church-trained physicians labeled harmful. They substituted instead such "heroic remedies" as incisions for bleeding, applications of leeches, and prescription of poisonous purges. These "cures" were still commonly prescribed by medical men as late as the nineteenth century.
22. A central theme in *The Malleus Maleficarum* is that the devil acts through the female, just as he did in the Garden of Eden. "All witchcraft comes from carnal lust, which in women is insatiable," it declared, continuing that it is therefore "no matter for wonder that there are more women than men found infected with the heresy of witchcraft. ... And blessed be the Highest Who has so far preserved the male sex from so great a crime" (quoted in Ehrenreich and English, *Witches, Midwives, and Nurses,* 10). The first work to present the view that "witchcraft" represents in part the survival of pre-Chnstian religion was Margaret Alice Murray, *The Witch-Cult in Western Europe* (London: Oxford University Press, 1921). This analysis, which is now more widely accepted, also in part underlies Jules Michelet, *Satanism and Witchcraft* (New York: Citadel Press, 1970). For other, more contemporary feminist writings, on the persecutions of witches as measures to suppress women, see, e.g., Elizabeth Gould Davis, *The First Sex* (New York: Penguin Books, 1971), chap. 18; Mary Daly, *Gynl Ecology: The Metaethics of Radical Feminism* (Boston: Beacon Press, 1978). For some works reinterpreting the nature religion of witches (Wicca) and their craft in healing and midwifery, see Starhawk, *Dreaming the Dark: Magic, Sex, and Politics* (Boston: Beacon, 1982); Margot Adler, *Drawing Down the Moon: Witches, Druids, Goddess Worshippers and Other Pagans in America Today* (Boston: Beacon, 1981); Starhawk, *The Spiral Dance* (New York: Harper & Row, 1979).
23. Taylor, *Sex in History, 77.*
24. Ibid., 126.
25. Ibid., 99—103. Since they viewed women as equal human beings, friendship or non-sexual bonding between the sexes was a Cathar principle. One ironic result was that "chaste love" or "agape" was fiercely denounced by the official Church. They accused these "heretics," who, following Christ's teachings called their church the Church of - Love, not only of wishing to exterminate the human race by refraining from procreation, but of all forms of sexual perversion.
26. Ibid., 125.
27. Ibid., 151.
28. There is continuing debate among feminist scholars on the question that Joan KellyGadol's article asks, whether women even had a Renaissance (Kelly-Gadol, "Did Women Have a Renaissance?" in *Becoming Visible,* Renate Bridenthal and Claudia Koonz, Editors IBoston: Houghton Mifflin, 1977]). The earlier Burckhardt-Beard school of thought saw improvements for women during the Italian Renaissance (Mary Beard, *Woman as a Force in History,* (New

York: McMillan, 1946), 272). Ruth Kelso and Kelly-Gadol now argue that women actually lost ground, and were better off during the feudal period. Certainly some women of the feudal ruling classes, notably Eleanor of Aquitaine and her daughter Marie of Champagne, had some small measure of independence (although Eleanor was imprisoned by her husband for many years) and exerted great influence in developing and popularizing the troubadour ideal of the veneration rather than derogation of women. But as E. William Monter and others have pointed out, there is also a great deal of controversy about whether women actually made any real social and legal gains during the Middle Ages (see, e.g., E. William Monter, "The Pedestal and the Stake," in Bridenthal and Koonz, *Becoming Visible,* 125). Similarly, during the Italian Renaissance, though normative writers like Castiglione advocated equal education for women, opposed the bourgeois notion of women's exclusively domestic role, and at least debated the sexual double standard, as Kelly-Gadol points out, with a few notable exceptions like Caterine Sforza, the Renaissance lady was hardly a politically and economically independent agent. In other words, in *neither* period do we find any fundamental alteration of women's subservience to men. What we see instead are more "feminine" humanistic values struggling to the fore during *both* the feudal troubadour and the Italian Renaissance periods. We also see some expanding rights and options for women—or at least some direct challenge of their subservience to men (such as the challenge to women's sexual slavery and vilification). The troubadours' idealization of women and the celebration of their sexual independence and the Renaissance's ideal of equal education for women are examples. But in the end, what we see is the failure of the gylanic thrust to overthrow the entrenched androcratic order, be it feudal or statist, thirteenth-century or fifteenth-century. What we also see is that this ongoing and periodically heightened gylanic-androcratic conflict is still going on in our time.

29. Taylor, *Sex in History,* 126. The violent reimposition of androcratic controls has historically been particularly important in relation to any fundamental alteration in the male-dominator/female-dominated human relations model that is the linchpin of androcracy. In other words, all the historical attempts to elevate the status of women (and with them, "feminine" values) could only be permitted to go so far and no further if the androcratic character of the system was to be maintained. Thus, any fundamental alteration in the subdominant position of women had to be prevented at all costs. This is not to say that the androcratic resistance was not there from the beginning of any period of gylanic upsurge. It obviously was. But what we see again and again in the alternation between more gylanic and more androcratic periods is how, as the gylanic resurgence mounts, so also does the androcratic resistance, with the end result a period of, at least for a time, even more repressive androcratic controls. For example, the Protestant Reformation, with its rebellion against the absolute authority of the church fathers and against the derogation of sexual relations between women and men through the ideal of priestly chastity seemed for a time to promise some improvement in the situation of women. Indeed, some of the progressive Catholic humanists who were forerunners of the Reformation, such as Erasmus and Thomas More, advocated education for women and taught that the "doctrine of Christ casts aside no age, no sex, no fortune or position in life" (Erasmus in the *Paraclesis).* Moreover, the technological changes of the advancing industrial revolution made this an era of social and economic upheaval, when fundamental changes in institutions and roles would have been possible. But in the end there was no real change in either the subordination of women or in the basically hierarchical character of this new institutionalization of Christianity, with Puritanism in fact ushering in a period of punitive androcratic controls. (For an interesting overview of the Reformation, with the focus on women, see Sherrin Marshall Wyntjes's "Women in the Reformation Era," in Bridenthal and Koonz, *Becoming Visible).*

30. David Winter, *The Power Motive* (New York: Free Press, 1973).
31. Ibid., 172.
32. Ibid.
33. Ibid., chaps. 6, 7.
34. Kate Millett, *Sexual Politics* (New York: Doubleday, 1970); Roszak, "The Hard and the Soft," in *Masculine/Feminine,* Betty Roszak and Theodore Roszak, eds. (New York: Harper Colophon, 1969).
35. Millett, *Sexual Politics.*
36. Roszak, "The Hard and the Soft."
37. Ibid., 90.
38. Ibid., see esp. p. 102.
39. Ibid. The first two quotations are from page 92, and the third from page 91.
40. David McClelland, *Power: The Inner Experience* (New York: Irvington, 1975).
41. Ibid., 340.
42. Ibid., 324.
43. Ibid., 320-21.
44. Ibid.
45. Ibid., 319.
46. Jessie Bernard, *The Female World* (New York: Free Press, 1981); Carol Gilligan, *In a Different Voice* (Cambridge: Harvard University Press, 1982); Jean Baker Miller, *Toward a New Psychology of Women* (Boston: Beacon Press, 1976).
47. Miller, *Toward a New Psychology of Women; Women and Power.*
48. Bernard, *The Female World.*
49. Gilligan, *in a Different Voice.*
50. Lynn White, Jr., *Medieval Technology and Social Change* (New York: Oxford University Press, 1962), p. V.
51. Beard, *Woman as a Force in History.*
52. Ibid., 255, 323-29.
53. Ibid., 312.
54. Davis, *The First Sex.*
55. See, e.g., Bridenthal and Koonz, eds., *Becoming Visible;* Elise Boulding, *The Underside of History* (Boulder, CO: Westview Press, 1976); Nancy Cott and Elizabeth Pleck, eds., *A Heritage of Her Own* (New York: Simon & Schuster, 1979); Nawal El Sadawii, *The Hidden Face of Eve: Women in the Arab World* (London: ZED Press, 1980); Gerda Lerner, *The Majority Finds its Past: Placing Women in History* (New York: Oxford University Press, 1979); La Frances Rodgers-Rose, ed., *The Black Woman* (Beverly Hills, CA: Sage, 1980); Martha Vicinus, ed., *Suffer and Be Still: Women in the Victorian Age* (Bloomington, IN: Indiana University Press, 1972); Susan Mosher Stuard, ed., *Women in Medieval Society* (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1976); Tsultrim Alione, *Women of Wisdom* (London: Routledge & Kegan Paul, 1984); Marilyn French, *Beyond Power: On Women, Men, and Morals* (New York: Ballantine, 1985); Carl Degler, *At Odds: Women and the Family in America from the Revolution to the Present* (New York: Oxford University Press, 1980); Lester A. Kirkendall and Arthur E. Gravatt, eds.,
Marriage and the Family in the Year 2020 (Buffalo: Prometheus Books, 1984), to name but a few examining the fluctuating status of women in different times and places.
56. Charles Fourier, quoted in Sheila Rowbotham, *Women, Resistance and Revolution* (New York: Vintage, 1974), 51.
57. See, e.g., Eleanor Flexner, *A Century of Struggle* (Cambridge: Belknap Press of Harvard University Press, 1959).

58. Ibid. See also Boulding, *The Underside of History;* Carol Hymowitz and Michele Weiss-man, eds., *A History of Women in America* (New York: Bantam, 1978); Ruth Brim, *Contributions of Women: Social Reform* (Minneapolis: Dillon, 1977).
59. See, e.g., Riane Eisler, "Women and Peace," *Women Speaking* 5 (October—December 1982): 16-18; Boulding, *The Underside of History.* The historian Gerda Lerner points out that "historical interpretation of the community-building of women is urgently needed" *(The Majority Finds its Past,* 165—67).
60. For an excellent discussion of Christine de Pisan's *Book of the City of Ladies* in this context, see Joan Kelly, "Early Feminist Theory and the *Querelles des Femmes,* 1400— 1789," *Signs* 8 (Autumn 1982): 4—28.
61. See, e.g., *Take Back the Night,* Laura Lederer, ed. (New York: William Morrow, 1980).
62. Roszak, "The Hard and the Soft."
63. See, e.g., Caryl Jacobs, "Patterns of Violence: A Feminist Perspective on the Regulation of Pornography," *Harvard Women's Law Journal* 7 (1984): 5—55, also citing FBI figures reporting that the number of rapes committed in the United States increased by over 95 percent during the 1960s. Even making allowance for increased reporting of rapes by women, this indicates an enormous increase. The increase of pornography equating sexual pleasure with violence against women (reflecting the androcratic resistance to the women's liberation movement) has coincided with this rise.
64. See, e.g., Riane Eisler "Violence and Male Dominance: The Ticking Time Bomb," *Humanities in Society 7* (Winter—Spring, 1984): 3—18; Eisler and Loye, "Peace and Feminist Theory: New Directions," *Bulletin of Peace Proposals,* 1986, no. 1.
65. Although there are many unprecedented aspects to the modern women's movement, it is a mistake to think that women have never before vigorously challenged male dominance. Ancient stories about Medusa and the Amazons indicate their rebellion has very deep roots. But as Dale Spender writes, the androcratic system has systematically erased these attempts at self-assertion and rebellion, so that every women is left with the feeling there is something abnormal (and unheard of) about such acts—and even such thoughts *(Feminist Theorists: Three Centuries of Key Women Thinkers* [New York: Pantheon, 19831).

CHAPTER 11: Breaking Free (pp. 156-171)

1. Henry Aiken, *The Age of Ideology* (New York: Mentor, 1956).
2. Alvin Toffler, *The Third Wave* (New York: Bantam, 1980).
3. Riane Eisler and David Loye, *Breaking Free* (forthcoming).
4. Abbé de Saint-Pierre, quoted in Mary Beard, *Woman as a Force in History* (New York: Macmillan, 1946), 330.
5. Ibid., 150. The Levellers, a sect that supported the Cromwellian revolution that overthrew the British monarchy in 1649, had also held that "by naturall birth all men are equally and alike born to like propriety lproperty], liberty, and freedom.., every man by nature being a King, Priest, and Prophet in his own naturall circuite and compasse."
6. Jean Jacques Rousseau, *The Social Contract* (New York: Hafner Press, 1954).
7. Mary Wollstonecraft, "A Vindication of the Rights of Woman," in *Feminism: The Essential Historical Writings,* Miriam Schneir, ed. (New York: Vintage Books, 1972), 6—16.
8. For Comte, see Aiken, *The Age of Ideology,* 128. For Mill and Marx, see Alburey Castell, *An Introduction to Modern Philosophy* (New York: Macmillan, 1946), 455, 535.
9. Ronald Fletcher, "The Making of the Modern Family," in *The Family and Its Future,* Katherine Elliott, ed. (London: J & A Churchill, 1970), 183.
10. Eandolph Trumbach, *The Rise of the Egalitarian Family: Androcratic Kinship and Domestic*

Relations (New York: Academic Press, 1978).
11. See, e.g., Max Weber, *The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism* (London: Allen & Unwin, 1930); and R. H. Tawney, *Religion and the Rise of Capitalism* (New York: Harcourt Brace, 1926).
12. See, e.g., Robert Heilbroner, *The Worldly Philosophers* (New York: Simon & Schuster,1961).
13. George Gilder, *Wealth and Poverty* (New York: Basic Books, 1981).
14. See chapter on Saint-Simon in Timothy Raison, ed., *The Founding Fathers of Sociology* (Baltimore: Peguin Books, 1969); discussion on Charles Fourier in Heilbroner, *The Worldly Philosophers;* Karl Marx, *Das Kapital.*
15. Frederick Engels, *The Origin of the Family, Private Property, and the State* (New York: International Publishers, 1972), 58, 50.
16. Sheila Rowbotham, *Women, Resistance and Revolution* (New York: Vintage, 1974); Kate Millett, *Sexual Politics* (New York: Doubleday, 1970); Riane Eisler and David Loye, "The 'Failure' of Liberalism: A Reassessment of Idology from a New Feminine-Masculine Perspective," *Political Psychology* 4 (1983): 375—91; Eisler and Loye, *Breaking Free.*
17. Leon Trotsky, *The Revolution Betrayed,* trans. Max Eastman (New York: Merit, 1965), Trotsky points out, "You cannot 'abolish' the family, you have to replace it." (145).
18. See, e.g., Dale Spender, ed., *Feminist Theorists: Three Centuries of Key Women Thinkers* (New York: Pantheon, 1983); Schneir, ed., *Feminism.*
19. Ellen Carol Du Bois, ed., *Elizabeth Cady Stanton, Susan B. Anthony: Correspondence, Writings, Speeches* (New York: Schocken, 1981), 29.
20. See Castell, 421—52, 123—41, 321—36.
21. Ibid., 340.
22. Ibid. Quotations from Nietzsche (in order) from pp. 358-59, 352, 353; Adolf Hitler, *Mein Kampf* (Boston: Houghton Mifflin, 1962).
23. See, e.g., Bertram Gross, *Friendly Fascism* (Boston: South End Press, 1980); *Liberty* 79 (July—Aug. 1984) and 80 (Nov—Dec. 1985); Eugen Weber, *The Nationalist Revival in France: 1905—1914* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1959); Riane Eisler, "Human Rights: The Unfinished Struggle," *International Journal of Women's Studies* 6 (September/October 1983): 326-35; Riane Eisler, "The Human Life Amendment and the Future of Human Life," *The Humanist* 41 (September/October 1981): 13-19; Alan Crawford, *Thunder on the Right* (New York: Pantheon Books, 1980).
24. See, e.g., Riane Eisler, "Women's Rights and Human Rights," *The Humanist* 40 (November/December 1980): 4—9; Eisler and Loye, "The 'Failure' of Liberalism"; Edward L. Ericson, *American Freedom and the Radical Right* (New York: Frederick Ungar, 1982). See also *Liberty* 79 (July/August 1984).
25. Fred Brenner, "Khomeini's Dream of an Islamic Republic," *Liberty* 74 (July—Aug. 1979): 11—13.
26. Ibid., 12.
27. *Atlas World Press Review,* September 1979.
28. Brenner, "Khomeini's Dream of an Islamic Republic."
29. *Women's International Network News* 9 (Autumn 1983): 42. These women are not the first Baha'i to die for their faith, which espouses the equality of men and women. Tahiri, one of the original disciples of the Bab (who founded the Baha'i faith) went to her death proclaiming, "You may kill me as soon as you like, but you cannot stop the emancipation of women" (quoted in John Huddleston, *The Earth Is But One Country* [London: Baha'i Publishing Trust, 1976], 154).
30. This will be examined in depth in Eisler and Loye, *Breaking Free.* See also notes 23 and 24 above.

31. This includes women as well as men, so that women will not only accept their own domination, but will support men's acts of violence against others. This is examined in Eisler and Loye, *Breaking Free.*
32. See e.g., Wilma Scott Heide, *Feminism for the Health of It* (Buffalo: Margaretdaughters Press, 1985); Mary Daly, *Gyn/Ecology: The Metaethics of Radical Feminism* (Boston: Beacon Press, 1978); Adrienne Rich, *Of Woman Born* (New York: Bantam, 1976); Sonia Johnson, *From Housewifr to Heretic* (Garden City, NY: Anchor Doubleday, 1983). *Breaking Free,* by Riane Eisler and David Loye, analyzes the dynamics that lie behind the relation between male dominance and warfare in depth, focusing on contemporary history. Here a distinction between warlike societies and times of war should be noted. That the status of women tends to be generally low in warlike societies does not necessarily mean that the position of women always declines during periods of warfare. In fact, there are some situations in which the absence of men in wars produces a temporary improvement in the status of women, who then get the opportunity to take over some of the more highly valued "men's work." Examples are parts of feudal Europe when the men left on the Crusades and parts of the United States during World War II. But the crux is that the greater independence and status of women is gained only for a temporary period. Since there is no rise in the valuation of women and "feminine" traits such as compassion, caring, and nonviolence, the women are again relegated to "women's work" and subservience when the men return—and the system continues to be male-dominated and warlike.
33. New Paradigm Symposium, Esalen Institute, Big Sur, California, Nov. 29—Dec. 4, 1985.
34. See, e.g., John Platt, "Women's Roles and the Great World Transformation," *Futures* 7 (October 1975); David Loye, "Men at the U.N. Women's Conference," *The Humanist* 45 (November/December 1985). Robert Jungk, one of the "fathers" of the European peace movement, has also actively supported the greater participation of women in politics, recognizing this as a prerequisite for peace.
35. *The Promise of World Peace* (Haifa: Baha'i World Center, 1985), 11—12.
36. See e.g., Heide, *Feminism for the Health of It;* Fran Hosken, *The Hosken Report: Genital and Sexual Mutilation of Females* (Lexington, MA: Women's International Network News, 1979); Helen Caldicott, *Nuclear Madness* (New York: Bantam Books, 1980); Pam McAllister, ed., *Reweaving the Web of Life: Feminism and Nonviolence* (Philadelphia: New Society Publishers, 1982); Charlene Spretnak, ed., *The Politics of Women's Spirituality* (New York: Doubleday Anchor, 1982); Elizabeth Dodson-Gray, *Green Paradise Lost* (Wellesley, MA: Roundtable Press, 1979); Hilkka Pietila, "Tomorrow Begins Today," ICDA/ISIS Workshop in Forum, Nairobi, 1985.
37. See, e.g., Abida Khanum, *The Black-Eyed Houri: Women in the Moslem World* (work in progress); Susan Griffin, *Women in Nature* (New York: Harper Colophon Books, 1978); Paula Gunn Allen, *The Woman Who Owned the Shadows* (San Francisco: Spinster's Ink, 1983); Jean O'Barr, *Third World Women: Factors in Their Changing Status* (Durham, NC: Duke University Center for International Studies, 1976); Judy Chicago, *The Dinner Party* (Garden City, NY: Doubleday, 1979); Alice Walker, *The Color Purple* (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1982); Rosemary Radford Ruether, ed., *Religion and Sexism: Images of Women in Jewish and Christian Traditions* (New York: Simon & Schuster, 1974); Evelyn Fox Keller, *A Feeling for the Organism: The Life and Work of Barbara McClintock* (San Francisco: W. H. Freeman, 1983).
38. An excellent work on this subject is Fritj of Capra and Charlene Spretnak, *Green Politics* (New York: Dutton, 1984).
39. As the futurist Stuart Conger points out, in the same way that paper and pen, buggies and airplanes, or abacuses and computers are technological inventions, the institutions we take for

granted, like courts of law, schools, and churches are social inventions. All are products of the human mind *(Social Inventions* [Prince Albert, Saskatchewan: Saskatchewan Newstart Incorporated, 1970]).

CHAPTER 12: The Breakdown of Evolution (pp. 172—184)

1. Norbert Wiener, *The Human Use of Human Beings* (New York: Avon, 1950, 1967), see esp. chaps. 2—3.
2. As Wiener writes from his systems perspective, "Cybernetics takes the view that the structure of the machine or of the organism is an index of the performance that may be expected from it. ... It is as completely natural for a human society to be based on learning as for an ant society to be based on an inherited pattern" (Ibid., 79, 81). Or, as Ashley Montagu has extensively documented, the traits that characterize our species—and make it unique—are our great flexibility and thus our capacity for inventiveness. See particularly Ashley Montagu, *The Direction of Human Development* (New York: Harper, 1955); *On Being Human,* 2d ed. (New York: DuttonfHawthorn Books, 1966); *Growing Young* (New York: McGraw-Hill, 1981); *Touching,* 3d ed. (New York: Harper & Row, 1986).
3. Thus Wiener writes that "the orderly state of permanently allotted functions" is *not* congruent with the structure of the human organism or with "the irreversible movement toward a contingent future which is the true condition of human life" —much less with a democratic form of social organization *(Human Use of Human Beings,* 70— 71).
4. Ibid., 71, chap. 3.
5. See, e.g., Edward Cornish, *The Study of the Future* (Washington, D.C.: The World Future Society, 1977).
6. See, e.g., Mihajlo Mesarovic and Eduard Pestel, *Mankind at the Turning Point* (New York: Dutton, 1974); *The Global 2000 Report to the President* (Washington, D.C.: U.S. Council on Environmental Quality, U.S. Department of State, 1980); Ervin Laszlo, "The Crucial Epoch," *Futures* 17 (Feb. 1985): 2—23; William Neufeld, "Five Potential Crises," *The Futurist* 18 (April 1984).
7. *The Global* 2000 *Report to the President,* 3.
8. Ibid., 2—3.
9. Ruth Sivard, *World Military and Social Expenditures 1983* (Washington, D.C.: World Priorities, 1983), 26.
10. Ibid., 26.
11. *The Global 2000 Report to the President,* 1, 26. There have been projections that population growth will level off. But as Jonas Salk points out in *World Population and Human Values: A New Reality* (New York: Harper & Row, 1981), for this to be achieved in a humane way will require effective human intervention.
12. During the decade of 1974 to 1984 alone, the number of people on earth increased by 770 million, to 4.75 billion. The World Bank estimates that in 2025, global population could nearly double, to about 8.3 billion, and that out of that total, about 7 billion will be residents of the undercapitalized, undernourished Third World *(Time,* 6 August, 1984, 24). The most alarming projections are for the African continent, where population is now *doubling* every twenty-three years, making the continent's future, in the words of the Economic Commission for Africa, "a nightmare" (ZPG *Reporter,* 16 [March/April 1984]: 3).
13. Mesarovic and Pestel, *Mankind at the Turning Point,* 72.
14. See, e.g., Lester Brown, "A Harvest of Neglect: The World's Declining Croplands," *The Futurist* 13 (April 1979): 141—52; Lester Brown, *State of the World Nineteen Eighty Five* (New York: Norton, 1985); "World Population Growth and Global Security," *Population,*

Sept. 1983; Stephen D. Mumford, *American Democracy and the Vatican: Population Growth and National Security* (Amherst, NY: Humanist Press, 1985).

15. The U.S. position paper dated May 30, 1984, prepared for the Mexico City population conference, stated, "Population growth is, of itself, a neutral phenomenon. It is not necessarily good or ill." To the astonishment of economists, it further asserted, "The relation between population growth and economic development is not a negative one (Draft of U.S. position paper prepared by White House Office of Policy Development and the National Security Council, reprinted in *ZPG Reporter* 16 (May/June 1984): 3). The credibility of these statements was frontally challenged by the World Bank's *World Development Report,* released in July of 1984. This 286-page document pointed out that "in some countries development may not be possible at all unless slower population growth can be achieved soon." It also declared that the economic advancement of the world's poorer nations will be drastically held back as a result of population growth, and that increased family planning and funding are essential *(ZPG Reporter* 16 (July/August 1984): 2). The consensus of most population experts is that the U.S. position and its criticism of family planning and population control efforts was dictated by ideological motives. The ICP World Plan of Action, adopted at the Mexico City conference, also stressed that population is "a fundamental element in development planning," and that "priority should be given to action programmes integrating all essential population and development factors" *(ZPG Reporter* 16 (July/August 1984): 4).
16. See, e.g., Riane Eisler, "Thrusting Women Back to Their 1900 Roles," *The Humanist* 42 (March/April 1982); "The Human Rights Amendment and the Future of Human Life," *The Humanist* 41 (Sept./Oct. 1981).
17. *National Now Times,* Jan/Feb. 1985, 5.
18. See, e.g., Riane Eisler, "Population: Women's Realities, Women's Choices," *Congressional Record,* 98th Cong., 2d sess., 1984.
19. Rafael M. Salas, *The State of World Population 1985: Population and Women,* available from Information Division, UNFPA, 220 E. 42nd St. New York, NY 10017.
20. As Dr. Esther Boohene, Coordinator of Zimbabwe's National Child Spacing and Fertility Association, stressed, reproductive freedom is not a reality for most African women, who still "must have the permission of their husbands" to practice birth control. *(Popline* 7 [August 1985]: 2). Through interviews with Third World women, Perdita Huston's *Third World Women Speak Out* (New York: Praeger, 1979), provides dramatic insight into this problem.
21. See, e.g., *Draper Fund Report No. 9: Improving the Status of Women* (Washington, D.C. Oct. 1980); Kathleen Newland, *Women and Population Growth* (Washington, D.C.: Worldwatch Paper 16, Dec. 1977); Robert McNamara, *Accelerating Population Stabilization Through Social and Economic Progress* Development Paper 24 (Washington, D.C.: Overseas Development Council, 1977).
22. See, e.g., Julian L. Simon and Herman Kahn, eds., *The Resourceful Earth: A Response to Global 2000* (New York: Basil Blackwell, 1984). Simon's argument is that the earth can comfortably support twice the present global population, and more: in fact, since human ingenuity is essential to creating the kind of future we want, more people are an asset rather than a problem. Simon also argues that population will stabilize naturally as the benefits of material progress are more widely shared throughout the world. But as for how this is to happen, he argues that no fundamental changes are necessary. Presumably this too will happen naturally through continued economic growth—a welcome message for the Heritage Foundation's wealthy business supporters.
23. Ibid. See also Herman Kahn: "The Unthinkable Optimist," *The Futurist* 9 (Dec. 1975): 286, in which Kahn concedes that, despite his great optimism about the future, there will be tragedy, the most likely being widespread starvation.

24. See; e.g., Julian Simon, "Life on Earth Is Getting Better, Not Worse," *The Futurist* 17 (August 1983): 7—15. See Lindsey Grant, "The Cornucopian Fallacies: The Myth of Perpetual Growth," *The Futurist* 17 (August 1983): 16-23; and Herman Daly, "Ultimate Confusion: The Economics of Julian Simon," *Futures* 17 (Oct. 1985): 446—50 for some searing critiques of this view.
25. Sivard, *World Military and Social Expenditures 1983*, 5.
26. See notes 22, 23, and 24. For another critique of the position that economic growth is the answer, see Gita Sen. with Caren Grown. *Development, Crisis, and Alternative Visions: Third World Women's Perspectives* (New Delhi: Dawn, 1985). Addressing some of the structural roots of hunger and poverty, this approach looks at the problem of poverty from the perspective of those most directly affected: Third World women.
27. See, e.g., *State of the World's Women 1985* (compiled for the United Nations by New Internationalist Publications, Oxford, U.K.); Riane Eisler, "The Global Impact of Sexual Equality," *The Humanist* 41 (May/June 1981); Barbara Rogers, *The Domestication of Women* (New York: St. Martin's, 1979).
28. See, e.g., *Disadvantaged Women and Their Children*, U.S. Commission on Civil Rights, May 1983; Karin Stallard, Barbara Ehrenreich, and Holly Sklar, *Poverty in the American Dream: Women and Children First* (Boston: South End Press, 1983); *Women in Poverty*, National Advisory Council on Economic Opportunity, Final Report, September 1981; *A Women's Rights Agenda for the States*, Conference on Alternative State and Local Politics, Washington, D.C., 1984.
29. The result of over a decade of unprecedented governmental and nongovernmental studies coördinated by the United Nations are summarized in *The State of the World's Women 1985*. It reports that even though "most women work a double day" and "grow around half the world's food," they "own hardly any land, find it difficult to get loans," "are concentrated in the lowest-paid occupations," and "still earn less than three quarters of the wages of men doing similar work" (p. 1).
30. That women are not only the mass of the world's poor, but also the majority of the world's hungry is now being extensively documented. This has in fact long been implicitly recognized, as for example in Hugh Downs's UNICEF Appeal Letter of January 1981, in which he wrote that "in Ethiopia most of the five million victims of drought and civil war are mothers and children."
31. See, e.g., June Turner, ed., *Latin American Women: The Meek Speak Out* (Silver Springs, MD: International Educational Development, 1981); and Huston, *Third World Women Speak Out*.
32. For example, in 1982 the U.S. Agency for International Development (AID) only allocated 4 percent of its development aid to programs for women (Ruth Sivard, *Women.., a world survey, 1985* ~Washington, D.C.: World Priorities], 17).
33. See, e.g., Barbara Bergmann, "The Share of Women and Men in the Economic Support of Children," *Human Rights Quarterly* 3 (Spring 1981), on the poverty caused by the failure of American men to pay child support.
34. See, e.g., *Law and the Status of Women: An International Symposium* (New York: U.N. Centre for Social Development & Humanitarian Affairs, 1977), for specific data on how, according to traditional as well as modern legal codes, in many African societies a man has no obligation, legal or otherwise, to take care of his wife and children. See also interview with Fran Hosken, editor of *Women's International News*, discussing this problem in Riane Eisler and David Loye, "Fran Hosken: Global Humanitarian," *The Humanist*, September/October 1982.
35. See, e.g., *State of the World's Women 1985; Review and Appraisal: Health and Nutrition,*

World Conference to Review and Appraise the Achievements of the U.N. Decade for Women, A/Conf. 116/5/Add. 3; Rogers, *The Domestication of Women;* Sivard, *Women ... a world survey.*

36. Sivard, *Women . .. a world survey,* 25.
37. Jacques Ellul, *The Technological Society* (New York: Knopf, 1964).
38. See, e.g., Herman Kahn and Anthony Weiner, *The Year 2000* (New York: Macmillan, 1967), 189.
39. See, e.g., Hannah Arendt, *The Origins of Totalitarianism* (New York: Meridian Books, 1958); Robert A. Brady, *The Spirit and Structure of German Fascism* (New York: Viking, 1937); Ernst Nolte, *The Faces of Fascism* (London: Trinity Press, 1965); George Mosse, *Nazi Culture* (New York: Grosset & Dunlap, 1966).
40. Lewis Mumford, *The Myth of the Machine: Technics and Human Development* (New York: Harcourt, Brace & World, 1966).
41. The analysis of the androcratic character of Hitler's Germany and Stalin's Russia will be developed in Riane Eisler and David Loye, *Breaking Free.*
42. For a vivid picture of these medieval events, see Marion Meade, *Eleanor of Aquitaine* (New York: Hawthorn Books, 1977). A fascinating commonality between Nazi and medieval church pageants is the way both lasted for many hours and used repetitive chanting as a means of exhausting people, thus making them more suggestible.
43. Alburey Castell, *An Introduction to Modern Philosophy* (New York: Macmillan, 1946), 357.
44. Claudia Koonz, "Mothers in the Fatherland: Women in Nazi Germany," in Renate Bridenthal and Claudia Koonz, eds., *Becoming Visible: Women in European History* (Boston: Houghton Mifflin, 1977), 469.
45. Scholars like Carl Jung and Lewis Mumford, as well as Robert Graves and Mircea Eliade, have brought out the need for balancing our "intuitive" and "rational" perceptions. More recently, in *The Psychology of Consciousness,* Robert Ornstein attempts to understand, and reconcile, these two kinds of perceptions. He notes that the intuitive is characteristically devalued as being of a more "feminine" and thus lower order *(The Psychology of Consciousness* [San Francisco: Freeman, 1972], 51). One of the most powerful cases for the necessity of what he calls the "recovery of participating consciousness is made by Morris Berman in *The Reenchantment of the World* (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1981), who notes that feminism, ecology, and spiritual renewal, which ostensibly have nothing in common politically, appear to be converging toward a common goal. See also Gregory Bateson, *Steps to an Ecology of Mind* (New York: Ballantine, 1972) for another important work on the need for a more holistic view which does not devalue our dreamier, more intuitive, "feminine" side.

CHAPTER 13: Breakthrough in Evolution (pp. 185-203)

1. Frank Herbert, *Dune* (Philadelphia: Chilton, 1965).
2. Charlotte Gilman, *Herland* (New York: Pantheon Books, 1979 reprint).
3. For example, E. 0. Wilson illustrates "aggressive behavior" as a "form of competitive technique" in evolution by citing ant colonies, which he describes as "notoriously aggressive toward one another." See E. 0. Wilson, *Sociobiology: The New Synthesis* (Cambndge: Harvard University Press, 1975), 244. He also uses insect societies to back up the theory of "intrasexual selection," which he writes "is based on aggressive exclusion among the courting sex," stating there is "rampant machismo" among some species of beetles (p. 320). He then goes on to some examples of violent male dominance among insects, for instance the yellow dung fly, where the male forcefully immobilizes the female for long periods of time to

prevent rival males from mounting her (pp. 321—24). In some of his writings Wilson makes a point of distinguishing insect from human behavior. For example, he writes how "the mosquito is an automaton" in which "a sequence of rigid behaviors programmed by the genes" must "unfold swiftly and unerringly from birth," whereas "rather than specifying a single trait, human genes prescribe a *capacity* to develop a certain array of traits" *(On Human Nature* [Cambridge: Harvard University Press, 1978], 56, emphasis in original). But the overall import of what Wilson says is such that it is not hard to see why he is so often cited to prove notions of inevitable male aggression and male dominance. For instance, in explaining his evolutionary theory of "paternal investment," Wilson writes that since "males invest relatively little with each mating effort ... it is to their advantage to tie up as many of the female investments as they can" —which presumably only the most aggressive males can do, thus eliminating the genes of "inferior" males *(Sociobiology,* 324-25). Again, he illustrates the sociobiological theory that evolution favors male aggression with an insect experiment that is a favorite of sociobiologists: the 1948 Bateman experiment involving the mating of ten *Drosophila melanogaster,* a species of fly (p. 325). This is followed by a discussion of how animals are fundamentally polygamous because the mating of the "fittest" males with more than one female gives an evolutionary advantage to the entire species (p. 327). Elsewhere Wilson contends that the "reproductive advantages confered by dominance" extend to our species as well. To substantiate this, he cites one sole example: the Yanomama Indians of Brazil, a highly warlike, rigidly male-dominant tribe where female infanticide is practiced. Here, "the politically dominant males father a disproportionate number of children." And here, Wilson reports, the impression of the anthropologists describing what they termed a type of "natural selection" was that "the polygynous Indians, especially the headmen, tend to be more intelligent than the nonpolygynous." On this basis, Wilson implies that his hypothesis of "dominance advantage in reproductive competition" is founded on "persuasive" evidence (p. 288).

4. See, e.g., Vilmos Csanyi, *General Theory of Evolution* (Budapest: Akademiai Kiado, 1982); Ervin Laszlo, *Evolution: The Grand Synthesis* (Boston: New Science Library, 1987); Niles Eldredge, *Time Frames* (New York: Simon & Schuster, 1985). As Margaret Mead summed it up, "There were options and turning points throughout cosmic and biological evolution. If you look seriously at the process of evolution, it did not have to take the present course. It could have taken many others" ("Our Open Ended Future," *The Next Billion Years,* Lecture Series, UCLA, 1973).
5. Sherwood Washburn, "Tools and Human Evolution," *Scientific American* 203 (Sept. 1960): 62.
6. Ilya Prigogine and Isabel Stengers, *Order out of Chaos* (New York: Bantam, 1984), esp. 160-76; Eldredge, *Time Frames,* 189.
7. Ervin Laszlo, "The Crucial Epoch," *Futures* 17 (Feb. 1985): 16.
8. Jonas Salk, *Anatomy of Reality* (New York: Columbia University Press, 1983), 12—15.
9. See, e.g., Manja Gimbutas, *The Goddesses and Gods of Old Europe, 7000—3500 B.C.* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1982), 91.
10. During the Crusades and the Inquisition, the cross again became associated with killing and torturing. A grisly modern use of the cross as a symbol of death and oppression is its use by the Ku Klux Klan in the United States.
11. See, e.g., *Liberty* 80 (Nov—Dec. 1985): 4, quoting President Ronald Reagan, who on at least eleven occasions has suggested that the end of the world is coming—a sobering statement from a man who could bring this end on.
12. This re-mything is also being countered by the global regression to "fundamentalism" —a code word for androcratic religious mythology. This regression is so strong precisely because

of the enormous movement worldwide to both create new myths and reinterpret old ones in more gylanic ways.

13. There is also a new genre of modern Goddess art. See, e.g., Gloria Orenstein, "Female Creation: The Quest for the Great Mythic Mother," slide lecture; and Gloria Orenstein, "Artist as Shaman," art exhibit at Women's Building Gallery, Los Angeles, California, Nov. 4—28, 1985.
14. It is also significant that the birth of the ecology movement is often said to have been the publication of a book by a woman: Rachel Carson's *The Silent Spring* (Boston: Houghton Mifflin, 1962). As former Secretary of the Interior James Udall wrote, "A great woman has awakened the nation by her forceful account of the danger around us.
15. See, e.g., Francoise D'Eaubonne, *Le Feminism ou La Mort (Feminism or Death)* (Paris: Pierre Horay, 1974); Elizabeth Dodson-Gray, "Psycho-Sexual Roots of Our Ecological Crises" (paper distributed by Roundtable Press, 1974); and Susan Griffin, *Woman and Nature* (New York: Harper Colophon, 1978), for analyses linking our ecological crises and our male and masculine values—dominated system.
16. Shirley McConahay and John McConahay, "Sexual Permissiveness, Sex Role Rigidity, and Violence Across Cultures," *Journal of Social Issues*, 33, (1977), 134—43.
17. This is detailed in Riane Eisler and David Loye, *Breaking Free*. See also Eisler, "Violence and Male Dominance: The Ticking Time Bomb," *Humanities in Society* 7 (Winter! Spring 1984): 3—18.
18. The term *consciousness raising* was a contribution of the women's liberation movement during the late 1960s when women came together in groups to share a growing understanding of how many of their supposedly personal problems are the common social problems of half of humanity in androcratic society.
19. This will be examined in depth in Eisler and Loye, *Breaking Free*, forthcoming.
20. See also Eisler and Loye, "Peace and Feminist Theory: New Directions," *Bulletin of Peace Proposals*, No. 1 (1986); Eisler, "Women and Peace," *Women Speaking* 5 (Oct.— Dec. 1982): 16-18; Eisler, "Our Lost Heritage: New Facts on How God Became a Man," *The Humanist* 45 (May/June 1985): 26-28.
21. For example, veterans of the Vietnam War were in December 1985 leafletting in front of toystores to raise consciousness about how destructive war toys are. As one veteran put it in a TV interview, if they sell Rambo and G1 Joe dolls glamorizing war, they ought to at least make some of them amputees to show what war really is like.
22. *The Futurist*, Feb. 1981, 2.
23. The growth of the international women's movement has been enormously accelerated during the First United Nations Decade for Women (1975-1985), with more and more men also beginning to recognize that there can be no real social or economic development without major changes in the status of women. For instance, at the opening of the End of United Nations for Women Conference held in Nairobi, Kenya, in July 1985, Kenyan president Daniel Arap Moi said that "a twenty-first century of peace, development, and the universal observance of human rights will remain elusive without the full partnership of women." Kenya's vice-president Mwai Kibaki recently spoke of how African women, who now often give birth every thirteen months "are helpless, weak, and miserable in the difficult task of having to cook for and suckle three or four children... with yet another waiting. . . and must be liberated" (Moi and Kibaki quoted in David Loye, "Men at the U.N. Women's Conference," *The Humanist* 45 [Nov.!Dec. 19851: 28, 32).
24. See, e.g., Mary Daly, *Gyn!Ecology: The Metaethics of Radical Feminism* (Boston: Beacon, 1978); and Wilma Scott Heide, *Feminism for the Health of It* (Buffalo: Margaretdaughters Press, 1985).

25. See Louise Bruyn, *Feminism: The Hope for a Future* (Cambridge, MA: American Friends Service Committee, May 1981) for a forceful articulation of what Daly terms the "misogynistic roots of androcratic aggression" *(Gyn/Ecology*, 357). See also Eisler and Loye, "Peace and Feminist Theory: New Directions"; and "Peace and Feminist Thought: New Directions," *World Encyclopedia of Peace*, Laszlo and Yoo, eds. (London: Pergamon Press, 1986).
26. Jean Baker Miller, *Toward a New Psychology of Women* (Boston: Beacon, 1976), 86.
27. Ibid., 69.
28. Ibid. Quotations (in order) from 83, 87, and 69.
29. Ibid. Quotations (in order) from 95 and 83 (emphasis in original).
30. Abraham Maslow, *Toward a Psychology of Being* (New York: Van Nostrand-Reinhold, 1968).
31. Alfred Adler, *Understanding Human Nature* (Greenwich, CT: Fawcett, 1954).
32. Research bearing on the different characteristics of androcratic and gylanic personality types is reported in Eisler and Loye, *Breaking Free* (forthcoming). See also Riane Eisler, "Gylany: The Balanced Future," *Futures* 13 (Dec. 1981): 499—507.
33. Maslow, *Toward a Psychology of Being.*
34. Fritjof Capra, *The Turning Point: Science, Society, and the Rising Culture* (New York: Simon & Schuster, 1982).
35. It is ironic that only now, as male scientists are discovering how limited the traditional "masculine" linear approach is, there is more openness to the idea that both sexes probably have similar innate thinking capabilities. Although there are some biological differences, women's ability to process information more holistically is probably mainly due to sexually stereotyped socialization and roles. For instance, unlike men, women have been socialized to see their lives primarily in terms of relationships and to be more attuned to the needs of others.
36. Salk, *Anatomy of Reality,* 11—19.
37. The definitive work on McClintock is Evelyn Fox Keller, *A Feeling for the Organism: The Life and Work of Barbara McClintock* (San Francisco: W. H. Freeman, 1983).
38. Ashley Montagu, quoted in *Woodstock Times,* August 7, 1986.
39. Hillary Rose, "Hand, Brain, and Heart: A Feminist Epistemology for the Natural Sciences," *Signs* 9 (Autumn 1983): 81.
40. See, e.g., Evelyn Fox Keller, *Reflections on Gender and Science* (New Haven: Yale University Press, 1985); Carol Christ, "Toward a Paradigm Shift in the Academy and in Religious Studies," in Christie Farnham, ed., *Transforming the Consciousness of the Academy* (Bloomington, IN: Indiana University Press, 1987); Rita Arditti, "Feminism and Science," in *Science and Liberation,* Rita Arditti, Pat Brennan, and Steve Cavrak, eds. (Boston: South End Press, 1979).
41. Salk, *Anatomy of Reality,* 22.
42. Miller, *Toward a New Psychology of Women,* chap. 11.
43. Ibid., 130.
44. For an overview of the nineteenth-century feminist struggle for the vote, see Eleanor Flexner, *A Century of Struggle* (Cambridge: Belknap Press of Harvard University Press, 1959). For an overview of the nineteenth-century struggle for access to higher education, see Mabel Newcomer, *A Century of Higher Education for Women* (New York: Harper & Brothers, 1959). Some sources on the twentieth-century women's liberation movement are Vivian Gornick and Barbara Moran, *Woman in Sexist Society* (New York: Basic Books, 1971); Robin Morgan, ed., *Sisterhood Is Powerful* (New York: Random House, 1970); Johnson, *From Housewife to Heretic* (Garden City, NY: Doubleday Anchor, 1983); Riane Eisler, *The*

Equal Rights Handbook (New York: Avon Books, 1978).

45. For a discussion of Gandhi's approach, see Marilyn Ferguson, *The Aquarzan Cons piracy: Personal and Social Transformation in the 1980s* (Los Angeles: Tarcher, 1980), 119—200. See also Louis Fisher, *The Life of Mahatma Gandhi* (New York: Harper & Brothers, 1950).
46. Miller, *Toward a New Psychology of Women*, 116. The distinction between power *for* and power *over* is the distinction symbolized by the Chalice and the Blade.
47. See, e.g., Morgan, ed., *Sisterhood Is Powerful;* Marilyn French, *Beyond Power: On Women, Men, and Morals* (New York: Ballantine, 1985); Adrienne Rich, *Of Woman Born* (New York: Bantam, 1976); Devaki Jam, *Woman's Quest for Power: Five Indian Case Studies* (Ghanziabad: Vikas Publishing House, 1980); Marielouise Janssen-Jurreit, trans. Verne Moberg, *Sexism: The Male Monopoly on History and Thought* (New York: Farrar, Straus & Giroux, 1982).
48. Erich Neumann, *The Great Mother* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1955), 333—34.
49. Alvin Toffler, *The Third Wave* (New York: Bantam, 1980).
50. Ruth Sivard, *World Military and Social Expenditures 1983* (Washington, D.C.: World Priorities, 1983), 5, 26.
51. Willis Harman, "The Coming Transformation," *The Futurist*, Feb. 1977, 5—11.
52. Mihajlo Mesarovic and Eduard Pestel, *Mankind at the Turning Point* (New York: Dutton, 1974), 157.
53. Ibid., 146—47.
54. John McHale, *The Future of the Future* (New York: Ballantine, 1969), 11.
55. See, e.g., T. W. Adorno, Else Frenkel-Brunswik, Daniel Levinson, R. Nevitt Sanford, *The Authoritarian Personality* (New York: Harper & Row, 1950), particularly the work of Frenkel-Brunswik on how individuals brought up in rigidly hierarchic families are particularly prone to substitute material acquisition for the emotionally satisfactory relations they are incapable of having. These social and personality dynamics are examined in depth in Eisler and Loye, *Breaking Free.*
56. John Stuart Mill, *Principles of Political Economy*, W. J. Ashley, ed., new edition of 1909 based on the 7th ed. of 1871 (New York: Longman, Green, 1929). See also Heilbroner, *The Worldly Philosophers* (New York: Simon & Schuster, 1961).
57. *State of the World's Women 21985* (compiled for the United Nations by New Internationalist Publications, Oxford, U.K.), 1.
58. Ibid.
59. Hazel Henderson, *The Politics of the Solar Age* (New York: Anchor Books, 1981), 171.
60. Ibid. Quotations (in order) are from 337, 364, and 373.
61. James Robertson, *The Sane Alternative* (St. Paul, MN: River Basin Publishing, 1979).
62. Joseph Huber, "Social Ecology and Dual Economy," an English excerpt from *Anders Arbeiten—Anders Wirtshaften* (Frankfurt: Fischer-Verlag, 1979).
63. I am indebted to Hillary Rose's "Hand, Brain, and Heart: A Feminist Epistemology for the Natural Sciences" for her forceful articulation of this central point. (See note 39.)
64. This economic transformation is discussed in more depth in Eisler and Loye, *Breaking Free* and Riane Eisler, *Emergence* (work in progress).
65. See Riane Eisler, "Pragmatopia: Women's Utopias and Scenarios for a Possible Future," paper presented at Society for Utopian Studies Eleventh Conference, Asilomar, California, October 2—5, 1986, for the first introduction of the concept of *pragmatopia* (which in Greek means a real place, and a realizable future, as contrasted to the conventional term *utopia*, which literally means "no place.")
66. Since present population growth rates cannot be sustained by the earth's ecological system,

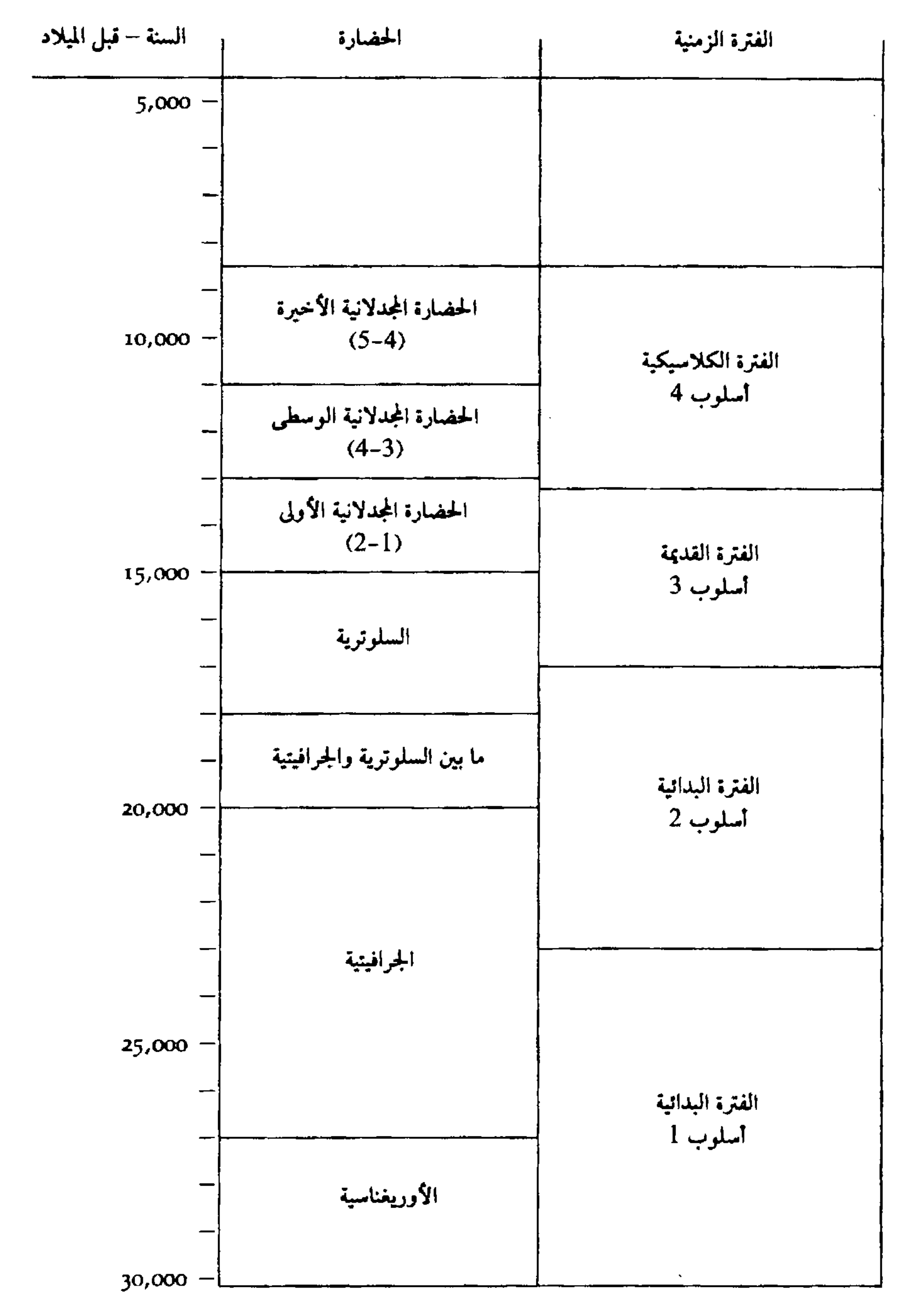
the issue is not whether population growth will stabilize, but how. See, e.g., Jonas Salk, *World Population and Human Values: A New Reality* (New York: Harper & Row, 1981). See also Riane Eisler, "Peace, Population and Women's Roles," in *World Encyclopedia of Peace,* Laszlo and Yoo, eds.

67. This issue will be discussed in more depth in Eisler, *Emergence.* See also D'Eaubonne, *La Feminism ou La Mort;* Elizabeth Dodson-Gray, *Green Paradise Lost* (Wellesley, MA: Roundtable Press, 1979); and other eco-feminist works.
68. See, e.g., *The State of the World's Women 1985;* Barbara Rogers, *The Domestication of Women: Discrimination in Developing Societies* (New York: St. Martin's, 1979); Mayra Buvinic, Nadia Joussef, and Barbara Von Elm, *Women-Headed Households: The Ignored Factor in Development Planning* (Washington, D.C.: International Center for Research on Women, 1978); May Rihani, *Development as if Women Mattered* (Washington, D.C.: Overseas Development Council, 1978); Riane Eisler, "The Global Impact of Sexual Equality," *The Humanist* 41 (May/June 1981).
69. See, e.g., Sivard, *World Military and Social Expenditures 1983;* Riane Eisler and David Loye, "The 'Failure' of Liberalism: A Reassessment of Ideology from a New Feminine-Masculine Perspective," *Political Psychology* 4 (1983): 375-91.
70. See, e.g., Luther Gerlach and Virginia Hine, *People, Power, Change: Movements of Social Transformation* (Indianapolis: Bobbs-Merrill, 1970).
71. See, e.g., E. F. Schumacher, *Small Is Beautiful* (New York: Harper & Row, 1973); Henderson, *The Politics of the Solar Age.*
72. For the androcratic scenario on new birth control technologies see, e.g., Wendy Faulkner and Erik Arnold, eds., *Smothered by Invention: Technology in Women's Lives* (London: Pluto Press, 1985); and Rita Arditti, Renate Duelli Klein, and Shelley Mmden, eds., *Test Tube Women: What Future for Motherhood?* (London: Routledge & Kegan Paul, 1984).
73. For a work exploring some of these possibilities, see Martin Carrioy and Derek Sherer, *Economic Democracy* (New York: Sharpe, 1980).
74. Henderson, *The Politics of the Solar Age,* both quotations from 365.
75. Riane Eisler, "Human Rights: The Unfinished Struggle," *International Journal of Women's Studies* 6 (Sept./Oct. 1983): 326-35.
76. Riane Eisler, *Dissolution: No-Fault Divorce, Marriage, and the Future of Women* (New York: McGraw-Hill, 1977).
77. Mead, "Our Open-Ended Future"; Riane Eisler and David Loye, "Childhood and the Chosen Future," *Journal of Clinical Child Psychology* 9 (Summer 1980).
78. David Loye, *The Sphinx and the Rainbow: Brain, Mind, and Future Vision* (Boston: New Science Library, 1983).



الصورة 1: المواقع الرئيسية التي ظهرت فيها فنون الكهوف في العصر الحجري الأول في أوروبا الغربية

(تم العثور على مواقع أخرى في أوروبا الشرقية)



الصورة 2: التأريخ الذي وضعه أندريه ليروي غورهان لفنون الكهوف في العصر الحجري الأول
ما يقارب 30.000 – 10.000 سنة قبل الميلاد

التواريخ التي اعتمدت على الكربون الإشعاعي مكتوبة بالخط اللاتيني
جميع التواريخ محسوبة مع نصف عمر عام 5730
التواريخ المشكوك بها موضوعة بين هلالين

موقع هاكيلار

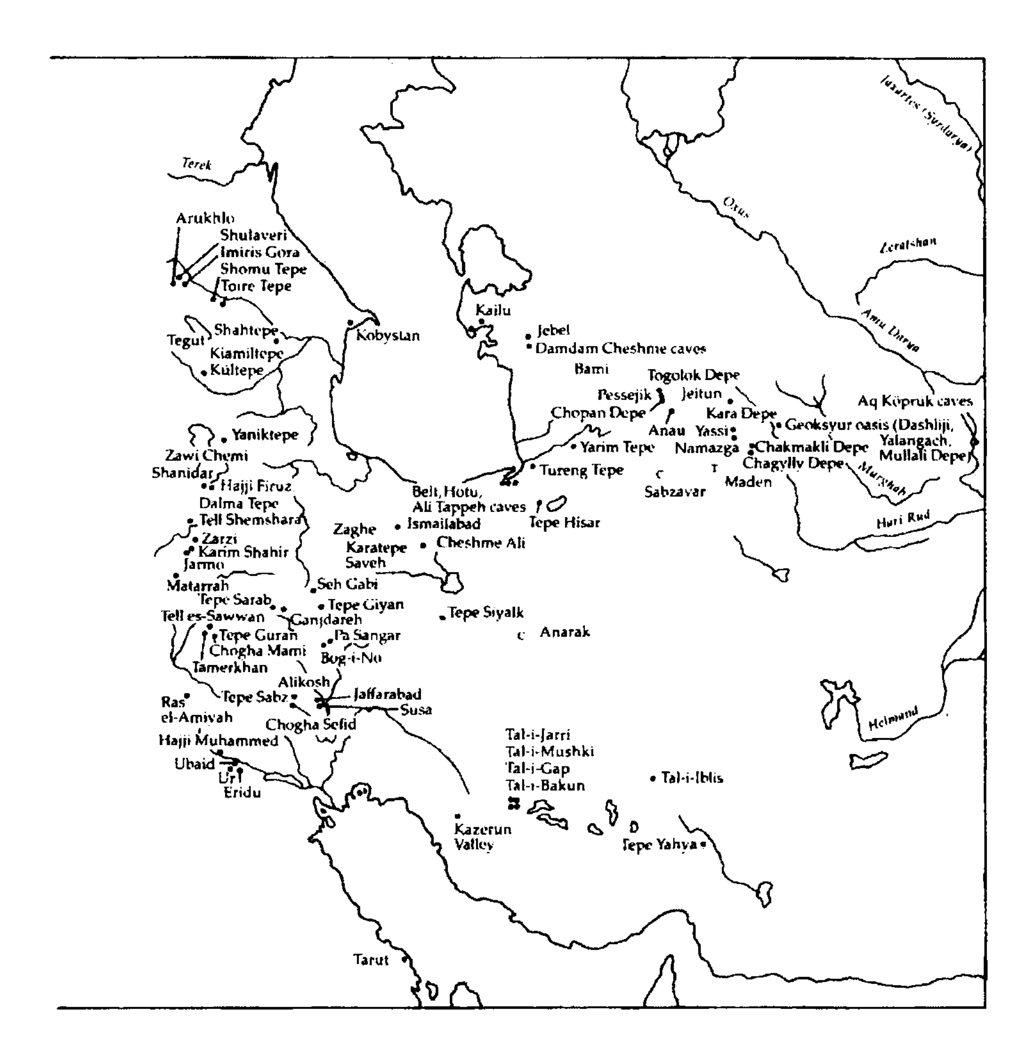
c. 5000 BCE		
	Id	
	–Ic	
	Ia	*5247 ± 119*
c. 5250		
	IIb	
	IIa	*5434 ± 131*
c. 5435		
	III	
	IV	
c. 5500		
	V	
c. 5600		
	VI	*5620 ± 79*
	VII	
	VIII	
	IX	*5614 ± 92* →*5706*
c. 5700		

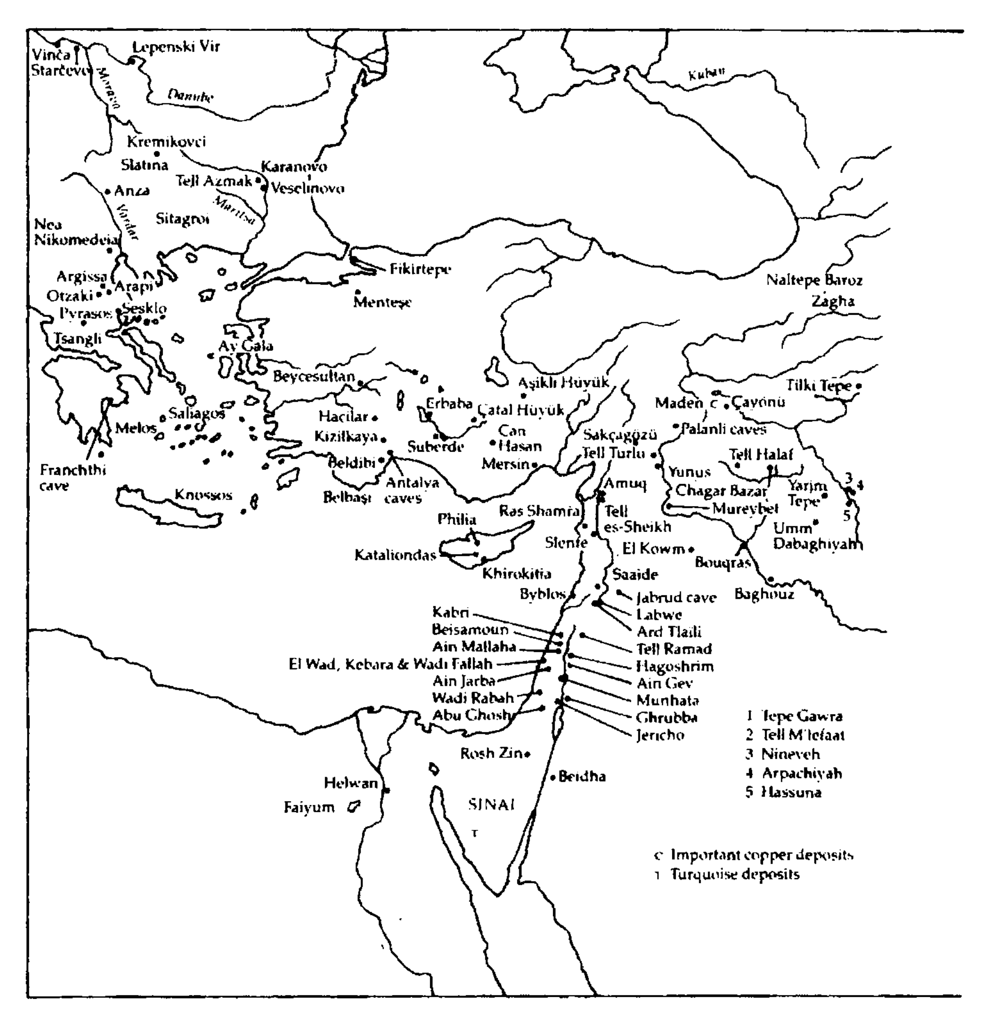
كاتال هويوك

	O		
	I		
c. 5720			
	II	*5797 ± 79*	
c. 5750			
	III	*5807 ± 94*	
c. 5790			
	IV	*(6329 ± 99)*	
c. 5830			
	V	*5920 ± 94*	
c. 5880			
	VI A	*5781 ± 96*	دمار
		5800 ± 93	
		5815 ± 92	بداية
		5850 ± 94	
c. 5950			
	VI B	*5908 ± 93*	
		5986 ± 94	بداية
c. 6050/6070			
	VII	*6200 ± 97 (?)*	
c. 6200			
	VIII		
c. 6280			
	IX	*6486 ± 102*	
c. 6380?			
	X	*6385 ± 101*	
c. 6500			
	أرضيات (لم يوضع لها تاريخ)		

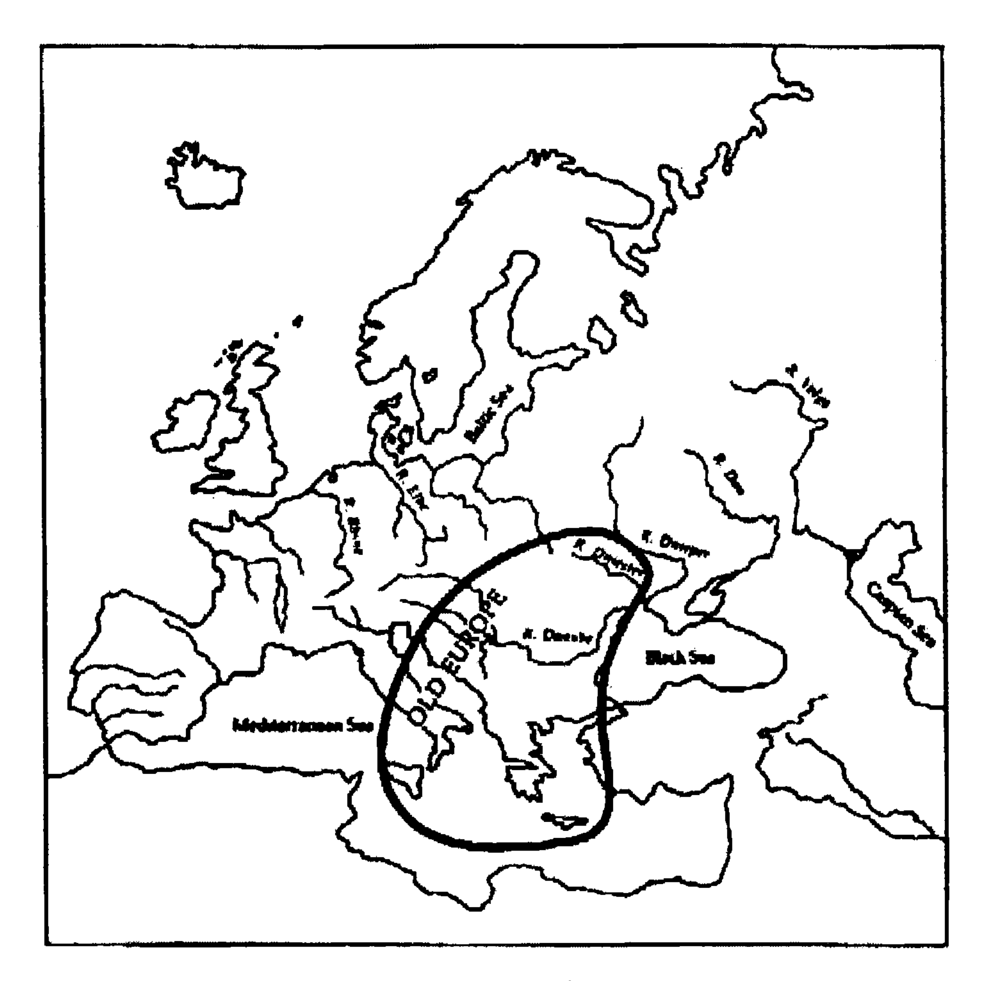
الصورة 3: تأريخ جيمس ميلارت لمواقع هاسيلار وكاتال هويوك

الصفحة تقرأ من الأسفل إلى الأعلى والأرقام الأكبر تشير إلى مستويات أكثر قدماً للحفريات المتعلقة بمستويات التطور الحضاري


Terek
Arukhlo
Shulaveri
Imiris Gora
Shomu Tepe
Toire Tepe
Shahtepe
Tegut
Kiamiltepe
Kültepe
Kobystan
Kailu
Jebel
Damdam Cheshme caves
Bami
Togolok Depe
Pessejik
Jeitun
Chopan Depe
Kara Depe
Anau
Yassi
Namazga
Geoksyur oasis (Dashliji, Yalangach, Mullali Depe)
Chakmakli Depe
Chagylly Depe
Maden
Aq Köpruk caves
Oxus
Zeratshan
Amu Darya
Murghab
Hari Rud
Helmand
Yaniktepe
Zawi Chemi
Shanidar
Hajji Firuz
Dalma Tepe
Tell Shemshara
Zarzi
Karim Shahir
Jarmo
Matarrah
Belt, Hotu, Ali Tappeh caves
Yarim Tepe
Tureng Tepe
Sabzavar
Tepe Hisar
Zaghe
Ismailabad
Karatepe
Saveh
Cheshme Ali
Seh Gabi
Tepe Sarab
Tepe Giyan
Tell es-Sawwan
Ganjdareh
Tepe Siyalk
Anarak
Tepe Guran
Chogha Mami
Pa Sangar
Bog-i-No
Tamerkhan
Alikosh
Jaffarabad
Susa
Tepe Sabz
Ras el-Amiyah
Chogha Sefid
Hajji Muhammed
Ubaid
Ur
Eridu
Tal-i-Jarri
Tal-i-Mushki
Tal-i-Gap
Tal-i-Bakun
Tal-i-Iblis
Kazerun Valley
Tepe Yahya
Tarut



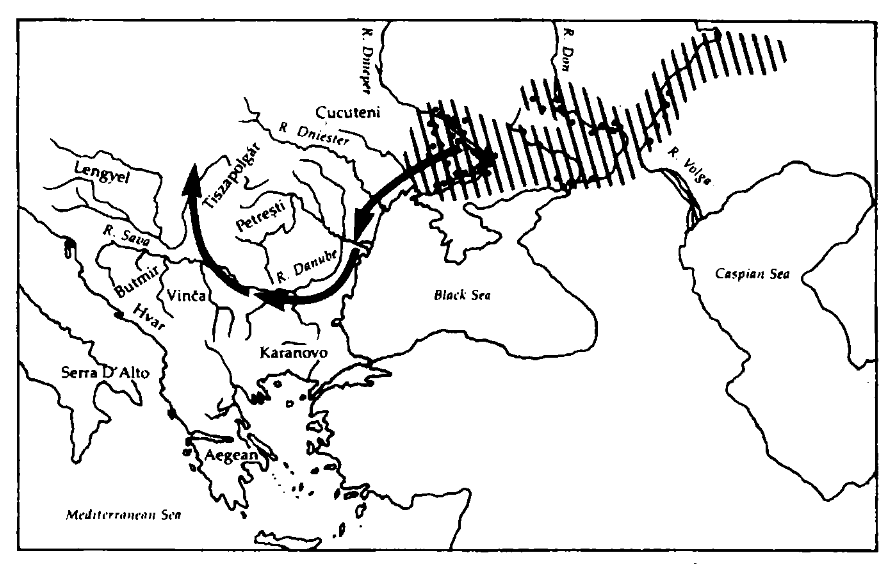
الصورة 4: مواقع الحفريات للعصرين الحجريين الأول القريب والثاني في الشرق الأدنى والمقصود بالعصر الأول القريب هو العصر الانتقالي بين العصر الحجري الأول والعصر الحجري الثاني أي بداية الزراعة



صورة 5: المساحة التقريبية للحضارات الأولى التي نشأت في أوروبا القديمة (حوالي 7000 ق.م إلى 3500 ق.م)

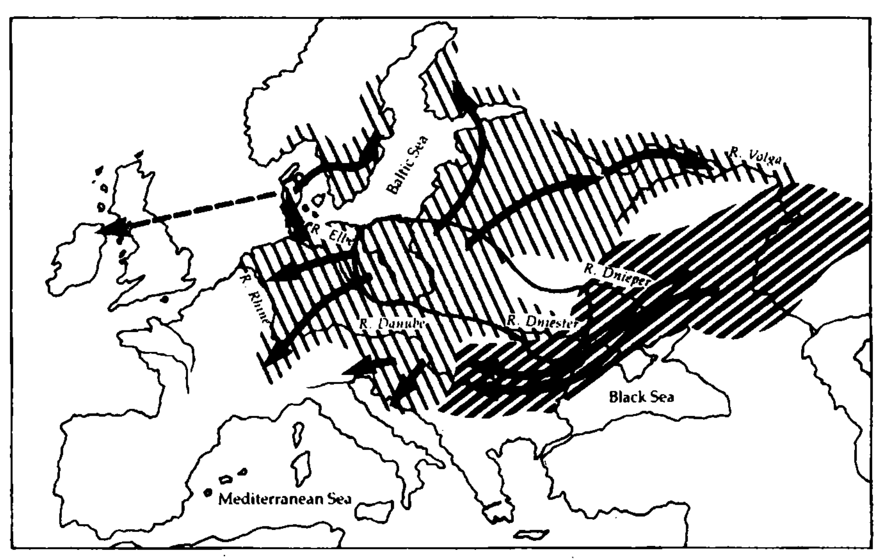
تم إدخال مصطلح أوروبا القديمة للدلالة على الحضارة التي ظهرت في جنوب شرق أوروبا منذ عام 7000 ق.م إلى عـام 3500 ق.م. ولكن يمكننا استخدام المصطلح نفسه ليشمل أوروبا بأكملها قبل غـزوات الشـعوب الهـندية الأوروبـية، بما فيها حضارات غرب أوروبا مثل إيرلندا ومالطا وسردينيا وأجـزاء مـن بريطانيا واسكندنافيا وفرنسا وإسبانيا وإيطاليا منذ الألفية الخامسة وحتى الألفية الثالثة قبل الميلاد.

المصـدر: مأخـوذ عن كتاب ماريجا غيمبوتاس (آلهات وآلهة أوروبا القديمة) (بيركلي ولوس انجليس، مطبعة جامعة كاليفورنيا 1982): 16



الصورة 6: الموجة الأولى موجات غزو الكيرغان ما بين الأعوام 4300-4200 ما قبل الميلاد

تشير الأسهم إلى طرق الغزو الأولى للتوغل الكيرغاني المبكر في حضارات أوروبا القديمة كارانوفا، فينسا، لينجيل، وتيسابولغار



الصورة 7: الموجة الثالثة (الأعوام 3000-2800 قبل الميلاد)

الأسهم والمناطق المظللة تشير إلى التوغلات الأخيرة للكيرغان من المضبات الشرقية المظللة باللون الأسود المعتم ومن الحضارات المهجنة (المناطق المستطيلة في وسط الخريطة)

الخطوط المنقطة تشير إلى الطرق المحتملة لمحو إيرلندا

الصورة 8: التأريخ الذي وضعته ماريجا غيمبوتاس لازدهار حضارة أوروبا القديمة واندثارها (7000 سنة - 2500 سنة قبل الميلاد)

قبل الميلاد	الأحداث الرئيسية
7000-6500:	بداية مرحلة إنتاج الغذاء والاستقرار في حياة القرية، في وديان المناطق الساحلية المطلة على بحر إيجة.
6500-6000:	ازدهار العصر الحجري الحديث، نشوء الصناعات الفخارية في مناطق بحر إيجة والبلقان ومناطق البحر الأدرياتيكي، إضافة إلى زراعة القمح والشعير والبيقة والبازيلاء وتربية الحيوانات الداجنة ما عدا الخيل. ظهور تجمعات قروية كبيرة ومجمعات سكنية ذات بيوت مستطيلة، مبنية من الطين والخشب ولها ساحات. كذلك ظهور المعابد الأولى، والملاحة الساحلية وفي أعماق البحار، وتجارة الرخام والزجاج البركاني الأسود وأصداف الفقاريات.
6000-5500:	انتشار الاقتصاد الزراعي وصولاً إلى حوضي نهر الدانوب الأوسط والأسفل (يوغوسلافيا، المجر، رومانيا) ومن ثم إلى سهل ماريسا في وسط بلغاريا، وظهوره في منطقة دنيستر-بغ.
5500-5000:	انتشار اقتصاد إنتاج الغذاء من وسط أوروبا الشرقية إلى وسط أوروبا نفسها: مورافيا، بوهيميا، جنوبي بولندا، ألمانيا، وهولندا (حضارة الفخار الخطي). كذلك بداية تعدين النحاس في يوغوسلافيا ورومانيا وبلغاريا، وزيادة حجم القرى، ظهور الكتابة لاستخدامها في العبادات الدينية، وبروز حضارات فينسا وتيسا، ولينغيل وبوتمير ودانيلو وكارانوفو.
5000-4500:	ذروة الحضارة الأوروبية القديمة. ازدهار صناعة الخزف والهندسة المعمارية التي شملت بناء المعابد ذات الطابقين. ظهور حضارة كوكوتيني في مولدافيا وغرب أوكرانيا وحضارة بيتريستي في ترانسلفانيا.
4500-4000:	استمرار ازدهار أوروبا القديمة، وانتشار استخدام النحاس والذهب وتقدم التجارة. ظهور المركبات ذات العجلات الطينية الصغيرة والخيول المهجنة التي جلبتها موجة رعاة الهضبات الذين تدفقوا إلى تلك المناطق وتسببوا باندثار حضارات كارانوفو وفينسا وبيتريستي ولينغل.
4000-3500:	بداية الغزوات الكيرغانية، ظهور تغيرات ملحوظة في نمط العيش والسكن والبنية الاجتماعية والاقتصاد والعبادات. انحسار فنون أوروبا القديمة وتوقف صناعة التماثيل والخزف المطلي بالكروم وبناء المعابد. ظهور حضارة سرنافودا المتأثرة بحضارة الكيرغان في أسفل حوض الدانوب وفي دوبروجا.

3500-3000: الموجة الثانية من غزوات الكيرغان القادمين من شمال البحر الأسود، بداية العصر البرونزي، تأسيس أقاليم إنتاج المعادن وتفكك حضارة كوكوتيني. بروز حضارة مختلطة من اليوستافو والغورودسك والفولتستي، وهي حضارة تشكلت من اختلاط الكيرغان بحضارة كوكوتيني. بروز حضارة إيزيرو في بلغاريا وحضارة بادن في الدانوب الأوسط نتيجة الاختلاط والتهجين بين حضارة أوروبا القديمة وعناصر الحضارة الكيرغانية. بروز حضارة أمفورا في شمالي وسط أوروبا.

3000-2500: انتفاضة جديدة عبر أوروبا الشرقية والوسطى تسببت فيها الموجة الثالثة لغزو الكيرغان. تغيرات عرقية في بادن وفوسيدول إلى بوهيميا ووسط ألمانيا والبوسنة وساحل البحر الأدرياتيكي. توغل عميق لجماعات «الكؤوس الجرسية» في أوروبا الغربية وهؤلاء على الأرجح قدموا من الكيرغان الذين استوطنوا أوروبا الوسطى. تكون حضارة جماعات الأدوات المصنوعة من الحبال نتيجة الدمج بين حضارة أمفورا وحضارات الجماعات ذوي الكؤوس الأنبوبية مع عناصر الحضارة الأوروبية الشرقية الجديدة «جامنا»، تبعها انتشار واسع لجماعات الفخاريات المحمولة بالحبال إلى جنوب سكاندينافيا وشرق بحر البلطيق ومناطق نهري الدنيبر الأعلى والفولغا العليا.

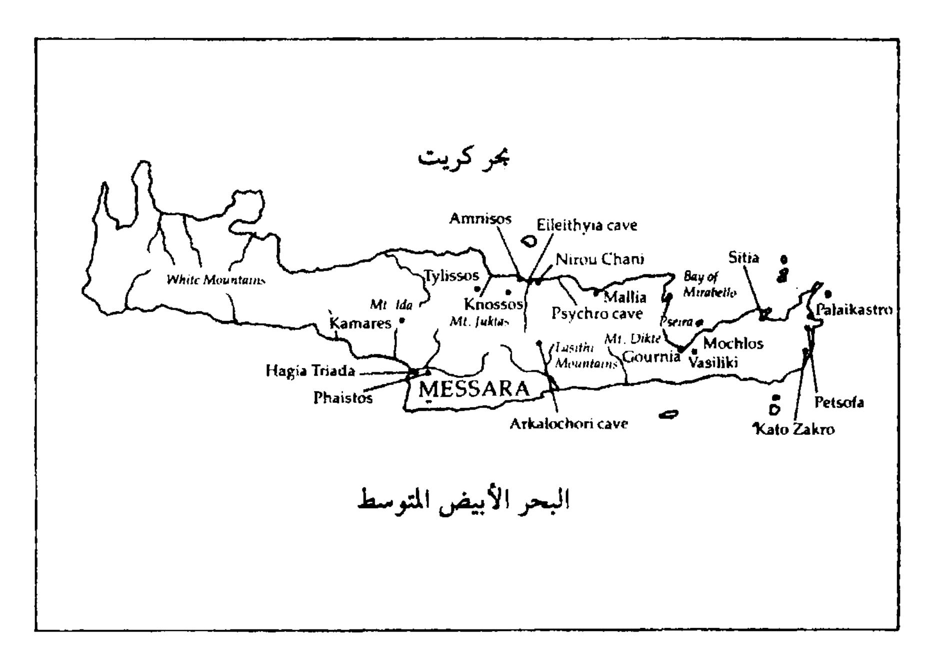
الصورة 9: مقارنة بين حضارتي أوروبا القديمة والكيرغان

	حضارة أوروبا القديمة	حضارة الكيرغان
الاقتصاد	زراعي دون وجود الحصان. اقتصاد قائم على الاستقرار وليس الترحال.	اقتصاد رعوي مع وجود الحصان.
المسكن	تجمعات كبيرة من القرى والبلدات دون وجود قلاع أو تحصينات.	قرى صغيرة ومساكن نصفها تحت سطح الأرض وزعماء يحكمون من قلاعهم وتحصيناتهم.
البنية الاجتماعية	قائمة على المساواة بين البشر، وأمومية.	أبوية ومبنية على حكم الأب.
الإيديولوجية	مسالمة، محبة للفنون عبادة الآلهات.	حربية عبادة الإله الذكر.

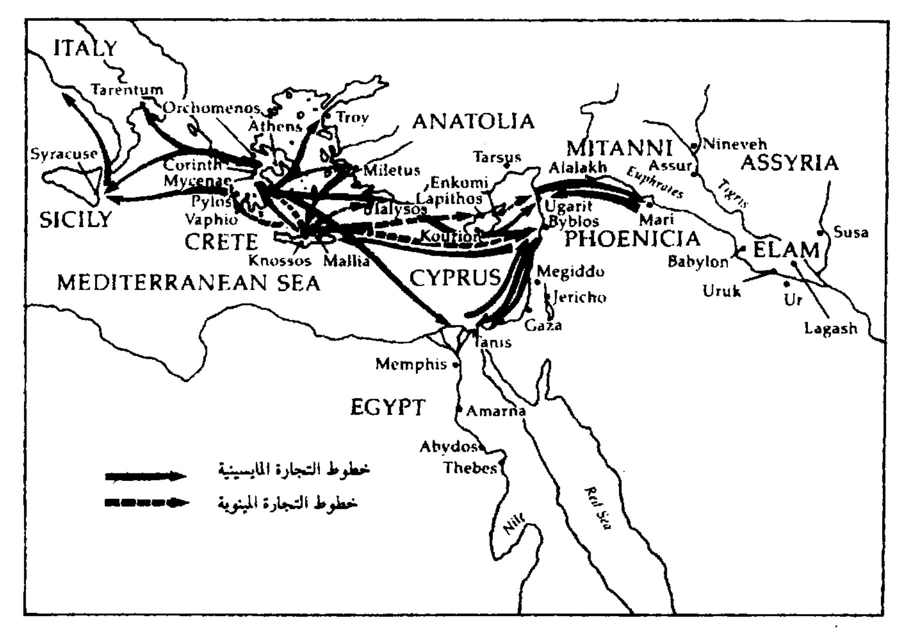
الصورة 10: مقارنة تاريخية بين كريت وغيرها من الحضارات القديمة
تطور حضارة كريت بناءً على تأريخ السير آرثر إيفانز ونيكولاس بلاتون
مقارنات مع مشاهد من حضارات قديمة أخرى (التواريخ تقريبية)

الفترة الزمنية قبل الميلاد	كريت وفق تأريخ بلاتون	كريت وفق تأريخ إيفانز	حضارات أخرى مشاهد مختارة
6000	بواكير العصر الحجري الحديث الأول	بواكير العصر الحجري الحديث	ازدهار كاتال هويوك في الأناضول، وزراعة الرز في تايلاند وتطور المجتمعات الزراعية في أوروبا والشرق الأدنى.
5000	بواكير العصر الحجري الحديث الثاني.	أواسط العصر الحجري الحديث.	استيطان سهوب بلاد ما بين النهرين. تطور المستوطنات الزراعية في مصر. زراعة الذرة في المكسيك.
4000	أواخر العصر الحجري الحديث.	أواخر العصر الحجري الحديث.	تطور الحضارات الدورية في حوض المتوسط. انتشار طرق الأرض المزروعة إلى إفريقيا الوسطى. ظهور أول الفخاريات في الأمريكتين. ظهور أول سلالة حاكمة مصرية.
2600	المرحلة الأولى ما قبل القصور.	بواكير العهد المنيوي الأول.	نمو الحضارات في وادي الأندوس (الهند). قيام أول سلالة حاكمة في أور. بناء هرم خوفو في مصر.
2400	المرحلة الثانية ما قبل القصور.	بواكير العهد المنيوي الثاني.	حكم الأكاديين في سومر. خامس سلالة حاكمة مصرية.
2200	المرحلة الثالث ما قبل القصور.	بواكير العهد المنيوي الثالث.	سابع سلالة حاكمة مصرية. فترة حكم السومريين.
2000	المرحلة الأولى للقصور القديمة.	أواسط العهد المنيوي الأول.	تدجين الأفيال في الهند. ثالث سلالة حاكمة في أور. المملكة الوسطى في مصر.

الفترة الزمنية قبل الميلاد	كريت وفق تأريخ بلاتون	كريت وفق تأريخ إيفانز	حضارات أخرى مشاهد مختارة
1900	المرحلة الثانية للقصور القديمة.	أواسط العهد المنيوي الثاني.	أول سلالة حاكمة في بابل.
1800	المرحلة الثالثة للقصور القديمة.		حمورابي يحكم في بابل.
1700	المرحلة الأولى للقصور الجديدة.	أواسط العهد المنيوي الثالث.	سيطرة الهكسوس في مصر.
1600	المرحلة الثانية للقصور الجديدة.	أواخر العهد المنيوي الأول.	حضارة شائع تتطور في الصين
14500	المرحلة الثالثة للقصور الجديد	أواخر العهد المنيوي الثاني	تمكنت الشعوب التي تتكلم اللغة الآرية من هزيمة الهند.
1400	المرحلة الأولى لما بعد القصور.	أواخر العهد المينوي الثالث.	ظهور الإمبراطورية الحتية.
1320	المرحلة الثانية لما بعد القصور.		ظهور الآشوريين كقوة عسكرية واجتياح قبائل العبرانيين لأرض كنعان.
1260	المرحلة الثالثة لما بعد القصور.		انهيار الإمبراطورية الحتية.
1150	العصر القريب للمينوية	العصر القريب للمنيوية	سقوط إمبراطورية شانغ في الصين. انهيار الحضارة المايسينية في منطقة المتوسط. تكثيف غزوات الآشوريين للشرق الأدنى بقيادة تيغلات – بيليسر الأول.



الصورة 11: المواقع الرئيسة لكريت المنيوية



الصورة: 12: طرق التجارة المنيوية والمايسينية

◆ الكأس المقدّسة وحدّ السكّين

◆ بعض الكتب ، مثل كلمات الوحي ، تفتح الروح أمام إمكانيّات لا يمكن تخيّلها . (الكأس المقدّسة وحدّ السكّين) واحد من هذه الكتب الرائعة الّتي يمكنها أن تغيّرنا وتحدث تحوّلات أساسيّة في العالم . بكلّ الفصاحة العاطفيّة الحميمة ، تبرهن إيسلر أنّ حلم السلام ليس مثالاً طوباويًا مستحيلاً .

إيزابيل الليندي ، مؤلّفة (بيت الأرواح)

◆ لعلّ (الكأس المقدّسة وحدّ السكّين) هي أروع الأعمال الّتي صدرت في زماننا هذا .

لوس أنجلوس ويكلي

◆ أعظم رواية عن لغز الجريمة والتستّر عليها على الإطلاق .

نيو إيج جورنال

◆ كلّ شخص ... ينبغي أن تتاح له الفرصة لقراءتها .

شيكاغو تريبيون

◆ تركيبة إيسلر الرائعة للقراءة ... هي إسهام مهمّ في التاريخ الاجتماعيّ .

ببليشر ويكلي

◆ إنّها جوهرة ... إنّها خليط نادر من التعبير الشاعريّ والموضوعات الجادّة .

جيسي برنارد ، مؤلّفة (مستقبل الزواج والعالم الأنثويّ)

◆ هذه الرواية تكرّس الاعتقاد بقدرة الإنسان على الخير والتعاون في وجه التدمير الشامل .

سان فرانسيسكو بوك ريفيو

◆ من حيث الأهميّة ، لعلّ هذه الرواية أكثر أهميّة من التنقيب عن طروادة ، وحلّ ألغاز الحروف البابليّة .

بروس ويلشاير ، أستاذ الفلسفة في جامعة روتغرز



◆ **ريان إيسلر**

عالمة معروفة عالميًا ، ومؤرّخة وناشطة . تعمل منسّقة لمركز الدراسات التشاركيّة في باسيفيك غروف بكاليفورنيا ، وهي مؤلّفة كتابي (اللذّة المقدّسة) و (طريق الشراكة) .



المملكة الأردنية الهاشمية - عمان / وسط البلد
خلف مطعم القدس / ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٤٦٣٨٦٨٨
فاكس ٤٦٥٧٤٤٥ ◆ منشورات في العام ٢٠٠٧
◆ الغلاف: زهير أبو شايب.